

الكاردينال الأحمر

لا يجوز نشر هذا الكتاب أو أي جزء منه بأي شكل من الأشكال أو نسخ مادته بطريقة الاسترجاع، أو نقله على أي نحو بطريقة إلكترونية أو بالتصوير أو ترجمته إلى أية لغة أخرى دون الحصول على موافقة الناشر والمؤلف مقدماً.

All Rights Reserved. No part of this publication may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted, in any form or by any means, electronic, mechanical, photocopying, recording, or otherwise, without the prior written permission of Bibliomania Ltd.



الكتاب: الكاردينال الأحمر

❖ المؤلف: فاطمة محمد (Jc. charles)

❖ نوع العمل: رواية

❖ الطبعة الأولى 1440 هـ - 2020 م - القاهرة

❖ الناشر: ببليومانيا للنشر والتوزيع - مصر

❖ رقم الإيداع : 2020 / 2470

❖ الترميم الدولي (ISBN): 978-977-6754-96-6

❖ الغلاف: ببليومانيا

❖ تنسيق وإخراج: فريق إعداد ببليومانيا

❖ المدير العام: جمال سليمان

❖ العنوان: عنوان (1): 15 شارع السباق - مول الميريلاند - مصر الجديدة

❖ عنوان (2): 38 شارع عمر المختار - الأميرية - القاهرة

❖ تليفاكس: 002022606104

❖ محمول: 00201210826415 00201065534541 00201208868826

❖ صفحة الدار على موقع فيسبوك: <https://www.facebook.com/bibliomania.eg/>

❖ الموقع الإلكتروني: www.bbibliomania.com

كل ما ورد في هذا الكتاب من أخبار وأحداث وآراء يعبر فقط عن رأي الكاتب، ولا يعبر بالضرورة عن رأي الناشر، ودون أدنى مسؤولية على دار ببليومانيا للنشر والتوزيع



+201065534541

+201208868826



B.com Books: Bibliomania/



B.com: bibliomania.eg/



Insta: books.bibliomania/

ببليومانيا - Books

B.com: groups: Bibliomania:Books/



@BibliomaniaEg

الكاردينال الأحمر

رواية

Jc. charles





www.bibliomania.com

2020

تم بناء أحداث الرواية في بلد خيالي تحت اسم "راشتفيرد"، وكل الأسماء والأماكن المرفقة في الرواية من نسج الخيال، وأي تشابه فيها ليس إلا محض صدفة.



الإهداء

إهداء إلى قطي العزيز (تشارلز)

الفصل الأول

في غمرة من سكون الليل حيث كل شيء يبدو ميت، لا أصوات، ولا احتكاكات، غير نفسي واحد مضطرب ينبع من صبي شاحب الوجه؛ ذهوله مما يراه أوقف كل شيء عن التحرك بالنسبة لفضائه المحكوم من قبل البؤس، فقد كان في حالة سكونٍ فظيعة تترجم الرعب الذي ألحق ارتجافاً ملحوظاً في جسده الهزيل، كأنما روحه من الداخل غير مستقرة! يراقب تشكل مشهدٍ لسقوط ذلك الجسد من أعلى درجٍ متآكل لا يصلح للاستخدامات البشرية، إلا أن حياة الفقر تجبرك وتجردك من التفكير في مسائل ثانوية كضرورة إسراف بعض المال لتصليح درجٍ خشبيّ تشقق أجزاءً منه، كما أجبرته هو على أن يتأقلم مع تلك المشاهد العنيفة والصباح الراعد المجلجل الذي عادة ما يصدر مع رائحةٍ خمرٍ كريهة. تقلبت صفحات تلك المشاهد من التعنيف كثيراً عليه وتعايش معها، لكن هذا المشهد حمل طابعاً جديداً، هذه المرة، سوف يبقى راسخاً في ذهنه طوال حياته؛ لما سيحمله من تغيرٍ جذريٍّ في حياته التي ابتدأت بالإدراك وتمييز في سنٍ مبكرةٍ حملت عقله عبئاً لا يطاق، لم تمر لحظة في طفولته بشكلٍ طبيعي؛ فمصطلح الأمان والحنان شيئان سرقا منه، وتعامل المجتمع مع تلك السرقة البشعة، كما لو أنها شيء اعتيادي. تهاوى جسدها كما تهاوى أوراق الخريف الميتة من أعلى شجرة لتنتهي متدحرجة على تلك الدرجات بسرعة فاقدة قدرته على المراقبة... هدأ بعدها جسدها مرتميّاً على الأرض أمام عينيه على بعد سنتيمترات قليلة، تخرج وجهها المختفي تحت خصال شقراء قاتمة بالدم، وكلما ازداد تدفق الدم وامتداده على الأرض، ازدادت ضربات قلبه بسرعة جنونية. هربت الحروف مهزوزة من بين شفثيه:

"أ... أمي!"

تحت تأثير الذهول، أضحت المسألة أشبه بانفصال جزئيٍّ في داخله، حيث يرى شناعة ولدت حقداً وغضباً كالسم الأسود لطح قلبه وبدأ يكتسحه ببطء، وهو أضعف من أن يُوقف ما حصل مسبقاً، وبين ذعره الخارج عن السيطرة سمع صيحة رجلٍ هستيريةٍ وصريدرجٍ مرع... اقتحمت أجراسٌ صاخبةٌ عقله وبثت أصوات ترددت بصدى عالي أيقظته من هذا الكابوس التعيس، أصبح فيه سجنًا يتوق لتحرره...

تمام الساعة الثانية عشرة. الخامس والعشرين من نوفمبر، دقت أجراس كاتدرائية لاربوس، لتعلن عن انتصاف الليل، رغم ضجتها التي عبرت بسرعة فائقة أزقة المدينة المظلمة والغارقة في ضبابٍ رطبٍ ثقيل، إلا أنها وبشكلٍ ما، كانت الخلاص بالنسبة له، قد أنقذته من الانغماس داخل مستنقع الماضي التعيس.

تشارلز غرنالد، ماتت أمه أمام عينيه، تلك النهاية التعيسة كان والده سببا فيها. فرانك غرنالد، رجل سكير لا يبالي إلا بملء جيبه بالمال، والوسائل عنده مباحة بكل الطرق لبلوغ ذلك. حتى جاء اليوم الذي تشاجرا فيه شجارًا محتدما انتهى بمد اليد، إنها كاليخالات تتراقص في مشهدٍ يعيد نفسه دومًا في مناماته.

استفاق من نومه وأشعل المصباح الزيتي الذي يتركه عادة فوق خزانة صغيرة بجانب سريريه، ثم مسح وجهه المتعرق بكفيه المرتعشين. قد بلغ من عمره ٢٨ هذا الشهر، لكن وقعة الكابوس جعلته يلوح أكبر سنًا. أثار تكرار هذا الكابوس سخطه، فلما لا يكتب النسيان له وقد مر على هذه المسألة دهور إنه وفي كل مرة يرجي فيها نومًا هانئًا يرى أمه تتدحرج من أعلى السلالم الخشبية المهترئة، ليهداً جسدها في نهايته أمامه بلا حراك، والدماء تتضرج من وجهها الجميل! كان يلهث بشدة وعينيه تعكسان الارتعاش الذي يحل بروحه فور تذكر الأمر ثم تكلم بصوت ضعيف بأفس جدا:

- "يا إلهي! ماذا أفعل... ماذا أفعل لأنسى هذا الكابوس؟" شرد يحدق بظلمة حجرته، واليأس منقوشٌ في تفاصيل ملامحه المصفرة.

حاول النوم مجددًا، لكنه عجز عن انتشار عقله من مستنقع التفكير، قد انسقت ذكرياته تعرض نفسها دون تحكّم منه، تستخرج له اللحظات المؤلمة التي مهما هرب منها استمرت هي في ملاحظته كملاحقة الوحوش لطرائدها. كانت حياته عبارة عن صبيحات تملأها رائحة الخمر وصوت الشجارات المحتدمة، تذكر كيف انتهى به الأمر في دارٍ لرعاية الأيتام بعد موت والدته وسجن والده، وكيف عمل بقسوة بعد ذلك. حتى أنه تذكر لحظات حياته في مرحلة المراهقة المنعزلة الكئيبة، وكل ما مر به حتى أصبح ما عليه الآن، رجل صلبٌ من الخارج وهشٌّ من

الداخل. يا إلهي إن كل أنواع الذكريات التي لا نرغب في تذكرها تكون لثيمة لظهورها دون إذن! فعلا كانت ساعات ليلٍ مزعجةٍ مبركةٍ أزمته، ولم يغفو إلا عند حدود الفجر.

تمكن طيفٌ ضعيفٌ من نور الشمس أن يخترق جدران السحاب الملبدة ليحل الدفء وسط الضباب الذي أحاط البحيرة الزجاجية، لقت بهذا الاسم نسبة لصفاء مياهها فهي تعكس كل تفاصيل قاعها الممتلئة بالحصى. امتد الضباب إلى غرب حديقة لارياس التابعة للكاتدرائية العامة وامتد اجتياح الضباب بهمٍ يتلع أجزاءً من اخضرار الأشجار. ترتبط الحديقة بعدة طرق أحدها يُصل إلى الكاتدرائية، ثم الشارع الفسيح حيث اصطفت العديد من المنازل كلها تبدو كالتوائم أسقفٌ هرمية وسلالم تتصل بأبواب المنازل. لم يكن هنالك أي عربة أو سيارة تسير في الشارع!

الساعة السابعة إلا ربع.

نهض السيد غرنالد وارتدى ثيابه المعتادة المهندمة، ومعطف ثقيل ذو لون أزرق داكن يقيه برد الصباح.

خرج من شقته التي يعيش فيها وحيداً داخل مبنى شارتير مقابل شارع د. جيلبرد. أغلق الباب بالمفتاح وأودعه إلى جيب صدرته. بدأ بالسير في الرواق والأرضية مفرشة بسجادٍ أحمر، وإلى الجانب الأيسر نوافذ عريضة تطل على الشوارع التي بدأت تصحو بكسل.

نزل إلى الردهة الرئيسية من خلال الدرج، عن يمين الردهة مدخلٌ كبير ذو مصراعين منفرجين وقوف بوابة المدخل مساحة صممت بشكل يحوي زجاج بألوان الطيف، تقود إلى بهو كبير يأتي منها ضوءاء خافتة، مجهزة بالعديد من الطاولات المغطاة بشراشف بيضاء، ولها ثورية عملاقة تتوهج بالمصابيح ذات إضاءة برتقالي، في جهة الشمال الغربي نوافذ عريضة أسدل على بعضها ستائر مخملية خضراء.

تجاوز تشارلز بهو منتجهاً إلى البوابة الخارجية، ليصادف هناك الآنسة فلورا كنديل، باهرة الجمال، ترتدي ثوباً أخضر فاتح، وفوقه معطف من الفراء الرمادي، تمسك بيدها اليمنى مظلة. كانت تمهم بمغادرة الردهة في اتجاه البوابة، لكن حالما انتهت على قدميه لقسم

الاستقبال، حيث كانت تقف هنالك تثرثر مع الرجل العجوز خلف منضدة عريضة عليها كوب شاي ساخن، لتفتت بوجهها ناحيته، لها خدين ممتلئين متوردين، وشعر بني ملفوف كالمعكرونة الإيطالية. قالت بنبرة حيوية صاحبة: "ما أجمل الصباح عند رؤية وجه السيد غرنالدا!".

ابتسم السيد غرنالدا بلباقة وأفرج عن ضحكة متكلفة ثم قال: "وما الذي يجعله جميلاً يا ترى؟".

قهقهت بمرح ثم أطلقت على مسامعه إجابتها الجريئة: "أنت الرجل الوحيد الذي يعيش في هذا المكان وليس لديه أي ارتباط مع الجنس الأنثوي. أي أن سرقة قلبك ما تزال متاحة".
تفاجأ الرجل من ردها حتى أنه توقف متصنماً في مكانه يحملق فيها، ثم ضحك بهدوء، وقد تورد خجلاً: "أنتِ امرأة عجيبة!" ثم استطردها بعد تهيدة قصيرة وهو يتابع طريقه نحوها: "كيف كان مساءك بالأمس؟".

- "وكيف عساه يكون؟" هزت كتفها وفردت ذراعها قليلاً أثناء متابعتها للكلام: "كالعادة، أُمي العزيزة تعرفني بأبناء صديقاتها وقربياتها وكل من يخطر على بالها. ولكن كلهم كالحمقى يظنونني لا أفاقه سبب اهتمامهم بي ورغبتهم الواضحة في إثارة إعجابي. أه! إن المال يغسل عقول الرجال".

وقف تشارلز أمامها مستنكراً هذه التهمة الجاحفة قال:

" كم سيكون من المؤلم أن تجمعي الكل، أنسة كندل!".

ردت وهي تهز منكبيها وبسمة مرحة تعطي وجهها: "على أساس أنك لم ترتبط لسببٍ لا يتعلق بركض خلف المال، يا سيدي العزيز".

ضحك بتكلف وهو يدنو من منضدة الاستقبال:

- "بل لأنني أخشى أن أرتبط بمن تبعثر مالي وقلبي، لذا أبقى بعيداً عن جنسك الرقيق" وختمها برفع حاجبيه وابتسم ماكرة.

ضحكت برقة على قوله، شاركتها بتلك الضحكة الصباحية المشرقة، ثم استطردها سائلاً:

"سيد هيرل، هل وصلت رسالة من مركز الشرطة؟".

أردفت الأنسة كندل بفضول: "خيرًا أمن خطب؟".

- رد عليها: "لا، إنما كانت هناك قضية كنت أساعد والدي في حلها قبل بضعة أسابيع".
- "ولابد أنك حللتها، فليس هنالك قضية توضع بين يديك تنتهي بدون الكشف عن ملابسها".
- قالت بثقة جازمة وهي تحرك كلتا يديها.
- قاطع استرسال حديثهما صوت العجوز هيرل: "وهو كذلك. وصلت برقية شكر لك في صباح اليوم. تفضل. هاك ها هي". أخرجها من درج الأمانات وقدمها له. كان ظرفها ذو جودة عالية من الورق المصبوغ، والحواش باللون الذهبي، ومختومة بالشمع الأحمر. استلمها السيد غرنالد وقال: "حسنا، لنرى. أتمنى أنهم تمكن من إمساكه قبل أن يهرب".
- سألت الآنسة بفضول: "عن ماذا كانت القضية؟".
- "رجل قتل رئيسه في العمل حتى يخلص نفسه من الديون التي يدينها له".
- "آه! اليأس وما يفعل بالإنسان!".
- استطرد السيد غرنالد وهو يدخل الظرف في جيبه: "حسنا، أرجو أن تعذراني الآن".
- "لحظة، سيد غرنالد. أردت أن أسألك معروفاً". قالت فلورا بحياء صبغ على خديها المكتئزان.
- "تفضلي، إن كان بمقدوري، سوف أساعدك". أوماً مجيباً.
- "حسنا، إنه نوعاً ما معروف ليس له علاقة بالجرائم وهذه الأمور. أعني... اليوم في المساء... هنالك حفلة عيد ميلاد لزوجة أحد أثرياء غاليرياسك، وللأسف دعيت لحضورها".
- ارتدى طرف الرجل ونطق مستغرباً: "ولمّ التأسف على هذا؟"
- أردفت متذمرة: "بالله عليك! ألن يكون منظري محرّجاً وأنا أحضر حفلاً ستأتي إليه نصف صديقاتي مع أحبائهن، وأنا الوحيدة التي تقف بلا رجل".
- ضحك السيد غرنالد فقد فهم مقصدها.
- قال السيد هيرل: "لقد كانت ترجوني لأن أحضر الحفل على أي حبيبها. ولكن أي عاقلٍ سيكشف كذبتها الطفولية".

غاليرياسك، عاصمة راشنفيرد¹

- "آه، أنا لست طفولية! لا تكن قاسيا القلب في الحكم علي. ولكن أي امرأة في سني سوف تكون مادة مناسبة لثرثرة فيها. لم لِم ترتبطني؟ هل تعانين من مشكلة؟ هل انفصلت من قبل لأنه من المستحيل ألا تكوني متزوجة! آه كم أكره أسئلتهم البغيضة هذه!". ختمت بزفرة قوية تعبر عن سخطها.

- أوما تشارلز في صمت يفكر ويهمهم ثم قال: "إذن ترغيبين مني أن أرافقك كشريكك في الحفلة؟".
- "تماما".

عاود الصمت مرة أخرى يفكر، وهي ضمت يديها إلى صدرها وترقب رده.

نطق أخيراً ببسمة طفيفة: "طيب، إني لا أمانع؛ نظراً لأنه لا ارتباطات لدي هذا المساء".

لم تبالي الأنسة بأنظار العامة، تصرفت بعفوية مطلقة عندما طوقته بذراعيها المتحشمين، عانقته بفرح منفع، تفاعاً الشاب وطفق يرمش مراراً منكماً في حالة تصلب وكتلتا يديه خلف ظهره.

ابتعدت عنه ثم قالت: "لقد أنقذتني من بؤس حقيقي!".

بعد ذلك فتحت فلورا مظلتها وقالت: "إذن نلتقي هنا في تمام الساعة السابع... أنا سوف أصطحبك".

- "لا بأس". ابتسم تشارلز ولا يزال متصنماً.

- "أرجو ألا تكون زخات المطر قوية في الخارج. حسنا طاب نهارك".

غادرت وهي تحمل جوها المرح الدافئ. تكلم هيرل: "يا لها من أنسة طروب! أرجو أن تجد رجل يفهمها".

ابتسم السيد غرنالد مومناً، ثم غادر بدوره.

تمشى لبعض الوقت، واستمر على طول شارع بيلتسكارت المطل على بنايات حمراء من القرميد، العديد من المحلات التجارية بدأت تفتح أبوابها، بالإضافة إلى المقاهي، وفي زاوية الشارع كان هناك محل للحلاقة على بعد خمسين متراً، حانة خرج منها بعض الناس، الجو منقبض والغيوم لم تفضي تكتلها الملبد، كما أن رائحة الغيث تنبعث من السماء منعشة الأرض، وسرعان ما بدأت زخات المطر العريضة كندی تشدد في تساقطها، ومنها ما بلل كتفه

الأيسر، مع هذا هو لم يبالي بأخذ مظلمة أو ارتداء قبعة. خصاله السوداء الدهنية المتعرجة تلمع بلون بارق، صاحب عينان ذهبيتين.



وصل إلى ميناء بينترلي، كانت من عاداته الصباحية التجول ومراقبة البحر. وقف عند الحاجز الأيمن في زاوية الممشى ومن الجهة اليسرى درجٌ طويل يقود إلى الأسفل نحو رصيفٍ فرعي يمتد على طول الشمال يتصل بعدة جسور خشبية حيث عمال السفن يعملون على شحن الصناديق والبضائع، ثم سلسلة من المستودعات المتجاورة لا يفصل بينهم إلا بضعة أزقة وشوارع متفرعة تقود إلى طريق الميناء الرئيسي في جهة الشمال. الحركة لا تهدأ صرير عجلات العربات المحملة بالبضائع منها ما يخرج من المستودعات ومنها ما تم إنزاله من السفن وشحنه بتلك العربات ليتم إرساله إلى المستودعات. يراقب شريان الحياة متمتعاً بصوت النوارس الصاخبة وتحليقها بحرية فوق البحر، الهواء الرطب المنعش شُبع بملوحة البحر وقد لفتح وجهه وحرك خصاله. ما لبث أن أخفض بصره نحو تلك الأمواج الهادرة التي ترتطم بجدارٍ

صخري وفوقه بمسافة الحاجز الاسمنتّ يمتد على طول الممشى. ظل يتأمل من مكانه الزبد الأبيض يتشكل مع كل موجة قوية، لاح في شرود من يحمل قصة عميقة تجابه البحر بأسراره العظيمة. حينما أطال الشرود في البحر حتى بدا كالمسحور فاقداً كل حواسه الخارجية لم يطرف لمدة وجيزة كأنه يحمل حقداً دفيناً على تلك الأمواج المتلعبة... وهو بتلك الحالة اخترقت ذكرياته صورة من الماضي مشهدٌ مهم مظلم ليدين صغيرتين تشبثان ببعضهما كالجنينين داخل رحم البحر. أغمض عينيه ثم كأنما هو يكافح لئلا يغرق أخذ تهبدة قوية تسحبه من عمق تلك الذكرى، ثم بعد أن استقام واقفاً أرسل يمينه لجيب معطفه واستخرج تلك البرقية المختومة بالشمع الأحمر، فتحها بلطف وأخرج الورقة التي كانت بذات لون الظرف زرقاء داكنة بحواش ذهبية، والخط أحمر فاقع:

(إلى السيد تشارلز غرنالد، نبغك أنه تم القبض على المجرم بنجاح بفضل حلك للقضية في وقت قصير. نتيجة لكل عرفانك الذي يغدقنا، قررنا تقديم شكر خاص منا نحن، رؤساء أمن راشيفيرد. سوف تبقى منارة تضيء لأجل دلنا إلى الحقيقة. نرجو أن تتقبل مديحنا المتواضع ودعوتنا لك متى ما استدعت الحاجة.)

لم يتابع القراءة، لكنه تبسم ثم طواها وأرجعها في ظرفها... بعدها قدمها هدية للبحر ليستدير مكملاً طريقه على رصيف الممشى بظهرٍ مستقيم وكتفين مشدودين.

اتجه إلى المقبرة العامة ليزور قبر لم ينفك عن زيارته مطلقاً. جلس على أمشاط قدميه، وحدق لوهلة في شاهدة القبر (أوليفيا غرنالد. الولادة: ١٨٧٧ / الوفاة: ١٩٠٥) نحنت هذه الحروف في شاهدة القبر الأسمنتّ. تلمسها تشارلز وعلى ثغره ابتسامة محملة بالشجون، ثم وضع أصابعه على تراب القبر أثناء همسه بأسى: "أمي، اشتقت لك!". استنشق بعمق حينما أحس بغضة مؤلمة في حلقه، ثم زفر وقال: "لقد حلمت بكابوس في الليل، كان حلماً مروعاً. لكنني أراهن أنك كنت لتقولي لي، الرجل لا يخاف من الكوابيس". قالها بابتسامة أظهرت نواجده، وسريعاً لاحت الكأبة والعبوس تظلم وجهه النضر:

"لا أدري لما يراودني هذا الكابوس، ربما القدر يعاقبني بطريقته!". أنكس رأسه والندم يتشرب في أوتار صوته فقد لاحت جملته غامضة المعنى.

أغمض جفنيه وزفر مجدداً زفرة محمومة بالغم، ثم جذب كم معطفه الأيسر وكان حول
رأسه وشم قديم بحبرٍ أحمر غامق، خيطين عرضيين في منتصفهما رسم لطائر يفرد جناحيه
بحرية. كان وشماً بسيطاً لكن يلوح أن خلفه قصة طويلة.
همس بصوت هادئ: "غرينو! مرزمنٌ طويل... أكاد أنسَ هذا اللقب!".

الفصل الثاني

الساعة السادسة مساءً، ضاحية فينيهورمنت.

في أراضي خضراء مملوكة لأحد أغنياء راشنفيرد، قصرٌ فارة له أسوارٌ حديديةٌ تنتهي ببوابة عملاقة مؤصدة، وكان يتوسط الباحة الأمامية نافورة راقصة تفضي لأربع جهات معبدة بالحجارة وسط أربعة مساحات مربعة خضراء من العشب المجزر بعناية. والبوابة الثانية من خشب البلوط الغليظ، ثم عشرة درجات حجرية تقود نحو الباب. وفي الجهة اليسرى بعد أربعين مترًا مدخلٌ مُجوفٌ عملاق أشبه بمدخل أنفاق القطارات، يؤدي إلى اسطبلات الأحصنة، وكان الطريق من تلك الجهة معبّدٍ بالحجارة المستطيلة الحمراء.

داخل إحدى الغرف التي تخص أصحاب القصر. كانت الكونتيسة الشابة (آن أوليغرس) تدرع غرفتها بتوتريّ وقلقيّ جعلها تقضم أظافرها على نحوٍ هستيريّ. فُتِحَ الباب بتأود من قبل (الكونت أوليغرس) دخوله جلب الرعشة لأوصالها كما يرتعش البردان، ثم ما لبثت أن فرت إلى جهة السرير لتسقط عليه من فرط الخوف ودموعها انهمرت بغزارة حتى صاححت بتهدج: "دانييل... أرجوك أنا حقًا آسفة! لم نفعل شيئًا خاطئًا! أنت من جرننا لذلك!".

كان يتقدم وكلما تقدم زادت رعشها وتفاقم زعرها، كأنما عقلها يريئ لها أنه مقبل على قتلها. وقف أمامها وحينما رفع يده ظننت أنه سيقدم على صفعها، كما فعل سابقًا. أغلقت عينها بقوة وهمت برفع يديها لتحمي وجهها، لكنها استشعرت بعد ثوانيٍ من الصمت أنامل حانية رقيقة تتلمس وجنتها المشدودة المتوردة من البكاء. كان هناك سببٌ آخر لتلك الحمرة حول صدغها الأيمن، كانت متورمة تميل للون الأحمر القاني بشحوب أصفر. تلمس تلك الناحية من وجهها بأسى وحزن. طرفت أجفانها واختلت أنفاسها في لهيئٍ مضطرب، راحت تحديق في عينيه... كانتا غريبتين هادئتين وتحويان مشاعر مختلطة لا يمكن تفسيرها، عينان رماديتان تومضان تعاسة.

"بعد هذا الحفل، سوف ننفصل!" قالها بصوت فاتر مرهق ثم ساق ثقل بروده خلفه وغادر. ظلت هي على حالها مهوتة مذعورة. سرعان ما هداً انفعال نبضاتها وتهتدت بارتياح، شدت على قميص التندائل المزركش كأنها تعتصر قلبها، وابتسمت بشكل غامض حتى أن ارتعاشها

توقف، عينها اللتان كانتا تخشيان حتى النظر له انقلب حالها واصبحتا مظلمتين كما لو أنها استشفت شيئاً طمعت فيه منذ زمن.

**

عند تمام الساعة السابعة، كان تشارلز قد تأنق بشكلٍ غير مبالغٍ وإلى حين نزول جارتته كان يمضي الوقت في الحديث مع السيد هيرل.

سمع الاثنان صوت كعب حذاء صاحب، فالتفتا ليرياها تمشي بهادي بفستانها الأحمر المخملي، لكن تفاصيله لم تظهر بسبب المعطف الثقيل الذي ترتديه، كان من الفراء لونه بني فاتح يصل إلى ركبتيها. شعرها مسرَّحٌ بشكلٍ أنيقٍ يغلبُ عليه طابع الرسمية، ووجهها لم يكن يحوي تلك الأصناف المبالغة في التجميل، عدى عن خديها اللذان لاحا لتشارلز مزهرين أكثر من العادة، وشفتيها صبغا حمرة تفتن العاقل.

انهر تشارلز فقال مازحاً: "هل من بعد إذنك صادفتِ امرأة تدعى فلورا كنديل في طريقك إلى هنا؟".

قهقهت بعدوثة وخبأت ضحكها الخجلة خلف يدها المغلفة بقفاز فضي: "الظاهر أنك لم تعد ترى جيداً، سيد غرنالد".

التفت تشارلز لهيرل وقال: "واحدة من الأسرار التي يعجز الرجل عن الكشف عنها، مهما بلغ ذكاؤه، هي قدرة المرأة على أن تبدو جميلة بشكلٍ صادم".

تكلمت فلورا وهي تلوح بيمينها: "اييه، كفاك تغزلاً! تخطيت مرحلة الغزل... ألا تراني عجوزة؟". هز رأسه وضحكة مأسورة في حنجرتة، تباعد حاجبيه الرفعان وارتفعوا قليلاً مستغرماً قولها: "إنك أكبر مني بسنة فقط!".

وقفت أمامه تمتع عينها به: "لننتقل إليك تبدو جذاباً! الظاهر أنني سوف أحطم بعض القلوب الليلة. أه لا أتوق صبراً لأرى وجوه رفيقاتي اللوات كنَّ يتباهين بعشقهن أمامي! هيا، هيا! لنسرع".

- "نلتقك لاحقاً". قال تشارلز لهيرل.

- "أرجو لكما سهرة طيبة".

كان في انتظارهما سيارة تقف أمام بوابة المبنى، يقف أمام بابها السائق الخاص، وقد كان رجل في منتصف الثلاثين قصير القامة وممتلئ في بعض جوانب جسده المختفي تحت رداء بني يصل إلى ركبتيه، ملامحه ورغم أن الطابع الرسمي يطغى عليها، بحيث يدل على أنه رجل يقوم بعمله على أكمل وجه، إلا أن بسمته الرقيقة دفعت تشارلز إلى الإيماء بلباقة كإشارة لتحية.

- "إنه السيد مايلفيد، هو سائقي الخاص. طلبت منه أن يأتي في هذه الساعة حتى يقلنا".
فتح السيد مايلفيد الباب بانحناءة يسيرة. أخفضت فلورا رأسها ودخلت للسيارة بسلاسة بينما التفت تشارلز ودخل من الجهة الأخرى

في منتصف الطريق المنشق وسط أشجار الصنوبر كانت السيارة تمضي بسرعة معتدلة، والصحمت مغدق في الداخل هذا الجو أربك فلورا قليلا. تطلعت إليه من ركن عينيها اللتان تحملان رموشًا صغيرة كانتا واسعتين بيضاويتين. استمرت في التحديق وهو غير منتبه يتطلع من النافذة، ثم فجأة خرج عن جموده بسؤالٍ مفاجئ أثناء التفت نحوها: "ما صلتك بتلك العائلة؟".

أبعدت عينيها في اللحظة المناسبة وبرعت في إخفاء ارتباكها، ثم أجابته: "أوليغرس، ممممم يمكنك القول إن أبي كان صديقًا قديمًا للكونت الراحل، جوزيف أوليغرس".
أردف بإمالة خفيفة: "هكذا إذن". ثم عاد يحدق من النافذة منهمكًا في سرحانه، بقيت فلورا تراقبه ويبدو أنها تكبت شيئًا ما في صدرها وتتوق للبوح به. تنهدت ثم تنحنت بنغمة خافتة حتى تلفت انتباهه، ثم قالت: "هناك أمرٌ أردت أن أطلعك عليه... قبل وصولنا. تشارلز".
- "ما هو؟".

- "لقد كنت واثقة حيال رفضك للأمر إذا ما أخبرتك بذلك أولاً، لذا أثرت الكتمان حتى تكون في وضع لا يسمح لك بالتراجع فيه". تكلمت وهي تبتسم بشكل آثار ارتياح الشاب فقال وهو مقطب: "ماذا تعنين؟".

مسحت من الخجل بانته على وجهها وبعد تردد تكلمت: "حسنًا، أرجو ألا تغضب. لكنني سأمت من إلحاح والدتي ومطالبتها بأن أختار أحد أولئك الذين عرفتي عليهم لأجل الزواج، فأخبرتها

أن هناك شخصًا آخر لاق اهتمامي.. " راحت تشبك أصابعها وتلتهمي بها عن النظر إليه: "أعني ... هذا الشخص هو أنت، لذا سأخذك لتتعرف عليهما".

انفتق فم الشاب وارتفع حاجبيه حتى كادا يلتصقا بشعره وطفق يرمقها كالأبله حينما استوعب، فانفعل قائلاً: "هل أنت مجنونة!".

ضحكت بصوت مكبوت ولكن كان من الواضح أنها خائفة من ردة فعله لذا كان صوتها مرتعشاً قليلاً: "لا تفزع! لقد دبرت الأمر، كل ما عليك فعله هو مقابلتهما، بعد ذلك سوف أدبر كذبة جيدة لإنهاء الأمر، لا تقلق".

أرجع ظهره لظهر المقعد وضيق عينيه يناظرها بعدم تصديق:

- "يا لك من امرأة ماهرة! لا أصدق أنك جررتني لذلك!".

- "لا بأس، لا بأس! إنها خدمة تقدمها لجارتك". مطت بسمة عريضة راجية وهي تلين ملامحها في تودد.

تهمد تشارلز متضايقا من فعلها، فلطالما رغب بالحفاظ على مسار الروتين المعتاد بالنسبة له، وأي مؤثرات خارجية تسبب له تعكير في المزاج غير مرغوب فيها، هو لم يحب الأمور المربكة والتي تأتي فجأة كما فعلت فلورا معه الآن.

- "وماذا يتوجب علي فعله أنا؟ لا تقولي لي أنني سوف أمثل دور حبيبك" حاول بقدر المستطاع ألا يظهر انزعاجه حتى لا يشعرها بالسوء والخجل لذا حادثها بصوت رزين يغلب عليه الضحك.

- "حسناً كما قلت لك، سوف أأخذك حتى يروك ويقتنعوا أنني لا أكذب أو أخترع حجة من رأسي حتى أتهرب منهم... وبعد ذلك سوف تتوقف أمني عن تصدير قوائم الأزواج لي..."

- "ثم؟"

كبتت الضحكة كالطفلة والحياء يكسوها، ثم تابعت بصوت متقطع: "ثم بعد ذلك... حينما تبدو الأمور جدية... ويعتقدون أننا سوف نتزوج... سوف... سوف أخبرهم أنك خنتني وهربت مع امرأة أخرى".

لشدة صدمته بحجتها الساذجة ظل أحرص يتطلع نحوها بعيون مجفلة وفاهٍ فاغر مندهشاً من تخطيها، ثم ما لبث أن قال: "لهذا يقولون ابتعد عن كيد النساء!".

انخرطت فلورا في الضحك وهي تخبيء وجهها بين كفي يدها تكاد تموت من الخجل

بعد نصف ساعة. وصلت السيارة إلى بوابة القصر المفتوحة على مصرعها ترحيبًا بالمدعوين، ثم مالت حول النافورة المزينة بالزهور، أخيرا توقفت أمام الباب الداخلي. هبط السائق وفتح الباب، خرج تشارلز ثم استدار وأخذ بيد الأنسة كنديل التي تهتدت بارتياح ثم قالت أثناء هبوطها:

- "آه، وصلنا أخيرًا".

- "يا له من قصرٍ بديعٍ!". علق تشارلز وهو يأخذ نظرة معجبة في الأرجاء، بينما تأبطت فلورا ذراعها وتشبثت به، ثم قالت بزوة حماس نائرة: "يا إلهي! لا أستطيع الصبر. هيا، هيا لندخل!".

- "على مهلك، لا تفسدي أناقتك أيها المخططة الماكرة".

دخل الاثنان فاستقبلتهما خادمة تلفت الأنظار بحمرة شعرها، حتى أن تشارلز تطلع إليها بانهار نسي. ابتسمت الخادمة ورحبت بهما. سلمت فلورا معطفها، لتظهر الحسنة بجمالها الفاتن. فستانٌ مخمليٌّ أحمر مزركش الأكمام وعاري الكتفين، ترتدي قرطين من الألباس طويلان كالإبر، وعقد اللؤلؤ يزين رقبتها الرفيعة ذات بشرة لبنية بيضاء. خلعت القفزان الجلديان وكانت ترتدي تحته قفزان آخرا ن يصلان إلى ساعديها من الدانتيل الأسود. علق تشارلز باستحسان مأخوذ البال يرى كل هذا الجمال أمامه: "أظن أنني سوف أستغل الدور جيد اليوم!".

قهقهت باستحياء تورد له خديها المكتنزان، ثم ربت على كتفه قائلة: "أعطها معطفك، لنبدأ المرح!".

قدم معطفه، عند تلك اللحظة التقت عينيه بعيني الخادمة مجددًا، كانتا فيروزيّتين حادتين، رغم الرموش الكثيفة المائلة للبني الداكن، زرقة قزحيتها تجذب عيون كل مبصر كالبحر المهيمن، حير جمالهما عقله ولاح شاردًا على نحوٍ مريب. بينما كانت فلورا تتطلع بإعجاب ناحيته، إذ أنه لم يقل أنفاقة عنها، فقد لبس بذلة عادة ما تكون مدفونة داخل خزانته ولا تخرج إلا مرة في السنة، السترة ذات الذيل الطويل كانت باللون الخمري والصدية الداخلية باللون البيج مع جيب يحمل ساعة تتدلى بسلسلتها الذهبية، والقمص الداخلي أبيض، كالفازين اللذين يلبسهما، والسرراويل سوداء، وكانت خصاله مهذبة بشكل رسمي، كل خصاله المعجدة التي كانت ترتدي على وجهه هذبه وأعادها للوراء ليظهر عرض جبينه.

- "يستحسن ألا نخرج من هذا الحفل واقعان في حب بعضنا! تشارلز". قالت فلورا وهي تكز ساعده لتشد انتباهه نحوها:
- أبعد بصره عن الخادمة ولاح مشتتًا إلى حدٍ ما، ثم علق متماشيًا مع الموقف: "تحذير في محله". دخلا القاعة سويًا. بعد الانخراط مع المدعويين، أنظار رفيقات الأنسة كنديل كانت تتجه نحو تشارلز، يحاولن صنع استنتاجات حاسمة وقصص خيالية غريبة لا تثير إلا جنون النساء، إن عيونهن تفضح تساؤلاتهن عن الكيفية التي استطاعت فيها هذه العانس أن تجد فيها هذا الرجل!
- عرفهم الأنسة كنديل عليه بكل خيلاء واعتزاز: "أعرفكن، تشارلز، تشارلز غرنالد أستاذ في أكاديمية ليدبيرك للموسيقى".
- لم يكن عمله مهمًا أكثر من مظهره الذي جذب واحدة من الأنسات لتمد يدها بقصد مصافحته، تقبل الأمر بطيب خاطر وصافحها. دنت من الأنسة كنديل واحدة من معارفها، وهمست لها: "أيها اللثيمة المخادعة! ألم تقولي أنك لست في علاقة مع أي رجل. وأيضا كيف تعرفين هذا الشخص؟ لحظة تشارلز غرنالد... أليس هذا عازف البيانو المعروف الذي وصل إلى مسرح كانان الملكي؟ هل يعلم والداك بالأمر حتى؟".
- "لا تقلقي، لا تقلقي! هما على علمٍ بكل شيء. كما أنه سيغدو خطيبي بعد فترة وجيزة". أردفت باغتياب شديد. في حين انفتق فاه المرأة صدمةً لما سمعته: "سيكون خطيبك!"
- أومأت بثقة حاسمة.
- جاء والدا فلورا، السيدة والسيد كنديل، حالما رصدتهما فلورا هتفت بسعادة: "أوه، والداي العزيزان!". ثم أخذت بذراع تشارلز لتجره إليهما.
- "أنا مسرورة لرؤيتكما". قالت فلورا وقد أنيرت ملامحها بالبهجة أكثر.
- "لحسن الحظ أنك أفرغتي يومًا في جدولك حتى ترينا فيه". تكلم السيد مورينو كنديل ولم تخطئ أذان تشارلز في إلتقاط نغمة العتاب التي صاحبت قوله، فناظر فلورا مشفقًا ومتمتعًا في نفس الوقت حينما أنكست رأسها.
- "أوه أبي، لا تكن لثيمًا!". قالت فلورا مغتظة منه، ثم استطردت: "أبي أمي، أعرفكما. تشارلز غرنالد أخبرتكما عنه سابقًا".

تطلع الأدميرال كنديل من خلف نظارته الدائرية، وقام بهز الإطار الأيمن، بدت ملامح التقييم بادرة عليه، إنه رجل ذو هيبة له وزن وثقل يظهر بوضوح أينما حل بشاربه المفتولان العسكريان، شعره خلط ما بين السواد والبياض له صدغين بارزين جعلتا عينيه تبدوان كما لو أنهما غائرتين لون قزحيتيه يميل للبي الداكن تحت الظل، يرتدي بذلة زرقاء تناسب طولته المتوسط، كما يزين جيب المعطف من اليسار منديل أبيض نسق بشكل أنيق داخله. أما والدتها فيمكن أن تعلم أن الروح الهيجة قد ورثتها فلورا منها، رغم التجاعيد البسيطة وشعرها المائل للرمادي، فإن لها خدين مترهلين شاحبة اللون قليلا، إلا أن لها طلة بارقة حيوية كالشباب:

- "هممم، مرحبًا بابتنا المدللة والطائشة فلورا! ومرحبًا... تباطأت في الكلام بعد تثبيت بصرها على تشارلز وصارت حروفها تغدو ثقيلة وبين كل كلمة وكلمة تقولها حسابات تجري من خلال تقييم مظهره الخارجي فراحت تمسحه مسخًا ببصرها من أسفل قدميه إلى أعلى رأسه، ورفعت حاجبها أثناء قولها: "مرحبًا بالسيد، تبدو رجل يمكنه أن يحتوي طيش ابنتي". إطراءها غمر وجه تشارلز بحمرة طفيفة، حاول أن يمد ابتسامة لبقة لأجل إكمال المسرحية.

نظرت فلورا باستحياء له ثم نكزته بخفية في مرفقه ليضبط نفسه.

قال السيد كنديل: "لا أعرف إن كنت الرجل المناسب، لكنني أرجو أن أرى هذه اللعوب مكبلة برجل يقفها عن العبث واللهو. كادت تنهي عامها التاسع والعشرين بدون أن تستقر في أرض، وأختها الأصغر سنًا تزوجت وأنجبت ثلاثة أطفال".

لاح أقرب إلى ذم جعل فلورا تحمر وتنكس رأسها بإحراج منزعة وكارهة لما قاله:

- "أبي، لا تخرجني هنا! أنت تعلم أن ذكر عمر المرأة عيب!" قالت بامتعاض وبصوت منخفض قليلاً.

استضحك تشارلز بهذيب وسلك مسلًا نبيل حينما مدحها أمام والديها: "لا عليك سيدي، هذه المرة أظنها عقلت".

فور قول ذلك حدجته بنظر ممتعضة، فقد استشفت سخريته منها وذلك زادها امتعاضًا.

- "إذن، متى سوف نقيم العرس؟" ثم أضافت بلهجة تميل للمزاح وتبطن قولًا صريحًا:

- "تعلمين عزيزتي فلورا ليس لدينا في العائلة علاقات عابرة".

شنت حروف تشارلز بالتوترووقف كالأبله يحدق في السيدة، وارتبكت الآنسة فلورا ثم وبدون قصد عمدت النظر إلى تشارلز والذي أصبح أحرصًا، فلم يكن منها سوى أن نطقت قائلة بتهدج وبسمة متذبذبة: "أ ... أظن أن الأمر قد يكون في القريب العاجل! و ... ولا تقلقا أنا واثقة أن كل انتظار سوف يحمل معه الخير الهيبج. أمي ألم تخبريني أنك وأبي ظللتما تتراسلان لمدة سنة قبل الزواج".

أطلقت السيدة كنديل على أثر ما قالته ابنتها ضحكة قصيرة مرحة لطفت الجو وساعدت تشارلز على صني بسمه أكثر اتقانًا ولو بدا فيها كما لو أنه على وشك قتل فلورا فقد حدجها بطرف عينيه.

وإن السيد كنديل لم يكن على قدر كافٍ من خفة الدم بحيث يسمح لتلك الأحاديث العرضية بأن تسرق انتباهه، بقي على وضعيته المجددة يحدق في تشارلز حتى ارهبه، وكله على بعضه يرسل رسالة واضحة مفادها لا مزاح معي.

انزوى تشارلز بعيدًا عن ضوضاء القاعة. مر خادمٌ من جواره يحمل صينية فضية تحوي أربعة كؤوس معبئة من الشمبانيا، استوقفه تشارلز بكياسة ثم مد يده اليسرى وأخذ كأس، أومأ للخادم شاكرًا ثم ابتعد أربعة خطوات نحو نافذة طويلة عريضة تطل بشكل مكشوف على حديقة القصر، أعطى ظهره للنافذة وراح يراقب وجوه الناس وثرثرتهم الفارغة، القاعة كلها تعج بالابتسامات والقهقهات لكنه يدرك أمرًا واحدًا فقط كلها مزيفة عينيه كانتا تصوران مدى اشمئزاه وقد زفر متزعجًا من كل تلك الأضواء والألبسة المبهجة الباذخة.

من مقعده الذي يوازي الساعة الخامسة، كان السيد مورينو يراقب تشارلز. لطالما ملك السيد مورينو كنديل نظرًا ثاقبًا لا يخطأ في قراءة تفاصيل الوجوه مهما حاول الشخص إبداء مظهر يعاكس ذاته الحقيقية كان يكشفه بسهولة فله من الحدس ما يفوق التصور! لكن نظرة واحدة إلى تشارلز حيرته، لاح هادئًا كظلمة البحر الذي رافقه سنينًا طويلة أثناء عمله ولو مد له في عمره أكثر ليبحر في عظمة البحار، هو يعلم جيدًا أنه لن يدرك المعرفة الكاملة لأسراره، وكما شاهد أنواعًا من الرجل يشبهون البحر لا يمكن أن يدرك المرء قعر حقيقتهم، إلا أن

بصيرته مكنته من ملاحظة تلبّـلٍ رهيب في عيني تشارلز الذهبيتين لم يكن مباليا بأي شيء من حوله يقف منعزلاً عن الجميع محاطا بهالة مكثفة من الغموض..

- "حينما أخبرتني عن هذا الشاب ورغم كونه عازف بيانو معروف فقد فضلت البحث عن خلفيته أكثر" برز صوت السيد كنديل وقد استشفت فلورا شيءً من عدم القبول في حديثه حينما استرسل في كلامه:

- "تفاجأت من كونه ابناً متبني من قبل المفتش العام للشرطة".

- "وماذا في ذلك أبي؟" سألت فلورا مستغربة كما أنها تجلس مقابله تماما.

- "حسناً، ما أدهشني بالفعل أنه ليس هنالك أية معلومة تخص عائلته الحقيقية". نظر إلى ابنته حينما تابع كلامه بنبرة تميل إلى الهمس: "فلورا، إني لم أعارضك في أي شيءٍ من طموحاتك لقد تركتِك حرة تذهبين إلى حيث تشائين بدون قيد وكل ذلك نابعٌ من ثقة العمياء فيك. ولكن، هذا الرجل هنالك ما يقلقني حياله ولا أدري أخيراً أن ترتبط به أم لا. لكن، كوالدك فأنا أطلب منك أن تعودي للمنزل وتنسي أمره".

أحبطت حينما سمعت رأي والدها فيه وشعرت بشيءٍ من الضيق في صدرها، أخذت نفساً عميقاً متفهمة قلقه ثم قالت بنبرة رقيقة: "أبي، إن كنت تثق بي حقاً فأطلب منك أن تثق أيضاً باختياري".

زفر الرجل بعدم رضى إلا أنه رق أمام الرجاء الذي يبرق في عيون ابنته الجميلة فحالما تبدأ بإظهار ذلك الوجه الطفولي البريء الصادق يُسقط الشدة ويميل قلبه لتحقيق رغبتها كان عطفه نقطة ضعفه الوحيدة. قال بعد فترة من الصمت: "سوف انتظر لمدة وجيزة إن لم يأتي لطلبك فنسي أمره فأنا لن أتخل عما أشعر به لطالما نفعني حدسي في الكثير من الأمور"

استضحكت السيدة كنديل مازحة: "أهي غمامة الغيرة التي تنشأ بين الأب وصرهه يا ترى" رمق السيد كنديل زوجته بغيظٍ من قولها. بينما تهتدت فلورا بإحباط جلي فهي تملك ملامح شفافة نقية كالمرآة تعكس مشاعرها الداخلية: "أبي صدقتي إنه شابٌ جيد ما كنت لأقول ذلك لو لم أكن متأكدة من هذا" تطلعت لتشارلز؟ ثم ابتسمت بسمة طفيفة بشفتيها الممتلئان، ثم تابعت تقول بصوت لا يملكه إلا من لامس العشق الأصيل قلوبهم: "الأمر المريب الذي تحس به ما هو إلا جاذبية مميزة أثبتت لي أنه شخصٌ مختلف عن كل الرجال الذين قابلتهم" وجهت عينيها

لوالدها حتى يرى لمعة العشق فيهما وأضاف: "حينما اقتربت منه علمت أن تلك الريبة لم تكن إلا من صني، أنا كنت أراه بتلك الطريقة تماما كما تراه الآن. ولكن، صدقني إنه مختلف هذا ما يجعله مريبا في وسط أولئك الرجال المستنسخين". عبرت فلورا بكل شغفٍ عن مشاعرها ولم تخجل ثم استأذنت من والديها ونهضت لتمضي إلى حيث تشارلز.

ابتسمت السيدة كنديل بسملة عريضة مرتاحة ثم مالت لزوجها قائلة بصوت خافت: "يبدو أن فلورا قررت مسبقا يا عزيزي".

"أرى ذلك جيدا". زفر مستسلما رغم نظراته التي تدل على عدم رضاه.

وقفت فلورا بقرب تشارلز ثم مازحته بطرافة وهي تبسّم: "هيه، إياك أن تلعني في شرك، مفهوم؟".

كان يرتشي من كأسه، ثم ألقى نظرة جانبية عليها مبتسما أثناء رده: "وهل سمعتِ قولاً مني. عموما، رأيتكِ تجلسين مع والديك أكنتم تتحدثون عني؟".

"هاه، كيف عرفت؟" نطقت فلورا مدهوشة فأجابها: "والدك كان يحدق في، حرصت ألا تلتقي عينينا. لدي شعورٌ يخبروني أنه راغبٌ بقتلي"

ضحكت وحرصت على كبت صوت ضحكها ثم قالت: "لا، ولكن أبي يحب النظر لوجوه الآخرين. لن تصدق إنه قادرٌ على كشف كل شيءٍ عنك من نظرة واحدة فقط!"

"أوه يبدو هذا مرعباً! وماذا كشف عني؟".

مسحت بإصبع سبابتها على حافة كأسها تفكر في لم تشأ أن تخبره بما قاله والدها لذا تجنبت النظر إليه متهربة: "لن أخبرك!".

"يا لك من رفيقة لنيمة! حسناً، أخبريني كيف سوف تهيئ قصة زواجنا المرتقب؟" أردف بذلك ثم ارتشف من كأسه.

همهمت تدعي التفكير بعدئذ ابتسمت بمكرٍ وهمست له: "كما قلت لك سوف أخبرهم أنك خنتي؟".

همهم لبعض الوقت مفكراً وهو يحرك كأسه بخفة ويراقب دوران الشراب داخله، ثم أفص بما يفكر به: "ألا تعتقدين أن هذه الفكرة سوف تشوه سمعتي إلى حدٍ ما؟".

دورت عينها ثم أومأت متفقدة معه ولم يلاحظ تشارلز مسحت الخيبة التي خيمت على ملامحها فقد كان يضع عينيه على كأسه ويتكلم حيث قال مقترحًا: "يمكن أن نقول أننا لم نتفق فقررنا الانفصال"

رفعت بصرها نحوه متفاجئة كما يبدو فإن هنالك شيء بداخل عينها يومض بمشاعر محبوسة، ولكنها ابتسمت وادعت الإعجاب بفكرته: "هممم، نعم هذا سيكون جيد. شكرا هكذا سوف أتمكن من السفر بحجة أن قلبي مكسور. سوف أعود لحياتي الطبيعية وسوف تكف أُمي عن الضغط علي. إياك أن تفسد المسرحية مفهوم؟".

"أنتِ أغرب امرأة مرت في حياتي!"

دخلا في عهد صمتٍ وجيز فتطلعت فلورا إليه خفية متوجسة، أربكها تشارلز بأن التفت نحوها فجأة وهو يقول: "إذا لم يكن هذا السؤال شخصيًا بالنسبة لك، فهل يمكن أن أعرف سبب عزوفك عن الزواج؟".

مدت بسمة جانبية مآكرة بشفتيها المصبوغين حمرة ثم أجابت: "ما يجعلك تعزف عن الزواج، هو ذاته ما يجعلني أعزف عن الزواج".

قهقهه بتثاقل وهز رأسه: "إذن هل عذرك يشبه عذري، لا ترددين من يسرف مالك ويتعب قلبك؟".

لوحث بيمينها ضاحكة بسخرية: "لا يمكنه أن يعبت بمالي مهما فعل، فوالدي سيقتله". ثم رمقته بنظرة ذات مغزى أثناء همسها: "لكن الكارثة، من سوف يخلصني من حب رجلٍ يتعب قلبي"

ضحك تشارلز ضحكًا متواصل حتى اضطر إلى الإطباق على شفتيه لكبح اهتياجه مما جعل كلا منكميه بهتان. قال بعد أن هدا ضحكه قليلا: "أرجو ألا تتورط مع رجلٍ يتعب قلبك!" انخرط كل من فلورا وتشارلز في الحديث، وعلى بعدٍ منهم كان الكونت يقف مع أحد الضيوف يبادلهم بعض الأحاديث وحين مالت عينيه صوب تشارلز كانت عبارة عن نظرة غير محددة لكن لسبب ما عاود النظر إليه مجددا وأمعن التحديق في ملامحه الباسمة بدت عليه تعابير مريبة تدل على الاندهاش من أمر وكان هاجسًا ما استيقظ في داخله. تعذر من الضيف وأومأ له ثم اتجه نحوه مباشرة، وقف أمام الاثنين بهامته الرجولية، طويلًا طولًا مستساغ وحسن الوجه،

ملتحي بشكل خفيف مهذب، وكان مهندساً ببذلة رمادية ذات صدرية سوداء. ألقى عليهما التحية بصوتٍ مبوح: "طاب مساؤكما، أرجو أنكما تستمتعان بالحفل".

شهقت فلورا شهقة قصيرة تنم عن تفاجئها، ثم انحنت بلباقة قائلة: "آه بتأكيد، سيادة الكونت".

- "يسرني ذلك".

- "شكرا لك على دعوتك لنا".

- "لا داعي للشكر، عائلة كنديل في رأس القائمة دوماً" ثم تطلع نحو تشارلز برهة ينتظر حديثه ولما انتهت فلورا لذلك ابتسمت بلباقة ثم بادرت لتعريفهما ببعضهما: "بالمناسبة، دعني أعرفك سيادة الكونت، السيد تشارلز غرنالد مرافقي".

خط تشارلز بسملة عريضة على محياه وومد يمينه ليصافحه: "سررت بلقائك سيدي الكونت، وأرجو أن تعذرني لأنني حضرت حفلتك بدون دعوة رسمية"

لم ينطق الكونت بأي كلمة ولم يبادر بمصافحته مما أثار شعور محرّجاً في نفس تشارلز ورغب بإنزال يده لكنه تردد وظل ينظر لعيني الكونت، لاحظ أنه يتفحصه ويحدق بوجهه كما لو كان غير منتبه ليده. التفت تشارلز عنه وتطلع إلى فلورا مستغرباً شأنه وتلك هزت منكبها تبسمت بارتباك، وعندما هم بإنزال يده تفاجأ إذ أن يد الكونت أخذت بيده وصافحه بقوة ثم لين وجهه الجامد بابتسامة وإمالة خفيفة خلال قوله: "لا داعي للاعتذار. تشارلز غرنالد اسمك مألوف".

- "أوه، حقاً!".

أردفت فلورا بلهجة الحيوية: "لابد أنك سمعت به فهو عازف بيانو معروف!".

- "هممم، فعلاً" قال الكونت وهو يسحب يده بهدوء ليرجعها خلف ظهره ولم يبدو مهتم بما قالته، عاد ينظر لتشارلز مستكماً حديثه: "ألي أن أسألك عن والدك؟"

- "والدي" همس تشارلز مستغرباً ثم أزاح بصره عن الكونت محرّجاً شفطيه "ف..." قبل أن يكمل نظر للكونت بسملة كاذبة وأكمل قائلاً: "جوناثان".

هز الكونت رأسه مهمماً ثم زفر زفرة قصيرة لاحت خائبة لكنه لم ينح ابتسامته اللبقة: "سررت بمجيئك سيد غرنالد، هل أنت من معارف الآنسة كنديل؟".

- "تقريباً".
- "أرجو أن تأخذنا راحتكما وتستمتعا بالحفل"
- شعر غرنالد بإحساس مريب حينما تطلع إلى عينيه الرماديتين، لكن لم يستطع فهم ذلك الإحساس، واستمر الكونت يحدق به حتى قرر تشارلز أن يزيح عينيه من باب اللباقة، وفلورا بينهما تارة تنظر للكونت وتارة أخرى لتشارلز محتارة من هذا الجو الغريب. قررت المبادرة بضحكة خافتة ظريفة تسأل الكونت: "إذن، أين هي الكونتيسة الجميلة حتى أبارك لها؟".
- "أعتقد أنها هنا في مكانٍ ما ترحب بالضيوف". قال الكونت بصوت بليد:
- "ها هي هناك مع مجموعة السيدات".
- نظر الاثنان للجهة التي أشار إليها، لم يتعرف عليها تشارلز لأنه لم يرها من قبل، لكن فلورا هتفت قائلة بعفوية: "أن!"
- التفتت الكونتيسة لمصدر الصوت وحالما رأتها انفجرت أساريرها بلباقة مطلوبة في حفل يضم مجموعة من الطبقة الباذخة النبيلة، كما أنها تأنقت بفستانها السكري ذو طبقة كاملة من التندails المزركش، الأكمام فضفاضة تلمع بالكرستالات التي تزين قماشه المخملي السكري يميل للون الوردى، والصدر مغلق محتشم.
- اتجهت إليها بعد أن استأذنت من ضيوفها، وقد برعت في وضع مساحيق التجميل لتخفي الكدمة البسيطة على صدغها الأيمن، خصالها المشعة كالشمس أطرت وجهها، كما أنقلت من حمرة الشفاه لتستر تقرح شفها السفلية.
- تأمل تشارلز ملامحها، ولسببٍ غريزي أحس أنه غير قادرٍ على صنع بسمة مرتاحة، فما كان منه غير التصنع، خاصة أن ذلك الكونت المريب ما زال يحدق به، فتساءل بينه وبين نفسه محتارًا _ما خطب هذا الرجل?_
- مرت الدقائق بعد تعارفه بها، من ثما تسرب بهدوء ووقف في الشرفة الخارجية للقاعة، جعل عينيه مرصداً يراقب ههما النجوم.
- قاطع انفراده قرب خطوات شدته للالتفات، ليظهر أنه الكونت ذاته.
- "أتميل إلى العزلة؟". سأل الكونت بابتسامة ودودة انشقت على امتداد وجهه حتى ضيقت اتساع جفنيه لتظهر خطوطاً على جوانب عينيه.

- "إلى حد ما". أجاهه.
وقف إلى يمينه ثم تهدد وكلتا ذراعيه تستقران خلف ظهره المشدود يرفع ذقنه عاليًا بوقار. ذقنه كُسيت بشعر خفيف بني يزحف حد شدقيه وشارب يحوط شفثيه الزهريين، خصال شعره ذهنية شقراء. تأمله تشارلز من ركن عينيه، شعور الضيق... أو لم يكن ضيق، هو فقط لم يعرف سبب الهاجس المهم الذي يعتريه؛ كلما اقترب هذا الكيان منه. استمر يحدق بخفية من ركن عينيه لعل في تفاصيل وجهه ما يقرأ لكن لا شيء.
فجأة قطع الكونت دانييل شروده في طبقة الليل لامعة، والتفت إليه يسأله: "كيف تسير حياتك؟".

رفع حاجبيه مستغربًا، لكنه أجاب بهذيب: "اممممم، جيدة".

- "جيدة؟ إنها كلمة واحدة ولا أظن أنها كافية".

ضحك تشارلز بهدوء متكلف ثم أنكس رأسه.

- "سمعت من الحاضرين أنك محققٌ مخضرم! يبدو هذا عظيمًا محقق وعازف بيانو كما لو أنك خرجت من قصة روائية". قالها الكونت بلهجة تقديرية.

- "الأمر لا يتعد عدة قضايا. لست بذلك الشخص العبقري، فأنا أساعد في بعض الأحيان لا غير، لأن والدي يعمل في مركز الشرطة".

أومأ الكونت متفهمًا، ثم زفر بهدوء وأطلق عينيه صوب الفضاء حول قصره، ولم ينطق بشيء.

انتهى الحفل وبدأ المدعون يغادرون الواحد تلو الآخر وكان تشارلز والآنسة فلورا من ضمنهم، غادرا بتزامن مع مغادرة السيد والسيدة كنديل، كما أن الكونت حرص على توديعهم بنفسه بالأخص تشارلز، وكان واضح للجميع مدى اهتمامه وشروده المتواصل أثناء محادثته أو النظر إليه، لم يكن يعير الحاضرين انتباهًا كما كان يعيره له، حتى زوجته لم يكن يقف معها إلا بضع دقائق...ركب تشارلز مع فلورا وبعد وقتٍ من عبور السيارة حدود القصر استذكرت فلورا أمرًا فالتفتت نحو تشارلز تسأله باستغراب: "تشارلز، أخبرني لما قلت أن اسم والدك جوناثان؟".

أجاهها باقتضاب مع بسملة متكلفة: "لأنه من رباني".

أومأت متفهمة ثم ضمت شفثها صانعة بسملة رقيقة.

هدأت القاعة وأطفأت الشموع ونامت الحركة في زوايا القصر. خطى الكونت بخطوات متقاربة في الرواق الذي زينته جدرانته بشمعدانات تحمل مصابيح مضيئة تصنع أشكالاً قد تبدو مخيفة وهي تندمج مع زخارف الأثاث. وعلى بعد خمسة أمتار طاولة نحيلة الأرجل عريضة الطول، عليها غطاء مطرز باليد وفوقها مزهية نفيسة ذهبية، والنوافذ تلمس الأرض والسقف، كانت الستائر المخملية بعضها مزاح لجنب وبعضها يغطي الزجاج.

وصل إلى غرفته، لكنه توقف لثواني، تهد فيهما يهوى نفسه وقد أغمض كلتا جفنيه لثواني، ثم أمسك مقبض الباب وأداره خلال فتح جفنيه، دلف بهدوء، كان الظلام حالك وليس هنالك غير شمعدان واحد فوق طاولة يضيء حيزاً بسيطاً وزوجته قد خلدت لمضجعتها أنفاً. في الحقيقة هي لم تظفر بنوم، كانت متلحفة بالغطاء وتأخذ الجانب الأيمن من طرف السرير، بينما الجانب الآخر فارغ بارد، تتمسك بالغطاء وقلبيها يخفق باضطراب فأغمضت عينها بقوة وازدردت ريقها.

لم يكن في فكره شيء دخل وأغلق الباب، فك ربطة عنقه ثم جلس بهدوءٍ على الأريكة.. سمعت الكونتيسة صوت زفيره الذي يوضح التعب والهم الشديدين مع ذلك هي لم تلتفت نحوه، ثم سمعت صوت باب الخزانة يفتح ويغلق، مرت دقائق بدون أن تشعر بحضوره والصمت أطبق على الغرفة بشكل كامل. قررت أن تلتفت بعد تردد وصوت تنفسها يسمع كزفير خافت، تفاجأت حينما رآته قد نام على الأريكة وغط نفسه بغطاءٍ صوفي. نهضت بهدوء بقيت تتأمله وقد كان يعطي ظهره ناحيتها. ابتلعت ريقها وأخفضت منكبها مع تهيدة قصيرة، عاد تستلقي على جنبها الأيمن وقد تمتمت بكلمات غامضة: "لم يبقى إلا القليل، القليل فقط وسينتهي كل هذا!"

الفصل الثالث

مرت عدة أيام بشكل رتيب، لكل شخص رتبة معينة تختلف عن رتبة جاره. كان تشارلز يزاوّل عمله في التدريس، داخل قاعة البيانو يقف بقرب أحد طلابه ويستمع إلى عزفها على البيانو بكل براعة تدل على موهبتها وقدرتها الفريدة. بدأ أستاذها مأخوذ الحواس يغمض كلتا عينيه وينصت بكامل تركيزه. حالما انتهت كما لو أن أسر حواسه قد انفك ففتح عينيه ونظر إلى طالبته تستنشق وتستقيم في جلستها. التفت إليه بذلك الوجه ذو الخدين المشدودين يتزينان بالتمش، عينيه بنيتين صافيتين ذات شعير منسدل كثيف بلون الكراميل. وقفت ومدت بسمّة عريضة متحمسة: "ما رأيك أستاذ غرنالد؟"

أوما تشارلز مستحناً وقال: "أدائك يتحسن بشكل ملحوظ وأصبحت أجد روحك الخاصة في العزف. أعتقد أنك سوف تبين حسناً في المستقبل."

سرت كثيراً بمدحها فالتفت مسرعة لتجلب طرفاً من على المنضدة. قدمته له بشيء من التردد ثم قالت: "أ. أستاذ ألفت هذه المقطوعة أعلم أنني أثقل عليك ولكنني أسعد بنقدك لذا سأكون مسرورة بأن تتطلع عليها وتعزفها."

تناولها تشارلز وأبدى إعجابه الشديد بطالبتها: "ألفت مقطوعة هذا رائع! أعدك سوف أقوم بمراجعتها لك."

هتفت بهجة كبيرة أنارت ملامحها الخجولة: "شكراً أستاذاً!"

"العفو!"

وأثناء مغادرته من مبنى الأكاديمية من الباحة الشمالية، كان يسير عبر الممر المرصوف له سقف يرتكز على أعمدة رخامية، خلال سيره قابل ثلة من الطلبة أومئوا له باحترام حينما مر من جوارهم فابتسم لهم. تابع تشارلز سيره وهو يحمل بيساره مطروف طالبتها. عادة كان يقطع جزءاً من يومه للمرور على الحديقة العامة ليمضي بعض الوقت في القراءة إلا أنه تنازل عن تلك الساعة من النهار بسبب إرهاقه واتجه إلى شقته.

وصل إلى البناية السكنية أدار مدخله ودلف ثم ألقى التحية على العم هيرل وتابع يمضي لجهة الدرج، صعد عليه وصولاً للرواق الأيسر، مثنى فيه باتجاه شقته، لكنه ما أن اقترب أشتم

رائحة زكية تفوح من تحت أعتاب باب الشقة. جعله ذلك يتسمر مهوئاً يحدق في رقم الشقة حتى نطق: "٢٥٠، إنها ذات الشقة لم أخطيء!".

تراجع خطوة حتى يقرأ أرقام الشقق المجاورة: "نعم، نعم! إنها شقتي. ولكن من أين تأتي هذه الرائحة؟".

أدخل المفتاح وفتح الغفل، دلف بخفة وتأكد له إن مصدر الرائحة فعلاً صادرة من داخل شقته. اتجه للمطبخ وحالما رأى حضوراً أنثوياً مشرقاً ارتفع حاجبيه باندهاش ثم استضحك قليلاً ولا يزال المظروف الأصفر محمولاً بيده: "فلورا كنديل!".

انبثاقٌ صوته عنوة هكذا جعلها تستدير مذعورة وهي تمسك صحنًا بين يديها، تطلعت إليه برهة وقد شلت حركتها ثم تضحج وجهها بحمرة محرجة وهي تضحك ببراءة:

- "أنت لا تأتي في هذه الساعة!".

- "المعذرة، هل تم تبديل أرقام شققنا دون إخطاري بشيء؟".

قهقهت بعذوبة ثم أجابت: "لا، لم يحدث شيء من هذا. فقط قلت لماذا لا نتناول الغداء سوياً الليلة؟".

وضع يمينه على خصره وتكلم سائلاً: "وكيف دخلت إلى الشقة؟".

- "مم، طلبت من العم هيرل أن يعطيني المفتاح الاحتياطي، أخبرته أنك على علم وأيضاً هو دعاك للتناول العشاء معنا ولكنه نسي أن يعطيني مفتاح شقته". ثم ابتسمت ابتسامة وردت خديها جعلتها تبدو طفلة مدللة.

ضيق تشارلز جفنيه قائلاً: "أنتِ تستولين على حياتي، فلورا كنديل".

- "أظن أنه استيلاء حميداً". أومأت مطمئنة بابتسامة عريضة.

حضر وقت العشاء، وليست سوى دقائق حتى قُرع الباب، نهض تشارلز وفتح الباب لاستقبال العم:

- "أهلاً عم هيرل".

دلف وهو يخلع قبعته الصوفية ويقول بابتسامة بشوشة مرهفة زينت وجهه الأبيض المسطر بتجاعيد عميقة أعلى جبينه، كما أن بعضاً من خصاله البيضاء أطرت ملامحه:

- "شكراً يا بني. طاب مساءك. أشتم رائحة توفظ عصفير بطني".

- "أصبت. أنت والآنسة الرقيقة تعاونتما على استيطان بيتي".
- "لا، فقط أردنا أن نعلمه ببعض الحركة. ألا تمل الجلوس وحيداً بين زوايا شقتك! أتعرف، لدي قريبٌ يعيش وحيداً"
- أشار له تشارلز بالجلوس على الأريكة. في حين تابع العم يقول: "لعلمك إنه في الثلاثين، أي كان شاباً يمكن أن يقدم الكثير لنفسه ولمن حوله، إلا أنه فضل سجن نفسه في منزله حتى أصبح شبيهاً بحيوانٍ متوحش لا يقابل أحداً ولا يهتم بأحد، وحينما أصيب بالمرض لم يداريه أحد، ثم مات وحيداً ولم يحضر جنازته إلا أنا، وأنا ما كنت لأعلم بموته لولا رسالة بعثها رئيس الأبرشية في بلدته".
- ارتد الشاب بخفة للوراء مذهولاً من هذه النهاية التعيسة: "يا للهول! لا أظنني سوف أنتهي إلى مثل هذا الحال المزري".
- "بل إن أظنك هكذا، أنت تتبع نفس المسار".
- "يا رجل!" ضحك تشارلز حتى اهتز منكبيه
- تجلج صوت فلورا يستقطع حديثهما: "العشاء جاهز" ثم خرجت من المطبخ وبين يديها صحونٌ زجاجية: "أهلا سيد هيرل".
- أردف هيرل مازحاً:
- "إنها تعلب دور الزوجة. أما أن لكما أن تتزوجا؟".
- ضحك تشارلز ثم قال: "الوضع مثالي هكذا".
- أردفت فلورا وهي ترتب الأطباق: "لأنه يعطيني راتباً على كل هذا فعلاً سيكون مثالي".
- تناول الثلاثة العشاء في جو لطيف ودود كانت المأكولات التي أعدتها الآنسة كنديل لذيدة ومتقنة، فعلق العم باستحسان:
- "أنتِ أول آنسة ثرية اقبلها، تجد الطهي بهذه البراعة!".
- ابتسمت وقالت:
- "هذا بديهي، ما دمت أعيش بمفردي أحياناً فعلي أن أخدم نفسي".
- نظرت لتشارلز وكان يبدو على طبيعتها الترقب لرده: "ما رأيك أنت؟".
- "لا أزيد حرف عما قاله العم هيرل".

تبسم العم ثم استطرد سائلا: "إذن لم تحكي لي، كيف مضت السهرة التي حضرتموها؟" بعد قوله هذا خص نظرة لفلورا تلوح ذات مغزى، حتى أن الأخرى ولسبب ما توردت خديها واخفضت بصرها. أجاب تشارلز بعد احتسائه من النبيذ وهو يرمق الأنسة وربما ذاك ما جعلها تخفض رأسها وتكتم الضحكة اللطيفة:

- "يمكنك أن تسأل الأنسة الماكرة". قال تشارلز فنظر العم لجهتها، بينما تابع تشارلز يقول وابتسامة وديعة تزين وجهه: "لا أصدق أنها تمكنت من خداعي وجعلي أشاركها في تلك المسرحية. أتصدق أنها اصطحبتني لأجل أن ألعب دور الزوج المستقبلي. حينما وقفت أمام والدها اعتراني شعور بأنه راغب في خنقي".

ظل العم يطم من شفثيه حتى اتسعت بسمة عريضة أظهرت أسنانه المصطفة السليمة:

- "لقد قابلت الأدميرال كنديل ذات مرة، وذلك حينما جاء لزيارة ابنته. إنه رجل عسكري وعلى قدر كبير من اللباقة التي تجبرك أن تقف بكل احترام أمامه، كما أنني تعجبت! كيف لرجل متشدد مثله" تطلع لفلورا متما: "أن يكون له ابنة تحوي جنون كهذه التي تجلس بصحبتنا". ضحك تشارلز بصوت متكلف أثار فيه غيظ فلورا التي قالت باعتزاز: "قد ترى والدي عابسا طوال الوقت بحيث يهرب كل من حوله، ولكن في الحقيقة إنه أكثر الآباء حنانا على الإطلاق... حتى إنني في الأحيان أتمنى أن يكون فمّن يتقدمون لخطبة خصلة من خصال أبي" نظرت لتشارلز واتمت: "يظهرون الشدة والتحفظ ويخفون حنان ورقة بالغين من الداخل. ولكن هيات".

تبسم وأجابها بصوت هادئ رزين: "لا تقطعي الرجاء، فأنت لا تعلمين قد يظهر واحد في أي لحظة".

ضمت شفثيها واكتفت بابتسامة خطية ولم تطل النظر إليه، ثم غمغمت بحسرة: "المصيبة أنه يجلس مقابلي الآن. أليس هذا شيئا يدعو للغيظ!؟"

بعد احتسائه كأس أخرى من النبيذ والتدفئة وتبادل بعض الأحاديث الجانبية المرفهة، استأذن العم هيرل وغادر، لكن فلورا ظلت. كان تشارلز قد أخرج الأوراق من المظروف الأصفر يطلع بتمعن وهو على أريكته يرتدي نظارته، واللهب داخل المدفأة يستعر منتجا طقطقة مريحة بالنسبة له.

قدمت فلورا وجلست على مقعد منفصل كبير له مسندين معطوفين يقبع إلى الزاوية اليسرى بجوار المدفأة ويقابل تشارلز مباشرة.

نظر لها حينما قالت: "غسلت الصحون والكؤوس وأرجعتهم إلى محلهم".

ابتسم بلباقة وقال: "شكرا على جهودك المبذولة، أنسة كنديل".

قابلت رده بابتسامة طفيفة وإمالة خفيفة، ثم صمتت لبرهة ترأقب عمله.

سألته: "ما هذه الأوراق؟".

"امممم، إنها لإحدى الطلبة في المعهد. تدعى ناتالي، إنها شابة موهوبة لديها شغف في تأليف النوتات الموسيقية. كوني أستاذها شعرت أن علي الاهتمام بموهبتها أكثر. أخبرتي أنها ألقت نوتتاً وتريد مني عزفها لأرى إن كانت جيدة".

أومأت ثم انقعد لسانها مجدداً، كانت تنظر إليه من حين إلى آخر وكأنها ترقب تركيزه حيال مسألة تحاول أن تظهرها في ملامحها، لكن لاح لها أنه لن ينتبه ولو وقعت على هذه الحالة إلى الفجر... بعدها حررت زفرة استعداد وقررت أن تبادر هي وتقول: "هل يمكن أن أسألك سؤالاً؟".

"طبعاً".

"هل كانت لديك أية علاقة سابقة؟".

استغرب سؤالها وتقارب حاجبيه برقة ولم يزح تركيزه عن الأوراق:

"علاقة! مثل ماذا؟".

هزت كتفها وقلبت بصرها تجر الحروف من فمها لتجيب بتقطع: "علاقة... مع امرأة جميلة... مثلاً؟".

تطلع إليها مقطباً ومستنكراً قولها، وظل برهة يرمقها، ثم استضحك وأزال عنه تلك التفاصيل المتجهمة. أنزل بصره للوراء وأجابها: "نعم".

"ألديك علاقة من هذا النوع؟". قالت فلورا بانفعال وطفقت ترمقه بعينين بلغتا من الاهتمام مبلغاً واضح.

"نعم، وهي حالياً تجلس على المقعد بقرب المدفأة".

ارتفع حاجبها وتطلعت لموقعها لتعلم أنها المقصودة، تهتدت بقوة وقالت:

- "لم أكن أعني نفسي. أعلم أن علاقتنا تنطوي تحت مسمى الجيرة أو هكذا يبدو الأمر على الأقل. قصدت علاقة من نوع آخر..." ضمت شفيتها وحمرت خديها كما أن صوتها كان منخفضًا: "علاقة حب مثلاً".
- تقارب حاجبيه مجددًا باستنكار وقال: "حب! أه محال!".
- "أتعرف توقعت ذلك، فأنا لم أرى أية امرأة حولك منذ أن تعرفت عليك".
- "من الذي لديه وقت لهذه الأمور الصبيانية؟".
- طفقت ترمش في دهشة وهي تتمتم: "صبيانية!" ثم رفعت صوتها قليلا مضيئة: "أتعجب منك في بعض الأحيان، لا أعلم أجدك انعزاليًا ولا أنكر أن طيف التكبر يحوم حولك... صراحة هذا ما ظننته في بادئ الأمر فعلاً "
- قاطعها وهو يهز رأسه بأسى وخيبة: " لا أصدق! هل ترينني متكبرًا! هذا مؤلم! "
- قهقهت بنعومة ثم قالت مبررة قصدها: "كلا يا تشارلز، أخبرتك! كان هذا في البداية لا غير، لكن بعد أن تعرفت عليك اكتشفت أنك تملك روحًا ظريفةً وقلبًا نبيلًا. أخبرني، لما تميل للانغلاق على نفسك؟ ليس لديك الكثير من المعارف ولا أصدقاء. حتى، بل نادرًا ما أراك مع أحد في الحقيقة غير أفراد عائلتك".
- نزع نظارته وتهد، توسعت بسمة وديعة على ثغره فأسئلتها الكثيرة جعلته في ريبة، هز كتفيه واعتدل في جلوسه قائلاً: "لنقل... ولدت هكذا انعزاليًا".
- لوحت بيسارها غير مقتنعة بكلامه: "أوه أشك في ذلك. ولكن إن لم يخب ظني، فأنت هكذا لأنك مررت بخيبات أملٍ محبطة".
- شرد في كلماتها ومالت عينيه لزاوية الأرض متمتمًا: "خيبات أمل!" ثم رفع صوته وقال بعد ذلك: "تبدو صيغة جيدة".
- "أها، حسنا. أيمكن أن تطلعني على خيبة؟ ... أعني إن أحببت أن نتحدث فقط".
- زم تشارلز شفتيه مفكرًا ثم أجاب: "حينما كنت في الحادية عشرة أحببت فتاة ولكنها ضاعت مني. للأسف لم أكن من النوع الجريء!".
- ضحكت متفاجئة ثم قالت: "وهل هذه خيبة أمل؟".

- "ماذا! بطبع إنها خيبة أمل! لقد كنت موقفاً أنها التي قدرة لي وأنا سوف نمر بحالات العشاق العبيثة تلك، وأنا سوف نشيخ معاً ثم يبكي أحدنا على الآخر ويتمنى الموت قبله حتى لا يعيش بالتعاسة والكآبة من بعده. ولكن للأسف كل ذلك كان مكدياً في عقلي فقط. دعيك من الاستماع إلى ما أقوله إن الحب كتب علي أن يكون من طرف واحد".
- تمتعت فلورا بالضحك حتى تورد خديها المكتنزان ثم قالت بمشقة وهي تمسح دمعات الضحك: "وماذا عن الآن؟ ألم تستطع إبلاغ تلك الفتاة بما تكنه لها؟ أو أخشى أنها ضاعت للأبد وتزوجت".
- أجاب بشيخ ابتسامة متأسية: "لا، لقد ماتت للأسف".
- "آه يا للقدر! أسفه!".
- "كان ذلك منذ زمنٍ بعيد".
- "وهل هذه الخيبة هي التي دفعتك لتبقى بعيداً عن هذه الأمور؟ أقصد ألا تحب مجدداً".
- "كلا، لقد التهيت بدراسة وبعدها بالاستمتاع بحياتي".
- "ماذا!". أردفت متعجبة رده السريع.
- ضحك بتكلف حينما رأى تعابيرها وفمها الفاجر، ثم قال: "أعتقد أنني مستسلم لرأيي حيال عدم قدرتي على التجاوب في مثل هذه العلاقات. لذا أفضل الاكتفاء بنفسي".
- "أتعني أنك لا تخطط بأي شكل من الأشكال في أن ترتبط بأي امرأة في المستقبل؟".
- أوماً: "يعني، يمكنك قول ذلك".
- غمغمت بإحباط: "كم هذا قاسي!".
- "عفواً؟".
- لوحث بيدها وأردفت: "لا، كنت أقول إنك عجيب". كانت مغتاضة من رده، لكنها أخفت الأمر ببراعة
- "حسناً إذن يا سيد أعزب" قالت فلورا وهي تهض: "أنا أظن بأنني أطلت المكوث. طاب مساؤك".
- "طاب مساؤك أيضاً".

حينما هم بهيوض ليرافقها نحو الباب أوقفته قائلة وقد بان في نبرتها نغمة امتعاض: "لا، لا، لا داعي! أعرف طريق الباب، ليس وكأني غريبة. أبقى أنت مع نوات طالبتك المتفانية!".
أحس تشارلز بخطب ما في حديثها، تتبعها ببصره حتى غاب ظلها وسمع صوت الباب يغلق:
- "ما حكايته اليوم؟".

**

في الصباح اليوم التالي ومع شروق الشمس، اتجه تشارلز إلى عمله، أمضى ساعات نهاره بين إعطاء دروس تعليم البيانو ومجالسة طلبته ناتالي كانت يقعد على مقعدٍ بلا ظهر يقرب البيانو ويتبع عزفها على مقطوعتها التي ألفتها ويسدي لها نصائح ارشادية. ثم التمس ساعة قبل الغروب ليذهب إلى الحديقة العامة، جلس على مقعد خشبي رجليه ومسنديه من الحديد، تدلت من فوقه أغصان شجرة الزان تتمايل بخفة مع النسيم البارد، الاسترخاء الذي ينجم عن صوت غدير مياه البحيرة الزجاجية والتي تبعد عنه ٢٥ مترًا كانت كافية لجعل مزاجه معتدل. بقي ساعة كاملة يقرأ هناك.

مال ميزان المساء واكتسح بلونه البرتقالي الزاهي صرح السماء. غادر تشارلز الحديقة واتجه إلى منزل رجل هو بمثابة نعمة عظيمة وهبت من الرب له، المفتش جوناثان غريس، كان بمثابة شريان تتدفق الحياة من خلاله إلى قلبه اليتيم.
إن منزل المفتش العام يبعد عن الحديقة ٣ كيلومترات، سلكها عبر شارع -هدرنيلد- الواسع حيث العمائر الطويلة الحمراء تصطف من جانبيه، وصوت عجلات العربات مع صرير حوافر الأحصنة تحتك بالأرض تزاوحها السيارات بمحركاتها الصاخبة وضوضاء الناس بخطواتهم على الأرض تحمل إيقاعًا عشوائيًا، انصهار مكنونات الوجود شكل نوعًا من التنغم الفذ والذي لا يلاحظ عادة لمن يعيشون حياة عجولة مادية، بالنسبة لتشارلز كان ينظر إلى كل زاوية والبسمة الرقيقة تجمل وجهه.

استمر في المشي على الرصيف الأسفلتي، قطع الشارع الفرعي ثم سار ٢٠ مترًا على رصيفه، كان يحده من اليسار سورٌ أسود يرتفع عن الأرض بمقدار مترين يحيط مبنى عملاق عريق يكون مقر الشرطة المركزية في العاصمة، زُرِع على الجانب الخارجي من الأسوار شجيرات أعطت الرصيف

جمال من نوعٍ ما، حتى رغم تعريها وبروزها بأغصانها البنية المتعرجة والمتشابكة بطريقة بديعية كانت جميلة.

خلال مشيه وتأمله انتبه على صبيٍ يمسح الأحذية في ركن الشارع من الجهة المقابلة. وقف يحدق به لبرهة وهو يمسح حذاء رجل برجوازي يرتدي معطفاً أسود وقبعة طويلة. أما الصبي فقد كان بالكاد يجد الدفء من معطفه المرقع يلف رقبتة بوشاح مهترئ، شعره أشعث بني قسوة الحياة جعلت الجفاف مترسباً في تفاصيل وجهه الضعيف الشاحب. قطع الشارع متجهاً نحوه حالماً أنهى تنظيف ومسح حذاء ذلك البرجوازي الذي رمى له أربعة قطع نقدية من فئة الخمسة راشاتانات². وقف تشارلز أمامه ثم ربت على شعر الطفل أثناء جلوسه على أمشاط قدميه وابتدر حديثه بصوت مرح: "مرحباً!"

ناظره الفتى باستغراب واكتفى بالإيماء، بينما سأله تشارلز: "هل لك عائلة؟"

هز رأسه إيجاباً فسأله مجدداً: "هل تعمل لتعيلهم؟".

هز الفتى رأسه مرة ثانية وعاود تشارلز يسأله أيضاً: "أين والدك؟".

- "ميت" أجاب باقتضاب وقد لاح متوجساً من حال تشارلز وكان ذلك واضحاً في عينيه اللتان تتفحصانه جيداً.

- "كم عمرك؟"

- "عشر سنوات".

- "هل أملك حياة؟"

- "نعم"

- "إذن لما تعمل أنت؟"

- "إنها مريضة".

- "هل لديك إخوة؟".

راشت عملة راشتفيرد، راشتان، راشاتانان، راشاتانات،²

تضايق الصبي من فضوله وزفر ساخطاً من أسئلة هذا الغريب، لكنه قرر إجابته ليتخلص منه: "نعم وهم أصغر مني. ما الذي تريده؟".

استضحك بخفوت معجباً من حذره فهو يرد على أسئلته باقتضاب شديد وعينيه البنيتان معلقة عليه، مع ذلك أكمل في طرح أسئلته مبتسماً: "متى تعود إلى البيت؟" رفع الفتى حاجبيه مستغرباً من هذا السؤال فقال بحدة: "وما شأنك، متى أعود إلى البيت! ماذا تريد يا هذا؟".

"أريد فقط أن تخبرني متى تعود إلى البيت؟"

رد ساخطاً بنفاذ صبر: "أعود حينما أجمع ما يكفي من المال!"

ابتسم تشارلز متحسرة وأخفض رأسه متمتماً بصوتٍ مسموع: "لا تستطيع النظر في عين إخوتك إن لم يكن لديك المال لشراء الطعام، صحيح؟". قال ذلك حينما رفع بصره ورمق بعينيه الذهبيتين ملامح الفتى، بيد أن الآخر أخفض بصره متضايقاً يحاول كبح استيائه وعدم الزعيق في وجهه.

"أخبرني ما اسمك؟" عاد تشارلز لسؤاله وهذه المرة ثار الفتى عليه: "أنت! ما خطبك بالضبط ماذا تريد مني؟".

ضحك ليثير غضب الفتى أكثر وقد تورد خديه لكظمه غيظه. قرر تشارلز إراحته بطلبٍ أخير: "حسناً، آخر سؤال. أين تعيش؟".

ضيق اتساع جفنيه يفكر بطريقة لتخلص منه وفي نفس الوقت يفكر هل يجيبه أم يتجاهله. أبعد بصره عنه وبدأ يجمع أغراضه، وضع ممسحة الأحذية في الصندوق الخشي واتباعها ببقية الأغراض. أغلق الصندوق ثم وقف وغادر. ضحك تشارلز أثناء وقوفه انتظر قليلاً حتى يظن الفتى أنه لن يلحق به. ذهب الفتى إلى منطقة أخرى وفرش أغراضه ليبدأ جلسة الصبر في معيء رجل ليمسح له حذاءه. وفي نفس الوقت كان يتطلع من حوله متشككاً في ملاحقة ذلك الغريب له.

انزلق الوقت وحل الليل وخلال هذه المدة استمر الصبي بعمله لكنه لم يحظى إلا بأربعة زبائن. قبل أن يغلق صندوقه عد القطع النقدية التي جمعها، وبعد أن انتهى وضعها في جيبه وأغلق الصندوق ثم حملته وهض يمشي سعيداً منشراح الصدر. من خلف زاوية الشارع خرج تشارلز،

ظل طوال الوقت يراقبه حتى أنه سار خلفه بدون أن يشعره ، إنه مصرًا على معرفة أين يعيش. وقف حينما دخل الصبي إلى محل الخبز وانتظر إلى خروجه ليراه يحمل كيسًا ورقيًا فيه أربعة قطع من الخبز الساخن وثلاثة معجنات. ابتسم وبدأ يلحقه، ظل على هذه الحالة يمشي خلفه لساعة كاملة حتى استغرب وسأل نفسه _أين يعيش هذا الولد?_

سلك أربعة شوارع ثم انعطف ودخل زقاقًا وبعد الزقاق خرج وسار على طول شارع لوستين واستمر هكذا إلى أن وصل إلى حي لينهاستنغ السفلي وتشارلز خلفه تعب من السير وراءه بل واجتهد حتى لا يضيعه. بعد عدة دقائق من دخوله إلى الحي رأى عددًا من المتوسلين في طريقه ووجوه العامة التي تقطن تلك المنطقة ترعب المرء لشدة عبوسهم، والسكاري في كل مكان حيث إن الحانات منتشرة إضافة إلى أوكار الدعارة، فقد رأى بضعة نسوة يتشاجرن مع رجل وقف مندهسًا وكلتا حاجبيه مقضبان باستنكار.

حدث نفسه وهذه المرة لاح مرتاعًا: "يا إلهي إلى أين جئت؟ لا أصدق أن هذا الولد يعيش في منطقة كهذه!" ابتلع ريقه وتطلع للأمام ليرى الفتى قد اختفى فوقف مصدومًا ودب الارتباك فيه. هرول مسرعًا أثناء قوله: "تبًا لقد غفلت عنه لثانية!" حالما وصل إلى نهاية الشارع لم يكن هناك إلى منعطف واحد إلى اليمين فهم أن ينعطف لكنه توقف فجأة وسحب نفسه للوراء في ردة فعل سريعة منه إذ أن الفتى كان يقف على بعد خمسة عشر مترًا أمام باب منزل خشبي، يحوطه ثلاثة أطفال ما دون الرابعة يحيونه بحرارة وسعادة بالغين وكأنه عاد إليهم من بعد غياب طويل. شاهدهم تشارلز وبسمة رؤوفة على وجهه. حينما التفت كاد يصطدم بشاب أطول منه بعدة سنتمترات يرتدي معطفًا أسود، كخصاله المسودة الشعثاء، ملامحه حادة له صدغين برزين وعينين تبدوان خاملتا الجفون، ورغم كونهم مسحوبتين قليلا إلا أنهما واسعيتين تحويان قزحيتين تتشجان بلون بني مسود. استشعر تشارلز بالرهبة فيهما كما استفحل شعور غامض في داخله اتجاه هذا الشخص. ظل كليهما في صميتٍ وجيز حتى قرر تشارلز الاعتذار منه واكتفى الآخر بالإيماء ثم تخطاه وأكمل سيره. راقبه تشارلز ورآه يسلم على ذلك الفتى ثم وقف عندهم وتحديث إليهم وقد كان الفتى وإخته مغتبطين برؤيته جدا، كما سمع الفتى يناديه باسم السيد رولد.

الفصل الرابع

في صباح اليوم التالي وبعد إتهائه لمحاضراته خرج من الأكاديمية على وقع صوت جرس الكاتدرائية وذلك في تمام الساعة الثالثة عصرا. اتجه إلى بنك كارل بورد. سحب منه مبلغاً مالياً وُضع في ظرفٍ رسمي أصفر. أخذه وغادر من البنك مستقلاً سيارة أجرة. حينما كان داخل السيارة فتح الظرف وأدخل فيه رسالة ثم قام بإغلاقه مجدداً.

توقف السائق عند شارع لوستين. نزل هناك ثم تابع سيراً يتوغل داخل حي لينهاستنغ. خبأ الظرف داخل جيب معطفه البني وكان قلقاً غير مرتاح من أنظار العامة فقد أكلوه بأبصارهم متسائلين عن شأن هذا الشخص الذي يبدو من ثيابه الحسنة أنه ليس من قاطني هذا الحي الفقير المعدوم. بدأ يسرع في خطواته حتى سمع صيحة امرأة من إحدى الباغيات تنادي ساخرة بصوت نشزٍ للغاية: "أيها الوسيم هل تريد بعض المرح؟ يمكنني أن أمتعك حتى الليل!" ثم انخرطت في القهقهة مع رفيقاتها. تابع تشارلز طريقه بصبر متحملاً هذا المكان.

حينما وصل إلى منزل الفتى وجد بضعة أطفال يلعبون أمام منزله بكرة من خرق. بحث عن أحد أشقاء الفتى بين الأطفال وعندما عثر على واحدٍ فيهم وكان ذو خمس سنوات أشار إليه، نظر الصبي الصغير باستغراب. اتجه إليه سائلاً: "ماذا تريد؟".

- "شقيقك الكبير" قال تشارلز وهو يخرج الظرف من جيبه ثم أضاف: "لقد نسي هذه معي بالأمس. هل يمكنك أن تعطيه إياها أو تسلمها إلى أمك؟".

رمى الطفل الظرف لبضعة ثواني ثم حملها بين يديه وسأل: "هل هي لأخي مارتين؟".

- "نعم، إنها له. اسمع هل شقيقك في البيت؟".

- "لا" هز رأسه مجيباً فأردف تشارلز: "إذن أريدك أن تدخل للمنزل الآن وتعطيها لأمك. أيضاً قل لها مارتين ولدٌ جيد".

- "طيب".

راقبه تشارلز حتى دخل إلى منزله انتظر قليلاً ثم ابتسم لبقية الأولاد، كان مشفق ومستاء لعدم قدرته على شملهم بتلك الأموال. تراجع خطوة للوراء ثم غادر في حين نظر الأولاد لبعضهم مستغربين شأنه. حينما دخل الصغير وأعطى أمه الظرف قامت بفتحه وصعقت من المبلغ

الذي بداخله فلم تلمس يديها يومًا مألًا بقيمة ١٠ ألف راشتان. نظرت لولدها وسألته بانفعال: "من أعطاك هذا الظرف يا ولد؟!"

- "لا أعرف من يكون ولكنه قال أن مارتين نسي هذا الظرف عنده."
 - "مارتين.. م مارتين ولدي أنا!" قالتها بدهشة شديدة وكلتا حاجبيها مرتفعين. نهضت من السرير الذي كانت مستلقية عليه وهي تسعل، خرجت للخارج ظنًا منها أنها سوف تجد الشخص لكن لم يكن هناك أحد. تطلعت لولدها سائلة: "أين ذلك الشخص؟".
 هز منكبيه مجيبًا: "لا أعرف، كان واقفًا هنا قبل قليل".

تطلعت من حولها متوجسة ثم نادى على طفلتها تأمرها بالدخول للمنزل، ثم أغلقت الباب. أثناء دخولها ألقت نظرة للظرف ورأت بداخلها ورقة أخرجتها ثم فكت انطوائها لتقرأها: "من السيد الغريب ذو الأسئلة الكثيرة. هذا المال لأجل كونك ولدًا جديرًا بتحمل المسؤولية. انتقل أنت وأمك وإخوتك إلى هذا العنوان المرفق خلف الرسالة، سوف يكون هناك شخص ينتظركم وسوف يتكفل بكل ما يخصكم وفي نهاية كل شهر سوف يتم إرسال مبلغ مالي لأجل دراستك ولأجل علاج أمك". انفتحت أجفان المرأة صدمة مما تقرأ رفعت بصرها وهي تتمتم محتارة: "هل أرسل الله ملاكًا إلينا!"

حينما كان تشارلز يمشي في طريقه منكسًا رأسه متضايقًا جدًا لا يريد النظر في عيون المتسولين أو أطفال الشوارع المنتشرين تحتضنهم القذارة من كل جانب بملابسهم الممزقة، هو يعلم جيدًا أنه ليس بإله يملك القدرة على تبديل أقدار الناس أو تحسينها وذلك يكدر صدره ويؤلمه بشدة. بدون أن يشعر أوصلته قدميه إلى منزلٍ له لافتة من المعدن إلى جهة اليسار من الباب، نحت عليها (منزل جوناثان غريس) صعد على ثلاثة درجات حجرية ليصل إلى العتبة، ثم قرع الباب وانتظر.

فتح الباب لتطل امرأة كبيرة في السن يشع شعرها بياضًا كالثلج النقي، حالما رآته انشرفت أساريرها المثقلة بالتجاعيد، غمرتها بهجة عظيمة جعلتها تصيح قائلة: "آه إنه تشارلز!".
 بدت زوجة المفتش شريفة حبورة الوجه منشحة الملامح ومتوردة الخدين. احتضنته بحفاوة الأم قائلة: "آه، أخيرا رأيتك!"

- أردف بضحكة متكلفة: "كأنني لم آتي منذ دهر!".
- "غيبك لساعة دهرًا يا بني. هيا، هيا! أدخل".
- أفسحت له المجال ودخل، ثم مدت يدها قائلة: "أعطني هذا المعطف، سوف تبقى لتناول العشاء معنا، أختك وزوجها هنا أيضًا. كأن الرب كان يعلم ما في قلبي!".
- سُمع صوت خطوات ثقيلة مكتومة تنزل من درج خشبي والذي كان وسط جدارين ويصل إلى الردهة الخارجية أمام باب المنزل يقبع في الزاوية أقصى اليسار
- "سمعت صوت مألوف هنا!". جاء صوت السيد غريس عميقًا رصينًا
- "إنه تشارلز يا جون، تشارلز!". هتفت العجوزة مجيبة.
- أكمل المفتش الذي أقبل على منتصف الأربعين نزوله من الدرجتين الآخريتين. صاحبٌ لحية غزيرة بيضاء تغلغلت بين بياضه حمرة داكنة وشاربيه مفتولان، عينيه غائرتين يعلوهما حاجبان كثيفان، وقد اتصف بقصرٍ يسير وكثفين عريضين. تطلع لتشارلز وهو يخرج طرف الغليون من بين شفتيه وحرر معها قهقهة يسيرة متكلفة: "أهلا وسهلا أمررت بصدفة؟".
- "لا، لقد جئت قاصدًا إلى هنا. إلى حدٍ ما". ارتجل في إجابته.
- تسللت أصوات ضحكات رقيقات إلى مسامع تشارلز، وسرعان ما رأى أثناء دخوله إلى ردهة المعيشة ثلاثة أطفال، بنتان نضرتان وصبي ما دون السابعة، يشاكسون ويركضون حول المائدة ويضحكون بصخب. أطلت والدتهم الشابة، ابنة المفتش الوحيدة (روزالينا) كانت قصيرة نوع ما كوالدها، ممتلئة في بعض الجوانب، شقراء تهاد خصالها بطول ساحر مموج، خديها مزهران ممتلئان وعينيها كوالدتها زرقاء. كانت مهتاجة من صياح الأولاد، ألقت نظرة على والدهم المسترخي فوق أريكة ضخمة مريحة، تخص والد زوجته ثم أنبته بصوت مستاء: "ألفريد، أه لو أنك تكف عن الجلوس كقطعة الخردة عديمة المنفعة! انفض وأسكتهم عن هذا الصخب!".
- "إنهم أطفال يا عزيزتي، أطفال!، دعيمهم يفرحون قبل أن يروا تعاسة الحياة". أجابها وهو في حالت استرخاء كاملة بينما ساقيه ممدودتان فوق عتبة خاصة بتلك الأريكة الجلدية، وكلتا يديه فوق معدته.

تقدم السيد جون وحادثه أثناء نكز مرفقه الأيسر: "تعاسة الحياة إذن! أنهض عن مقعد يا فيلسوف".

ضحك ألفريد ونهض، يناقض زوجته في طوله، فهي بالكاد تصل إلى كتفيه. أشقر داكن وذو شفق واسع وبني العينان. حي تشارلز بروجٍ وديعة وأخذ يربت على ظهره: "ماذا يا أستاذ الموسيقى والجريمة، ظهرت على الساحة".
ضحك مستغرباً: "هل كنت في غيبوبة!".

تحدثت روزالينا وهي تضع الأطباق على المائدة: "إذا لم يروك في اليوم أربع مرات فكأنك غبت أربع سنوات. أحتاج من سحرك حتى أجعل البعض يحس بغياي".

ضحك ألفريد ثم أردف قائلاً: "سوف نحس به حالما ينقطع الصباح!".
ردت بغیظ: "يا لمزاحك الطريف يا حبيبي!".

لم يكن لتشارلز عائلة تبث الحياة في داخله لفترة من الزمن، لكن بعد أن هرب من الدير وتاها في غياهب الشوارع الموحشة أرسل له الله رجل نبيلًا ينقذه من قسوة الحياة... أو هكذا يبدو.

عند حضور موعد العشاء جلس الجميع على المائدة كالأُسرة الواحدة، دارت الأحاديث بينهم وكانت مثقلة بالنكات المرحة التي صنعت جوًّا مفعماً بالود والمتعة الخالصة، وقد انزلق الكلام بطريقة ما نحو التحدث عن الآنسة فلورا، كأنها سحر يلازم كل زاوية من حياته في هذه الأيام، إذ قالت السيدة غريس بابتسامة مأكرة:

- "ألا تحدثني عن جارتك الشابة؟ يا تشارلز. بدت لي شابة محترمة وهي من أسرة معروفة لها سمعة طيبة".

أردف ألفريد بعد احتسائه معلقة من الحساء وقد شد الموضوع اهتمامه: "شابة؟".

- "نعم، لقد مررت على تشارلز قبل أسبوع لزيارته لكنه لم يكن موجودًا فاستقبلتني. إنها جميلة والحق فإن أرها، ولو أنكم سوف تتعوتوني بالحاملة، زوجة لتشارلز؛ لقد أحببت روحها المرحة منذ أول لقاء". تكلمت السيدة ريسا غريس بعفوية وغبطة كبيرتين.

بيد أن تشارلز اختنق بطعامه وسعل ثلاثة مرات. ضحك السيد جون ثم قال: "هنالك من يخفي علاقة غرامية عنا!".

تحول وجهه للون القرمزي وهو يسعل، فقدمت روز كوب ماء له: "خذ، خذ! سوف تختنق. وجهه أحمر انظر إليه!".

شرب الماء ثم جاهد حتى يخرج حروفه وينطق: "إنها جارة لا غير!".

- "جاره! بل العلاقة أقرب من ذلك كانت تعني بك" تحدثت السيدة ريسا بعفوية منفعلة: "لقد أخبرتني أن شقتك قبل أن تدوسها كانت خرائب، وهي قامت بتنظيفها. كما أنها أخبرتني عن كونها تعد لك وجبات الطعام؛ لأن حضرتك لم يكن لديك وقت للأكل. ألا يدل هذا على أنها تهتم بشأنك؟".

رفع الشاب حاجبيه وفغرفاهه مندهشاً: "هل هي أخبرتك بكل ذلك؟".

- "نعم، ولولا أنني لا أريد أن أجردك من حرية اختيار شريكك. لأمرتك بزواج منها".

أطبق تشارلز شفتيه ولاك لسانه داخل فمه يحدث نفسه يا إلهي! إن فلورا تكتسح حياتي. ما هذا هل هي إشارة من القدر؟ قول روزالينا جذبه فصوب بصره ناحيتها: "أظنني سوف أذهب لزيارتها. ما رأيك أمي؟ دعينا نقم تحقيقاً شاملاً عن تلك المرأة".

رفعت العجوز حاجبها الكثيفان وهزت كتفها حينما تكلمت: "إيه، أظنني لم أفعل ذلك! لقد تحدثت معها حتى عرفت كل ما ينبغي أن أعرفه".

دنى ألفريد من تشارلز هامساً: "أهلاً وسهلاً بك في دائرة استخبارات السيدة ريسا غريس".

تهند المعني واستسلام لحال الأمر مكتفياً بابتسامة عريضة وهو يهز رأسه.

فجأة اقتحم صوفت الصغيرة ديانا المغتبط ساحة الحديث إذا قالت ببهجة كبيرة: "خالي تشارلز سوف يجلب أطفالاً نلعب معهم!".

ضحك الجميع بأصواتٍ متفاوتة على قولها.

- "أطفال! قال ألفريد متعجباً".

أردفت ديانا: "نعم، لقد لاحظت أمراً بالغ الأهمية. عندما يكون هنالك رجل وامرأة بعد مدة يصبح لديهم أطفال. هذا ما حدث للعمة كالي والعم جيرمي وأيضا السيد والسيدة هارسون: إنها معلمتي في الصف لكنها تزوجت بالأستاذ روبرت وبعد مدة أصبح لديهم طفل. جلبته للمدرسة اليوم، كان ظريفاً جداً وصغيراً أيضاً! مما يعني أن خالي تشارلز سيكون له طفل قريباً".

فغرت أفواههم وهم يحقدون مجفلين بكلامها، كانت طفلة نابغة بطبيعته تحب اكتشاف أي شيء محظور، وعندما تتكلم تبدو كشخص يحاول أن يظهر الجانب البالغ منه قبل نضوجه: "عندما سألت المعلمة كيف يأتي الأطفال أخيرتي أن الأمر أكبر من أن أفهمه الآن، كانت تهرّب من الإجابة علي، لا أعرف لماذا. رغم أنني واثقة أن الأمر يسير. أنا ذكية وعلاماتي في كل المواد عالية، لذا سوف أفهم هذه المسألة، وخالي تشارلز وزوجته المستقبلية سوف يساعداني" ابتسمت حتى أظهرت أسنانها البيضاء وكان له ثنيتين كبيرتين، ثم أتمت: "سوف يرياني من أين يأتي الأطفال".

سعل ألفرد مختنقًا بالماء الذي شربه حتى كاد قلبه أن يقف ثم انخرط في ضحك هستيريّ، بينما احمر وجه والدتها حمرة الانفعال الثائرة، حدق الجدان مجفلان لثانية ثم ضحكا بقوة وبما وسع صدرهما أن يتحمل.

قال تشارلز متهدجًا بعد أن تمكن استيعاب كلام تلك الصغيرة: "يا للهول! ليس هنالك أي أطفال وليس هنالك أي مساعدة ما الذي تهذين به؟ كلي طعامك وأنت صامتة. روز عليك مراقبة ابنتك منذ اليوم وصاعدًا!".

بعد العشاء، أصرت الصغيرة ليا (توأمة ديانا) أن يعزف تشارلز على البيانو في حجرة الجلوس الفسيحة والتي لها ثلاث نوافذ تلامس الأرض. كانوا مجتمعين بقرب دفة الموقد، النار تستعر بحرارة متقدمة، وصوت طقطقات الألسنة اللهب تمتزج بهدوء الصمت ولا تطفئ على لحن البيانو.

جلست ليا بهدوء إلى جوار تشارلز على مقعد بلا ظهر، تراقبه بشغف وهو يحرك أصابعه بخفة على مفاتيح البيانو لينتج عزف شجي يخلد الروح في عالم الرخاء. كان اللحن يشبهه، غامضًا في جزء ومنيرًا في جزء. لطالما بدا تشارلز شابًا هادئًا، يخفي أكثر مما يظهر، كيانه يميل للعزلة؛ ربما بسبب كل ما عاشه في ماضيه السيء، ماضي أجبره أن ينساق إلى زاوية الوحدة والانغلاق على نفسه، ولولا ظهور السيد غريس في حياته لقتله الاكتئاب. استمر السيد غريس يراقبه باسترخاء وعينيه تنبضان بالحنان، قد كان له الولد الذي لم يرزق به.

انتهى من العزف فسمع تصفيق ليا الحار من الغبطة. ربت على شعرها الحريري الأشقر بطلب وابتسامة حانية على ثغره. جلس على مقعد منفصل بجوار مقعد السيد غريس. قدمت روز الشاي له فشكرها بود. ثم التفت هي بسكب العصير لديانا وشقيقها كلاوس اللذان يتقفزان حولها كالأرناب.

مال السيد غريس متكئاً على المسند الأيسر ناحية تشارلز وحادثه بهمس: "تشارلز".

التفت إليه بعد أن ارتشف من الشاي ثم وضعه على صحنه محدثاً طقطقة خافتة: "نعم".

"هممم، بقائك وحيداً مسألة باتت تشعرني بالقلق قليلاً".

"لماذا؟". سأل تشارلز باستغراب.

أجابه وعلى ثغره ابتسامة رقيقة: "لا أعلم، لكن أرى أن عليك تنفيذ ما تقوله والدتك، تزوج هذا أفضل من بقائك أغلب الوقت وحيداً".

أطبق شفتيه ومطى بسمة صغيرة واهتز كتفيه على إثر ضحكته المكبوتة، لكن السيد أكمل يقول بجديّة: "لا تضحك! أنا جاد فيما أقوله، لقد بلغة الثامنة والعشرين بالفعل زواجك مناسب في هذا الوقت! عليك أن تتزوج بينما أنت في أتم شبابك وصحتك، وإنك حقاً قد تأخرت كثيراً في هذه المسألة بلا شك. أنا لا أريدك أن تظل هكذا، على الأقل وجود زوجة بجوارك تأنسك خيرٌ من وحدة موحشة".

تهند الشاب واكتفى بالإيماء ليرضيه. بيد أن المسألة منتهية بالنسبة له فهو لن يتزوج أبداً؛ الزواج ثقلٌ عظيم وأغلب الناس تفشل في حمله، هذا ما يؤمن فيه.

الأول من ديسمبر. تمام الساعة السابعة صباحاً.

غادر تشارلز كالعادة من شقته. نزل من الدرج وحي السيد هيرل ليجد فلورا هناك أيضاً بجاذبيتها التي تحيطنها دائماً بجوٍ من النشاط كأنها روح الصيف المتقدمة، ترتدي تنورة بنية طويلة وقميصاً أبيض ذو قبة بارزة، ورداءً من الصوف الثقيل متكسر الأوان ما بين البني والبيج وعليه خطوطٌ حمراء.

"صباح الخير، سيد غرنالد". هتفت فلورا بصوتها الرنان المعتاد.

أوماً تشارلز: "صباح النور".

- "ذاهبٌ للعمل؟".
- "وهل هنالك مكان آخر غيره".
- رفعت حاجبها ودورت عينها متممة: "كنت أعلم بالإجابة، أردت السؤال فقط. حسنا، ما رأيك أن نتمشى قليلا في طريقك؟".
- لبس معطفه وقال: "لا مانع لدي. كما أريد محاسبتك على أمر".
- "ماذا؟". قالت باستغراب، فأردف هو باسمًا: "أنا شقتي كانت خرائب قبل أن تدوسها؟".
- قطبت حاجبها بتعجب، فنشط ذاكرتها قائلا: "السيدة ريسا غريس ترى أنه من الرشد أن نتزوج".
- شهقت بقوة ثم ما لبثت أن حررت صوت ضحكة ناعمة وهي تقول: "يا إلهي!".
- أردف تشارلز بلهجة مازحة: "يبدو أنكِ المطلوبة بعد كل شيء. عليك أن تأخذي في الحسبان ليس هنالك دلال عند السيدة غريس. سوف تكونين زوجة تقليدية بشكل مثالي".
- عجزت فلورا أن ضبط نفسها واستمرت في الضحك حتى احمر خديها. بعد أن هدأت ومسحت دمعات الضحك قالت: "حسنًا، إذن دعنا نخرج ونتمشى قليلاً. هنالك ما أريد إخبارك به".
- "حسنًا".
- كان السيد هيرل يتابع حديثهما الظريف بنظرة ذات مغزى، كما النظرة التي تعتلي عينا فلورا.
- "تمنى لي التوفيق!". قالت فلورا وهي تلوح للعم، فالتفت تشارلز باستغراب لكليهما سائلا: "التوفيق على ماذا؟".
- لوح العم هيرل بابتسامة غامضة وهو يجيب: "ستعرف في طريقكما. في رعاية الرب!".
- خرج الاثنان معًا وتشاركا الطريق بصمت بينما الحياة تثرثر بالضجيج من حولهما
- "كيف حالك بعد الحفل؟". سأل تشارلز مبادرًا لفتح حديث.
- "أظن أنني ما زلت داخل دائرة اهتمام والدي" أخذت نفسًا عميقًا ثم زفرت مزعجة وأضافت: "إن لم تنتهي حيلتي بالشكل الذي يرضيه أظن أنني سوف أكون زوجة رغم عني. آه، لا أريد أن أحتجز بزوجٍ غبي لا يفهم اهتماماتي! ما زال هنالك بلدان أريد زيارتها. كالهند مثلاً. أتعرف لدي صديقة زارت تلك البلاد وحكت الكثير عن عجائنها، وأنا بحق أريد رؤية عجائنها بنفسي. ما رأيك أن تأتي معي؟".

- ابتسم قائلاً: "لا أظني أميل للسفر بالباخرة".
- "أتعاني من دوام البحر؟"
- "بل أهاب البحر نفسه".
- نكرت مرفقه بعفوية مندهشة: "يا للمفاجأة! لم أتوقع أنك تخاف من شيء".
- طفق يرمقها بنظرة متعجبة ثم ضحك بتكلفٍ قائلاً: "ألست بشراً!".
- "طبعاً! لكن من يراك يحسبك فولاذ متحرك".
- "هممم شكر على هذا التشبيه القاسي، أنسة كنديل".
- ضحكت باستمتاع لثواني، ثم توقفت والتفتت إلى تشارلز، يبدو أنها عقدت العزم على تقويض خوفٍ في داخلها لتقدم ما تخفيه خلف جدران قلبها، ابتسمت بحياء: "أيمكن أن أسألك سؤالاً؟".
- "طبعاً". توقف بدوره وأعطاهما نظرة اهتمام
- تنحنحت وبعد تردد وجيز مزعج وهي تأبى رفع بصرها عن الأرض بدت في عيونه طفلة خجلة، وذلك بعث الفضول في داخله لكن بقي هادئاً ينصت لما تقوله:
- "أرجو ألا تغضب مما سوف أقوله يا تشارلز".
- أردف باستغراب: "مما أغضب؟"
- ابتلعت ريقها ثم زفرت زفرة قصيرة أثناء رفع بصرها لتتصلا بعينيها: "لقد كذبت عليك تشارلز، أعني أخذك لتلك الحفلة لم تكن إلا غرضاً قد يكون أنانيًا من قبلي... أعني لأنني لم أصارحك بكل شيء... في الحقيقة! .. أشعر أنني ساذجة نوعًا ما... حسناً سوف أتوقف عن المراوغة" ابتلعت ريقها مجددًا وأخذت نفسًا يعينها على الاسترسال في الكلام مع خدين تضرجا بحمرة شديدة: "لم أسمع من قبل عن امرأة تتقدم لطلب يد رجل لأجل الزواج منها".
- فغرفاه الشاب وتطلع بعينين مفتوحتين في بهوتٍ تام: "هاه، ما الذي تهذين به؟"
- "حسناً يا رجل أسمع لقد أخذتك إلى الحفلة عمدًا ليس حتى تلعب دور زوج المستقبل المزيف. بل لأنني أردت أن أعرف رأي والدي فيك، لأنني... لأنني معجبة بك منذ وقت وقد قررت إبلاغك بذلك، أريد أن أعرف جوابك تشارلز هل يرضيك أن أكون زوجتك؟"

رمقته بعينها المخضرتان الخجلتان وانكمشت على ذاتها تعتصر حقيبة يدها بقوة: "أنت تعرف جيداً ما الذي دفعني لاستئجار تلك الشقة بجوارك، وتعلم جيداً لماذا أستمر في مصادقتك. أنت بارع في حل القضايا لذا ليس من المستحيل أن تكشف سبب تقريبي الزائد منك... لن يصعب عليك أن تعلم أنني معجبة بك أيضاً!".

بقي الشاب على حاله فاغراً كأنه فقد القدرة على الفهم، لم يخطر في باله ولا بنسبة واحد بالمئة أنها معجبة به ظل أحرص يحملق بها.

"هل قطع القط لسانك؟". قالت فلورا مغتاضة من صمته: "حسناً، أعلم أنني جريئة بحيث قلت ذلك. ولكنني أكره المماطلة، ما فائدة المماطلة على شيء أريده! التهرب خشية من الرفض ليست من طباعي. لذا ما هو جوابك؟".

ضيق عينيه وزم على شفثيه قائلاً: "هممم، تلك الحيلة التي أطلعتني عليها، مسألة التهرب من والديك عن طريق إلباسي زي الزوج المستقبلي. الآن يمكنني أن أفهم تلك النظرات التي كان والدك يرمقني بها. هل يعلم أنني أحمق لم يكتشف لعبة ابنته؟".

تحنحت وراحت عينها تجولان في أرجاء الشارع متهربة من مواجهته، ثم أجابت وأوتاره تهتز من ضحكة مكبوتة: "نعم، إنه لا يعلم بأنني جلبتك بدون علمك بالحقيقة إنه يحسب أننا على وفاق، أردت فعلاً أن أعرف رأيكما فيك فقط. لا أنكر أن أبي وترني. ولكن، صدقتي إن جلست معه وتعرفتما على بعضكما أكثر سوف تتمكنان من الانسجام وأنا واثقة أنك ستحبه كما سوف يرتاح هولاك"

أخفضت بصرها وزمت شفثها حتى تمنع نفسها من العبوس وقد غرقت ملامحها في حمرة تامة.

"أنتِ حقا مأكرة! لعبتي بنا جميعا بشكل جيد". تتمم تشارلز.

"أعتذر على ذلك، ولكنني فعلاً أراك شخصاً مناسباً، لقد مللت من البحث عن رجل يملك كل شيء أريده، أهـ ولك أن تتخيل كم مر علي من الرجال! وحينما رأيتك أول مرة في المسرح كأنان الملكي، تعزف بتلك الطريقة... لقد كنت على وشك الجنون لأعرف من أنت؟ وأين تسكن؟ مضى شهر ونحن على علاقة جيدة حسنة، لكنني شعرت باليأس؛ لأنك لا تلاحظ سبب قربي منك". أفرجت فلورا كل ما في جعبتها دفعة واحدة، وعينها تتلألأ برجاء الخجل.

أخفض بصره ولم يشأ قول شيء يجرح اعترافها الذي كان واضح أنها بذلة كل ما في وسعها لقوله.

"أسمع، إياك أن تضع حاجز العمر سبباً لرفض... هذا ليس مهم، نعم لأن الفرق لا يتعد سنة وبضعة أشهر!... إذا قلت لا سوف أرمي بنفسي أمام أول سيارة أو الأدق سوف أرميك أنت... لا يمكنني مواجهتك بعد هذا الاعتراف أكاد أموت خجلاً!".

ضحك تشارلز حتى بانث نواجهه ثم قال: "على مهلك!" ثم تحدث بصوت منخفض متعقل: "متأسف لأنني من الوقاحة بحيث لم أعر انتباهاً لمشاعرك. ولكنني حقا أشكرك على طيبة قلبك وإعجابك بكائن مثلي".

أوقفته عن التكملة باستياء: "ما هذا؟.. كائنٌ مثلك! لا تكمل طريقتك في الحديث تشعرني بنذير شؤم!".

قهقه بخفة وأردف: "امنحيني وقتاً".

هتفت بانفعال بسيط: "ماذا! وقت!".

"أنا لن أرفضك، ولكنني... لا أظن... لا أظن بأني مناسب لك فعلاً".

"كلا، أرجوك! لو لم تكن كذلك هل كنت تظن أنني سأظل وراءك كل هذه المدة؟". أردفت وفي عينها لمعت حزن.

"هذا ما يصدمني في الحقيقة، لديك صبرٌ طويل!". ابتسم تشارلز وتكلم مجددًا: "لنترث قليلاً ونفكر بالمسألة جيدًا، الزواج ليس أمرًا سهلاً... كل شيء يبدأ بعد الزواج وليس قبله. لذا أنا من الذين يفضلون التهرب من أعباء هذه الأثقال".

امتعضت قائلة: "صيغة لبقة لرفض، يا عديم الإحساس!".

ضحك تشارلز بعنفوان خلال تبرير موقفه: "لم أشر لرفض. حسنا إذن ما رأيك أن نتمهل لأسبوع؟".

تقارب حاجبها وانقبضت عضلات وجهها مظهرة عبوسًا طفيف والغيظ ينضج في صوتها المنخفض: "لقد تمهلت لشهر!".

رفع حاجبيه وهز منكبيه قائلاً: "أنتِ تمهلتِ وليس أنا! لذا أنا سأتمهل قليل".

تمهدت فلورا مستسلمة وقالت: "حسنا، يحق لك. لكن إياك أن ترفض بعد ذلك".

- "لنترك الأمر للقدر".
أكمل السير بجوار بعضهم. الصباح رغم برودته يحمل لهدان الاثنان دفئاً خاص.
توقف تشارلز فجأة وتطلع إليها سائلاً بشك: "هل العم هيرل على دراية بهذا؟".
ابتسمت وهزت رأسها ثم أجابت وهي تتجنب النظر إليه: "نعم، لقد شجعتني على أن أبادر بإخبارك بدلاً من المماطلة. أيضاً... هو أعطاني تلك الفكرة، أقصد أن اصطحبك إلى الحفلة بحجة أنني أريد أن أوهم والدي بأنك الرجل المستعد لزواجي بي، وكل ذلك حتى يلتقي بك وأتمكن من معرفة رأيه فيك".
 - "هممم، هذا يفسر ما طلبته منه قبل أن نغادر".
 - "آه، يا لسرعة بديهيتك التي لم تفلح في أن تدرك مشاعر إلى الآن". ما أن سمع تشارلز تعليقها المتهمك ذاك، اتسعت بسمته عريضة على وجهه كشفت عن أسنانه البيضاء المصطفة بانتظام تشع بياضاً، صوت ضحكته الرزينة ملئت مسامعها وأرضت مشاعرها المتقدة كأن سعادته هي سعادتها.
- ***
- عند الساعة التاسعة إلا ربع مساء. ارتدى الكونت أوليغرس معطفه الأسود، وأثناء ارتدائه لقفازه الأيسر سألته مدبرة القصر السيدة إغاردين ذات الخمسين عاماً: "هل لديك أمر طارئ يستدعي خروجك في هذا الوقت أيها الكونت؟".
 - "نعم، إلى حد ما. هنالك مسائل قانونية أرد مناقشتها مع المحامي. أيضا سوف أذهب لمقابلة صديق قديم".
 - "صديق. ومن يكون هذا؟" سألت المدبرة بداعي الفضول.
لم يجيبها بسرعة، وحينما وجه بصره إليها رأت المدبرة في وجهه المشرب بحمرة طفيفة فرحت الطفل البريء فحملها ذلك على أن الشعور بارتياح والبهجة فقالت: "خييراً يا بني تبدو سعيداً جداً!".
 - أولاً متفحفاً معها ثم قال: "أبدو كذلك فعلاً! أرجو فقط أن أتمكن من فعلها اليوم". ثم توقف وصار يحدق في زجاج النافذة الكبيرة عن يمين بوابة القصر، كما أن شيئاً من الهم طغى على

وجهه، تنهد تنهيدة طويلة بعدها استطرد سائلا المدبرة: "ألم يرسل إريك أي رسالة خلال هذا الشهر أيضًا؟".

زفرت المرأة ساخطة ثم أجابته وهي تكبح غيظها: "لا، لا تنتظر منه شيئاً يا بني! لقد قرر الرحيل من تلقاء نفسه! دعه يتحمل مسؤولية قراره!".

- "مع ذلك يظل أخي!" قالها وعينيه شاردتين في الأرض.

أردفت ويدها ترتعش من الغضب: "أي أخ هذا! أنسيت فعلته الشنيعة بحقك؟".

انخفض منكبيه قليلا وهو يهز رأسه، ثم رفع بصره إليها وسأل ثانية: "ماذا عن بارتكيل؟".

- "آه العزيز بارتكيل! لا تقلق اليوم في الصباح وصلت رسالة منه، لكنك لم تكن موجودًا".

- "هل أخبرك عن أحواله؟ هل تحسنت والدته؟".

- "أجل، أجل! ذكر في رسالته بأنها أصبحت أفضل بعد أن بدأ يعتني بها".

تنهد الكونت في ضيق وهو يتمتم: "لم أفي بوعدى له! من المفترض أن أزوره وأطمئن على حالة والدته".

ربت السيدة بلطف على عضده الأيسر ثم واسته: "لقد كنت مهمومًا بالكثير من الأمور، لا عليك إنه شابٌ عاقل ومتفهم، بتأكيد سوف يعذرک".

أغمض عينيه لوهلة واكتفى بالإيماء، ثم أخذ القبعة منها، ارتداها وعدلها فوق شعره الدهنية الأشقر، ثم أخذ عصى النبالة الخاصة بالكونت السابق، والتي ورثها له. كانت من خشب الالبوس مصقولة تلمع كما لو أنها معدن أصيل، القبضة مصهورة بالذهب معكوفة قليلا ويزينها نقش وردة حمراء جميلة. أخذها متأهبًا للمغادرة. فتح الباب ثم ودع المدبرة بابتسامة لطيفة ونزل من خلال الدرجات الحجرية نحو السيارة.

الفصل الخامس

عند الساعة الثانية عشرة إلا ثلث صباحاً، كان الجو يلوح أكثر ضيقاً وأكثر ضبابية، والسماء لاحت كأنها متلحفة برداءٍ من الوبر العظيم، تساقطت زخات المطر مصحوبة بالثلج الكثيف.

استيقظت السيدة إغاردن من نومها متزعجة من ضيقٍ في صدرها لا تعلم سببه، خرجت من غرفتها وسارت في الرواق الغربي المؤدي إلى حجر الخدم والمطبخ. دخلت للمطبخ وسقت نفسها كوب ماء. ثم حملت شمعدانها الذي يحمل شمعة واحدة نصف ذائبة.

عادت من نفس الرواق، لكنها لمحت ظلًا أرهبها. في الزاوية اليمنى، كان هنالك من يصعد على درج خشبي لولبي للاح لها من ذلك الموقع شيئاً منعده الملامح فلا شيء يظهر منه. رفعت الشمعدان حتى تضيء الطريق وسط العتمة الثقيلة، ثم مالت متجهة إلى ذلك الدرج من خلال رواق في الزاوية اليمنى يقود إلى الدرج مباشرة وعن يساره مدخل فسيح يقود إلى ردهة جلوس. بعد ثلاثة عشر متراً، تهدت بارتياح حالما تبين لها هوية ذلك الظل: "أهذا أنت يا سيدي الكونت" ثم سألت باستغراب: "هل عدت توأ؟".

توقف وكان يميل بظهره ناحية الدريزون بحيث يولمها ظهره. وميض الشمعة لم يكن يضيء إلى ما يحيط بالسيدة، لكن ضوء القمر المتسلل من نوافذ الرواق تسلط عليه بشكل جزئي فأنارت الخيوط الذهبية في بحر سواد سترته الفارحة. التفت التفاتة يسيرة لجانب منكبه الأيسر، ولاح شعره أشعثاً على غير ما كان عليه من تهذيب حينما غادر. أزرار قميصه الأسود مفتوحة بإهمال، وأزرار السترة مفتوحة كلها أيضاً. لم ينطق بحرف... أحست المرأة بالريبة والقلق على حاله فلم تره هكذا أبداً من قبل. راقبته وهو يصعد الدرج بصمت، ثم قالت بحيرة شديدة: "ما الذي أصابه؟ الكونت دانييل لا يبدو على طبيعته"

دخل إلى غرفته، كانت الكونتيسة قد خلدت لراحتها مسبقاً مع ذلك فالنوم لم يسلب كل حواسها، استشعرت حركة في الغرفة فتقلبت لجهة اليمنى، لمحتة وهو يتجه إلى إحدى الشمعدانات وقد أعطائها ظهره. لم تكثرث لأمره، أغلقت عينها واستسلمت لإلحاح النوم.

اطفئ هوكل الشموع ثم سار بخطوات ثابتة نحو السرير، وضع ركبته اليمنى على طرف السرير ثم دنى منها ليكتم بيده الباردة فمها، حالما أحست بتلك البرودة اقشعر بدنهما من الذعر لتفتح

عينها بسرعة، أمسكت يده وأبعدتها، ثم زحفت حتى تجلس وتقول بسخط شديد: "ما الذي تفعله؟".

بالكاد كانت تتمكن من رؤيته في الظلام وتسربت إلى أنفها رائحة خمرٍ كريهة: "أنت! هل أنت بوعيك؟!" سألته بغضب ثم همت بالهوض لتبتعد عنه، لكنه جذبها من معصمها واسقطها بعنف في السرير، حاولت الإفلات منه إلا أنه قيد يديها فوق رأسها بإحكام، صاحت بخوف بينما كل جزء في جسدها ينتفض مرتعشًا:

"ابتعد عني! دانييل! دانييل! أنت ثمل اتركني! ألم تقول أننا سوف ننفصل أيها الكاذب اللعين!". كانت تلك آخر كلماتٍ خرجت من فمها، وقبل أن تستنجد صارخة صفعها بقوة، صفعها مرتين! صوت الصفعة جاءت فظيعة تفضح مقدار الألم الذي لفته... أحست بأن دماغها ترجرج مسببًا دوارًا وانقطاعًا للوعي، وأحست بسخونة حارقة في وجهها، وهنت ذراعها ودخلت في أول مراحل فقدان الوعي.

أما حينما انفلاج الصبح وأزهق زمهرير الليل الموحش، بُعث طيف رقيق من ضياء الشمس لينشر الدفء رغمًا عن الشتاء البارد. انقلب السكون إلى حركة وضجة مثيرة، والقلعة إلى كثرة والأسوار المغلقة ابيح فتح أقبالها. رجال الشرطة ينتشرون على طول سلسلة قصر أوليغرس في حالة تأهب تام، ومُنِع أصحاب القصر والخدم من الاقتراب حول بقعة دم تقع أسفل شرفة غرفة الكونت، لباس الثلج افترش أرض الحديقة. كانت عبارة عن أشجار ومساحة منبسطة من العشب المدفون تحت غلال من الثلج، ثم جدار يبلغ طوله خمسة أمتار يفصلها عن الغابة. يحيطون جسد مرتعي غارق بدمائه، عينيه مفتوحتان لنصف خاملتين خاليتين من نضارة الحياة، وتجمدت على تلك النظرة، نحو أفق لا يمكن لعين البشر أن تراه.

في تماما السابعة صباحًا، نزل تشارلز للتلو من الدرج الرئيسي للبناية. هم باجتياز البوابة المؤدية نحو الهيو، إلا أنه لمح رجال الشرطة يتحدثون مع العم هيرل من خلف زجاج الواجهة النصفية للبوابة. قطب حاجبيه وخالجه شعور أن صداغًا ما سيبدأ. خرج للخارج وقابلهم بوجه بشوش: "صباح الخير".

التفت الضابط إري غرلين، وقد كان على معرفة مسبقة بتشارلز. من زيه الرسمي ووقفته المستقيمة تعلم جيداً أنه رجل منضبط يحب عمله ومخلص له. طويل القامة وذا شعر بني وعينين بنيتين، التفت لجهة تشارلز وابتسم يحييه بصوت يمتاز بالخشونة: "صباح الخير!".
أوماً تشارلز مبتسماً.

- "كنت آتي لأبلغك أن هؤلاء الأختيار يطلبونك". قال هيرل

- "شكراً لك عم هيرل".

تكلم الضابط غرلين بلهجته العملية السريعة: "ما رأيك في تغيرتين الصباح هذا اليوم؟ سيد غرنالد".

ابتسم مجيباً: "إن كان لابد فلما لا".

عند وصولهم للوجهة وهذا ما كان مصدر للدهشة بالنسبة لتشارلز. ترحل من السيارة وراح يلقي بنظرات فاحصة على المكان.

- "ما الخطب؟". سأل تشارلز.

أجاب الضابط غرلين بعد تهيدة قصيرة: "لقد وجد الكونت أوليغرس ميتاً في حديقة قصره الغربية".

صعق الشاب وبقي ثواني يحاول استدراك ما قاله. ثم انفعل متخطباً حدود الصوت الهادئ المعتاد بالنسبة له: "الكونت أوليغرس؟!".

- "نعم، سمع الخدم صوت طلق ناري هذا الصباح، وعندما هرعوا إلى غرفته وجدوه ملقياً من على شرفته".

أخذ الشرطة إلى الموقع حيث حالة من الانتشار تحيط بالحديقة من قبل الشرطة وبعض الخدم الفضوليين. لكنه لا يعرف منهم سوى ذلك الذي يرتدي معطفاً طويلاً بني وقبعة دائرية، المفتش (جوناثان غريس) والآخر النقيب (أورنال سكود)

وقف المفتش بقرب الجثة الممدودة على الأرض يتفحصها باهتمام ويرى بعينيه الغائرتين تحت حاجبيه المتدليين الكثيفان، آثاراً حمراء خفيفة تبدو كالحيوط العريضة حول عنق الكونت. راح يمسد لحيته غارقاً في التفكير.

تقدم تشارلز بخطوات متباعدة يسرع حتى يرى الفاجعة. عندما وصل ورأى جثمان الكونت ظل متمسماً يحدق في وجهه الصامت وعينيه الميتين، آثار الدماء كانت تلتخ شيئاً يسيراً من طرف كفه الأيسر، أما صدره غارقاً بدماءً طمست بياض القميص، كانت دماءً جافة كدهان اصطبغ على جسده، ووجه شاحبٍ شحوباً لا يختص به إلا الموتى.

انتبه سكود لحضور تشارلز، فنهض وتطلع إليه كما تنبه المفتش أيضاً. وقف تشارلز بقرعهما ينطق بذهولٍ شديد:

- "لا أصدق!... كيف حدث ذلك؟ ... لقد حضرت حفلاً له قبل مدة قصيرة!".

- تكلم جوناثان باقتضاب: "والحياة قصيرة أيضاً يا بني".

- "كيف مات؟". سأل تشارلز.

- "الظاهر أنه أطلق النار على صدره، ثم سقط من شرفة غرفته". أجابه جوناثان.

- جاء صوت النقيب سكود الجاف بتعلق قصير: "انتحاراً!".

- أردف تشارلز مستنكراً: "انتحاراً!". كانت ردة فعلٍ غير مقبولة احتاج لها، فأضاف بعض الصمت

القصير: "أمرٌ كهذا لم يكن بادياً على شخصية الكونت!"

- "هل كانت لك علاقة وثيقة به؟". سأل سكود بشكل مباشر.

- "لا".

- "إذن ما أدراك أن أمرًا كهذا لم يكن يدور في ذهنه؟".

- رمقه تشارلز بنظرة حانقة، ثم تجاهله؛ فالنقيب سكود لم يكن يحب تشارلز أبداً بسبب

تدخلاته المستمرة في عملهم... ولأن المفتش يقف مع تشارلز في أغلب الأحيان كان ذلك يغيظه

أكثر، فقال مستخفاً بكلامه: "لا أحد يملك قدرة ميتا فزيقية تخوله من اكتشاف ما يخفيه

المرء داخله". أضاف بعد صمت: "والمظهر الخارجي خير سلاح".

- تجاهله تشارلز مرة أخرى ونكب في تركيزه على جثة الكونت. استعصى عليه التحديق بدون

تشتت فيه وهو قبل مدة كان حياً مشبعاً بالحياة والقوة. لاحظ آثار الاحمرار القاني حول رقبته

وكذلك حول رسغيه، جلس على أمشاط قدميه بقرب رأسه ثم أشار بشكل متكلف نحوها:

- "هنالك أثرٌ غريبة حول رقبته، هل حاول شق نفسه ثم أطلق النار؟!".

أجاب سكود الذي لاح مصدر إزعاج لتشارلز بتعليقاته الفورية والجازمة: "من يدري، ربما فشل في شق نفسه فقرر الموت بطريقة سريعة وبدون ألم".

مال رأس تشارلز لليمين قليلاً وسأل مستغرباً: "ما سبب الأثار الحمراء حول رسغيه؟ كأنه كان مربوطاً!"

تهمد المفتش حائراً، ثم قال: "سوف تحول الجثة إلى قسم الطب الشرعي، وبعدها نعلم سبب الوفاة الأصلي... هل شق نفسه أو كان الطلق الناي هو سبب وفاته. أما فيما يخص الأثار حول رسغيه فأنا حقاً أشاركك نفس السؤال".

بعد برهة من الصمت قال تشارلز وهو يلتفت إليه: "ماذا عن زوجته؟".

- "لقد طمحننا لطرح بعض الأسئلة عليها" استنشق المفتش جون بعمق وأضاف أثناء رفع بصره نحو الشرفة فوقهم: "مدبرة المنزل أخبرتنا أنها ليست في حالة ذهنية تصلح للحديث. الظاهر أن بعض المشاكل الزوجية كانت تمزق العلاقة بينهما. لذا ارتأينا تأجيل التحقيق معها".
- "مشاكل؟".

- "علاقته بزوجه لم تكن جيدة، كما يبدو" أردف المفتش بهز فاطرٍ لحاجبيه.

لتشارلز علم تام بمعنى ذلك الكلام، أعلم من هذان الرجلان بكثير، بل تكاد مخيلته أن تصنع خيوط تمتد إلى بعض الشكوك في داخله وتكاد تبني له مسرح الجريمة قبل أن تتم الجريمة فيها وكيف انتهت... كأنه لوهله يرى طيف أمه. مشاعره تثقل كفة الميزان لتأرجح قراراته فيبقى العقل متزعزعاً. يلوح أن الكابوس في تلك الليلة لم يأتي من فراغ، بيد أن ملامح الكونت كانت للغز الأصعب. أثناء تحديقهِ وبالأخص أمعن النظر إلى رسغيه المتورمتين، لاحظ وجود خصلة شعرٍ صغيرة عالقة في الزر الأيمن من الكم. أشار نحوها.

- "شعر؟". لفت قوله انتباه المفتش فدنن منه وأمعن النظر بتضييق جفنيه، ثم سأل محتاراً: "خصلة شعر؟ هل يعقل أنها لزوجه؟".

- "إنها سوداء، خصلة سوداء! زوجته شقراء قابلتها في حفلة عيد ميلادها التي أقامها الكونت قبل عدة أيام. لذا من المستحيل أن تعود لها". رفع بصره للمفتش مقرراً بذلك القول.

تابع تشارلز مسترسلا في قول ما يحيره: "ولكن ما لا أفهمه، إن الدماء التي عليه تبدو متخثرة! لا يمكن لرجل قتل نفسه هذا الصباح أن تكون دماؤه بهذه الحالة، إنها جافة كما لو أنه قتل قبل وقت من الآن".

اعتدل المفتش في وقفته مرجعًا كلتا يديه خلف ظهره، ثم قال: "هذا الأمر لم يغيب عن بالي أيضًا. كما أن مدبرة المنزل ذكرت أثناء تحقيق معنا، بأن الكونت دانييل غادر قصره عند الساعة التاسعة إلا ربع بقصد لقاء المحامي، وعاد إلى القصر في الساعة الواحدة بعد منتصف الليل. لكن لا يمكننا الاتكال على الوقت الذي حددته المدبرة؛ لأنها لم تكن متأكدة بشكل قاطع من دقة الوقت حينها. أما حارس البوابة فقد أقسم أنه لم يرى الكونت ولا أحد غيره يعود بعد منتصف الليل. تضارب الإفادات جعلني في حيرة من أمري! هل عاد الكونت إلى القصر في ذلك اليوم أم لا؟ فهذا هو السؤال الأهم".

أردف سكود بصوت حاسم: "يبدو أنه دخل من مكان ما ثم فعل فعلته وقرر الانتحار". شرد تشارلز يفكر في كل ما يقال من حوله، وحينما همًا بهوض خطف تركيزه لون مائل للحمرة القاتمة تبرز بشكل يسير على جلد رسغه الأيسر للكونت، مال صوب تلك الذراع، ثم سأل سكود وقد كان يقف بقرب ذراعه مباشرة: "هل يمكن أن تجذب كمة قليلاً؟".

- "سكود، اسحب الكم فقط". حادثه المفتش بتأنيب.

انخفض سكود على مضض وجذب الكم بيده اليسرى المغطاة بقفاز، عندئذ اتسعت عيون تشارلز كأن صاعقة اجتاحت كيانه وزلزلته بقوة... بقي يحملق في رسغه أو في الوشم المرسوم على رسغه، خطين في منتصفهما طائر يفرد جناحيه، إنه مطابق للوشم الذي على رسغ يد تشارلز.

- "وشم؟". قال سكود.

في حين تتم تشارلز كالمأخوذ بحقيقة ما: "لكل شيء تفسير، نعم!". قالها وهو شارذ في ذكرى وجه الكونت أثناء مصافحته قبل عدة أيام واستذكر كيف أنه كان مريبًا في تعامله معه. لاحظ المفتش انقلاب حالة تشارلز، فأبد الاهتمام على ذلك وظل يرمقه بهدوء في حرص تام.

- "عذراً!". قال سكود مستهتماً عما قاله قبل ثواني، لكن تشارلز نهض بان دفاع واستطرد: "أيمكن أن نصدق إلى الحجرة التي سقط منها؟".

- "لا بأس". أجابه المفتش فوراً.

انتقل مع سكود والمفتش إلى الغرفة المقصودة تقودهم المدبرة إغاردن. دخلوا إليها وبدأ يتفحصها جيداً. فسيحة ومفروشة بسجاد أحمر هادئ اللون، والحائط ذا طابع خشبي بلون بني داكن، أثاث الغرفة من خشب البلوط، أما الخزانة الكبيرة فكانت من خشب السنديان ومن جوانب الخزانة زخارف جميلة، وعلقت لوحات زيتية على الجدران، والشمعدان من الذهب النفيس يعتلي الرف العريض فوق المدفأة، كان في الغرفة ثلاث شمعدانات اثنان معلقان في الجدران والآخر على الرف، إضافة إلى خزانة بعرض ثلاثة أمتار واجهتها من الزجاج، الخزانة تحوي أرفف مملوءة بالكتب. لم يلقي تشارلز بالأل لها قطع بشكل سريع ثم أشاح بصره... لكن في أقل جزء من الثانية تنبه إدراكه حيال أمر لاحظته عينيه بصورة خاطفة، فعاد يلتفت بسرعة ناحيتها. تقدم إلى الخزانة ووقف أمامها مباشرة، يضع تركيزه على كعب كتابٍ سطر عليه حروف كبيرة (عالم لا يخص البشر)

- "أسمح لي بفتحها؟" استأذن تشارلز من السيدة إغاردن وتلك أومأت بالسماح. سحب الزجاج ثم أخرج الكتاب ذو الغلاف البني الداكن، رسم على غلافه بشكلٍ بيضاوي ما يشبه نافذة مزخرفة بزهور يحلق فيها طائرٌ أحمر يتوجه صوب السماء. قلب صفحات الكتاب بسرعة ليظهر أنه كتاب قصص مصورة للأطفال.

سأل تشارلز وكأنه يريد أن يصبُ لإجابة معينة: "غريب، قصصٌ مصورة. بالنسبة لرجلٍ بالغ، ليس هذا كتاباً يخص الأطفال؟".

تكلت السيدة إغاردن بحسرة وحرقة شديداً وانقبضت معالم وجهها المثخن بالتجاعيد: "نعم، لطالما ملك الكونت روحاً طفولية! كان يقطني مجموعة كتلك الكتب ويرسلها إلى دور لرعاية الأيتام".

التف تشارلز نحوها مباشرة وبدا مجفلاً وكأنه مرتبكٌ من شيءٍ ما: "دور أيتام!".
أومأت: "كما أخبرتك، كان يقتطع جزءً من ماله ليرسله إلى دور لرعاية الأيتام كمساعدات أيضاً" تخرج صوتها بأنين البكاء: "كان رجل صالحاً وكريماً وسعيداً في حياته!".

انهمك المفتش في تفحص بقية الغرفة، سار بضع خطوات باتجاه السرير وعينيه تتفحص محيط الغرفة بشكل عام. كل شيء يبدو في محله حتى المزهية الكبيرة في الزاوية والتي تحمل فروع نبتة سدرٍ خضراء. الأمر الوحيد الذي يبدو منقلبًا هو السرير، لقد ترك كما هو، الملائات منزوعة والغطاء طرفه مهملٌ جزئيًا على الأرض، والوسائد ملقاة بشكل مبعثر، كذلك الشرفة كانت مفتوحة والهواء البارد يدخل منها ليزيل رائحة السجائر التي غمره الغرفة.

- "رائحة الدخان تملُ الغرفة!". علق سكود متقزراً من الرائحة.
تهمد المفتش بقوة ثم سأل محتارًا: "ليس هنالك أثر على لفافات تبغ في المكان. غريب هل نظف الغرفة قبل أن ينتحر؟".

تكلمت المدبرة وهي ما تزال متأثرة بهذه الحادثة تمسك منديلاً بيمينها تغطي به فمها ليلوح صوتها مكتومًا هزياً: "الكونت دانييل لم يكن من النوع الذي يدخن، كان يعاني من ربو... أنا... أنا مصدومة من كل ما جرى كما لو أنه أصيب بلعنة قلبت حياته رأسًا على عقب!". ما أن سمع تشارلز قولها هذا تصنم لثواني، ثم اندفع بشكل يثير الريبة وهو يقول متهدجًا: "ل لحظة قلبت أنه كان يعاني من ربو؟".

- "نعم".

- "رجاءً اطعيني على ما يخص الحالة الصحية للكونت أوليغرس؟ هل كان يعاني من الربو منذ صغره؟".

- "نعم هذا صحيح. بنيته الجسدية لم تكن جيدة لذا كان يمتنع عن الأشياء الضارة".
قطب تشارلز حاجبيه وغاص في تفكيرٍ عميق حتى انعكس ذلك في تقطيب جبينه. صمته ذاك لفت انتباه المفتش فهمس بين نفسه قائلًا: "إنه يهتم بكل التفاصيل، لا إنه مهتمٌ على نحوٍ غريب!".

- "هل كانت تصرفاته غريبة قبل موته؟" سأل تشارلز
ارتبكت السيدة إغاردن وتباطأت في الإجابة: " هممممم.. ح حسنا، لم يكن على طباعه المؤلفوة... كل شيءٍ تغير بعد زواجه... حتى أنه ولأول مرة عاد متأخرًا إلى قصره!".
أعاد تشارلز الكتاب، ثم عاد يتفحص المكان بتفصيل دقيقة واقترب من السرير؛ انحنى وجلس على امشاط قدميه يتفحص السرير من كل جانب.

- "كأن حرب أقيمة هنا!" علقك سكود مستنكرًا.
 - "أين الكونتيسة؟" سأل تشارلز.
 - أجابت المدبرة: "لقد تم نقلها لغرفة أخرى".
 - "كيف هي حالتها؟".
- أطرقت رأسها واجابت بحسرة وخجل: "إن حالتها عصبية! لا يمكنني أن أشرح لك بالتفصيل". نهض تشارلز وخرج للشرفة الخارجية، تطلع للحاجز الأبيض. كان نقيًا ولا شائبة على حواف الدريزون أو حتى على الأرضية، ثم أمسك طرف الستارة وتفحصها بدقة. بعدها خطى ثلاثة خطوات نحو حاجز الشرفة رفع بصره إلى الحديقة الواسعة، وكان بإمكانه رؤية الجدار الغربي يمتد حول القصر وعلى المدى البعيد خط غسقي أحمر دامي.
- تمتم قائلاً: "الكونت دانييل قتل ولم ينتحر!"

الفصل السادس

في اليوم التالي. كانت فلورا تقرع باب شقة تشارلز لكنها ملت الطرق والصبر فلم يفتح الباب لها. نزلت لتذهب وترى شؤونها، إلا أن فضولها منعها وجعلها تقف عند العم العجوز لتسأله: "عم هيرل، هل خرج تشارلز منذ الصباح الباكر؟".

- "أجل، أجل! لقد كان في عجلة غريبة هذا الصباح".

- "ألم يخبرك إلى أين هو ذاهب؟".

- "لا، لكن بالأمس أتى رجال الشرطة واصطحبوه، كانوا يسألون عنه".

أطرقت برأسها تفكر ثم تنهدت وقد اعتلت ملامحها طفرة طفيفة من الإحباط: "هممممممم، هذا يعني قضية ما بدأت تشغله الآن. حسنا شكرا لك".

كان تشارلز مع السيد جوناثان قد وصلا إلى منزل الكونت، استقبلتهما مدبرة المنزل بوجهها الذي لا يزال مثقلاً بهم هذه الفاجعة، ملامحها العجوزة ترهلت بالتجاعيد، عابسة والمنديل لا يفرق يدها الصفراء الشاحبة، وكانت ترتدي ثوب أسوداً حالك السواد. قادتهما إلى حجرة الكونتيسة الجديدة عبر الرواق الرئيسي في الطابق الثاني. تسير خلفهم الخادمة الخاصة للكونتيسة، شابة عشرينية ذات طولٍ متوسط وممشوقة الجسد، لها شعر بنيّ طويل.

حادثتهما السيدة إغاردن بصوت عميق به شيء من التشدد: "عذراً، ولكن قبل أن نصل إلى حجرة الكونتيسة، أريد أن أطلعكما على أمرٍ مهم، لذا أرجو أن تأخذا هذا القول بعين الاعتبار. السيدة تعاني من الأرق بحيث لم تنم ولم تأكل منذ وفاة الكونت، كما أنها... أعني... حالتها النفسية ليست مستقرة بعد، لذا تجنبنا طرح الأسئلة الحساسة".

أوماً المفتش متفهماً: "بتأكيد، لن نسأل سوى الأسئلة التي تخدم مسار التحقيق".

ثم أكملوا طريقهم. فور الوصول التفت السيدة وحادثة الخادمة بطريقة سريعة عملية: "دورثي ابقِي هنا".

أوماً تلك بامتثال.

قرعت المدبرة الباب وقالت بصوت عالية نسبياً: "كونتيسة أن، المحققان وصلا، يريدان طرح بعض الأسئلة عليك. أسمحين لنا بالدخول؟".

جاء الرد مع صوت رقيق مبحوح كأن الأوتار الصوتية لصاحبته مشوهة: "الباب مفتوح".
أدارت المديرية مقبض باب الغرفة ثم دلفوا. كانت تهم بنهوض من سريرها، بدت واهنة وهي
ترتدي روب طويل أزرقًا فاتحًا وحركتها ثقيلة. سارع تشارلز بداعي الإشفاق وقال: "لا بأس
يمكنك أن تبقي جالسة أيها الكونتيسة!".

أومأت بالكاد وبقيت جالسة على السرير تتجنب النظر إليهما؛ خجلة من الكدمة التي على
وجهاها، و من تلك البقعة البنفسجية القبيحة حول عينيها اليسرى، يمتد الأمر إلى صدغها
وشفتيها متقرحان. حاول تشارلز ألا يحدق بإفراط حتى لا يثير مشاعر الاستياء عندها.

جلس جوناثان على مقعد قريب من السرير وقال بعد نفس عميق متعاطفٍ مها: "أنا متأسف
على مصابك! وأيضا شاكرٌ لأنك قبلت أن تساعدنا في التحقيق".

اكتفت بالإماء وهي تنظر إلى الأرض.

- "حسنًا". قال جون ثم تهمد مبادرًا بطرح أسئلته: "سابقًا سألنا كل من يعمل في منزلك وحققنا
معهم. السيدة إغاردن، أخبرتنا أن زوجك، الكونت الراحل دانييل أوليغرس، قد عاد إلى منزله
في وقت متأخر، في الساعة الواحدة تقريبًا كما ذكرت. لذا هل كان يبدو لك أنه يخطط
للانتحار؟ هل هو يميل للانتحار في المقام الأول؟ أعني هل هنالك أفكار معينة كانت تستحوذ
على تفكيره؟".

رفعت أصابع يسارها النحيلة ذات الرؤوس المحمرة القانية بمحاذاة شفيتها المرتعشان، أجابت
بصوت كثيب: "لا، لم يكن!... لم يكن مبالًا للانتحار، ولم يكن من النوع الذي تستحوذ عليه
أفكار كهذه". ثم قضمت أظافرها. لاحظ تشارلز علامات تشوهٍ في معصمها الأيمن عندما رفعت
يدها وانسحب كم الروب قليلاً، كانت آثارًا حلقيه باللون البنفسجي المائل للزرقة. كأن معاناة
والدته تتمثل أمامه الآن في الحاضر لتجعله ينحاز إليها. لكن على من يسعى لمناصرة العدالة
وإظهار الحق أن يترتب ولا يجعل عواطفه تقوده.

- "هل رأيته يطلق النار على نفسه؟". سأل جوناثان الذي بدا فعلا رجل تحقيق محايد يمارس
عمله كما اعتاد دوماً. لكن سؤاله ضرب وترًا حساسًا عندها جعلها تستاء بشدة فقد شعرت
بأنه يشك بكونها القتالة، فاحتدم صوتها وأصبحت نظراتها شرسة، قالت: "لا!"

- "هل رأيته هو يلقي بنفسه من الشرفة؟".

- "لا".

زم الرجل شفتيه وشعر أنها سوف تثبت على _لا_ كما تنبهه على أنها تجيبه ولا تنظر إلى عينيه مما جعله مرتاباً قليلاً. تنفس من أنفه ثم زفر من فمه وقال: "حسناً، إذا كان زوجك قد أقدم على قتل نفسه، كما يبدو في الظاهر، وأنتِ بصحبته في الغرفة، لِمَ لم تحولي بينه وبين قتل نفسه؟".

اهتزت أرنية أنفها اليسرى سخطاً من سؤاله، وما لبثت سوى ثواني حتى اهتمت عواطفها باحتدام يبرهن على مقدار الحقد المروع في قلبها: "عذراً! لو رأيته يقتل نفسه بعيني لكنت مرتاحة الآن!".

استنكر الرجل ردها، بيد أنها تابعت: "لقد قيدني للأسف! لم أتمكن حتى من رؤيته وهو يفعل ذلك، كنت معصوبة العينين!" بدأ صوتها يلغو باهتياج مضطرب: "قيدني وضربني حتى خلت أني سوف أموت! لذا اعدرتني لأنني لم أستطع إيقافه عن قتل نفسه للعينة المريضة!".

ارتكبت السيدة إغاردن ثم نظرت بحنقٍ للمحقق، لكن ذلك تابع متمسكاً بهدونه: "هل زوجك يملك أي أسلحة نارية في غرفته؟ لقد بحث رجال الشرطة عن السلاح الذي استخدمه لقتل نفسه لكن لم يجده. ليس من المعقول أن يقوم رجل يحضر بإخفاء سلاح!".

- "قلت لك، لا أعرف! إذا كنت تلمح إلى أنني قتلتها، فلو فعلت ذلك بيدي لكنت أكثر سعادة! ذلك الحقيير المريض!". اجتاحتها نوبة انهيارٍ عصبيٍ جارفٍ لصوابها، صاحت في وجه المفتش جون بهيستريا وهي تشير إلى وجهها:

- "هذا ما خلفه لي! هذا ما أعرفه فقط، إنه مجرد وحشٍ مجنون وأستحق الموت!... لهذا كان من حقي أن أقتله لو استطعت، كان من حقي!".

كادت السيدة أن تدوب في شهيقتها المفرط وهي ترى سيدتها تثور في وجه الرجل وتقول كلاماً خطيراً كهذا: "كفى، كفى! حباً بالله! اهدأي كونتيسة، أن لا يجوز أن تقولي ذلك!". أمسكت عضديها لتجلسها برفقٍ قاتلة: "اجلسي، اجلسي! الانفعال ليس جيداً لك" ثم نادى على الخادمة بحدة: "دورثي، دورثي!... دورثي!". دخلت الخادمة مسرعة تهزول لتستجيب لها. التفت السيدة للمفتش وخاطبته بعصبية: "وأنتما تفضلا معي من بعد إذنكما!".

تأسف جون على الأمر ونهض ليغادر معها. ألقى تشارلز نظرةً أخيرةً على الكونتيسة التي انهارت فوق سريرها، تبعد الخادمة وتبكي بمرارة بينما خصالها الحريرية ترامت على ملامحها. حينما يتأمل وجهها فعلا كان يرى أن ما أصابها من تشويه وكل ما ثارت به قبل قليل ناجمٌ عن ألمٍ حقيقي، أضحي مشوشاً، مشاعره تتضامن معها، لكن عقله يصرخ بتأني.

حينما خرج الاثنان معا وتلك السيدة الغضبانة تمشي أمامهما متدمرة وساخطة عليهما: "أذكر أنني طلبت منكما تجنب طرح أسئلة أحساسة، ومع ذلك!" توقفت واستدارت نحوهما لتعاتبهما وجهاً لوجه بحدة: "ماذا فعلت يا حضرة المفتش، تحاول أن تلف حبل التهمة على عنقها!". لاحت مستاءة حتى أن أنفها أحمر.

حاول جون تجاهلها. لكن تشارلز سأل: "هل يمكن إذن أن أطرح سؤالاً عليك؟".

زفرت ورمقته بعيونٍ حانقة، فاعتبر ذلك رد بالقبول، ليبادر بطرح سؤاله:

"صوت الطلق الناري سمعه أغلب من في القصر، لذا في أي وقتٍ بتحديد حصل ذلك؟".

"نعم، لقد سمعنا صوت الطلق الناري، ذلك كان على حسب ما أذكر في السادسة صباحاً... لكنني لا أذكر فعلياً بشكل دقيق كم كانت الساعة وقتها".

"هممم هذا يعني أن هناك من أطلق النار فعلا وتم سماع ذلك، غريب" صمت تشارلز قليلا وهو يهيمهم ويفكر وبقي المفتش يراقبه ويتنظر ما يخرج منه. بعد ثواني سأل: "حينما وصلت إلى الحجرة هل كنت بمفردك؟".

أجابت السيدة بانفعال: "لا، لقد كانت الخادمة دورثي بصحبي. حينما وصلنا رأينا الشرفة مفتوحة والكونت ساقطاً في الأسفل والكونتيسة ترتعش بحال يرثى لها وكانت مقيدة أيضاً!".

"مقيدة، همممم، حسناً، أليس من الغريب أن يطلق النار على نفسه ولا يظهر على السجاد أو الستائر أي لون لبقعة دم؟ وإذا افترضنا أنه مسبقاً قد وقف في الشرفة وأطلق النار على نفسه، أليس من الأرجح أن تكون هنالك بقع دم متناثرة على حواف الشرفة أو الأرضية على الأقل؟ لكن كل شيءٍ كان نظيفاً".

رفع جون حاجبيه وأظهر إعجابه الشديد للفتنة التي يملكها، ثم تطلع للسيدة التي فكرت قليلا ولم تتمكن من إيجاد إجابة على سؤاله.

- "اسمع يا سيدتي" قال جون: "هل كان الكونت حاد الطباع ومن النوع العنيف في علاقاته مع الآخرين؟"..تهدت بضيق ثم اجابت بثقة تامة:
- "لا، هولم يكن كذلك أبدا، أبدا! كان شاب وديعًا وجليًا!".
- رفع تشارلز حاجبيه وغمغم ساخرًا: "ولكن وجه زوجته لا يدل على تطابق مع كلماتك، سيدتي".
- "لكنه استهجن ما قلته لوهلة، لقد رضخ لرغبته في التعاطف لا غير، وذلك ما لاحظته المفتش.
- "الكونت الشاب لم يكن كذلك. أقسم بربي! ولكن بعد زواجه منها، الظاهر أن عشقه لها أعماه"..أطرق جونان رأسه مفكرًا في كلامها، ثم جاء بسؤال: "هل كان هنالك جفاءً عاطفي من قبلها؟".
- "نعم، لقد أجبرت على الزوج به، هولم يكن يعلم أن والدها يضغط عليها في ذلك، لقد حسبها راضية كل الرضى. لكن، بعد فترة من الزواج بدأت المشاكل تظهر بينهما. يا إلهي!... لا أصدق أنني سوف أذكر أمور شخصية".
- اندفع تشارلز باهتمام بالغ: "أي شيء ستذكرينه قد يساعدنا في تحديد سبب وفاة الكونت، سيدة إغاردن".
- كتمت أنفاسها بضيق شديد وكأنها تحاول إجبار نفسها على النطق. كانت متعنتة صعبة المراس ومن النساء اللوات يكرهن إفشاء الأسرار لكنها استسلمت للإلحاح الذي في عيني تشارلز. بعد تهيدة قصيرة تكلمت: "لقد، لقد اكتشف أن لها عشيقًا سري، وأنها كانت تقابله وتراسله من ورأى ظهره... وهذا ما أثار غضبه. وقيل عدة أيام، أظن بأنه لم يتحكم في نفسه، وإنما الحقيقة، تشاجرا بعنف ثم صفعها".
- "صفعها!" قال تشارلز متفاجئًا وقد ارتفعت زاوية حاجبيه.
- "نعم، صفعها".
- سأل جونان: "وهل تعرفين أي شيء عن عشيقها ذاك؟".
- "لا أعرف أي شيء بخصوص ذلك الشخص. ولكنني لا أقدر أبدًا بأي شكلٍ من الأشكال أن أتخيل الكونت دانييل بصورة مشينة، كان شابًا عاقلًا وريئًا لا يقدم على خطوة إلى بعد مرحلة كاملة من التأني والتفكير. آه يا إلهي! ولا يمكنني تخيل الكونتيسة أن على أنها قاتلة!".
- علق جون بنبرته الموزونة العميقة: "المرء يفعل ما لا يخطر على بال شيطان لأجل الخلاص"

الفصل السابع

في الصباح اتجه تشارلز إلى الأكاديمية بادئا وتيرة يومه المعتادة، وبعد أن أنتهى من محاضرة في شرح أصول الموسيقى، انكب في تفكير عميق بخصوص قضية الكونت، فقد قعد على مقعده وابتكأ بمرفقه على المنضدة بينما الطلبة يتسامرون في أحداث جانبية وهو غافل عنهم يكلم نفس: "احتمال الصدفة صفر بالنسبة لي، وشم الطائر الذي كان على رسغ الكونت يطابق وشي ولن أقبل النقاش في ذلك فنحن الستة من دير سانت فليرك فقط من وضعنا تلك العلامة. لكن، السؤال الأهم ... كيف سوف أعرف من يكون أي واحد فيهم... دانييل، فرناند، ريتشارد... كلا، لا يمكن أن يكون ريتشارد لأنه لم يكن أشقرا، إذن إما فرناند أو دانييل... دانييل!" تراءت له ذكرى لصبي في الثانية عشرة أشقر الشعر ويملك عينين رماديتين، بيتسم بسعادة بالغة وكأنه ملك الدنيا بما فيها، بدا كروح الصيف متقدما وشغوفًا. تلك الذكرى رقت ملاحمه المتغضنة من التفكير وجعلته بيتسم متمتما: "دانييل هاربر... تشابه الاسم هل من المعقول أن يكون هو؟" ثم اتسعت عينيه دهشة: "دانييل أوليغرس و دانييل هاربر. تطابق بعض الصفات الشكلية والوشم ثم الاسم الأول...كنت سوف أقول أنها محض مصادفة لولا وجود الوشم، لكن لا، ذلك الشاب... " شد خصال شعره برفق وهو يتمتم: "هل يعقل أنه ليس ابن شرعي لعائلة أوليغرس؟ إن كان كذلك فهذا يثبت لي أنه دانييل هاربر، أو هاري كما كنا نرسم له. علي أن أتأكد من حيال كونه ابن شرعي لتلك العائلة أولا عندها فقط كل شكوك ستكون في محلها!".

عند الساعة الثالثة عصرًا. خرج تقرير الطب الشرعي بعد عدة أيام، ليفيد أن الكونت لم يمتمت مختنقًا بل برصاصة اخترقت صدره، وتحليل الدم يقر بأن هنالك خطأ في الشهادة التي أدلتها المدبرة إغاردن، حيال رجوع الكونت في الساعة الواحدة ؛ فالتقرير أبطل ذلك وأكد على أنه كان ميتًا قبل هذا الوقت فما بين اكتشاف الجثة _أي في السادسة صباحًا كما أشارت المدبرة _ وزمن الوفاة الأصلي كان في الحادية عشرة وخمس وأربعون دقيقة؛ فكيف يمكن لرجل مات مسبقًا أن يرجع إلى منزله ويفعل ما فعل؟ معرفة ذلك جعل رواية الكونتيسة أيضًا في موقف عاري من المنطق، لكن شهادة السيدة إغاردن جعلتهم في حيرة، وصوت الطلق الناري الذي

سمعه أغلب الخدم، إضافة إلى الأضرار التي تعلقو وجه الكونتيسة، أكد الطبيب الخاص على أنها كدمة فعلية وحديثة!

ظل تشارلز يقرأ التقرير مراراً وهو جالسٌ على مقعدٍ داخل مكتب المفتش غريس، يضع مرفقه الأيسر على مسند المقعد وإبهامه الأيسر على حافة ذقنه يحمل رأسه بينما ينقر بخفة بإصبع سيابته على صدغه. راقبه المفتش وكم لاح معجباً بالتركيز الذي يوليه ولكن في نفس الوقت كان يحس بالانقباض من شيء ما.

خرج تشارلز من صمته سائلاً: "حينما استجوبت رجال الشرطة الخدم في القصر كان للجميع حجة غياب مقنعة نوعاً ما... ولكن ذكر شيءٍ يخص خادم الكونت الشخصي. كاييل بارتكيل. لم يكن متواجداً في القصر. صحيح؟"

- "نعم، أخبرتنا السيدة إغاردن أنه حصل على إجازة رسمية من الكونت لأجل زيارة والدته المريضة".

- "وأين تعيش والدته؟"

- "في سأل"

- "همممم، إنها بعيدة عن العاصمة نوعاً ما".

- "أجل. ما الذي تفكر فيه".

- "التقرير يثبت أن الكونت مات قبل عودته للقصر... يعني بعد خروجه من عند المحامي. خصلت الشعر السوداء تأكد لي مسألة معينة، لا بد أن الكونت التقى بشخصٍ ما واحتك معه. شككت في الخادم الشخصي كونه الوحيد الذي لم يكن متواجداً في القصر ولكن... حسناً لنرى... يجب أن نتأكد أنه في سأل أولاً ولم يعد إلى ياسك سرّاً. أيضاً أريد أن التقى بمحامي الكونت".

- "لماذا؟"

- "كما تعلم هو خرج لمقابلة المحامي إضافة لشخص آخر، فقلت ربما يكون المحامي على دراية بذلك... يجب أن نعرف الشخص الذي قابله الكونت قبل موته".

استضحك المفتش مندهشاً: "تملك قدرة جيدة على تحليل الأمور يا تشارلز"

التفت نحوه بينما كان يضع التقرير ببطء على المنضدة وابتسم قائلاً: "أعتقد أنك فكرت بكل ذلك قبلي، لكنك صمت حتى ترى ما الذي سوف أصل إليه".

استضحك بتكلف وقد اهتز منكبيه كان فخورًا جدًا، فقال: "حسنًا، أتريد أن نتجه إلى منزل المحامي الآن أو بعد حضور جناز الكونت. اطلعت على أن الدفن سيكون اليوم عند الساعة الخامسة في مقبرة بقرب كنيسة ليبريان".

لاح شارداً وهو يجيب: "لنحضر الجنازة!" تهدي تشارلز وصمت لدقائق، ثم عاد يتكلم وعينيه تركزان على الطاولة التي أمامه: "الوشم!... ذلك الوشم الذي كان على رسغ الكونت... إنه يشبه وشي.."

طف العبوس بشكلٍ رقيق على ملامح المفتش وبدا منزعجاً لما قاله: "كلا" قاطعه بنبرة حازمة: "إنه مجرد وشم... ليس من اللزوم أن يكون نفس ما تفكر فيه... إنها مجرد صدفة".

ناظره تشارلز وفي عينيه شيءٌ مظلم كأنه مأسورٌ حيال حقيقة مهزوزة للجميع ولكن بالنسبة له كانت ثابتة طوال الوقت: "ما الذي تقوله أبي... وشم طائر الكاردينال إنها ليست صدفة".

احتد صوت المفتش: "تشارلز! ليس كل وشمٍ يحمل هيئة طائر يشير إلى الرمز الذي تعرفه. هل هذا مفهوم؟".

أخفض بصره وسكن في هدوءٍ غامض.

دقت أجراس كنيسة ليبريان لها أربعة أسقفٍ هرمية يحيطها من الغرب العديد من أشجار البلوط بينما السهل المنبسط يمتد مع امتداد السماء الملبدة من جهة الشمال الشرقي. وخلف الكنيسة تبرز الألواح الأسمنتية كأنها بطاقات تحوي أسماء الموتى المدفونين تحت التراب.

وضع جثمان الكونت داخل تابوتٍ أسود متحنط ويديه فوق صدره بشكل متقاطع، يلوح لناظرين أنه نائمًا في سلوان. حضر الكثير من الشخصيات المرموقة والمعروفة على صعيد المجتمع الأرستقراطي، كانت صدمت لهم! الكونت دانييل، الشاب المفعم بالعطاء والتميز فجأة تنقلب الموازن ليره فارق الحياة بطريقة صادمة. وبين كل ذلك فإن الإشاعات عثر على مكان بين الحضور، همسات من هنا وهناك كل شيء يقيس حجم هذه المأساة بطريقته ويجد سببا لحدوثه.

تقدم بعض الحاضرين، ووضعوا وردة بيضاء في تابوته وقالوا كلمات رقيقة حزينة من حين لحين، حتى عائلة السيد كنديل حضرت الجنازة وتضامنت بمشاعرها مع فاجعة الكونتيسة التي لم تبدي أي اهتمام واخفت ملامحها الباردة خلف حاجب أسود شبه شفاف كأنها شبكة عنكبوت سوداء تزين وجهها.

وضعت فلورا وردة بيضاء ثم تركت الدور لتشارلز، وضع وردته وتأمل ملامحه الخرساء، ثم همس في صميمه المحتار: "من قتلك أيها الكونت؟".

بعدئذ جلسوا على مقاعدهم في القاعة ليستمعوا إلى قرأت القس لينوند مارليف يتلوى صلوات على روح الكونت.

يمكنك أن تلمح ولو بشكل يسير تعابير التأثر والحزن مرسومة على وجوه الحاضرين، لكن الكونتيسة والتي تجلس في المقدمة وبجوارها السيدة إغاردن، وبعض من أفراد أسرتهما، تظهر ملامح لا يمكن فهمها أبداً، على الأغلب شاردة في أمرٍ ما... لحسن الحظ أن حجابها يخفي تلك التعابير عن أبصار الناس.

أما تشارلز الجالس في المقعد الخامس من الجهة اليسرى، انهمك يدقق في وجوه الحاضرين، ثم التفت للوراء فلمح شاب واقفاً عند عتبة باب الكنيسة، يراقب بعيون خاملة التابوت الذي يحتضن جسد الكونت. ذو ملامحه مرببة غامضة، وعينيه حادتين مترهلتَي الجفون، طويلٍ مشحجٍ ببذلة رمادية مخططة، ورغم تلك الأناقة الظاهرية، إلا أنه يهمل إغلاق أزرار المعطف، وقميصه غير مكوي إضافة إلى اعوجاج الياقة، وأكمام المعطف مفتوحة، خصاله المجعدة تتصف بلون ممزوج ما بين البني الفاتح والسواد، يضع قرط أحمر في أذنه اليمنى، كما لاحظ بين أصابع يساره لفافة تبغ، وكلتا ذراعيه كانتا مرخيتين يحدق بعينين واسعتين مجفلتين وبشكل مستقيم نحو التابوت الأسود، وأكثر ما أثار الريبة لتشارلز هي الطريقة التي انقلبت فيها ملامحه المصدومة ليظهر استياءً وغبضاً غامضاً!

حاز هذا الشاب على انتباه تشارلز لدقائق، وحالما اتصلت عينيهما لم يكثرث الشاب الأمر تشارلز، التفت وغادر المكان مسرعاً على نحو يدعو لشك فعلاً!

دفن جثمان الكونت في قسمٍ مخصصة لآل أوليغرس راقب تشارلز عملية الدفن بهدوء ينزلون التابوت وأكثر ما خشيه هو السر الذي قد يدفن معه، أراد كشف سبب موته، كما أن ذلك الوشم على رسغ الكونت احتل قدرًا كبيرًا من تفكيره. تتم بصوت خفيض: "أين حصل الكونت أوليغرس عليه؟ ذلك الوشم".

على بعد أربعين مترًا خلف سلسلة أشجار البلوط في غرب جنوب الكنيسة، كان واقفًا يراقب الدفن، من حذائه إلى أعلى رأسه يرتدي السواد، يرمي بالقلنسوة على رأسه تكاد تخفي كل معالم وجهه، أجزءًا يسيرة من خصالها الأمامية برزت على جبينه وكان لونها أسودًا قاتمًا. يراقب بعينين حزينتين للغاية، بنيتين تميلان للحمرة، أنقلت جفونه برموش كثيفة سوداء لكن جمالهما لا يقارنان بمدى الذبول الذي تشكل خطوط محمرة أسفل جفنيه إضافة لهلاله سوداء، بدا كفضاءٍ مظلم قاتم في زاوية الكون. استدار وغادر إلى أعماق الغابة في صمتٍ مطبقٍ.

انتقل التأبين إلى داخل القصر، أينما ترمي بصرك ترى لونًا أسودًا كثيب. لكن تشارلز شغل نفسه بأمرٍ آخر أكثر أهمية من الكآبة، ذلك الشاب المرعب كان هنا حاضرًا داخل القصر! وهذا ما آثار فضوله ودفعه لمراقبته وهو يسير بين الحضور، وما زاد حيرته أن البعض كان يوقفه ويتحدث إليه بعطف، وهو يومئ ثم يتابع طريقه بدون اكتراث.

تتبعه إلى الرواق من خلال مدخل في البهو. رآه يقف عند لوحة زيتية رسمت للكونت السابق (جوزيف أوليغرس) لاحت على صفيحة وجهه نظرة أشبه باستشفاء وابتسامة متحسرة تثير الاهتمام.

جره فضوله للذهاب إليه فألقى التحية بلباقة وسأل: "أنت تقف أمام اللوحة شاردًا، هل أنت أحد معارف الفقيد؟".

تطلع إليه من ركن عينيه متفحصًا ثم أجاب بنبرة مرتخية: "إلى حد ما".
جاء صوت السيدة إغاردن المذهول يخترق حوارهما: "يا للسماوات! لا أصدق! وإن كان سرابًا ليكون هذا أرحم مما أراه أمامي! إريك".

التفت الاثنان للجهة التي قدمت منها، انقلبت ملامح ذلك الشاب إلى عبوس وزفر حانقًا ودور عينيه ضجرًا.

وقفت السيدة إغاردن وازافت بلهجتها الحدة كسياط: "أراد والدك لحظة واحدة حتى يراك قبل أن يفارق الدنيا، لكنك عوضًا عن ذلك سرحت ومرحت دون اكتراث لأمره. والآن في اليوم الذي مات فيه شقيقك جئت إلى هنا بكل جراءة!".

- "يا إلهي، يا إلهي! يا إلهي! أنت لا تتغيرين! هل علي أن أفقد حاسة سمعي حتى أرتاح من ذمك". قال ذلك الشاب بسخطٍ شديد.

- "إياك أن تفكر بفعل أي شيء، أفهم؟".

- "حينما أجد وقتًا للتفكير أعددك أنني سوف أفعل بدون الرجوع إليك؟". جاءها بذلك الرد النزق السريع، ثم تنهد واستطرد: "مات دانييل، وهذا يعني أنه لم يعد من عائلة أوليغرس سواي الآن. هو بالأصل لم يكن هنالك سواي لولا التفضيل العمى الذي كان أبي يكرهه لدانييل. أما الآن. قاطعته: "لا تحسب أن الكونت كان أبله ولم يحسب حسابًا لأمر الثروة".

- "على حسب ما علمت أنه انتحر بسبب عشقه، أرجو فقط بأن ثروة آل أوليغرس لم تضع بسبب هيامه فكتب كل شيء لزوجته. إن فعل ذلك سوف انقلب إلى شيطان بحق!".

تمكن من جعلها ترتعش حنقًا فنهزته بحدة: "أغلق فمك وغادر من هنا!".

ليكمل هز بدنها في ابتسامة معاندة: "لا، القصر قصري. سوف أذهب وأتعرف على أرملة أخي وأظهر لها تعظفي البالغ. عن إذنكما".

وقف تشارلز مهوئًا من مشاداتهما الكلامية، ثم رمق ذلك الشاب الغرو هو يغادر ويبتعد.

- "هل هو شقيق الراحل؟ كما فهمت". سأل تشارلز.

زفرت السيدة بعمق لترخي أعصابها المحمومة، ثم أجابت: "نعم، إريك، ولكنه فاسدٌ أنااني لا يبالي إلا بإمتاع نفسه وإشباع رغباته!... سلوكه الوقح وعجرفته التي لا تطاق تجعلك تراه شيطان لا بشر، كانت هوايته المفضلة هي رؤية والده يفقد أعصابه بسبب تصرفاته المتهورة!".

- "هل هو سيءٌ لهذه الدرجة؟".

- "أسوأ مما يمكن أن تتخيله".

- "هل كان بينه وبين الراحل خلافات؟".

- "نعم، كان طائشًا يسرف المال في الشراب والقمار، حاول والده أن يغيره لكنه حجر، حجر لا يلين! لهذا لم يرى فيه ما يصلح لحمل لقب العائلة وثروتها، فكتب كل شيء باسم دانييل وحرمه من حصته، وهذا سبب نزاع بينهم... وجنون ذلك المتهور قاده لرفع سلاح في وجه شقيقه! الله أعلم ماذا كان ليحدث لولا تدخل والدهما"
- هذه النقطة أثارت اهتمام تشارلز بشكل ملحوظ فقال: "هل هو من النوع الذي يحتاج الأسلحة؟".
- "نعم، أقصد أن هذا طبيعي بالنسبة له؛ فقد أرسله والده إلى مدرسة عسكرية حتى يستقيم قليلا. لكنه عاد أسوأ من ذي قبل".
- أطرق تشارلز برأسه يفكر ثم عاد يسأل: "لقد ذكر أمرًا حيرني قليلا، إذا لم أزعجك ألا بأس أن توضح لي ماذا قصد بأنه الوحيد الذي تبقى من أسرته في الأصل؟".
- ارتبكت قليلا ولم تمر حركتها التلقائية في ضم أصابعها لتخفي توترها بدون أن يلاحظها تشارلز.
- "في الحقيقة، إنه ليس من حقي أن أشرح هذه المسألة الحساسة".
- "حساسة! ما الذي تعنيه بذلك؟" عرضت المرأة عن البوح بالمزيد، لكن تشارلز فكر مليًا وربط حديث ذلك الشاب بحديث السيدة ثم قال: "أخبرني، هل دانييل لم يكن ابن الكونت أوليغرس؟".
- أردفت بانفعال: "لا أظن أن المسائل العائلية سوف تساند تحقيقكم في أي شيء...".
- أوقفها بإلحاح: "لحظة، انتظري! رجاء! كل قطعة مهمة مهما بلغ صغرها. ربما يكون للكونت دانييل أعداء كانوا يسعون لثروته! ربما يكونون من داخل العائلة أيضا!".
- "حسنا، حسنا، الكونت جوزيف تبني دانييل حينما على حسب ما أعرف".
- اندفع تشارلز لا شعورياً حتى أن وتيرة صوته ارتفعت قليلا: "من أي دير تبناه؟"
- "لا أدري، كل ما أعرفه أن دانييل أنقذ من الموت في طفولته من قبل الكونت ثم قام بتبنيه. لقد عرفت هذه الحقيقة قبل مدة"
- تلك الحقيقة جعلت تشارلز مشتتًا ساكنًا بلا أي ردة فعل. بعد صمتٍ وجيزٍ نطق متلعثمًا: "ماذا عن كنيته هل تعرفينها؟".

- "مع الأسف لا. قلت لك لم أعرف بهذه الحقيقة إلا قبل مدة بسبب ذلك الفاشل إريك فقد كان يعايره وينعته باللقيط".

**

وقتئذ خرجت الكونتيسة أن من غرفتها، لمحتها الخادمة دروثي، التي تحمل صينية فيها إناء شوربة ساخنة.

- "إلى أين هي ذاهبة؟". قالت دورثي باستغراب، بينما اتجهت الكونتيسة من الطريق المعاكس، ويبدو أنها في عجلة واضحة.

- "يا إلهي! ماذا إن فعلت شيء بنفسها؟!". ارتبكت دورثي وشعرت بثقلٍ على صدرها. وضعت الصينية في طاولة أمامها وهولت على عجل تلحق بها.

خرجت الكونتيسة من خلال نافذة في حجرة هادئة منعزلة عن باقي الحجر، ثم اتجهت إلى عمق الحديقة خلف بعض الأشجار كثيفة الأغصان وبرد الثلج ينخر أغصانها الجرداء.

خلف تلك الأشجار يقف شابٌ أشقر الشعر يلوح وجليًا حيث يتلفت بشكل مستمر ويعطي ظهره لتلك التي تتقدم بحرص نحوه. وحالما تيقظت حواسه لخطواتها التي تدهس أغصان متكسرة تختبئ تحت غلال الثلج، التفت مباشرة مستجيبًا لوقع تكسر تلك الأغصان ولصوتها الرقيق الخافة والمثخن بكمية عواطف فاضت من خلال نطق حروف اسمه: "ليوناردو!".

هولت نحوه ثم رمت نفسها بين ذراعيه ليحتضنها وقال هامسًا بقرب أذنها اليمنى: "هل أنت بخير؟". أبعدها قليلا لينظر للمامحها التي لا زالت تحتفظ ببعض الكدمات المستورة تحت مساحيق التجميل: "يا إلهي! لقد أفسد ملامحك!".

- "أصبحت قبيحة!". قالت وهي تجهش بالكباء. تلمس برفق خديها ثم بصوت مفعمٍ بالأسى والغضب قال: "لا، بل أنت ملاكي الذي لم يستحقه ذلك الشيطان!". ثم قبل جفنها الأيمن وضمها: "لا بأس، انتهى كل شيء الآن".

السلام الذي أحاط كيانها وهي بين ذراعيه يطبطب عليها، جعلها تبدو طفلة صغيرة. قالت بصوت خافت مرتجف: "لقد كانت ليلة فظيعة! كان وحشًا!... أنا... أنا لا أدري كيف حدث كل ذلك!".

- "لا بأس لا عليك أنسي الأمر كله، كل هذا مع ذلك الرجل انسيه! لقد رحل ولن يسجنك ثانية، سنكون معاً!". قالها بغبطة وابتسامة عذبة تشق وجهه الحبور. عشيق الكونتيسة آن، شاب في أواخر العشرينين ذا شعر أشقر داكن تتلاصق خصاله ببعضها بشكل عبثي فوضوي، متوشحه بلحية خفيفة وشفتيه باهتين، رمادي العينين كما أن لون بشرته يميل للون الأسمر الفاتح ذلك السمار الذي عادة ما يكتسبه أولئك الذي يعملون تحت أشعة الشمس المضيئة. هزت رأسها بعنف واضطراب وهي تنظر إلى عينيه: "لا، لا! هنالك شيء... لا أعرف كيف أصيغه... لكنني أشعر بثقلٍ في صدري وبذنبٍ ما!".
- "أنتِ لم تطلخي يدك بدمائه، هذا أهم ما في الأمر".
- "هنالك جزء لا أقدر على تذكره يا ليوناردو... أشعر بالهلع كلما حاولت التذكر!... كما... كما لو أنني انفصلت عن الواقع... رغم أنني شعرت بوجوده". أمسكت يده بقوة بينما عينها ترافقان أفقاً غير موجود إلا بعقلها، كأنها تحاول التغلغل بين ثنايا ذلك الظلام الذي أحاط الليلة الغامضة... تحاول استخراج صور غير تلك المهمة والمطموسة بالسواد:
- "سمعت صوته... كان قريباً!... لكن... الظلام!... لم يكن هنالك سوى الظلام!".
- قبل جيبها ثم ضم رأسها إلى صدره: "صه، صه! توقفي... أرجوك... أرجوك! لست مجبرة على تذكر شيء".
- "لا أستطيع، لا أستطيع! ليو... أنا خائفة أريد مغادرة هذا القصر، إنهم يظنونني من قتله!".
- أمسك برأسها وابعده بسرعة ليدنو من ملامحها وحادثها بتشدد: "إياك أن تزرع هذه الشكوك في نفسك، أنتِ لم تقترفي أي شيء... لا تسمعي للوساوس أن تسيطر عليك!".
- "ولكن رجال الشرطة يحيطون بالمكان ويشكون بي".
- "دعهم يفعلون ما يريدون، أنتِ فقط كوني قوية. إنها بضعة أيام ثم نغادر أنا وأنتِ إلى حياة جديدة، اتفقنا؟". همس برقة لها وكتلتا يديه الدافئتين تحوط وجهها. وكل هذا كان على مرأى من الخادمة دورثي، تراقب بصمت من خلف شجرة تبعد عنهما خمسة عشرة متراً، شهدت على تقبيل ذلك الرجل للكونتيسة فشبهت بصدمة شديدة ثم غضت بصرها سريعاً. وقفت كالوتد المستقيم خلف الشجرة تتمتم:
- "لا أصدق! دفن زوجها قبل عدة دقائق، ألا تجعل؟!".

بسرعة البرق عادت الخادمة دورثي إلى صينيتها ثم اتجهت للمطبخ ووضعت الصينية على منضدة كبيرة تتوسط أرضية المطبخ. بقية الخدم كانوا يتابعون أعمالهم كأنهم داخل خلية نحل كل واحد يهتم بعمله.

وقفت دورثي تفكر بصمت _ يا إلهي! هل للكونتيسة علاقة بمقتل زوجها؟ ... لقد كانت غريبة الأطوار في المدة الأخيرة. كما أن ذلك الشخص لحقها إلى هنا. لا أصدق! هل اتفقا ودبرا دابرة لقتل الكونت؟ ... ربما أرادت التحرر منه لتكون مع عشيقها ذلك. ماذا أفعل يا ترى؟ أبلغ الشرطة بما رأيت وسمعت؟ فقد كان الكونت رجل نبيل وطيب القلب. أه يا رأسي!-

بينما يديها تشتغلان في غسل الكؤوس تلك الخادمة ذات الشعر الأحمر، عينها الفيروزيتان كانتا تشتغلان في مراقبة تصرفات دورثي بحرص، لاحت الصهباء غامضة مثيرة للشك! "ألم تتناول هذا أيضا؟". سألتها الصهباء.

نظرت لها وتوقفت عن قضم ظفر إبهامها: "نعم". ثم أضافت بغمغمة: "لم تتسمم به!".

عند منتصف الليل، جاث على ركبتيه أمام شاهدة القبر المنقوش عليها _ الكونت دانييل جوزيف أوليغرس. الولادة: ١٨٩٧. الوفاة: ١٩٢٤ _ نزع لساعاتٍ طويلةٍ نزيحًا فاض من عينيه بحرقه أليمة، دموعه فقيدة بين ندمٍ عظيم. لكن، ما الإثم المقترف؟ ما الإثم الذي ثقب في صدره ثقبًا عظيمًا ثم ملئه بعذاب الضمير؟ متدثرٍ تحت معطفه الأسود كستارٍ من الليل الدامس يخفي جسده والقلنسوة تغطي رأسه، يغطي فمه بكف يمينه ليكتم صوت شقيقه الذي بلغ من حدته أن هز كل جزءٍ في جسده. فتح عينيه ونظر إلى شاهدة القبر أبعد يده ببطءٍ عن فمه يجاهد للتنفس من بين شهقاته الذابحة، صوته ضاع بين فضاء نحيبه الهش: "ه هاري! اغفر... اغفر لي! أتوسل إليك!" رفع بصره للسماء: "كان علي منعمهم! ليتني مت قبل هذا اليوم! ليتني! يا إلهي لماذا؟... لماذا، لماذا، لماذا!... عقابك قاسٍ جدًّا!... يا إلهي! لماذا أنا الوحيد الذي عليه حمل هذا العبء؟ لن أتحمل ذلك... لا أستطيع!... لا أستطيع!" خرجت صيحة محمومٍ من رثيته ثم انهار جنبه إلى تراب القبر وغرس كل أصابعه في ترابه، ترامت دمعاته الساخنة الواحدة تلو الأخرى واكتسى وجهه لونًا بنفسيًّا فاتحًا، وكانت همسات الأغصان الخافتة داخل المقبرة كالعزاء!

الفصل الثامن

تمعن تشارلز في الحقائق التي كشفت له، ولشدة تعمقه في التفكير، صار يمشي في الرواق دون شعور ويمسد ذقنه وبطريقة ما قادته ساقيه إلى ردهة التجمع حيث الضيوف. الآن يقينه من مسألة معينة تخص شبح ماضي كان يتراءى له هزيباً غير واضح وغير طبيعي... لكن كلام المدبرة ألبس ذلك الشبح الباهة رداءً سميكاً من الحقائق بحيث يصعب عليه غض البصر عنها وإنكارها حتى. صارت هواجسه تطحن راحة باله طحنًا، يسير بخطوات متباعدة، ذراعه اليمنى خلف ظهره واليد الأخرى أرسلها لتتغلغل بين خصاله يهذي متمتمًا: "طفل مبتنى، طفلٌ مبتنى! شكوك في محلها... دانييل إما هو أو فرناند؟... واحدٌ منهما يستحيل أن يكون ريتشارد!... فرناند ودانييل كليهما يملكان شعراً أشقر أحدهما نعم يجب أن يكون واحدٌ منهما... تبا! رأسي سوف ينفجر!... دانييل... دانييل... وقف فجأة وكأن صخرة ما سقطت على رأسه أفقدته القدرة على النطق لشدة قوتها، شخصت عينيه ذهولاً حينما تذكر اللحظة التي رأى فيها الوشم على الرسغ الأيسر للكونت، فتمتم بصوت شحيح: "دانييل وشم في يده ليسرى... وحتى لا يقوم فرناند بتقليده وشم في يده اليمنى... أتذكر ذلك... نعم أتذكره جيداً".

دخل من المدخل الأيسر للقاعة ثم راح يتلفت في الأرجاء يبحث عن الشخص الوحيد الذي باستطاعته مشاركته بكل شكوكه ومخاوفه. ضوضاء الناس وثرثرتهم الجانبية أزعجته للغاية حتى استمكن الضيق من سعة صدره وجعله يتجهم حتى أنه أحس بالجفاف وصار يلهث. امتدت يدٌ من خلفه وربتت بلطفٍ على منكبه الأيسر، ليلتفت تشارلز ويرى السيد جوناثان يتطلع إليه بحيرة وقلق واضحان:

- "هل أنت بخير يا بني؟".

استدار بالكامل نحوه ثم تهد بارتياح مزدرداً ريقه، واجابه بتهدج: "نعم، نعم بخير. هل تسمح لي بتحدث معك قليلاً؟".

- "بطبع!".

انزوى الاثنان في ركن هادئ في القاعة بقرب نافذة عريضة مزاحة الستائر، وراح تشارلز يطلعه بكل ما عرفه، ليقف جون بعدها مطرقاً برأسه يهيمهم في تفكير عميق، قال:

- "هنالك احتمال قوي بأن تتسع رقعة المشتبهين. النزاع على المال يغسل الأدمغة في بعض الأحيان. لكن بدون دليل يستحيل اتهمه".
- "الغرفة الخاصة بالكونت كانت تعج برائحة السجائر، أليس كذلك؟".
- "نعم".
- "السيدة إغاردن، ألم تذكر أن الكونت كان يعاني من حالة صحية تمنعه من التدخين؟"
- "أجل، لقد ذكرت ذلك"
- "ذلك الشاب لمحته يمسك سيجارة بيده أثناء مراسم الجنازة".
- أوما جون ثم غرق في التفكير للحظة حيال كلامه. تلمح تشارلز كان يطابق بعض الحقائق التي صدمته، فنظر إليه مجفلاً وقال: "ما تلمح له يلوح جنون بالنسبة لي يا بني. هذا مستحيل!".
- تكلم تشارلز بلهجة سريعة: "حسناً، من الواضح أن هذه القضية سوف تجرنا لفضح الكثير لذا، صدقي أي شيء يحمل اسم مستحيل ما هو إلا خدعة؛ فأني شيء ممكن ووارد الحدوث في هذه الحياة الخادعة".
- تهد المفتش بحيرة جلية ثم هز رأسه وتكلم قائلاً: إذا كان هناك احتمال بأن يكون المدعو إريك متورطاً بشيء ما، ولمجرد أنه يدخن، هذا ليس دليلاً كافياً لتوجيه إصبع الاتهام له".
- أعرب تشارلز بزفرة طويلة تدل على الضيق من هذه القضية المربكة، حتى أن ذلك انعكس سلباً على نظارة ملامحه، قد شحب وجهه من قلت النوم والتفكير المفرط، وانعقدت خطوط عريضة على جبينه من تقطيبه ولكنها أغلب الوقت مستترة تحت خصلاته المتعرجة السوداء التي تاطر ملامحه وتنقسم لجزئين.
- "حسناً، الأرجح أن نذهب في زيارة قصيرة إليه". قال المفتش.
- أردف تشارلز متحمساً اتجاه هذا الاقتراح: "نعم، نعم! علينا زيارته" إلا أنه ما زال يبدي توتر فشل في ستره. لقد انطبع ما يجول في خاطره من أفكار مشتتة على ملامحه الشاردة، وذاك لفت انتباه المفتش، لاح له مرتبكا يحرق بالأرض كما لو أنه أسقط دبوس ملكي صهر من الذهب. هز رأسه وعقله في مكان آخر.

في صباح يوم يذخر بقطرات الندى، وأوراق الخريف قد أعلنت استسلامها للشتاء تسبح فوق برك المياه التي تعكس في صفائها لون الغيوم. أقبلت عجلت سيارة مسرعة وداست بعجلاتها بركة المياه فقسمتها، تطرطش الماء في كل الاتجاهات وترك بصمته على حافة السيارة من الجانب الأيسر.

مضت وسط سكون الصباح وعبرت تقاطع بعد ما يقارب مائة متر ثم انعطفت يسارا لتسلك شارع سانتريير، استمرت بشكل مستقيم على طول الشارع إلى الشمال حتى تقاطع ميدان غيلبونند، عرجت العربة بشكلٍ يسير لجهة الشمال الغربي لتدخل عبر طريق محوط من الجانبين بمنازل راقية، اللون الأحمر النابع من الطوب يشع بين أكوام الثلج المقدسة.

توقفت السيارة عند أحد المنازل في نهاية الشارع قبل المنعطف الأولى. يتكون من ثلاث طوابق له اثنا عشر نافذة من الأمام عريضة وجميعها مغلقة ما عدى واحدة في جهة اليسار في الطابق الثاني. المصراع الأيسر منفرج للداخل بحيث تمكن تشارلز من رؤية الستائر الزرقاء. من جوانب المنزل جدار بطول متر وله باب من قضبان الحديد ترينه نباتات زينة. وقف تشارلز بعد نزوله منبهراً؛ قد كان المنزل يعطي انطباع أن عائلة كاملة تسكن فيه؛ وذلك ما جعله مستغرباً قليلاً فهينة الشاب لا تسمح لك بتخيله رب أسرة.

- "ما كنت لأظن أن هذا منزله أبداً!". علق تشارلز.

تطلع إليه المفتش متسائلاً: "لماذا؟".

- "لو أنك رأيته لوافقت على رأبي".

ابتسم السيد جون وهو يمسك أحد قبضان البوابة ليدفعها للأمام. حالما دلفا استقبلتهما حديقة ينشق في وسطها طريق معبد بالحجارة البنية، مصفوفة اصطفافاً مستوي وتصل إلى عتبتين من الحجر الأبيض أسفل الباب الخشبي. صعد المفتش جون على العتبتين ووقف أمام الباب. أخذ بمضربة الرخام التي تتوسط الباب وخطب بها ثلاث خبطات، بينما وقف تشارلز خلفه ولم يصعد على العتبتين يترقب أية استجابة.

بعد عدة دقائق فتحت فتاة حسناء ممشوقة الجسد، قصيرة الشعر بلون أسود قاتم، وكما يبدو من ارتباكها وهي تربط حزام الروب القطنية على عجل، أن السيدان جاءا في وقت غير

مناسب، وقد حيرها رؤية الزي الرسمي الذي يرتديه المفتش جون المتمثل في زي شرطة العاصمة معطفٍ أزرق داكن طويل علق على صدره شارة المفتش. وقبعة كحلية دائرية.

سألتهما وهي ترجع خصالها اليسرى خلف شحمة أذنها: "أهلاً ما الخطب؟".

تحدث المفتش برسمية: "هذا منزل السيد إريك أوليفرس؟".

أومأت: "نعم".

- "أنا المفتش جوناثان غريس أريد أن أقابل السيد إريك من بعد إذنك".

- "اممم... اممم... طبعاً، طبعاً! ولكن ما السبب؟".

- "إنه يعرف السبب". أجاب جون باقتضاب مع بسمة لينة.

سمحت لهما بدخول ثم تعذرت حتى تذهب لإيقاظه.

جلس تشارلز والمفتش على ذات الأريكة العريضة. حملت ردهة المنزل إشراقة بلمسة نسائية.

ويبدو أن هنالك بعض الصناديق والأمتعة المتروكة جانباً. لاحظ تشارلز شيئاً من الشرارات لا

تزال بين الرماد فكلّم نفسه قائلاً: "يبدو أن المدفئة تركت مشتعلة طوال الليل!". حينما تطلع

لسقف رأى ثرية متوسطة الحجم، جميلة تبدو لناظر كأنها زهرة ذهبية. ثم أمعن التحديق في

الطاولة الخشبية التي تقابل الأريكة التي يجلس عليها، تمكن من رؤية غطاءٍ رقيق من الغبار.

مال قليلاً ثم مسح على الطاولة بإصبعه سبابته اليسرى، راقبه المفتش فسأله: "ما بك؟".

أجابه بينما يتلمس سبابته بإبهامه: "غبار! يبدو بأنهم انتقلوا حديثاً إلى هذه المنزل".

بعد هنيئة جاء صوت إريك قبل شخصه:

- "أهلاً وسهلاً، رجال الشرطة في منزلي كنت واثقاً أنكم سوف تأتون".

أقبل عليهما بوجهٍ بشوش بدا مختلفاً كلياً عن ذلك الشخص الوقح. يرتدي قميص أزرق

زران من الأعلى مفتوحاً، وسروال رمادي، وبسمته تتناثر بوهج على ملامحه المتوردة.

ابتسم أكثر حينما رأى تشارلز: "رأيتك في مكانٍ ما... في الجنازة أليس كذلك؟".

- "نعم، تشارلز، وهذا المفتش جوناثان غريس". قالها برتابة ويده تشير للمفتش.

- "هممم، إذن كيف أخدمكما؟". أوماً سألًا أثناء جلوسه.

- "ألا بأس عندك في أن أَدْخَن الغليون؟". سأل جوناثان.

- "بتأكيد لا، خذ راحتك".

- ابتدر تشارلز الحديث: "أنت تعلم أننا نحقق في قضية موت الكونت دانييل".
- "نعم، رغم أنه انتحر كما يبدو، لذا ما داعي لتحقيق؟".
- أردف تشارلز: "هنالك أدلة تشير إلى أنه لم ينتحر. كما أنك تبدو مرتاح لموت شقيقك".
- رفع حاجبه الأيسر متعجبًا من حكمه السريع عليه، فقال: "إنها قسوة بالغة من جهتك بأن تصورني بمنظر السعيد على موت شقيقه".
- وحينما كانوا يتحدثون جاءت تلك المرأة وقد بدلت حلة النوم بثوب بني غامق اللون ينساب على طول جسدها، أكمامه بيضاء ومزركش عند منطقة الصدر. ابتسمت والحبور يملئ تفاصيل وجهها الأبيض، ليفعل تشارلز المثل بإمالة خفيفة، ثم راحت عينيه تتفحصها. مزهرة الملامح ذات عيون جاحظة بنية ورموشها طويلة
- "زوجتك؟". سأل المفتش بينما يحشو الغليون بالتبغ.
- "خطيبي، راشيل". أجابه في حين جلست هي بجواره.
- رفع المفتش حاجبيه متعجبًا: "وتعيشان معاً؟ كما يبدو".
- "للأسف لم نأخذ رأي أحد في ذلك" أردف بابتسامة مصطنعة.
- "سمعنا بما حدث للكونت أوليغر، إنها حقيقة فاجعة قد أذهلتنا فعلاً حالما علم إريك بالأمر سارع إلى القصر". تحدثت راشيل بصوت متأثر حزين.
- هز جون رأسه وبعد برهة من الصمت، تكلم المفتش: "وهي كذلك حقيقة فاجعة، ولكن مع الأسف تلك الحقيقة مخفية ونحاول معرفتها فالكونت الشاب لم يموت منتحراً بل إنها جريمة مدبرة بإحكام لذا... نأمل أن نعرف الحقيقة التي أدت إلى وفاته".
- لاح إريك شارداً يتجنب النظر إلى الاثنين، يزيح عينيه لجهة المدفأة وكأنه يتجنب النظر إلى ماضي زرع في داخله بذرة الندم لأمر ما، تلك التعابير التي أظهرها أثارت اهتمام تشارلز كثيراً، فتهدد بهدوء وسأله سؤالاً مباشرة: "أنت والراحل كان بينكما خلاف يتعلق بالثروة، صحيح؟".
- تطلع ناحيته بسرعة وفي عينيه حدة شرسة وكأنه تفاجأ من سمع ذلك لكن بعد تفكير علم سبب معرفته بتلك القصة. فزفر ساخطاً وغمغم: "العجوزة الثرثرة! نعم هذا الخلاف ليس بشيء مهم إنه يحدث في كل مكان وفي كل العائلات"
- "ولكنك حملت سلاحاً في وجه شقيقك. كما علمنا" أردف تشارلز مجدداً

تململ قبل الإجابة ضجرًا وضاق صدره بالسخط من أسئلته: "حسنًا، لم تكن إلا لحظة غضب كان ذلك قبل سنة تقريبًا. ولعلمكم أنا لم أرى دانييل منذ وقتٍ طويل فقد قطعت علاقتي به، تركت القصر وكل شيء خلفي".

رفع المفتش حاجبيه بذهول مما قاله: "منذ متى غادرت القصر؟"
لاك إريك لسانه داخل فمه غيظًا لذكر هذه المسألة، لكنه تبسم وتحلى بالباقة: "أخبرتك قبل سنة تقريبًا".

- "هل كنت في ياسك أم غادرت المدينة مباشرة بعد تركك للقصر؟"

- "بقيت في ياسك أسبوعًا ثم غادرت إلى لاسلي".

- "وما الذي حملك على التوجه إلى لاسلي؟"

- "أردت زيارة صديق لي يقطن هناك. وإذا رغبت بمعرفته يدعى شارون جارند بقيت عنده لمدة ثم غادرت إلى مونولور وهناك التقيت براشيل" صمت لبرهة ثم أضاف وكأنه يدعي تذكر شيء وكان واضحًا أنه قد ضاق ذراعًا ومع ذلك يتبسم: "أه صحيح. كسرت ذارعي تقريبًا حينما كنت في منطقة مونولور بسبب سقوطي من جرف ولولا مساعدة راشيل لكنت ميت. أهنك شيء آخر تريدان معرفته؟"

تطلع الاثنان نحوه وبقيًا صامتين لبرهة، حتى نطق تشارلز سائلا: "متى عدت إلى ياسك بالضبط؟"

قلب عينيه يكبح غيظه: "قبل أسبوع..."

اندفعت راشيل تكمل عنه وقد رق صوتها ليغدو أكثر نعومة لم يكن هناك فرصة لرؤية الخداع في عينها البرقتان وذلك ما أربك تشارلز:

- "لقد قطعت التذكرة بنفسني.. كان ذلك في الثامن والعشرين من نوفمبر. أردت من إريك أن يعود إلى ياسك حتى يصلح شقيقه وينهي الخلاف الذي بينهما..." رمقت إريك بنظرة خائبة حزينة ثم أضافت: "ولكن إريك بقي يماطل ... وحينما أتته الشجاعة لمقابلته... سمعنا بالخبر!".

امتعض إريك وهمس لها: "لم يكن هنالك داعي لذكر هذا يا راشيل".

زفر المفتش وراح يمسد ذقنه بهدوء ثم قال: "الكونت حينما غادر من منزله عند الساعة التاسعة إلا ربع كان يقصد مقابلة المحامي... وأيضًا كما أبلغتنا المدبرة إغاردن كان يخطط

لمقابلة شخص آخر في نفس ذلك اليوم... لذا لا بد أن ذلك الشخص مقرب جدا للكونت وإلا ما كان ليزوره في ساعة متأخرة. ثم، مات الكونت بعدها... هل قابل الشخص الذي تحدث عنه أو لا؟ وهذا الجواب عثرنا عليه في خصاله سوداء كانت عالقة في زرار الكم وعلى الأرجح أن ذلك الشخص هو القاتل. لذا أخبرنا أتعرف من هم الأشخاص المقربين للكونت؟

انتظر الجميع الإجابة بصبر بينما انهمك إريك في التفكير حتى قال: "هممممم. مما أعرفه فدانييل لم يكن يختلط كثيرا بالآخرين... حتى أثناء فترة دراسته لم يكون أية صدقات يمكن أن تدوم. لكن، هناك شخص واحد مقرب لدانييل... إنه كايل بارتكيل".

- "خادمه الشخصي" قال تشارلز.

- "نعم، لقد ساعده دانييل... مممممم أعتقد أنه على علاقة جيدة به فهما معا منذ ثلاث سنوات... أو أربع! لا أتذكر ولكن ما أعرفه أن دانييل ساعده حينما كان عبدا!"

تفاجأ تشارلز كثير حتى ارتفعت حواجبه وهو يقول: "عبدا! هذه الممارسة ليست قانونية".

استضحك إريك ثم تكلم: "هنالك أنواع للعبودية يا سيدي، لقد كان مديونا بالكثير من المال بسبب والده فأجبر على العمل بدون أجر عند الرجل الذي يدين له. رأيت لا نفع للقانون".

انزاح بصر تشارلز لزاوية الأرض وأحس بقصره مؤلمة خاصة حينما رأى بسمه إريك الساخرة من تفكيره بأن للقانون فائدة أو قوة.

تهند المفتش ثم هز يمينه قليلا نافيا: "مع ذلك كايل غير متواجد في ياسك حاليا كما علمنا من مدبرة قصر الكونت... أفترض أنه من كان يخطط لمقابلته ضعيف جدا"

- "حسنا، أنا حقا لا أعرف إن كان لدانييل أشخاص مقربين غير بارتكيل".

أطبق المفتش على طرف الغليون واستنشق منه ثم مسد لحيته مفكراً في أمر ولم تمر إلا ثواني حتى أفصح عما جال في ذهنه: "هل لي أن أسأل سؤالاً، ربما سيبدو غريباً. لكن أخبرني، نظراً لأنك والكونت نشأتا معا، هل لاحظت شيئاً غريباً أو ميولاً معيناً كان الكونت أوليغرس الشاب يميل لها؟".

فهم تشارلز مباشرة ما يرمي له المفتش، من جانب آخر تعابير وجه إريك وسمته يوضحان أنه لم يفقه شيئاً على الإطلاق. هز منكببه في حيرة وقال: "عذراً، لم أفهم عن أي ميول تقصد؟".

تهند المفتش ثم أنزل ساقه اليمنى عن اليسر واعتدل بجلوسه: "لابد أنك علمت بما حدث مع زوجة شقيقك. ألم تتحدث إليها؟".

رفع حاجبيه وزم شفطيه يفكر بعدها قال: "نعم، تحدثتُ إليها ولكن كان مجرد حديثٍ مختصرٍ جدًا. كما أنها بدت غريبة الأطوار".

أردف تشارلز مباشرة: "يمكن أن تقول أن المسألة حساس نوعا ما لذا وبطلب من الكونتيسة بعض الأمور لم تخرج للعلن. الكونتيسة أن كانت تتعرضت لاعتداء بضرب من قبل زوجها. هل للكونت دانييل ميول شاذة؟".

صدم الشاب صدمة بالغة ترجمت في ارتفاع حاجبيه وفغر فاهه، طرف مرتين قبل أن يقول: "دانييل يعتدي على أحد! أتمزح معي يا هذا! دانييل كان من النوع الذي يبكي إذا رأى حيوانًا جريحًا فما بالك أن يعتدي بالضرب وعلى امرأة أيضًا!"

تطلع المفتش وتشارلز لبعضهما بتعجب وحيرة شديداً؛ قول إريك شبيهٌ لحد ما بما قالتها المدبرة غاردن، مما يرجع الكونتيسة إلى دائرة الشك مجددًا.

في ظل الصمت المطبق لعدة ثواني قرع باب المنزل. نهضت راشيل عوضًا عن إريك بقصد فتح الباب. في حين أنهى المفتش حديث مع إريك وهم بالنهض ليله تشارلز. جاءت راشيل قبل خروجهما قائلة: "إريك، إنه محامي عائلتك!".

حدق الجميع منتهيين بينما يعبر المدخل نحو الردهة ذلك الرجل القصير بحقيبته السوداء وبدنه السمين قليلا، لكن هندامه المحترم يعطيه وقارًا حسن، دائري الوجه حليق الذقن ونظارته تعطي عظم أنفه، بشعر خفيف جدا من الأمام وعلى عكسه من الخلف.

"عذرًا على المجيء بدون موعد مسبق، سيد إريك بحوزتي أوراق مهمة عليك الاطلاع عليها، وكذلك وصية الكونت أوليغر".

بدا مندهش كحال البقية وهو يقول: "وصية!".

"نعم، انتظرت الوقت المناسب حتى أخبرك بذلك، أنت الفرد الوحيد المتبقي من عائلة أوليغرس" تهند بضيقٍ أثناء متابعته للكلام: "كما أنني واجهة صعوبة في إيجاد عنوانك، نظرًا لنجوالك الغير محتمل. لو لم أمر على زوجة شقيقك الراحل لتعزية لما كلفة نفسي بالبحث عنك". صوته كان كفيلاً ليثير ما تبقى من حنقه الشاب المكبوح، لكنه اكتفى برمقه شزراً.

ألقى المحامي نظرة على الضيفان وخص نظرة مطولة لزي المفتش، ثم قال: "لديك زوار كما أرى".

قال المفتش: "كما تعلم، نحقق في قضية موت الكونت".

تكلم المحامي بلهجة سريعة متأثرة: "نعم، نعم! لقد كانت صدمة مباغتة لم أكن لأتوقعها أبداً، أبداً! ما كان لأحد أن يتوقعها في الحقيقة، شابٌ مثله في أوج شبابه تنبني حياته هكذا!" أضاف بعد تمهيدة آسى: "عندما أطلعني على رغبته في كتابة وصية، أشار إلى تنازله من منصبه لصالح شقيقه، كنت مصدوماً واستغرقت بعض الوقت في نصحه حتى يعدل عن هذا القرار. لكن للأسف لم يستمع لي. قلت له أنك تقدم على مجازفة عظيمة في توكيله بأعمال الشركة!". هتف إريك ساخطاً: "تبا لك أيها الرجل المسن!".

دارت وجوههم مباشرة إليه وشعرت راشيل بالاستياء والاحراج من تصرفه. لكن المحامي تكلم وهو ينظر من فوق نظارته: "حسناً، هذا هو السبب في جعلي لا أتقبل نقل أي شيء باسمه". استطرد المفتش بلباقة: "إنها صدفه حسنة بأن نلتاق يا سيد..."

- "كيفين هيليارد". أجاب الرجل سريعاً ليتابع المفتش: "لقد خططنا للمرور عليك، لكن ما دام أنك هنا هل تسمح بطرح بعض الأسئلة السريعة؟".

- "بتأكيد، وأرجو أن أتمكن من خدمتكم".

- "حسناً، سيد هيليارد. كانت آخر وجهة للكونت هي مكتبك أليس كذلك؟".

ارتم إريك بظهره على ظهر الأريكة وغمغم ساخطاً: "يا سلام أصبح منزلي مركز الاستجواب الآن!".

تجاهله السيد جوناثان وعاد يسأل: "هل لاحظت أي شيء غريب على الكونت وقمها؟ ألم يبلغك عن أي سبب قد يثير الريبة في موضوع نقل ملكيته؟"

- "هممم، للصرحة كان يرمي بكلمات مهمة كرهبته في الارتياح والانعزال عن المجتمع... لكن لم يخطر في بالي مطلقاً أنه سيقدم على قتل نفسه".

تمتم إريك بصوت مرتفع حامل الوتر: "إنه لم ينتحر".

هز المحامي إطار نظارته وقال باستغراب: "كيف ذلك!".

- "هذا ما نحن متأكدين منه يا سيدي، لذا أخبرنا في أي ساعة خرج بالتحديد من عندك؟" سأل تشارلز.
- "اتفقنا على الالتقاء يوم الاثنين عند الساعة التاسعة إلا ربع في مكنتي؛ ثم غادر عند الساعة العاشرة والنصف على حسب ما أذكر. أيضًا لاحظت أنه بدأ مستعجلاً فقد أخبرني أنه سيذهب لمقابلة أحد أصدقائه".
- "صديق! هل تعرف من هو؟" اندفع تشارلز مسرعًا بذلك.
- "هز السيد هيليارد رأسه مجيبًا: "كلا، مع الأسف لم يبلغني باسمه".
- "أردف تشارلز: "أتعلم إن كان للكونت أصدقاء مقربين؟".
- "همممم... نعم ولكن كلها عند حدود العمل تقريبا. أعني على حسب معرفة فيه فهو لم يكن من النوع الذي يميل لإنشاء علاقات خارج العمل".
- "هتف إريك بصوت خامل: "إن انتبه استجوابكم هل لي أن أرى وصية الكونت العزيز!".
- "طبعًا". قال المحامي وهو يفتح حقيبته العملية ذات اللون البني الداكن وأخرج منها مطروف أصفر قدمه له.
- فتح إريك الخيط الذي يغلق المطروف وأداره، ثم فتحه وأخرج بعض الأوراق، بدأ بالقراءة وفي كل سطر كانت علامات الصدمة تتفاقم على وجهه.
- سألته خطيبته بقلق: "ما الأمر؟".
- لم يجب، ليبارد المحامي ويقول: "أعلم أنك ما كنت لتتوقع ذلك، لكنه كتب لك الحصة التي حرمتك منها والدك، وتنازل عن إدارة الشركة لصالحك. أرجو أن تكون كفؤ لها. وفيما يتعلق بثروة العائلة الخاصة فقد قسم جزء من الثروة باسم زوجته، وتفصيل التقسيم كما تقرؤها" أطرق المحامي رأسه بدا أنه يكتنم شيئًا ما فتهد ثم افض قائلا: "هناك ما عجبت منه، كان قد بدأ بإجراءات الطلاق ومع ذلك فقد خصص حصة من الثروة لزوجته!"
- قطب تشارلز حاجبيه باستغراب يتمعن في تركيز بينه وبين نفسه _ يخطط للانفصال عن زوجته؟!_
- ظل الصمت يساير ألسنة الجميع حتى قال المفتش وهو يتأمل حال إريك، يمسك بأوراق الوصية والندم يلمع في عينيه الكستنائيتين. تابع المحامي يقول وذراعه اليسرى خلف ظهره:

"على كل حال، لطالما كان الكونت الشاب يفكر بكل من حوله ولا أعلم إن كانت هذه صفة حميدة أم سيئة. إريك، كما قرأت في الوصية فهو استقطع جزء من ماله وأوكلني به حتى أرسله بشكل دوري إلى دير سانت فليرك وقد طلب مني أن أوصيك بفعل ذلك أيضاً..."

حينما سمع تشارلز اسم الدير تجمدت كل خلية في جسده إضافة إلى وجهه من أثر الدهول أعطى المحامي نظرة سريعة يقظة وقاطع كلامه: "عذراً، ما اسم الدير؟".

تهد المحامي وأجاب: "سانت فليرك. إنه دير لرعاية الأيتام يقع في بلدة فليرك. كان الكونت الراحل معتاداً على صرف جزء من ماله لبعض المنشأة الخاصة برعاية الأيتام، إلا أنه كان حريصاً ويضع أولوية كاملة لدير سانت فليرك وهذا ما لاحظته".

ظل صامتاً ولم ينطق بحرف. لاحظ المفتش شروده وتقلب حاله بعد سماع اسم الدير مباشرة؛ فهو ذات الدير الذي عاش فيه تشارلز فترة يعتبرها صفحة كئيبة وسعيدة من حياته.

قيل خروجهم من المنزل، سأل تشارلز السيد إريك بصوت هادئ: "المعذرة، هل يمكنني سؤالك عن أمرٍ أخير".

- "ما هو؟".

- "اكتشفت أن الكونت دانييل كان متبني من قبل والدك. لدي سؤالين، الأول هل تبناه من دير؟"

- "كلا، على حسب ما أذكر غادر والدي لأجل رحلة عمل، وحينما عاد كان يحمل معه دانييل وقد كان مريضاً جداً، لقد أنقذه من الغرق هذا ما أعرفه من والدتي لاحقاً".

نظر المفتش جون إلى تشارلز يعلم جيداً أن تشارلز ما يزال متمسكاً بحقيقة كون دانييل هو أحد الصبية اللذين غرقوا معه، سأل تشارلز سأله الثاني: "هل تعرف ما هو لقبه قبل تغييره؟".

صمت إريك لثواني يفكر، ثم هز رأسه قائلاً: "كلا" أنكس رأسه بشيء من الخجل والحسرة: "لم أكن قريباً من دانييل. أبي وأمي هما الوحيدان اللذان يعرفان كل شيءٍ عنه".

أوماً شاكرًا ثم غادر برفقة المفتش.

الفصل التاسع

أثناء سير المفتش بجوار تشارلز على رصيف الشارع بين الناس، كان يتطلع إليه من ركن عينيه بعد محادثته القصيرة مع إريك بشأن دانييل أصبح متيقناً أنه لن يهدأ حتى يجد كل ما يؤكد على أن دانييل أوليغرس هو نفسه دانييل هاربر، وذلك ما أقلقه. بعد دقيقتين من المشي بصمت تام على الرصيف والمساء يبرق في الأفق بلون برتقالي زاهي، التفت تشارلز إلى السيد جون وحادثه: "هنالك مسألة غريبة!".

أوماً المفتش باستغراب: "مسألة! ما هي؟".

- "علاقة الكونت بزوجته من الواضح أنها كانت سيئة... إذن لماذا سوف يكتب حصّة من الثروة لها؟" أردف تشارلز حائراً كما بدا شارداً أثناء حديثه.

- "معك حق، إنها نقطة غريبة. ولكن ربما أراد أن يفعل ذلك من باب الخير لا أكثر".

تهمد تشارلز وهز رأسه حائراً: "علاقته مع زوجته سيئة، وعلاقته مع شقيقه سيئة... وفجأة أصبح إنسانا كريما وكتب حصص لهما ثم مات... لست قادراً على تقبل ذلك أشعر أن هناك شيئاً غريب في هذه القضية!".

لاك المفتش لسانه داخل فمه يهيمهم بصوت مكبوت كليهما كانا على خط العجز. غمغم قائلاً: "لو نعرف من هو الشخص الذي قابله قبل موته فقط!".

عاد تشارلز إلى شقته بعد يوم طويل قضاه مع المفتش جون، لكن ليلته لم تنتهي فقد ظل يفكر مراراً بالمسار الذي سلكه الكونت فادى إلى مماته.

أرتم كجثة فوق سريريه يدفن وجهه بالوسادة يكلم نفسه كالمجنون أو أقرب إلى آلة أتوماتيكية تسرد أحداث القضية: "غادر الكونت في تمام الساعة التاسعة إلا ربع. قابل المحامي إضافة لذلك الصديق المجهول. قتل في الساعة الحادية عشر وأربعة وخمسين دقيقة بحسب تقدير الأطباء. الخصلة السوداء التي علقت في زرار كمه تؤكد أنه قابل شخصاً ما واحتك به... من المحتمل أنها تعود لذلك الصديق. لترى، إريك عاد مع خطيبته في الثامن والعشرين من نوفمبر، لم يكن الكونت ميت حتى الساعة الحادية عشرة، يمكن لإريك تدبير أمر ما في المدة

التي بقي فيها بعيدا عن الأنظار... لكن... كيف، كيف دبر قتله؟ هل استأجر أحد يا ترى وبقي يترصده دانييل حتى خرج من عند المحامي ثم قتله؟ والوصية هل كان لديه علم بأن الكونت سوف يكتب له الحصة التي حرمه منها والده؟ ما الذي سوف يجبره على قتله إن فعل ذلك! يا إلهي! الكونتيسة أن أيضا، إفاداتها مشبوهة الكونت كان ميت فمن الذي عاد في الساعة الواحدة صباحا واعتدى عليها بالضرب؟... ليس هناك غير إريك طوله ولون شعره الأشقر مناسبان لأن ينتحل شخصية دانييل ويعود إلى القصر... رياه هل اعتدى على زوجة شقيقه!" صاح بها مذهولاً وهو يبعد الوسادة عن وجهه بسرعة، حاجبيه مرفوعين لأقصى حد وفجر فاهه حتى خصاله كانت شعثاء. تتمم كالمأخوذ: "نعم هذا محتمل هو لعب دور الكونت بينما شخص آخر اغتال دانييل. بالتفكير في هذه المسألة... فأريك ودانييل ليسا شقيقين بالدم... لذا لن يكن لإريك أي رادع"

بينما أكل الشرود عقله بنهم اخترقت ذكرى ليد يسرى بيضاء غضة تعود لصبي يبدو في الثانية عشر نقش على رسغه علامة طائر أحمر "هاري" تتمم تشارلز كالذي يهذي من حصى التفكير المفرط. لأمس النعاس اجفانه بلطف حتى اغلقهما، فلم يشعر متى توقف عن التمتمة والتفكير مستسلما لسלטان النوم. أثناء نومه وردده حلم متشابك مهم المعاني، وميض لنور شمس يشع بوهج بارق من نافذة خشبية بدون زجاج. كانت دائرية داخل عليقة عتيقة غبرة يغمرها غلس ساكن يختلط بخيوط الشمس الهزيلة، الكثير من الصناديق المكدسة المغطاة بشراشف بيضاء، صوت ضحكات رنانة، جوه تتبدل لأطفال يركضون في سهل مخضر. ثم فجأة كموج ضارب هائج يغرق في بحر مظلم بارد، وهو يغرق بصمت ويد تحكم إمساك يده في ظلمة البحر. امتد الاختناق إلى الواقع كأنه يغرق فعلا وهو نائم، فتح عينيه وانتفض جالسا هلعاً متضارب الأنفاس أمتص لون وجهه فقدشاحابجدا، العرق تصبب من جبينه يجتر الهواء بصعوبة بالغة إلى صدره وهو يطوق عنقه بكتفا يديه يجاهد لأجل التنفس "يا إلهي!" ظل عدة ثواني على تلك الحال اللاهثة المفزوعة. استلق يهدوء على ظهره، بيد أن الضيق حكر صدره، كان إحساس بغيض لا يعرف مسببه. راح يتأمل المروحة تدور ببطء كما تدور الأفكار في دماغه يقلب كل الأحداث الماضية في رأسه. ما ذكرته المدبرة يطن في أذنه الآن، عن كون الكونت دانييل لم يكن ابن عائلة أوليغر، والوشم الذي على رسغه، إضافة إلى كتاب (عالم لا يخص البشر)

والتبرعات التي كان يرسلها لدير سانت وآخر ما قاله إريك. شعر بحرارة تأذي رأسه، التفكير أشبه بألة تستنزف طاقته وتجعل حرارته ترتفع "ذلك الوشم!" غمغم بنصف جفنين مفتوحين "الطائر! هل هي محض صدفة يا ترى؟ هاري قد مات غرقاً... مات غرقاً قبل خمسة عشر عاماً. آه يا إلهي!" غلغل أصابعه بين خصال شعره وشدها بقوة غاضباً ومزعجاً، ثم اضطجع على جنبه الأيمن يكاد الصداع يقتله ويأب عقله التوقف عن التفكير والارتياح قليلاً: "ماذا إن لم يمت أنا حتى لست متأكدًا؟ ... بل جميعهم... ماذا... ماذا إن لم يموتوا أصلاً سقطنا من الجرف، جميعنا سقطنا من الجرف معاً... إذا أنا نجوت فمن المحتمل أن يكون هاري قد نجى أيضاً، إريك أكد لي آخر شكوك أي صدفة هذه التي سوف تجتمع كل مواصفات دانييل في صبي آخر! إنه دانييل، دانييل إيمانويل هاربر"

قبل أن تقرر أجراس لاربوس لتعلن انتصاف الليل، تمكن تشارلز من النوم أخيراً كأنما هدأت روحه حينما أمن بما يهذي به. أضاءت مصابيح الشوارع ظلمة الليل، تغري الحشرات لنورها المصفر الباهت، وحمل الجو البارد كآبة منفرة.

بعد الساعة الواحدة صباحاً، قرع باب منزل إريك أوليغرس ولم يتوقف القرع عن الطرق بشكل همجي. نزل إريك من الدرج ساخطاً يصيح: "يا إلهي! انتظر قليلاً!". فتح الباب ليجد أمامه فراغاً جعله مندهشاً، تقدم خطوة للخارج وتطلع إلا جوانب الباب ولم يكن هناك أحد، فهتف مستاءً:

"هل هي مزحة!"

أغلق الباب وعاد غاضباً للدخل. فور أن اقترب من مدخل الردهة أحس بحضورٍ مربب، فتوقف وعبر المدخل إلى يمينه حيث الظلام يلتحم مع نور القمر. لاحظ إريك النافذة الثالث إلى الزاوية اليسرى مفتوحة، قطب حاجبيه مستغرباً: "كيف فتحت؟". سار إليها حتى يغلقها. وعندئذ، ظهر ظلٌ أسود من الرواق، تريث حالماً ينهي إريك إغلاق النافذة، استمع لوقع خطواته المتقدمة نحو الرواق، فأخرج سكيناً برق بلون فضي في جنح الظلام، وكانت يديه مغطاة بقفاز أسود.

فور أن داس إريك عتبة الرواق تقدم باندفاع وطعنه في الجانب الأيسر من معدته. شق إريك كأن روحه تقبض، تدارك فزعه بتلك الطعنة الغادرة تمسك بعضد الغادر بينما سحب الأخير السكين ثم دفعه. تراجع إريك بضعة خطوات وهو يضع يده على جرحه ثم رفع بصره نحو ذلك الشخص. لم يستطع تبين ملامحه بسبب القناع الأبيض الذي يرتديه، رغم الألم حاول منعه من الهروب، بعد كل شيء فإن لإريك بنية عسكرية مكنته من الثبات.

دخل الاثنان في عراقٍ حادٍ، حينما هم بطعنه مرة أخرى تفاد السكين وأمسك برسغه ثم كمش على عنقه بقوة كبيرة ودفعه للخلف مسبباً سقوط قلنسوة المعطف عن خصال شعره، وخلال الشد والسحب بينهما... شيءٌ ما لمح إريك على عنقه جعله مجفلاً وقبل أن يفهم ما رأى باغته المهاجم بضربة من ركبته على معدته جعلته ينكمش من الألم ثم دفعه بقوة نحو طاولة خلفه، تارجحت المزهرية بسبب اصطدامه لكنها لم تقع، فقد إريك القدرة على التركيز للحظة، استغل الغادر الفرصة وأخذ تلك المزهرية وكسرها على رأسه! تلك الضربة أفقدت إريك وعيه ثم سقط على ركبته اليسرى، أمسك شرشف الطاولة وسحبها مع سقوطه، لينجر كل ما عليها ويقع مسبباً ضجة صاخبة!

في الصباح الباكر، ابتدأ السيد جوناثان دوام عمله كما اعتاد كل يوم. جالسٌ على مقعده خلف منضدة عريضة يبرق لون الخشب بصفرة زاهية مع انعكاس نور الشمس الآتي من نافذة تقبع في الجانب الأيمن من المكتب، تكدست فوقها العديد من الملفات التي تنتظر أن تفتح لشتى أنواع القضايا، لكن ما شغل عيني المفتش منذ الصباح صحيفة "غالير اليوم" يمسكها بكلتا يديه ويتمعن في قرأت السطور الأولى حيث أن الصحف المهمة والتي تجري كجري العطشان نحو أي خيرٍ جديد لتحصل على أسبقية النشر، خبر موت رجل الأعمال المعروف دانييل أوليغرس تملأ العناوين الأولى، فأمسك على شفتيه وهز رأسه، ثم أخذ نفساً من أنفه ثم أخرجه بزفرة تعبر عن انزعاجه.

قرع باب مكتبه فنطق بدون أن يبعد عينيه عن السطور: "أدخل!"
دلف تشارلز بابتسامة حيوية فالنوم الهادئ الذي حظي به ليلاً أراح جسده وجعل وجهه أكثر انشراحاً. قال وهو يغلق الباب: "صباح الخير".

تفاجأ المفتش وراح يطوي الصحيفة قائلاً: "غريباً ألم تذهب لعملك اليوم؟".
أجابه بينما يتقدم لصدر المكتب: "بل سوف أذهب بكل تأكيد ولكنني معتاداً على الاستيقاظ
باكراً كل صباح لذا أصل للعمل في وقت مبكر. لدي ما يكفي من الوقت الآن".
همهم المفتش ثم مسد لحيته وقد دار أمرٌ في سره هو يحفظ تشارلز حفظاً تام ويعلم متى تتغير
نفسيته بحيث يصبح على استعداد لتنازل عن سير الروتين المعتاد الذي يتبعه. ضيق عينيه ثم
تمتم بصوت مسموع: "لديك ما يكفي من الوقت وتريد استغلاله صحيح، يعني أن لديك شيئاً
أهم من العمل أيقظك وجلبك إلى هنا".

هز رأسه عندما جلس ثم تكلم مباشرة: "نعم، هي نفسها قضية الكونت".
وضع المفتش كلتا ساعديه على طاولة المكتب مستنداً عليهما يريء نفسه للإنصات له. عاد
تشارلز يقول: "أممممممممم" هذا ما صدر منه صوت فاتر يخرج من صدره ترقب المفتش
خروج شيءٍ من بين شفثيه المطبقان، حتى قال: "سوف أدخل في صلب الموضوع. أرى أن هناك
فجوة... أعني الوصية" نطق بذلك ثم صمت، فقال المفتش: "ما بها الوصية؟".

- "وصية الكونت كل شيءٍ فيها ينصب لصالح إريك هذا ما بدر في ذهني وأنا أفكر كالمجنون
بالأمس".

- "ما الذي فكرت به، قله!".

- "حسناً، تبادر لذهني مسألة لست متأكدًا منها ولأجل أن اتأكد منها أحتاج لتفحص خط
الكونت دانييل".

قطب المفتش حاجبيه باستغراب: "تفحص خطه؟"

- "نعم، كما قلت لك إريك الوحيد الذي اشك به حالياً. عاد إلى ياسك بحجة مصالحة شقيقه
ولكنه تلكاً عن تنفيذ هذه الحجة كما زعمت خطيبته، فما الذي يضمن لنا أنه لم يخطط
لشيء كأن يتعاون مع المحامي لأجل كتابة وصية... أعني المحامي على اطلاع بالتحركات المالية
التي يقوم بها الكونت لذا باستطاعته كتابة وصية يكون المستفيد منها إريك ثم توزيع بعض
الحصص التي توهمنا أنها من عند الكونت كإعطاء حصة لزوجته واقتطاع جزءٍ من ثروته
توجه لدور رعاية الأيتام... كما ذكر المحامي، ألم يقل ذلك بأن الكونت وكله بهذا".

لم يكذب المفتش استنتاجه بل أحس أنه أكثر منطقية مع ذلك قال له: "حسنًا، وكيف قتل الكونت؟ وأيضًا من الذي عاد إلى القصر واعتدى على الكونتيسة آن؟". اندفع تشارلز سريعًا: "استأجر شخصًا ما!".

- "كيف؟".

- "قال المحامي أنه أتفق مع دانييل على أن يلتقيا في الساعة التاسعة إلا ربع. ألم تلاحظ أن الموعد في ساعة متأخرة... لكن بعد تفكير هو يبدو وقتًا جيدًا لارتكاب جريمة! فما أن يغادر الكونت من عند المحامي يتم التريص به حتى اللحظة المؤاتية. كان هناك أثر حول رقبتة ورسغيه إنها أثر حبالالتأكد أنه خطف ثم تم قتله. وما أن يتأكد موت الكونت يتم تغيير الوصية بأخرى مزيفة ولن يصعب على المحامي فعل ذلك" توقف عن الحديث فجأة ثم شرد وبعد عدة ثواني نظر للمفتش قائلاً: "هممم... هل كان الكونت بمفرده أم كان سائقه الخاص معه؟".

ضحك ضحكة متكلفة وهو يقول: "ألم تقرأ ملف الاستجواب الخاص بخدم القصر؟".

- "مممم. كلا، لقد غفلة عن هذا".

- "حسنًا" قال المفتش وهو يفتح درجا عن يساره ثم أضاف: "لم أظن أنك سوف تأخذ هذه القضية على محمل الجد".

مال رأس تشارلز لجانب منكبه الأيسر قليلا وهو يقول مستغربًا: "هل كنت تنوي إغلاق هذه القضية؟".

- "بالتأكيد لا، ولكن مثل هذه القضايا المعقدة تحتاج وقتًا حتى يتم إيجاد ما يكفي من الدلائل لندين أحدًا أو نعتبره مشتبهًا بشكلٍ جدي يا بني" فتح الملف ومسح الورقة الأولى ببصره سريعًا ثم قلبها لصفحة التالية وقرأ أقوال سائق الكونت الخاص: "حسنًا، السائق أتلي ديجارند ذكر أثناء استجوابه من قبل الشرطة - أوصل الكونت إلى المحامي ثم سمح له بالذهاب حتى يقضي يومه مع عائلته كون أن ابنة السائق كان ذلك اليوم هو عيد ميلادها. وأخبره أنه سوف يتجه إلى مكانٍ قريب من بيت المحامي ولا يحتاج إلى سيارة- هذا كل ما سجل أثناء استجوابه ولم يكن هنالك شيء مفيد".

طرف تشارلز ثلاثة مرات مجفلاً ثم نطق: "فقط! ما الذي كان يدور في عقل هذا الرجل؟".

أغلق المفتش السجل وقال: "هذا ما أريد معرفته. ولكنني أعتقد أنه كان يقصد زيارة الصديق الذي تحدث عنه".

- "ربما".

فجأة رن الهاتف الموضوع على زاوية طاولة المكتب. مد المفتش يمينه وحمل السماعة مجيئاً، وخلال دقائق تقلبت تعابيره لصدمة بالغة حتى تغضن جبينه وانكمش ما بين حاجبيه لشدة تقطيبه، ردد بصوت غامض: "فهمت، سوف أتى!".

أغلق الخط فسأله تشارلز مباشرة: "ما الأمر؟".

نهض الرجل مستقيماً أخذ قبعته ليحبيه أثناء ارتدائها: "إريك تعرض للاعتداء!".

انفتحت أذنيه وصدم قائلاً: "إريك أوليغرس!".

- "هو ولا أحد غيره".

اتجه المفتش إلى الباب بعد أن لبس معطفه، توقف والتفت إلى تشارلز إذ رآه جالساً شاردًا على نحوٍ مريب فنادى عليه: "يا بني، هل سوف تأتي؟".

نهض وسار نحوه بخطوات واسعة قائلاً: "بالتأكيد".

- "وماذا عن عملك؟".

- "لا بأس يومٌ واحد، سوف يسعد الطلاب إن تغيبت".

استضحك السيد جونان وهز رأسه يائساً منه. حينما وصلا إلى هناك وجدا أورنال سكود ومعه الضابط إري غرلين وبعض رجال الشرطة. دخل المفتش وبصحبه تشارلز. تحدث مع خطيبة إريك التي أخبرته بصوت مرتعش بما حدث الليلة الماضية، فقال المفتش: "هل أنت واثقة أنك لم تلاحظي شيئاً آخر؟".

- "لا، حينما سمعت صوت جلبة نزلت لاستطلع الأمر فوجدت إريك ساقطاً عند مدخل الردهة الرئيسية والدماء تغمر رأسه!". أجابته بصوت متهدج، وتضرج وجهها بالشحوب من الإرهاق والهلع الذي باتت ساهرة معه.

- "لا بأس، حالما يستفيق السيد إريك سوف نعلم منه كل شيء".

دخل تشارلز إلى الغرفة التي بها إريك لم يستقبله صوته أو لسانه السليط؛ فقد كان راقداً على سريريه مدثراً بالغطاء، ومكان الضربة التي في رأسه من الجانب الأيمن خيط وضمد جيداً. بقي تشارلز وقفاً في مكانه يتأمله حتى تمت مرتاباً: "بعد أن بدأت أشك به!".

عندما خرج إلى الممر كان المفتش يتحدث إلى سكود. تقدم هو نحو الممر المؤدي إلى باب المنزل، تفحص بعينه شظايا المزهريّة المتناثرة أيضاً، طرف شرشف الطاولة كان على الأرض، المصباح الزجاجي تصدعت جوانبه وكان ملقياً على بعد سنتمترات من الطاولة. انتهى المفتش من حديثه وخرج بصحبته للحديقة الأمامية وكان يطرق برأسه بينما ينزل من عتبة المنزل، توقف بعد ثلاث خطوات يزم شفتيه ويومئ في تفكير عميق:

- "لماذا تعرض إريك للاعتداء؟ الأمر يبدو كما لو أن هناك شخصاً يريد تصفية عائلة أوليغرس عن بكرة أبهم" قال المفتش، ثم نظر إلى تشارلز: "كنت تشك في إريك ولكن بعد ما حصل الآن سوف يكون من الصعب أن نعتقد بأن له يدًا في قتل الكونت".

تهد تشارلز وهز منكبيه قائلاً: "ماذا إن كانت حركة لتظليل؟".

- "ما الذي تقصده؟".

- "لا أدري... كل ما فكرت به طار في لحظة عين!".

- "استنتاجك كان قريباً لكن... تظليل!..." صمت المفتش وضيق عينيه لاح جاداً في التفكير بمسألة ما، رمقه تشارلز باهتمام وقال: "ما الذي تفكر فيه؟".

همس المفتش بصوت خافت: "ما قلته قبل قليل، ماذا إن كانت حركة لتظليل؟... يبدو إريك المستفيد الوحيد من موت الكونت... لا بد أن يشعر إنه تحت المجهر بسبب ذلك ولهذا سوف يبعد الشبهة عنه"

- "تماماً هذا ما قصده!" هتف الآخر مغتبطاً وحرص على إخفاص صوته أيضاً، دنى من والده أكثر وضعهما المنزوي وتهامسهما بتلك الطريقة لفتت انتباه سكود الذي ارتدى طرفه مرتين باستغراب من حالهما.

سرد تشارلز ما كان يدور في عقله: "قد يكون هذا الاعتداء مزيفاً حتى يوهمنا أن هناك طرفاً ثالث يريد تصفية عائلة أوليغرس بالكامل".

هز السيد جون رأسه مؤيدا نظريته، ثم زفربإحباط وقال: "كل ما نقوله بلا دليل هذا فقط ما يقيدنا. مع هذا سوف نمضي في تصديق ما قلته عن تزيف الوصية الآن. وسوف نطلب بنسخة منها وأي مستندٍ آخر يحمل خط الكونت حتى نتأكد من كونها أصلية" صمت كليهما لعدة ثواني. التفت المفتش نحو تشارلز وسأله فجأة: "ما رأيك في الكونتيسة".

أخذ شهيقاً عميقاً ثم اعقبه بزفير خلال رده: "الكونتيسة أن. لا أدري... إن صدق ما قلته عن إريك فإنها لم تكذب بخصوص الاعتداء عليها. لا تنس أيضا أن مدبرة القصر شهدت على عودة الكونت في الساعة الواحدة وهذا ما يحيرني، تقرير الطب الشرعي يبطل ذلك، كيف عاد؟ وإذا افترضنا أنه عاد حقا فهو لم يدخل من البوابة الرئيسية وليس هناك بوابة أخرى يمكنه الدخول من خلالها، فكيف دخل؟ إما أن حارس البوابة يكذب أو أن المدبرة والكونتيسة تكذبان وتحاولان إخفاء أمرٍ ما" شعث خصاله بيده اليمنى ساخطاً من شدة التفكير حتى أنه صاح بنبرة مكتومة: "أه يا إلهي! هذا الأمر يصبح أكثر تعقيداً! إن المعرفة الوحيدة التي أظلمها في الدنيا هي أن أتمكن من تمييز الصادق من الكاذب!".

قهقه المفتش بتكلف وقال له: "هذه من المستحيلات!".

في اليوم التالي جاءت الشرطة إلى منزل إريك لكنه لم يستفق بعد من غيبوبته، فطلبمن خطيبته أن تسلمهالوصية الرسمية التي خطها الكونت، كانت متوجسة من هذا الطلب، لكنها قدمتها لهم. في حين اتجه سكود إلى القصر مع إري وشرطيٍ آخر. استقبلتهم مدبرة المنزل وكانت هي الأخرى في عجبٍ من أمرهم ولم تسمح لهم بدخول مكتب الكونت قبل الاستئذان من الكونتيسة التي وقفت أمامهم وقد أصبحت أكثر نظارة مما كانت عليه سابقاً إذا أن الكدمة قد اختفت عن صدغها، خصالها الشقراء مرفوعة قليلا بينما الخصال الأمامية تأطر وجهها، لكنها لم تزل ترتدي ثوباً طويلاً أسوداً له ياقة طويلة ومزركشٍ عند الصدر، جمالها أسر بصر سكود لعدة ثواني حتى أنه تكلم بأدبٍ شديد معها، أخبرها عن سبب مجيئهم: "من بعد إذنك يا سيدتي، نحن في حاجة إلى مستندٍ خط بيد الكونت دانييل لأجل معاينة أمرهم" رمقته لثواني بعيون باردة ثم أشارت بيدها في تكلف للمدبرة وبصوت فاتر غير بالي نطقت: "اسمحي لهم بفعل ما يريدون". ثم استدارت ودخلت من مدخلٍ عن يمينه لتختفي بعدها.

دخلوا إلى المكتب وأخذوا مستنداً يخص شراء إحدى الأراضي بالقرب من بلدة سأل. سألتهم المديرية قبل خروجهم من القصر: "عذراً ولكن لماذا تأخذون هذا المستند؟".

"كما قلت سابقاً" تكلم سكود: "نحتاجه لغرض معين. عن إذنك".

تم أخذ نسخة من الوصية ثم أرجعت النسخة الأصلية إلى منزل إريك. حالما تم فحص الخط في مستند شراء الأرض والخط في الوصية، ثم أرسل التقرير إلى المفتش. قرأ ما أورد فيه وتشارلز جالسٌ يمسك على غضبه لثلاث يفلت. وضع التقرير على الطاولة وتهدد قائلاً:

"للأسف الوصية كتبت من قبل الكونت أوليغرس، وُجد تطابقٌ تام بين الخطين".

لم ينبس بحرف اكتفى بزفرة طويلة تترجم استيائه، أزاح عينيه نحو النافذة وسرح في تفكيره. مسد المفتش ذقنه أثناء قوله: "والآن، إريك خارج حدود الشبهة. السيدة إرغادن وحارس البوابة واحدٌ منهما يقول عكس الثاني، وتقرير الطب الشرعي يقول أن الرجل كان ميت ولم يعد إلى قصره، ومن جهة آخر أن حقيقة كونها تعرضت للاعتداء فعلاً أم أنها زيفت ذلك؟ أي حلقة مجنونة هذه!".

ساق تشارلز اليسرى تتلمل على نحو مفرط لاحظ المفتش ذلك وعلم أنه غير راضٍ بهذه النتيجة أبداً. توقف فجأة عن تحريكها ثم نظر إليه قائلاً: "ماذا إن كان قد كتب الوصية تحت التهديد؟"

رفع المفتش كلتا حاجبيه بدهشة من استنتاجه المتسرع: "حسناً، ولما سوف يكتب حصّة للزوجة. وأليس الأفضل أن يجبره على كتابة كل شيء له".

"حتى لا يثير الشبهات فهو لن يجبره على كتابة كل شيء له. كما قلت سابقاً، المحامي على إطلاع بالتحركات المالية الخاصة للكونت قد يُجبر على التقسيم حتى تبدو أنها وصية كتب من قبل الكونت وبخط يده".

زفر المفتش منهكاً من التفكير وراح يمسد ذقنه حينما قال: "مع ذلك يا بني، نحن نستنتج فقط وبدون دلائل كأننا نمشي على السحاب!".

أردف تشارلز بعد صمت وجيز: "الكونتيسة آن والمديرة كلتاهما تقولان أن الكونت عاد إلى القصر وهذا غير معقول! الحارس يؤكد أنه لم يعد التقرير أيضاً يؤكد ذلك.. إذن من الواضح

أن المرأتان تخفيان شيئاً. وشقيق الكونت هذا" حك شعره ثم صاح ساخطاً: "سوف أفقد عقلي من شدة التفكير!"

قهقه السيد جون بتكلف وكان على حاله فقال: "هدئ من روعك، كل شيء معقد يحتاج وقتاً وجهداً ليحل"

تهد قائلاً: "دعنا نذهب إلى القصر مرة ثانية، ربما نتمكن من استخراج شيء من تلك المدبرة أو زوجة الكونت"

هز السيد حاجبيه وحرك رأسه بخفة قائلاً: "لا أعتقد أنها سوف تستقبلنا"

- "لا بأس لنجرب ذلك".

- "حسناً".

غادر الاثنان من مبنى الشرطة، صعدا السيارة وتولى السيد جونان القيادة. عند وصولهما قرعا الباب لتفتح لهما الخادمة الصهباء، وكلمة السابقة الشعور المريب الذي انتابه حينما قابلها عاد يستفحل داخله ما أن اتصلت عينيه بعينيها. وقفت وسألتهما بهتديب: "من أنتما؟".

رد السيد جون: "المفتش جونان جئت لمقابلة الكونتيسة من بعد إذنك".

سمحت لهما بالدخول ثم طلبت منهما الانتظار في حجرة الضيافة وذهبت تبلغ السيدة إغاردن عنهما. كانت جالسة تحتسي الشاي. وضعت الفنجان على صحنه وقطبت بتعجب: "الشرطة مرة ثانية! يا إلهي الكونتيسة نائمة الآن. حسناً، حسناً! سوف أذهب لرؤيتهم".

نهضت واتجهت إلى حجرة الضيافة مع الخادمة القت بصرها تحديق في تشارلز ثم بالمفتش ولا تبدو علامات الرضى عليهما كأنها انزعجت من مجيئهم المتواصل. تكلمت برسمة: "مساء الخير، أصبحت الشرطة تتردد كثيراً إلى هنا، أرجو أن هذه المرة مختلفة وتحمل الأسباب خلف موت الكونت الشاب".

تبسم المفتش ثم اجابها بإماعة خفيفة: "ما زلنا نحقق، وقد جئنا لمقابلة الكونتيسة أن في شأنٍ مهم".

لم تجب بسرعة كانت تفكر ثم زفرت قائلة: "إنها نائمة الآن".

قال تشارلز: "ألا يمكنك إيقاظها؟".

- "بلى، ولكنها ستكون غاضبة بشدة فهي تكره أن يُقطع نومها".

- "متأسفين لذلك". أردف تشارلز.
 - "لا بأس" تمتعت المديرة ثم التفت للخادمة تأمرها: "أعد القهوة لضيفين إبريل".
أومأت ثم ذهبت للتنفيذ. استدارت المديرة وقبل أن تقلب وجهها عنهما نطقت: "أرجو أن تنظرا لبعض الوقت هنا".
 - مرت الدقائق وهم في صبر ينتظران قدوم أحد. جاءت إبريل ومع دخولها جذبت انهمار تشارلز مجدداً. قدمت القهوة، استلم تشارلز فنجانها منها، ولاحظ عندما مدت ساعدها أنها تضع سوار رفيعاً محاكاً من الصوف الأسود حول راسها الأيمن، يزينه تسعنجمات تلجية كرسالية لامعة صغيرة. تتبع يدها وهي تضع فنجان المفتش على طاولة بجوار مقعده، ثم نظر لها ونظرت له، تبسم بشكل طفيف دون أن يدرك ذلك حتى.
 - "شكرا يا بنيتي!" قال المفتش، فأومأت بلباقة ثم غادرت.
عادا لحالة الانتظار. توقف تشارلز عن تحرك ساقه اليسرى والتفت للمفتش يهمس بضير شديد: "إلى أين ذهبت تلك المرأة!"
ما إن قال ذلك حتى جاءت السيدة إغاردن تمشي ببطء وظهره مستقيم وقف أمامهما قائلة: "المعذرة، السيدة ترفض مقابلتكما".
رفع المفتش حاجبيه الاشعثان باندهاش ونظر إلى تشارلز، كما فعل هو ذلك أيضاً.
 - "إننا في حاجة ماسة لطرح بعض الأسئلة عليها" قال المفتش.
 - "إنها متعبة وتعتذر منكما، طلبت تأجيل الأمر لوقت لاحق".
نهض الرجل على مضض وقال: "حسنا إذن، نستأذن".
أثناء مغادرتهم القصر، توقف تشارلز وألقى نظرة سريعة بدون توجيه محدد، فلمح الكونتيسة تراقبهما من النافذة وحالما تلاق بصرهما أسدلت الستار!
- ***
- دخلت الخادمة دورثي إلى المطبخ فسمعت همسات الخادماوات إذ أن واحدة منهن سألت إبريل: "الشرطة جاءت مرة أخرى، هل تعرفين سبب قدومهم؟".
اردفت الثانية بسرعة متلهفة: "هل عرفوا كيف مات الكونت؟ هل قتل أم انتحر؟ مع أنني أشك أن تلك الساحرة آن فعلت شيئاً له".

أجابتهم بصوت متبلد ولم تكلف نفسها عناء النظر لهن: "لا أعرف، لم أبقى بينهم لأستمع إلى أحاديثهم".

تذمرت خادمة أخرى وهي تقول: "ما هذا إبريل لما لم تتنصت إلى حديثهم على الأقل!". تجاهلتها وأكملت غسل الأواني. في حين كانت دورثي شاردة تفكر في شيء ما. خرجت من المطبخ واتجهت إلى حجرة القراءة حيث كانت المدبرة تجلس هناك دائما عند حلول الساعة الثالثة تقراً وتشرب الشاي. قرعت الباب ثم دلفت كانت متوترة كلتا يديها مقبوضتان بقوة. دخلت عليها بخطوات متقاربة بطيئة ما أن وقفت أمامها نطقت بوجل: "سيدة لافينيا". نطق السيدة بدون رفع عينها عن الكتاب: "ما ورائك دورثي؟".

تبسمت بارتباك ثم تكلمت: "هل تسمحين لي بالمغادرة من القصر لأجل التسوق قليلا؟ أحتاج لشراء بعض الأغراض حتى أرسلها لعائلي".

رفعت المرأة رأسها نظارتها الدائرية لم تحجب الحدة التي في عينها وكانت حواجبها متقاربة تظهرها عبوسة، زفرت بانزعاج ثم قالت: "دورثي أيتها المهملة، ألم تأخذي إذنا للخروج بالأمس لأجل التسوق".

- "بلى". اخفضت رأسها مغمغمة، لم تستطع أن تطيل النظر لعيني السيدة فراحت تنظر هنا وهناك وتتلعثم قائلة: "أ... أنا فعلا متأسفة و... ولكنني... ولكنني نسيت شراء لعبة لأختي الصغرى سوف تحزن كثيرا إن لم أشتريها لها!".

زفرت السيدة ساخطة وقد ثقلت الموافقة على لسانها، لكنها وافقت في النهاية على مبيض. قالت: "حسنا، هذه آخر مرة مفهوم؟ وإذا تأخرت عن العودة قبل الساعة الخامسة اعتبر نفسك مطرودة".

سرت كثيرا حتى انفلجت ابتسامة عريضة على وجهها وهتفت تهز رأسها في تأكيد: "لن أتأخر، لن أتأخر! شكرا لك سيدة لافينيا".

- "أزعجتني بما فيه الكفاية. هيا غادري!". انسحبت بخطوات سريعة خفيفة وغادرت من الحجرة. هرولت إلى غرفتها قامت بتبديل ملابسها ثم خرجت.

توقفت سيارة الأجرة أمام مقر الشرطة. نزلت دورثي بعد أن دفعت للسائق أجرته، ثم تحنطت أمام البوابة الحديدية الكبيرة اعتلاها الجزع لدقائق، وضعت يمينها على صدرها أعانت نفسها بشهيق عميق وخلال زفيرها تمتمت: "يا إلهي ساعدني! أهم شيء هو أن أريح نفسي من هذا الحمل".

داخل مكتب المفتش كان تشارلز قاعدا على الأريكة يبدو متجهما كأنه صبي في الثانية عشر مستاء لعدم إيجاد حل لهذه القضية. تقارب حاجبيه بشكل طفيف ولم تكن خطوط التفكير المفرطة التي تشكلت على جبينه واضحة ذلك لأن خصاله المسودة تنسدل عليه. راقب المفتش وضعه ورأى كيف يكور فمه لزاوية تقريبا. أخفض بصره للورقة التي يحملها بين يده، كان ينشغل بقراءة بعض التقارير وفي نفس الوقت يسلي نفسه بمراقبة ذلك الشاب المتجهم.

نطق بعد بضع دقائق: "أما كان من أفضل لك أن تذهب الأكاديمية؟".
رد وعينيه تتسلطان على الجدار الذي يقابله: "لا يمكنني فعل أي شيء! أشعر أنني مقيد... لن أركز بشيء..."

قاطععه بنغمة تميل لتوبيخ: "وهل هذا يعني أن تتوقف عن عملك يا ولدا!".
انحل التجهم عنه وزفر، ثم تبسم ولاح مرهقا: "بالتأكيد لا!" ثم بقي سارحا يحدق بالأرض.
انتبه السيد على هدوئه فسأل: "ما الأمر؟".

تردد في الإجابة لأنه على دراية تامة بالتوبيخ الذي سوف يحصل عليه إن أطلعته بما يفكر به حيال شكوكه بأن الوشم الذي يملكه الكونت يطابق الوشم الذي معه مما يعني أنه واحد من الصبية الذين كان معهم في الدير وليس أي صبي بل الصديق المقرب منه. كان مؤمنا بهذه الحقيقة ولهذا أيضا كان مستميتا في إيجاد حل لها. حينما طال صمت شعر المفتش بالقلق فعاد يسأل: "ما الأمر يا بني؟ بتُ أشعر أن تدخلك في القضايا يفسد وتيرة حياتك، يجب أن تتعلم ليست كل القضايا تجد الحلول المثلى لإنهاؤها، بل إن بعض القضايا لا تجد حلا من الأساس فتبقى داخل ملفاتها إلى أجل غير مسمى".

تذكر تشارلز سخريه إريك منه حينما ظن أن للقانون فائدة في هذا العالم، انهمد منكبيه بخيبة ومع ذلك مد بسمه متهكمة وهو يغغم: "من الجيد أنني لم أدرس القانون إذن، وإلا كنت مت من الغيظ".

خبط باب المكتب ثلاثة خبطات، ثم دلف سكود قائلاً: "سيدي المفتش".

- "ماذا هناك؟".

- "هناك فتاة تدعى دورثي ميلان. تريد أن تدلي بشهادة تخص قضية الكونت أوليغرس".

هم تشارلز مندفعًا بأن ينطق كلمة الموافقة لكنه قبض على تعجله حينما أحس أن هذا تصرف غير لائق وعض على شفته ليكتم صوت، ثم التفت إلى والده كأنه طفلٌ يجاهد لكيح رغبته. أوماً المفتش أثناء ترك الأوراق: "أدخلها!".

دخلت الأنسة ميلان والارزباك يكسوها بالكامل، تأملها تشارلز بعينين متيقظتين لاح أنه غير قادرٍ على الصبر حتى تجلس وتبدأ بالكلام ولم يشأ أن يكون قليل التهذيب ويتعدى حضور والده. جلست ميلان على الكرسي الذي يجاور طاولة المكتب بينما نهض تشارلز وقعد على الكرسي الذي يقابلها. رؤية التركيز التام الذي انصب من جهة تشارلز كان أكثر ما وترها لدرجة ابتلاع ريقها والتصقت قدمها ببعضها. نطق المفتش بصوت يريح السامع لما فيه من هدوء ووقار: "تفضلي يا ابنتي، قولي ما عندك".

أخذت نفسًا عميقًا ثم تكلمت وجاهدت لضبط حروفها حتى لا تتلعثم: "لا أعلم حقيقةً إن كان ما سأقوله قد يخدمكم في التحقيق.."

قاطعها تشارلز بسرعة: "لا عليك، أنتِ فقط تحدثي بما تعرفينه ونحن سوف نحدد كيف يخدمنا".

أعطاه المفتش نظرة واستطاع أن يرى الترقب في عينيه الذهبيتين، بل إنه رأى ذلك منذ دخول الفتاة فابتسم معجبًا بجتهاده.

تكلمت الأنسة ميلان مجددًا: "أنا خادمة الكونتيسة الخاصة. كنت أعمل في قصر والدها، السيد إيفري ثم انتقلت معها بعد زواجها. أريد أن أدلي بشيء ولكنني أخاف أن أنهم أحدًا ظلمًا... لكن أن كانت معارضة لزواجها من الكونت بل كانت مستعدة للموت على أن تزوجه، ثم فجأة قبلت بالزواج به. أنا أعرفها جيدًا، إنها لا تغير رأيها حتى لو عني ذلك موتها. ومرة حاولت أن تنتحر لأن والدها أجبرها على الزواج من شخصًا آخر تقدم لها قبل الكونت لكن عناية الله أنقذتها. ما عجبتُ منه أن أن كانت تعشق شابًا كان يعمل في قصر واحد يدعى ليوناردو براين وبسبب هذا الشاب رفضت الزواج من الكونت، وكما أخبرتكما بعد ذلك وافقت

على الزواج، عندنا في يوم التأيين، لقد رأيتُ الكونتيسة تغادر غرفتها فاتبعتها لأنني خشيت أن تفعل شيئاً بنفسها. لكن هي " توقفت تزدرد ريقها ثم تابعت: " حسنا، لقد التقت به... أعني ليوناردو ذاك... ك كانوا يتحدثون بأمر ما... لكن لم يتسنَى لي سمع حديثهما جيداً".

تعبير الإثارة والاهتمام برزت على وجه تشارلز، فنظر إلى المفتش ثم سأل سريعاً: "هل تعرفين عشيقها؟ أقصد أتعرفين أين نجده؟".

- "كما قلت لك، كان يعمل في قصر السيد إيفري. لكن، عندما اكتشف والدها أمرها وأمر عشيقها له طرده".

- "أريد أن أسألك سؤال صريحاً". قال تشارلز: "هل كنت تشعرين بأن الكونت كانت لديه ميولٌ انحرافية؟ أعني هل كان عنيف مع زوجته؟ هل لاحظتي أي انعكاسات سلبية على حالة الكونتيسة بعد الزواج؟".

- "في الحقيقة!" تورد خديها عندما سألتها هذا السؤال وارتبكت فراحت تشبك أصابعها ببعضها وتقول: "أنا لا أعرف الباطن لكن عندما أراها كانا يبدوان متوافقان. حتى أنها أخبرتني أنه شخصٌ جيد وليس على عكس ما كانت تظن، فحسبت أنها عقلت وأصبحت راضية بما كتب لها كزوجة له، كانت تبدو مبتهجة حقاً في أول أيامها، لكن بعد أسبوع انقلب حالها. أذكر أن الكونت كان يحضر مفاجئة لها قبل حفل عيد ميلادها، أحضر لها هدية قيمة، عقداً المأمي! كنت معه وأذكر هذا جيداً، اتجهنا إلى غرفتها حتى يفاجئها. كنت أمسك الفستان الذي اقتناه لها. بدا سعيداً للغاية! لكن عندما دخلنا إلى الغرفة صدمنا برؤيتها معه... يا إلهي! لا أدري كيف أصف لكم المشهد. ولا أدري كيف تمالك الكونت نفسها كان على وشك قتله وقتلها بدون تردد! ولا أخفي عنكم أن الكونتيسة كانت دائماً متهورة ولا تهتم بالعلاقات الأخلاقية".

قطب تشارلز حاجبيه وأثارت جملتها الأخيرة اهتمامه، فقال: "ما الذي تعينيه بأنها لا تهتم بالعلاقات الأخلاقية؟".

تحنحت مرتبكة وتلعثمت أثناء إجابتها: "اممم... ع عنيت... إنها... إنها للصراحة. كان لديها أفعالٌ غير مقبولة بالنسبة لوالدها نظراً للحيز المرموق الذي تشغله عائلتها. أعني كانت تخرج كثيراً، وتقابل الرجال، رجال ليسوا من النوع الذي يجب أن تكون فيه امرأة بمكانتها معهم. أرجو أنكما تفهما ما أقصده. كانت والدتها تخشى أن يمسك والدها بها وهي تشرب في البارات

حتى وقتٍ متأخر، لذلك كانت ترسلني معها حتى أضمن رجوعها وإدخالها للقصر دون أن يلاحظ والدها. أه إنها فقط تعاني من اضطرابات نفسية منذ أن كانت طفلة، تكون انفعالية بشكل وحشي وجياشة العواطف فجأة... لديها تقلبات عجيبة!".

أوما المفتش مستطردٌ: "حسنًا، هل لديك علم بالطريقة التي تمكن فيها عشيق الكونتيسة من الولوج إلى القصر بدون أن يلاحظه سيد القصر أو الخدم حتى؟".

- "لا بد أنها أدخلته بطريقة ما". أجابته.

لاح تشارلز شاردًا في أمر، ثم سأل فجأة: "عندما عاد الكونت في الساعة الواحدة هل لمحّه أي أحد من الخدم غير مدبرة القصر؟".

- "بصراحة لا أعرف شيئًا عن هذا. الخدم لديهم وقت محدد ينهون فيه أعمالهم، وهو في الساعة العاشرة، ثم يخلدون إلى النوم".

- "إذن لم يره أحد سوى المدبرة. طيب عندما سمع صوت الطلق الناري هل كنت متواجدة؟".

- "نعم، لقد هرعت بصحبة السيدة إغاردن... لقد... لقد كان منظرًا فظيئًا! حالة الكونتيسة! لقد ظننا أنها فرقت الحياة فعلاً!" كان من الواضح لتشارلز أو حتى بالنسبة للمفتش أن هنالك شيئًا يسيرًا من التأثر أو التعاطف الإنساني على طليعة الأنسة ميلان وهي تحكي عن حالة الكونتيسة أوليغر، لاحت أقرب إلى الجارة العجوزة الثثرة التي عثرت على حكاية تسردها للقوم من حولها، لكن ما أن ذكرت الكونت حتى بدأ صوتها يتحشرج وملامحها تنقبض متأثرة بحزن عميق صادق: "ثم رأينا الكونت المسكين ساقطًا في الأسفل متضرجٌ بدمائه!... أه يا إلهي كان رجلًا طيبًا إنه لا يستحق هذه النهاية البشعة!".

همهم المفتش وقال: "حسنًا، شكرًا لك يا بنيتي، خدمتنا خدمة عظيمة فعلاً!".

- "أرجو أن تجدوا قاتل الكونت". قالت بأمل يبرق في عينيها البنيتان.

بعد مغادرة الأنسة، قعد تشارلز قعدته الأولى على الأريكة منغمسًا فيها يطوق ذراعيه ويطلق في رأسه يفكر، ويفكر، ويفكر وقدمه اليسرى تتململ باستمرار. فجأة توقف عن ململمت قدمه واستقام في جلسته إذ انتهت جلسة التفكير وتمكن من تجميع بعض الأمور داخل عقله فنطق قائلاً: "فالسابق جعلت إريك المشتبه الأولى لأنه يملك ضغينة على الكونت ولكونه عاش في القصر فلا بد أن يجد طريقة ما للدخول إليه وهو ينتحل هوية الكونت حتى يضع حجة تدل

على عودة الكونت بينما هناك شخصٌ آخر قام باختطافه... لحظة... بناءً على تلك الآثار التي على رسغه وعنقه من الواضح أنهم لم يرغبوا بموت الكونت... أعني لماذا سوف أعود إلى القصر منتحلًا هوية أحدهم بينما سوف أقتله في مكانٍ آخر؟".

مسد المفتش لحيته الحمراء وهز رأسه متوافقًا معه. استرسل تشارلز في حديثه: "لوراجعنا الأمر من الواضح أن تلك الطلقة التي سمعها الخدم، والتي كانت عند حدود السادسة صباحًا، يفترض أن يكون موت الكونت حينها".

- "تعني يفترض أن يموت في الساعة التي تم فيها إطلاق تلك الرصاصة؟".

- "نعم، حتى يبدو أنه انتحار حقيقي وعندها ما كان ليشتك أحدٌ في ذلك. لكن، يبدو أن المسار أفسد لأن الكونت مات في وقتٍ مبكر؛ وهذا يفسر سبب موته في مكانٍ آخر ويوضح أن الشخص الذي عاد في الساعة الواحدة ليس إلا منتحلًا".

زفر المفتش وتمتم بصوت مسموع: "إذن من يكون هذا المنتحل؟ لقد خرج إريك من القائمة بعد محاولة قتله الفاشلة، وإلى الآن هو لا يزال غائبًا عن الوعي" رفع حاجبيه ومطى بسمه عريضة استترت تحت شاربيه حين أضاف: "مما أن علينا مقابلة ليوناردو براين"

بحث رجال الشرطة عن المدعو ليوناردو براين، وتقصوا وراءه وظلت عملة البحث ليومين حتى عثروا على مقر عمله في منطقة بناءٍ خلف شارع الملك أدريان لياردن جنوب حي هامبرلند.

منشأة البناء محاطة بضباب من الأتربة المتطايرة ورائحة الأسمنت تملأ المكان، الأعمدة الحديدية بارزة حيث حفرت منطقة مربعة الشكل بسمكٍ معين لتثبيت الدعائم، أصوات صرير الحديد جل ما يمكنك سماعه مختلطة مع صوت ضجيج العمال إضافة إلى تلك العربات المحملة بمواد البناء تدخل محيط العمل المسيج ومنها ما يغادر. دخل شرطيان إلى المنطقة وسأل أحدهما، وكان يدعى شيلس كورند، رئيس العمال، بحث الرجل لدقائق في سجل العمال حتى عثر على اسمه، أشار إليه ثم قال: "نعم، ليوناردو فريز براين".

- "هل يمكنك دلنا إليه من فضلك؟" نطق كورند فأوماً الرجل ونهض عن كرسيه مغلًا السجل ثم قادهم نحو منطقة العمل.

أشار الرجل صوب شابٍ طويل ذو بنية قوية، أشقر الشعر، والغبار وسخ قميصه الأبيض له أكمامٌ تصل لرسغيه، شيءٌ يسير من الوشوم كانت تتضح على رقبتة وأغلبها مخفي تحت القميص ذو الياقة الدائرية. تقدم الشرطي كورند إليه وتكلم معه بينما هو يهيمٌ بحمل كيس أسمنت على كتفه الأيسر والذي رمى عليه بقطعة قماشٍ أخضر داكن اللون.

- "عذراً، ليوناردو براين".

التفت نصف التفاتةٍ نحوهما ثم خالجه الارتياح حينما رأى زي الشرطة. رمى كيس الأسمنت وأجاب: "نعم".

- "هل يمكن أن تتفضل معنا قليلاً".

- "لأي غرض؟".

- "ستعرف حالما نصل".

مال بؤبؤ عينيه لزواوية يفكر متوجساً لكن في نفس الوقت يبدو هادئاً على نحو مريب. استدعي إلى مركز الشرطة في قلب مدينة ياسك ومثل أمام المفتش. أُجلس على كرسي خشبي مقابل طاولة المفتش العريضة التي عليها بعض الأوراق والملفات. وتشارلز واقفٌ بجوار النافذة يدقق في هيئته التي تبدو باردة الأعصاب والثقة بالنفس تعزز نظرتة الثاقبة. ولسببٍ يجله فإنه ما أن رأى ليوناردو يعبر باب المكتب دالفاً نحوهم أحس بشعورٍ لم يفهمه ولم يستطع تبيين وجهٍ واضحٍ له كأنها، بقي يحدق فيه، يغطي كلتا ساعديه بمعطف جلدي أسود ذو أكمام طويلة وياقته مرتفعة، ويرتدي قفازان ممزقا الأصابع. كان واضحاً جداً أنه ميسور الحال فحالة وجهه والسمة التي تكسوه إضافة لاحمرار طفيف تحت عينيه هي نتيجة واضحة لكثرة العمل والسهير.

جلس المفتش وأخذ نفساً عميقاً ثم ابتدر الحديث: "أعدرنا على جلبك إلى هنا".

مطى شفطيه الزهريين المتشققين صانعا بسمة متهمكة وهو يتمتم: "لن يأتي إلى هذا المكان إلا أمثالي".

- "عفوًا". أردف المفتش إذ لم يسمع جملته جيداً

تملص بابتسامة مصطنعة أكثر تمهماً من سابقتها: "لا، لا شيء" ثم سأل والارتياح التام على وجهه: "بماذا أساعدكم؟".

- "لابد وأنك سمعت بموت الكونت، سيد براين. أنت عشيق الكونتيسة كما علمنا. تكلم المفتش.
- رفع حاجبه الأيمن ولم ينطق بحرف. ظل تشارلز مستميتاً في مراقبة تصرفاته وأقل حركة تلقائية تصدر منه، شعور ملح في داخله يطالبه في الاستمرار بذلك.
- "منذ متى أنت والكونتيسة أن على علاقة؟". سأل تشارلز فجأة.
- تطلع براين إليه من ركن عينيه وظل مبتسماً على نحوٍ غامضٍ وهو يجيب بصوت متراخي: "لست مضطراً لأن أجيئك، إنها علاقة لا تعنيك يا سيد. ثم ألي أن عرف سبب جلبٍ إلى هنا؟"
- "نستمع إلى إفادات الجميع حتى نتمكن من معرفة الحقيقة. لهذا جلبناك إلى هنا". قال تشارلز ثم أضاف: "العلاقة بينك وبين زوجة الكونت كانت علاقة مرفوضة من قبل والدها، ومع ذلك استمرت في التمسك بها وهي كذلك... الحاجز الوحيد الذي يقف أمامكما هو الكونت دانييل".
- ضحك باستهتار ضحكة متكلف وكما أمكن لتشارلز أن يشعر فقد شعر المفتش بالمثل، ذلك الحضور البارد القوي الذي ليلازمه. علق براين بأسلوب يشوبه البرود رغم ابتسامته: "أنت تهمني مباشرة بقتله أم أنني أتوهم!".
- "لا، لا تتوهم. إفادة الكونتيسة مشبوهة إلا حد ما" تدخل المفتش: "كيف يمكن لرجل مات قبل زمن معين أن يعود إلى منزله ليعتدي بعد ذلك بالضرب على زوجته... ثم ينتحروا ولا يمكن لرجلٍ يحتضر أن يخفي سلاحاً. إضافة إلى أن تقرير الطب الشرعي يثبت أنه مات قبل عودته إلى قصره".
- زفر بقوة ثم مال بجلسته لمسند الكرسي الأيسر وتكلم ببلادة غير مكترثٍ بالمسألة:
- "أنا لا علاقة لي به، كل ما أردته هو أن أكون مع من أحببت. ولكن، أنا لا أنتهي إلى عائلة ثرية ولا أحمل المكانة التي تسمح لي بأن أكون معها. كنت أعلم جيداً أن ذلك الرجل، الكونت المحترم، لم يحبها ولم يكن لها أي ود. كانت تعيسة بزواجها منه، حتى أنها حاولت الانتحار لو لم أُنهبها عن ذلك. قلت لها، ربما تكونين سعيدة معه فلا تفعل ذلك لتؤذي نفسك وتؤذييني أيضاً، لقد تخليت عنها حتى لا أفسد حياتها..."
- "ولكن على عكس ما علمنا، علاقتك لم تنقطع بها، لقد تسللت إلى قصر الكونت حتى تقابلها، أليس كذلك؟". سأل تشارلز.

- "نعم، فعلت ذلك. أردت الاطمئنان عليها ورؤيتها... لم يكن ليسمح لي بذلك. لقد بعثت لي برسالة تطلب فيها رؤيتي. كانت رسالة جعلتني أشك أنها تقبل على إنهاء حياتها فعلاً". رد براين والشروود يحتل ملامحه وكان ينظر إلى طاولة المكتب، ثم رفع بصره وتطلع لجهة تشارلز، الذي سأل ولم يرتج له أبداً: "كيف دخلت إلى القصر؟".

- قلب عينيه بضجر ثم أجاب اثنا زفيره: "تسلقت السور ثم دخلت من إحدى النوافذ المفتوحة".
 - "وأنت تعلم أن فعلتك أدت إلى الضرر بها لا غير؛ فقد اكتشف الكونت أمركما". علق المفتش.
 رمى ظهره إلى ظهر الكرسي وارتخ قليلاً ثم تابع حديثه وكلما تعمقا في محادثته، لاحظ تشارلز أنه يملك نبوة رغم كونها باردة إلا أنها حادة مصقولة بالحق: "نعم، أكتشف أنني على دراية بوحشيتته، وأتقن أنه أراد التخلص منها قبل أن تفضح أمره حتى لا تشوه صورته الفاضلة أمام مجتمعه الاستقرابي التافه!".

ساد الصمت لبعض الوقت وتطلع المفتش بحيرة شديدة لهذا الشاب ومن الواضح جداً أن بداخله غضباً جامحاً، ولو أعطي مسدساً لم تهاوتاً في إطلاق النار على الكونت إذا ما رآها مرة ثانية.

بعد حملة الصمت الذي أربك تشارلز والمفتش، تكلم ليون مجدداً لكن هذه المرة بأسى:

- "لقد وعدتها، وعدها ذلك المخادع، بأنه بعد زواجه بها سوف يتركها!".

- "ماذا تقصد؟" قطب تشارلز حاجبيه باستغراب.

- "عندما علم والدها بأمرنا، اتهمني بالسرقة حتى يجد عذراً ويطردني دون فضح علاقتنا. لقد كانت منهارة... لم تجد حلاً سوى إبلاغ ذلك الرجل بأنها لا تحبه وإن تزوجها سوف يجدها ميتة في فراشه. لقد قالت ذلك أمامي... في الكنيسة... قبل يوم من زفافها. كانت تقف أمامه بدون خوف وأخبرته..."

تبدل صوته الحزين تدرجياً إلى احتدامٍ شرس: "وعدها أنه سوف يساعدها، أوهمها بأنه غير قادرٍ على فعل شيء إذا بقيت داخل منزل والدها، وعدها أن زواجهما سيكون على الورق لا غير وبعد خروجها من أسوار إيفري، سينفصل عنها وبعدها نجد طريقة لإخراجها خارج ياسك لنكون معاً. ولكنه كان كاذباً حقيراً!! منعتني من رؤيتها وسجنها... ولا أعرف حتى ما الذي كان يفعلها بها، كنت أموت في الثانية مئة مرة وأنا أتخيله يؤذيها!".

حل صمت أثقل من المرة السابقة وأحضر معه هذه المرة مسأراً مسدوداً؛ كل الافادات تتضارب وغير معقولة... الكونت من كان بالضبط وحشاً يستتر برداء النبيل، أم نبيلاً شوهة صورته زوراً وكذباً؟ لم يعرف تشارلز بما عليه أن يرد ولا حتى المفتش... لكنه على يقينٍ بشيءٍ واحدٍ فقط... بأن دانييل قتل!

زفر المفتش واستطرد سائلاً: "أين كنت يوم الاثنين المنصرم عند الساعة التاسعة مساءً؟".

- "كنت أعمل" رد بجلفة بليدة متهمكماً: "لدي عملان، من الساعة التاسعة صباحاً إلى الثانية عشر مساءً أعمل في أعمال البناء، ومن السادسة مساءً إلى الحادية عشرة ليلاً أعمل في حانة.

للأسف لست من الطبقة الملائكية حتى أظل بلا عمل". واختتمم بابتسامة عريضة جميلة

- "وماذا عن الساعة الواحدة بعد منتصف الليل؟". لاح سؤال يائس من قبل المفتش الذي ضاق ذرعاً به فقد كان بروده شيئاً غير طبيعي.

أجاب الشاب يهز منكبيه: "أعود إلى منزلي... وأنام كأى إنسان".

- "ألدك شهود يثبتون عودتك لمنزلك؟". سأل تشارلز. فابتسم الآخر بوجهه سائلاً: "هل يمكن أن تتوقفوا عن معاملتي كمجرم!".

- "أنا لا أعاملك هكذا، ولكن الأشخاص المحتملين واللذين يمكن أن يكون موت الكونت مريحاً لهم، هو أنت وأن".

- "أنا لم أقتله، وأن لا يمكنها فعل ذلك أيضاً!". رد بحدة: "نحن لم نفعَل شيئاً له، لم نفعَل أي شيء!". ثم نهض وأتم: "عن إذنكم أظن أن استجوابكم انتهى".

ملاحظة تشارلز الدقيقة مكنته من الانتباه لشيء في عنقه، رغم خصلاته التي تغطي رقبتة من الخلف، لمح لونا يخالف شقار شعره، خطوطاً مخضرة داكنة يخالطها لون أحمر برز في جانب عنقه من الناحية اليمنى، إلا أن ياقة المعطف الطويلة أخفت طرف النشق ما أن استدار مغادراً وهو يصطحب معه هالة غموضه المرعبة.

ألقى المفتش بظهره لظهر المقعد واتكئ بمرفقه الأيمن على مسنده قائلاً بانزعاج من سلوكه الفض: "من المؤسف أننا لا نملك دليلاً ضده. لحسن حظ!".

أما تشارلز فقد التفت إلى زجاج النافذة وراقب ذلك الشاب يغادر. سأل تشارلز بينما عينيه لا تزال تتبع شخص ليوناردو عبر النافذة وهو يقطع الشارع نحو الرصيف المقابل للمبنى:

- "ألم تلاحظ عليه شيئاً؟".
- "عدى عن لسانه ووقحته؟".
- "إنه يشبه الكونت".
- قهقهة المفتش بتكلف: "يبدولي أنك في مزاجٍ جيدٍ لتلقي النكات!".
- "كلا، أنا جاد. قد أبدو مهووسا بهذه الفكرة، لكنني أراه المشتبه الثاني الذي يمكنه انتحال هوية الكونت، كما أن عشقه لأن يمكن أن يكون دافعا كافيا لقتل دانييل. من يدري ربما لأن يد في ذلك أيضا".
- تنهد منهكا من التفكير لينهي عقد ذراعيه ثم أفرط في الصمت وبقي يحرق بالأرض حتى شغل بال المفتش، راقبه بصمت وحاول فهم شيءٍ يسير مما يدور في دماغه ولو أنه لم ينطق لبادر بالسؤال، حيث قال: "أبي"
- "نعم".
- "أريد الذهاب لمكانٍ ما".
- "وأين هذا المكان؟"
- "سانت فيلرك".
- لم يجب المفتش عدم الموافقة كانت واضحة في عينيه وتلك الملامح المستاءة كانت انطبعا متوقعا بالنسبة له، يعلم أنه غاضب جدا؛ فما قاله الآن شيءٌ نهاه عنه السيد جون منذ زمن، فقد ناها عن ملاحقة الماضي والتمسك بالأوهام... لكن كما يبدو فإن تشارلز لم يأخذ بنصيحته.
- راقبه أثناء أخذه نفساً عميقاً ولاحظ أنه يفرغ استيائه بالنقر على الطاولة. ظل مرتبكا والتردد ينهش صوته حتى تكلم قائلا: "أ... أعلم... أعلم أنك نهيتني عن التفكير بذلك... لكن دعني أذهب إلى الدير".
- "وما الذي سوف تستفيده من الذهاب إلى هناك؟ سوف تذهب حتى تسأل عنهم. صحيح؟".

أردف تشارلز: "أجل، ما زلت واثقًا، الوشم على رسغ الكونت دانييل يشبه وشعي إنها ليست صدفة. قد تسألني لما أنا واثق، هذا واضح الشخص والوحيد بيننا والذي يملك مواصفات تشبه الكونت كان دانييل هاربر. لدانييل شقيقٌ توأم ولكنني متأكد أنه ليس هو".

"ولماذا أنت متأكد من ذلك؟".

"لأن فرناند وشم في يده اليمنى فعل ذلك حتى لا يقلده، أذكر ذلك جيدًا. بينما دان وشم في يده اليسرى... أخبرني الآن، هل وجود نفس الوشم وفي اليد اليسرى للكونت محض صدفة؟ هذا غير معقول! حتى أن الاسم هو ذاته... لذا أيقنت أنه دانييل، دانييل ولا أحد سواه" صمت قليلا وأخفض منكبيه كان منهكًا من إطلالته في الكلام وهو واقف، فجلس على الأريكة ثم استرسل وبقي المفتش ينصت له باهتمام: "قد يكون لدانييل أعداء يكنُّ له الضغينة... لا أعرف كيف أكمل حياته بعد نجاته من الغرق، ولكن من الواضح أنه عاش في قصر ذلك الكونت وأصبح ابنه وحمل لقبه".

تهد المفتش ثم رفع يساره ليتكى بمرفقه على الطاولة ثم اسند خده على كفه، ثم قال: "إن كنت موقنًا بكونه صديقك حقًا، فما الفائدة من ذهابك إلى الدير؟".

أشاح تشارلز بصره وتطلع نحو الباب بدا كأنه يتهرب من الإجابة، إنه يخفي شيئًا وذلك الشيء مريبٌ للحد الذي جعل ملامحه خالية من التعابير. رد بعد برهة وجيزة بصوت فاتر لم يرتج له السيد جوناثان: "أريد ذلك فقط!".

تجاوزت عقارب الساعة الخامسة. ضاحية لنهاستغ إحدى أوجه العاصمة الحضارية، لكنها الوجه المخيف، حيث كل أنواع المحظورات مباحة، لشدة ظلمتها تعتبر بقعة وملاذًا آمنًا للمجرمين، أزقة هذه المنطقة غير معبدة مغطاة بالطين، للشتاء فضلٌ في تغطية القذارة والأوساخ بثلجه الأبيض. إلا أنه من ناحية أخرى يكون فصلًا لحصد الأرواح، العديد من الفقراء التعيسين الذين يسكنون تلك الناحية من المدينة، يبيتون في الأزقة يأوهم من البرد صناديق كرتونية_ وهذا إن وجدت في المقام الأول_ المنازل تعكس وهن وبؤس أصحابها، أغلبها من الخشب، النوافذ بعضها متصدع، الفئران هنا يمكن وصفهم بالملوك، هم أكثر حظًا في

إيجاد ثلاث وجبات في اليوم على خلاف طفل مشرد، السماء ملبدة على دوام فوق تلك الناحية حتى نور الشمس لا يتفضل بجزي سير من ضوئه ليعبث الدفء في أرجاء المظلمة. على طريقٍ منحدر أرضه من الحجارة معظمه غارق في برك مياه متجمدة والثلج متكدس على جنبات الطريق وفوق أسطح المنازل القاتمة حتى أن الماء المتجمع من سقوط المطر داخل الأنابيب متجمدة. المساء أسدل ستائرهِ محملاً مع وهج برتقالي امتزج مع رماد الغيوم. وصل ليوناردو إلى منزله في نهاية الشارع ولم يختلف في حاله البسيطة عن بقية المنازل. فتح الباب الخشبي ودلف، أغلقه وعند أول خطوة استشعر حضوراً مريباً. دخل بحذر وحاول ألا يصدر ضجة، سار في ممر يؤدي إلى مدخل نحو حجرة المعيشة بيد أن صوت الاحتكاكات الضعيفة آتٍ من جهة مدخلٍ آخر في أقصى زاوية اليمين.

وقف أمام باب حجرة المعيشة وفتحها ببطء شديد، رأى معطفاً وفستاناً مخملياً نسائيً على أريكة بقرب المدفأة التي تهيئ ناراً.

تجاوز الدرج ووقف في الجانب الأيمن من مدخل المطبخ ليتفاجئ برؤية امرأة في الداخل تصنع شيئاً. دخل بهدوء ووقف على بعد أمتار منها، شك في معرفة هويتها؛ فشعرها شديد الشقار لكنه مرفوع للأعلى بشكل فوضوي، وتلف حول رأسها قطعة قماش زهرية اللون، كانت رقبتهما البيضاء بارزة رفيعة ودقيقة. بعد أن تأملها من الخلف قليلاً قال: "من أنت؟".

استدارت تلك وحررت شهقة فزع وحالما رأى وجهها رفع حاجبيه باندهاش: "يا إلهي!... أن". شقت ابتسامة عريضة وهي تضحك بتغنج وتمايل: "نعم، عزيزي!".

تأمل ما ترتديه، ثياب بسيطة خالية من البذاخة، قماش الثوب لم يكن يبرق بريق الحرير، فقد بهت لونه الأحمر لقدمه، قصة الصدر مربعة الشكل ولها أربعة أزرار، تلف مريلة طبخ حول خصرها، ومع ذلك الرباط حول رأسها، لاحت امرأة من الطبقة الدنيا. تبسم ليوناردو معجباً وقال: "جميل!".

أمسكت طرفي الثوب وتململت بخفة قائلة: "عثرٌ عليه بين حاجيات أمك. أرجو أنك لن تنزعج".

مال رأسه قليلاً لليمنى مفتوناً بها: "تبدين امرأة أخرى".

قفزت إليه كالطفلة المدللة وتغنجت بينما تحيطه بذراعها ثم همست بقرب أذنه اليمنى: "أنا المرأة التي سجت بداخلي... لقد تاقت لهذه اللحظة... وخرجت الآن".

نظر إلى عينيها بعطف وحب كبيران، ثم وضع كلتا يديه برفق على خاصرتها ودنى من ملامحها ليداعب أنفها بأنفه كانا زوجين مغرمين حقاً!

- "أن، هل يمكن أن أسالكِ سؤالاً؟". نطق ليوناردو وهو يعاود النظر إلى عينيها الكستنائيتين.

- "طبعًا حبيبي".

- "هل فعلتي شيئًا ما قد يكون خاطئًا؟".

تغضن جبينها العريض وتقارب حاجبها قليلا زاوية فمها مالت للأسفل ذلك الوجه الجميل المبتسم أختفى تمامًا! حتى أنها أرخت يدها وأنزلتها لمستوى صدره، لاحت مستاءة من سؤاله. أمسك ذقنها ليرفع ملامحها حتى تقابل عينيها:

- "أخبريني الحقيقة!".

ابتعدت عنه واتجهت إلى القدر الذي يطش ويضج بسبب الغليان. أطفأت النار وقالت بحدة: "لم أفعل شيئًا!".

تقدم خطوة إليها وأدارها نحوه: "أن لا تكذبي علي، لقد تم استجوابي اليوم".

تيقظت باهتمام حينما قال ذلك: "الشرطة استجوبتك!".

- "نعم، لقد أخبروني أن... أن ذلك الرجل لم ينتحربل قتل".

- "أقسم لك!" صاحت بياس: "لا علاقة لي بالأمر. كنت أوشك على أن أخلد للنوم، لكنني شعرت بدخول أحدهم... لقد كان هو... ولكن... ولكنني حسبت أن الليلة سوف تمضي كأى ليلة". بدأت تتهدج وصوتها يهتز برغبة في البكاء:

- "أطفأ الشموع... لم يترك أي شمعة واحدة صدقني أنا حتى لم أرى وجه ذلك النذل!"

ازداد اضطرابها وحشرجت أوتارها تزداد كلما استحضرت الموقف، ظن ليون أنها سوف تسقط من هول ما تحاول ذكره. رفعت إصبع سبابتها اليمنى وقضمتها بقوة بينما تسربت بضع دمعات من حدود جفنها وتورد خديها حالها تلك أثارت شففته حتى شعر بتأنيب الضمير. سمعها تقول بصوت متقطع ضعيف:

- "لم أستطع رؤية شيء... لقد بكيت... صرخت لكن لا أحدا!... حاولت الهرب من الغرفة لكنني لم أرى إلا الظلام!... ثم... ثم أنا!... أنا حاولت مقاومته!... لك... لك لقد كان م مؤلماً... أنا لا أكذب!"
 لتهدر فجأة كأنفجار مدوي وتصيح منفعلة: "لا أكذب! هو كان يريد قتلي! ح حتى... حتى أنه قيدي! كيف لي أن أقتله! كيف؟ ... لا تهمني ليو... لا تفعل ذلك أنت أيضاً!".
 أمسكها وضمها إلى صدره متأسفاً ونادماً لسؤالها. احتضنته هي الأخرى بقوة هيستيريا، تشبثت به وكأنها رأت كابوساً كاد يسقطها في قعر لا نهاية له من الظلام، ونجاتها تكمن في ليو الذي يمسح على شعرها بحنان

الفصل العاشر

الساعة الواحدة بعد منتصف الليل، زقاق بروغ شرق ضاحية لينهاستنغ. كأنما خيال وتجزأ من الظلمة المهيمنة على طول الزقاق، لا ترى منه إلا آثار حذائه المرسومة على الثلج، الغيوم المكفهرة تحجب ضوء القمر لتشارك في طمس المزيد من معالمه. معطفه الأسود الداكن قد تحسبه غزل من ظلمة الليل كذلك لا يظهر شيئاً من جسده. قلنسوة المعطف تخفي رأسه وبعض ملامحه.

تجنب ذلك الشخص المريب الظهور في الشوارع المكتظة بالناس واستمر في التعمق داخل متاهات الأزقة المرعبة، قدرته المذهلة في السير دون الضياع فيما تدل على حفظه التام لكل زاوية وكل طريق في هذه الضاحية، مثل الشبح يتحرك بدون ملاحظة من عينٍ بشرية. قبل وصوله إلى منزله، كانت السيدة هيلي كيلفند والدة مارتين تتحدث إلى امرأة جميلة ذات شعرٍ طويل يفترش ظهرها لونه بني فاتح جداً. كانت تصغي لحديث السيدة كيلفند باهتمام بالغ، حيث حكّت لها عن الرجل الغريب صاحب الرسالة:

- "حقاً لا أدري كيف أعرّ على هذا الرجل. ذهبت للعنوان الذي أورده في رسالته وأخذتُ مارتين معي، قابلنا رجلاً لكن مارتين قال لي أنه ليس نفس الرجل الذي قابله سابقاً. أتصدقيني أن ذلك الشخص اشترى بيتاً وترك المفتاح معه حتى يسلمه لي".

- "ألم يطلعك ذلك الشخص على هويته، أقصد هوية صاحب الرسالة؟" سألت المرأة . هزت السيدة كيلفند رأسها لليمين واليسار مجيبة: "كلا، لقد تكتم على هويته. الأكثر من ذلك لقد فتح حساباً بنكٍ باسم ولدي مارتين، أتصدقين ذلك يا كاترين! أنا لا أصدق! لقد حاولت استخراج شيءٍ من مارتين ولكنه أقسم لي بأنه لا يعرف ذلك الرجل فقط تحدث إليه في الشارع حينما كان يعمل!"

تبسمت كاترين برقة وأمسكت يدها تطمئنها وكم لاحت بلسماً ناعم بصوتها العذب: "لا داعي لكل هذا القلق، هيلي. الخير جاء إليك بقدميه! عليك أن تكون سعيدة. الرب لا ينس أحداً ولا بد أنه يكافئك على صبرك!".

تهتدت هيلي بشيءٍ من الارتياح لكن هواجسها لم تنخمد. قرع باب المنزل، همت كاثرين بالنهوض لكن سبقها صبيٌّ ذو تسعة أعوام وركض نحو الباب ليفتحه، وجد أمامه ذلك الرجل الطويل ذو المعطف الأسود. أنزل القلنسوة أثناء دخوله لتظهر خصلاته السوداء المجعدة، معالم وجهه حسنة إلا أن قسوة البرود شققت شفثيه المحمران الباهتان والشحوب الأصفر يتكتل عند صدغيه. داعب الصبي بأن شعث شعره وقال بصوت مبحوح: "ألم تنام بعد يا لويس؟ السهر ليس جيدًا للأطفال".

خرجت كاثرين بصحبة السيدة هيلي من الحجرة عن يسار الممر. عندما سمعت صوته وحالما رآته تهملت روحها بالفرحة العارمة وانطلقت نحوه لتعانقه بقوة مفرطة تدل على مقدار من الراحة والاطمئنان.

- "الحمد لله، عدت أخيرًا! أين كنت لما تأخرت كل هذا الوقت يا رولد؟".

- "كان لدي بعض الأعمال الضرورية". أجابها ثم أومأ يحيي السيدة كيلفند التي بادلتها إماءة خفيفة وبسمة عريضة قائلة: "كيف حالك يا سيد رولد؟".

- "بخير. ماذا عنك أنت، كيف هي صحتك؟"

- "الحمد لله بدأت بالتحسن. حسناً أنا سوف أذهب الآن. كاثرين شكرًا لاستماعك إلي".

ابتسمت بلطف تودعها: "لا عليك، كما قلت لك لا داعي للقلق اقبلي هدية الرب". أومأت ثم ودعتها وغادرت. التفتت كاثرين نحو رولد توليه كامل تركيزها: "ما بك؟" سألته وعينها تتفحص الإرهاق الشديد في وجهه.

- "لا شيء!" رد بطريقة مريبة غامضة: "أنا مرهقٌ فقط، سوف أخلد للنوم وغدًا أشرح لك كل شيء" خطى خطوة واحدة ثم توقف مستذكرًا أمرًا، فعاد يسأل: "كيف حال سارا؟".

أجابته دون النظر إليه لأنه كانت ممتعضة لسلوكه المتحفظ معها رغم كونها زوجته التي تحبه أكثر من أي شيء: "بخير، لقد انخفضت حرارتها".

- "هذا جيد". قال ذلك ثم ابتعد عنها. رفعت هي رأسها وتطلعت بإحباط نحوه تراقبه يصعد على الدرج حتى اختفى. ذات جمال طبيعي لكنها هزيلة الجسد ونحيلة الوجه، خطوط الشحوب والهالات السوداء تحيط أسفل عينها الناعستان الزرقاوتان.

- "ما الذي يخفيه؟ لا، ليس هو وحده... بدأت ألاحظ أن الجميع يخفي هذه الأيام". قالت كاترين بقلق وانزعاج شديدان يختلجان في صدرها

في الصباح الباكر، اتجه المفتش وتشارلز إلى منطقة خارج غاليرياسك، إلى بلدة سانت فليرك حيث الدير الذي عاش فيه تشارلز فترة لا يمكنه وصفها بالبائسة أو الجميلة! خرجا من القطار الذي توقف في المحطة الرئيسية للبلدة. وقف تشارلز على الرصيف واستنشق هواء الريف المفسد ببخار مدخنة القطار الأسود. لم يكن هناك الكثير من الناس داخل المحطة. استقلا سيارة أجرة أقلتهما نحو دير البلدة. عبر الشارع الرئيسي ثم خرج من البلدة سالكاً طريق ينشق بين أشجار الصنوبر الطويلة. بعد ربع ساعة، وقفت السيارة أمام المدخل الكبير الذي يبدو روحانيًا من الزخارف التي نحتت في الرخام على هيئة أطفال ذوي أجنحة ملائكية وبعض الرسوم لزهور متفتحة وأشجار الأرز.

ترجل الاثنان. وكان الصباح في أول علاماته، الجو بارد أكثر برودة من الأيام السابقة، كرات ثلجية قد انهمرت أثناء مجيئهما. الدير من الناحية الشمالية الغربية يطل على مسطحات من الهضاب المتساوية وبعدها بحريمتد كأنه في الآفاق ينطبق مع الغيوم الملبدة، أمواجه تتلاطم وتتكسر مكونة زبدًا هائلًا من كثافته البيضاء. وقف تشارلز برهة يتأمل الدير من الخارج ثم ابتسم ساخرًا:

- "هناك تغيبٌ واضح!"

التفت إليه المفتش وسأله مستفسرًا: "ماذا تقصد؟".

- "لم يكن للدير مظهرٌ موقر كهذا في الماضي. على أية حال لندخل".

دخل الاثنان من المدخل الرئيسي ثم صعدا عشر درجة من الرخام تقود للباب الثاني من خشب البلوط، النحت والزخارف في مصرعهما يفتنان البصر، من جانبي المصرعين رخام متين، وله سقف يمتد فوق عمودين وهو أقرب بالشكل إلى هندسة المثلثات اليونانية. قبل أن يقرع تشارلز ذلك الباب المهيب، استوقفته فجأة خيالات لأصوات وضحكات انسلت بغتةً إلى عقله لتسحبه عميقًا نحو قعر ذكرياته، غرق في سرحانٍ جعله يتجمد بلا حراك. لاحظ

المفتش ذلك فهمس بصوته الحاني الرقيق: "بني". التفت تشارلز مشتت نحوه إلا أنه سارع في تدارك نفسه وأمسك حلقة الباب ليقرع بها.

بعد مضي دقيقتين، فتحت لهما راهبة متحشمة بالكامل وترتدي طرحة بيضاء تغطي شعرها ورقبتها وفوقها وشاحٌ كحليٌّ طويل، كانت شابة إن صح التعبير، لكن النظارة في ملامحها ماتت. سأل تشارلز: "عذرًا أيتها الأخت، أدعى تشارلز، وهذا المفتش جوناثان غريس رئيس قسم شرطة العاصمة. نحن هنا للتحقيق في قضية، ونحتاج لتحدث مع رئيسة الدير".

رمقتهما وكأنها تمنع نفسها من الموافقة، لكنها قالت في النهاية وما زالت ترمقهما بتوجس وحذر: "تفضلًا".

سارا خلفها عبر رواق فسح أرضيته من الرخام الأبيض والنوافذ عبارة عن لوحات بديعة من الألوان المتداخلة، زجاجه ملون يجعل من الأضواء الطبيعة تمر من خلاله لتشكل أطيافًا في الرواق وتنعكس في الجدران، لتجعلك تشعر بالخشوع والرهبة. ظلت تلك الراهبة تمشي بصمت وبخطوات متزنة ولباسها الكحلي لا يظهر شيئًا منها أبدًا، صوت خطواتها تصدى بوتيرة رتيبة. أصبح بإمكان تشارلز سماع صوت ترانيم الصلاة الآن، لم يكن أحد يسمع ذلك سواه؛ ها هو عقله يبث له صورًا وأصواتًا مهمة من ماضيه. كان في المنتصف بين عدت فتية يقرأون ترانيم بصوت مهتز، لأنهم يترجفون بردًا وأسنانهم تصطك من حين لحين. كأنها سرب من الذكريات تعرض أمامه على طول الرواق في شريط سينمائية متخم بالقصص منها الضحكات، والبكاء، وبين الصور المتدفق لحظة يبدو أن تشارلز لم يمحصها من حياته مطلقًا، في ذلك الوقت حيث شهد سيدة طويلة متشحة بالسواد تصفع صبي صفعة هزت أركان نوافذ. انتقلت به ذكرياته كالصفحات لتظهر له وجوهًا كانت لعدة أشخاص في الميتم. ثم خصال شعير حمراء تغطي ظهر طفلة تمسك ورود برية.

"وصلنا". قالتها الراهبة بصوت بليد خالي من المشاعر لتخرج تشارلز من سرحانه.

قرعت باب مكتب رئيسة الدير ثم دخلت قائلة بصوت مرتبك: "أيتها الأم، هنالك شخصان يرغبان في مقابلتك".

جالسة على كرسيها أو عرشها الذي يحكم أطراف هذا الدير، وتميل برأسها على أوراق تبني لبيضة أطفال من الدير.

- "من؟" سألت بصوت أجش.
- "رجل يقول أن اسمه تشارلز ومعهُ مفتش من ياسك".
- تجدد جبينها الذي بدا مشوهاً بالخطوط العريضة عندما قطبت حاجبيها وكشرت كأنها تسمع نذير لشؤم ما. تلف رأسها بطرحة بيضاء وتحكم لبسها وتغطي نحرها وصدرها، ثم طرحت زرقاء مثبتة بدبوسين على الجنبين.
- "أدخلهما". نهضت ليظهر جلبابها الموقر بلون الأزرق الداكن وثوبها بذات اللون. بدت امرأة مترممة حديدية تقف بظهر منتصب طويل.
- دلف كليهما وحالما رآها تشارلز لاح مذهولاً، إنها هي! الأم تيريزا مارنيلد وإن صح التعبير الساحرة الزرقاء! لم تتغير تلك المرأة على الإطلاق، لطالما نعتت من قبل صبية هذا الدير بالساحرة الزرقاء الشريرة! ملامحه الطويلة القوية والقاسية كالحة على الدوام وكأنه كتب عليها ذلك، صدغها بارزان، والأنف طويلٌ مستقيم، والعينان حادتان، رغم صغرهما لون قزحيتهما الزرقاء تشع بوميضٍ ثاقب.
- "الله القدير يعلم سبب مجيئكما، أَدْعُو أن يكون خيرًا". قالت الأم مارنيلد ابتسم تشارلز وهو مأخوذٌ من طريقتها في الكلام وصوتها الخالي من المشاعر والذي كان يشبهها بصوت صرير الباب الحديد الصديء؛ فهي لا تحمل شيئاً من الرقة أو اللطافة المصطنعة حتى. أخفض بصره وحاول إزالة تلك البسمة ليظهر بشكلٍ رسمي.
- "لقد جئنا لنسأل عن أمرٍ سوف يساعدنا في قضية نعمل عليها، أيها الأم، لذا نرجو ألا نسبب الإزعاج". تحدث المفتش بتهديب معها، وما هو موقنٌ به الآن أن هذه الحجة التي نطقها ليست سبب مجيئهما، لكنه لم يجد غير هذه الحجة ليبرر سبب وقوفهما هنا الآن.
- "ما دام أنكما وصلتما إلى هنا لا داعي للرجاء. عن أي قضية تتحدث؟".
- "قضية مقتل أحد النبلاء".
- "أه يا الله! مكانكما خاطئٌ إذن". قالتها بلهجة حاسمة.

- "في هذا الميتم، كان هنالك صبي يدعى دانييل هاربر". نطق تشارلز بسرعة، وحينما سمعت هذا الاسم التفتت إليه مباشرة ورمقته بعيونها الجاحظة المفزعة، وأثار هذا التصرف اهتمام المفتش.

تابع تشارلز يقول: "لقد هرب مع بضعة فتية من الدير..."

- "كيف تعرف هذا؟" استقطعت حديثه بحدة.

- "ليس مهمًا سيدتي الفاضلة، أيمكن أن تجيبي". قالها بطريقة جعلت المرأة تقطب مستاءة. ثم انهمكت في رمقه برغبة من أعلى رأسه لأسفل قدميه، واستفعل شعور ثقيل في صدرها، شعور بأن ملامح هذا الشاب ليست غريبة عليها.

- "ذلك الصبي كان في الثانية عشرة، هو وخمسة أطفال آخرين... ماذا حدث لهم؟". أردف تشارلز بسؤالٍ آخر

زفرت ثم أجابته: "كانوا أولاد جاحدين! لم يحمدوا نعمة الرب التي أهدقتم. ودانييل كان أشبه بزعيمهم، بل شيطان يوسوس لهم حتى يفسد أرواحهم".

نظرت إلى نافذة مكتبها الكبيرة أشبه بلوحة موضوعة في الجدار تظهر الحديقة الأمامية بأشجارها والسياح الغربي يفصل الحديقة عن الغابة. تابعت تقول: "في إحدى الأيام خطط بكل سوء لكي يهرب من هنا وجر خلفه أولاد أبرياء... وعندما اكتشفت الأمر... يا إلهي!... لقد كان شيطانًا يتجسد بهيئة طفل، رمى نفسه من الجرف وتبعه البقية".

تجهم وجه المفتش ثم نظر لتشارلز، وذلك كان يحدق بها وفي عيونه قصة أخرى.

- "هل تم العثور على أحدٍ من الصبية وإرجاعهم إلى الدير؟". سألها برود

هزت رأسها سلبًا: "كلا، لقد بحثنا لأسابيع وأبلغت الشرطة ولكنهم لم يعثروا على أي أثر لهم".

- "حسنًا". قال ذلك ثم التزم الصمت لبعض الوقت. ظل السيد غريس محتارًا فهو لا يعلم ما الذي يحاول تشارلز الوصول إليه. بعد برهة من الهدوء سأل مجددًا: "سمعت أن هنالك رجلًا ثريًا يقدم تبرعات مالية بشكل منتظم لهذا الدير، هل هذا صحيح؟".

أجابت الأم مارنيلد قائلة بثقة وفخر: "نعم، نعم هذا صحيح! إنه رجلٌ فاضل يدعى الكونت أوليغرس، نحن شاكرين له عطفه وإحسانه المنقطع النظير لهذا الدير؛ من بعده أصبحت

التبرعات لا تنقطع فقد وجه أنظار المجتمع وأيقظ الأهمية الضرورية لأجل التبرع لمثل هذه المؤسسات التي تنكب على رعاية الأيتام".

ابتسم تشارلز وهز رأسه ثم قال بطريقة غريبة بعض الشيء تختلف عن شخصيته المعهودة ، كما لو أن الشر الموجود داخل أي إنسان، وداخله هو أيضًا قد استفاق، لاح صوته لاذعًا متهمًا: "عجبا! بمقدورك أن تتذكر اسم الرجل الذي يتبرع بالمال لك!".

ارتفعت زاوية حاجبها الأيسر وشدت على أنفاسها تكبح غيظها من سلوكه الوقح، ردت عليه بصوت حاد: "ولماذا لن أذكر اسم الرجل الذي يقدم معروفًا بكرمه على أطفال أيتام".

خط بسمه جانبية وأردف بطريقة استشعر فيها المفتش شيئًا من الحقد: "إذن دعيني أطلعك على حقيقة بسيطة لا يجب أن تبقى مستورة. الرجل الذي يتبرع بالأموال لهذا الدير، يكون نفس الصبي الذي هرب من هنا ورمى بنفسه من الجرف مع خمسة من أصدقائه... أو لأكون دقيقًا... من وصفته بالشیطان هو الذي كان يتبرع لك!".

انفتق فاه المرأة مستهجنة قوله:

- "ما الذي تهذي به؟!"

- "كما سمعت سيدتي، إن ذلك الرجل _الرجل الفاضل_ ما هو إلا طفل متبني لعائلة أوليفرس، وتحديدًا هو يكون... دانييل هاربر".

سرت رعشة لحظية في جسد الأم وذهولها مما سمعته انعكس على ملامحها واتساع جفنها. فاندفعت بصوت متهدج وهي تهزيمها رافضة رفضًا قاطعًا لقوله:

- "م ما الذي تقوله يا هذا؟ أنَّ لهذان الاثنان أن يجتمعا؟".

أجابها تشارلز وهذه المرة أستطاع المفتش أخيرًا أن يعرف ما الغاية الحقيقية من كل ما يفعله تشارلز الآن؛ لقد رأى في عينيه استشفاءً منتقمًا، فمنذ أن سمع بالتبرعات التي يقدمها دانييل لدير سانت فليرك وهو يخفي شيئًا في صدره لقد انقلب صوته الهادئ الرزين إلى ليتصف بنغمة جارحة جدًّا.

- "صدقي ذلك أو لا تصدقي، ولكنها الحقيقة".

قبل أن يستدير ويغادر توقف وأومأ برأسه مستذكرًا أمرًا فعاد يلتفت نحوها قائلاً: "صحيح، لم أبلغك من أكون... تشارلز غرنالد... أيها الأم العزيزة" ثم ختمها بابتسامة هازنة لا يمكن لأحد أن

ينكرها كما أن الفتاة الشابة وقفت حائرة بينهم تحديق في الأم مارنيلد وقد تعجبت من ملامحها المصدومة، إنها أول مرة بالنسبة لها تراها مهزوزة حتى أنها فقدت توازنها واتكأت بحافة طاولة مكتبها فور أن سمعت أسم تشارلز. سيكون لديها شيء مثير تسردها لرفيقاتها في الدير. استرسل تشارلز في كلامه بعد أن تمتع برؤية الصدمة تشل تعابير الأم تيريزا: "لقد كان على دراية تامة بنوع الحياة التي يعيشها أيتام هذا الدير، عدم وجود ممول يؤمن كافة احتياجاتهم، جعلتك تريحهم سلعة مباحة، تأخذين المال عن كل صبي ترسلينه بعيداً لما تسمينه حياة جيدة. حينما دخلت لدير بعد كل تلك المدة... تفاجأت ولكنني مسرور لأن هذا التغيير الجذري بفضل شيطان يسمى هاربر الذي دفعته كل تصرفاتك إلى أن يهرب ويقفز من الجرف متخلياً عن حياته".

غادر تشارلز الدير بعد أن استخلص لنفسها راحة تامة بما زرعه من ندمٍ وحسرة في قلب الأم تيريزا مارنيلد. إلا أن رحلته في بلدة سانت فيريك لم تنتهي. عبرت السيارة شارع البلدة الرئيسي، لا تزال تنفض عنها أجزاء الخمول وتبدأ في فتح دكاكينها، رغم ذلك حركة العامة قليلة، الأجواء التي تحدثها السماء الملبدة تجعلك تشعر بأن الفجر لم يكتمل ظهره ولم ينجلي فالشمس ضائعة خلف كتلٍ غيمية رمادية كثيفة. استمر تشارلز يراقب بعض الوجوه من نافذة السيارة، بينما المفتش صامت إذ لم يشأ محادثته، إنه يعلم مقدار المعاناة التي أجبر على خوضها مرتان، موت والدته، والثانية غرق رفاقه المقربين. بقي يتأمله وهو جالس بجواره في المقعد ويرى التبدل الذي يضاهي تبدل السماء فإن عينيه وما يرى من حجاب غامض فيهما يمنعك من رؤية حقيقته الخالصة. لكن المفتش جون يدرك أمراً مهماً جيداً، في داخل تشارلز مشاعر سوداوية سيئة جداً وإن تمكنت من قلبه سوف تفسد روجه! تهذب وكم بدا مهموماً بأمره ثم راح ينظر بدوره إلى النافذة وما يزال زجاجها يختزل رطوبة البرد وأثناء تأمله من النافذة سأله: "أخبرني يا تشارلز، ما الذي استفدته من فعل ذلك؟".

ناظره من ركن عينيه وهو يضع ذقنه على قبضة يمينه حيث أن مرفقه يستند على عتبة النافذة وأجابه بصراحة تامة: "لا أعرف، لكنني أشعر بشعور جيد الآن، يمكنك أن تسميه انتقام".

خرجت سيارة الأجرة عن البلدة بمسافة بسبعة كيلومترات. خلف تلة خضراء منزل ريفي متواضع بقرب شجرة زان عملاقة عارية الأوراق وفي جهة الشمال الغربي يتألاً وهج البحر العظيم الأزرق. سارت السيارة بترجرج على الدرب المنشق نحو ذلك البيت. عند وصولهم ترجل تشارلز أولاً ثم المفتش الذي بادربسؤال: "هل هذا هو المكان؟".

شهق تشارلز بعمق يملئ صدره من هواء البحر الملاح ثم هز رأسه وابتسامته مرتاحة تعتلي وجهه. تقدما بضع خطوات ليريا شابة فتية تقف على بعد عشرين متراً من باب المنزل بقرب مجموعة مكدسة من الحطب المقطوع، تأخذ قطعاً منه وتضعه في دلو خشبي.

- "مرحباً" هتف تشارلز وهو يتقدم عن المفتش قليلاً، استجابت تلك الشابة ذات الشعر البني المائل للأحمر والتفتت نحوه، تطلعت لوجهه باستغراب ثم لوجه المفتش، اعترها الخوف فسألت:

- "من أنتما؟".

تهلل وجه تشارلز بابتسامة رقيقة جداً: "هل سيد ستيف لينوكس في المنزل؟".

هزت رأسها اجاباً، فقال: "أخبريه أن تشارلز غرنالد جاء لرؤيته".

ضمت الشابة ما بين حاجبيها بدهشة شديدة، ثم رمقت تشارلز بشك واضح وهي تتمتم: "تشارلز غرنالد".

- "أجل".

ابتعدت الفتاة بهدوء ودخلت للمنزل. وجدت والدها يقف بقرب موقد نار فوقه قدر حساء يغلي فنادته وهي مرتبكة جداً:

- "أبي، أبي! هناك شخص غريب في الخارج يقول إن اسمه تشارلز غرنالد ويريد مقابلتك!".

التفت الرجل مباشرة والهوت تشكل مع خطوط تجاعيد وجهه العريض. ترك تقليب الحساء وخرج ليرى الأمر، ليجد شاباً مهندماً لامحه البيضاء المشربة بحمرة قانية، منحنيات عينيه الناعستين واللتين تشعان بصفرة زاهية، وابتسامته اللطيفة أمعن التحديق فيه جيداً فأحس أن فيه شيئاً مألوفاً. يقف منتظراً بقرب رجل كبير في السن لم يتعرف عليه. سأله السيد لينوكس وعينيه تتفحص شخص تشارلز مجدداً: "هل أنت من قال أنك تشارلز غرنالد؟".

ابتسم مجيبًا: "نعم سيد لينوكس" رفع تشارلز كم قميصه وأراه الوشم على رسغه وأضاف:
"بالأحرى غرينو".

انفتحت عينا الرجل ذهوًا وتطلع إليه مجددًا غير قادرًا على تصديق، ولم يكن هو الوحيد،
التأثير ذاته أصاب ابنته.

- "يفضل أن ندخل ونجلس قليلاً" قال المفتش ثم أضاف: "اعذرنا على الظهور فجأة. وكما ترى
سيكون حديثًا طويلًا".

هز الرجل رأسه بدون تردد ثم أفسح لهما الطريق ليدلفا.

جلسوا حول مائدة الطعام الخشبية. وضعت ابنة السيد لينوكس الشاي لهم، وفي نفس
الوقت استمرت في استراق النظر نحو تشارلز والسرور يملأ قلبها حتى احمرت وجنتها المكتنزتين!
لقد كان السيد لينوكس بالنسبة لبعض أيتام دير سانت فليرك رجلاً طيبًا وحنونًا، وكونه نجارًا
ورغم حالته الميسورة كان يصنع الأسرة والخزائن لأطفال الدير. إنه أرملةٌ ولديه ثلاث بنات،
الكبرى متزوجة والثانية تعمل مدرسة في إحدى المدارس داخلية للفتيات، أما أصغر بناته وهي
(شارلوت) تبلغ من العمر اثنان وعشرين عاما. لم تجلس معهم على المائدة بل وقفت بقرب
المدفأة بقليل تحديق في وجه تشارلز كما يفعل والدها؛ حينما اختفى هو وبقية الصبية الهاربين
كانت في السابعة إلا أنها تتذكر جيدًا صبي واحدًا من بينهم جميعًا كانت تحبه كثيرًا!

- "أعلم أن الأمر صادم" اجتاح صوت تشارلز الصمت الساكن في الأرجاء وقطع سرحان الرجل
وابنته، ثم تابع يقول: "ومتأسف لأنني ظهرت فجأة بعد كل هذه المدة الطويلة".

هز السيد لينوكس رأسه بقوة وقال مغتبطًا: "على عكس ذلك، إني مسرور لمعرفة أنك على قيد
الحياة! إذ إنها معجزة!".

أومأ تشارلز ثم متم قائلًا: "معجزة! ربما يمكننا وصفها بذلك... كل ما حدث إلى الآن شيء ما
كنت لأتخيله أبدًا؛ لقد فتحت عيناى ووجدت نفسي في عالمٍ آخر... كيف وصلت وكيف
نجوت لا علم لي... تهت لبعض الوقت في الشوارع" تطلع ناحية المفتش الذي يجلس أمامه
مباشرة واستأنف قائلًا والامتنان يغدق عينيه الصافيتان: "وما كنت لتراني جالسًا هنا الآن لو
لا عناية الله الذي بعث السيد جوناثان غريس لينتشلني من البؤس الذي كنت فيه". ابتسم

المفتش مع ذلك ابتسامته لم تظهر لأن شاربيه يخفيان امتداد شفتيه، لذا انعكست بهجته في عينيه المزرقتان.

- "هو الآن والدي" قال تشارلز والفخر يملأ صوته.

انشرحت اسابير وجه السيد لينوكس براحة تامة، نظر للمفتش باحترام وتقدير على إحسانه وطيبة قلبه، ثم لتشارلز ليقول: "سماع ذلك يجعلني أؤمن بأن القدر حكيم! ولكن ماذا حدث لدانييل وفرناند والبقية، هل نجوا أيضا؟".

أخفض تشارلز رأسه وتقلصت بسمته كما خفتت النظارة عن ملامحها فور أن جاء بذكرهم. تهد وأجاب: "لا أعرف، لا أعرف حقًا إن كانت النجاة قد كتبت لهم" رفع بصره إليه وأضاف: "ولذلك جئتُ إليك، أريد أن أسألك سؤالًا واحدًا سوف يؤكد لي بعض الشكوك".

- "بتأكيد تفضل".

- "هل كنت تتلقى تبرعات من رجل نبيل يدعى، الكونت أوليغرس".

صعق الرجل وتفاجئ هو وابنته، وقبل أن يترك دهشته تعقد لسانه سأله مندفعًا: "كيف عرفت ذلك؟!"

صمت تشارلز قليلا ولاح شارد الذهن، ذراعيه كانتا فوق المنضدة، شبك أصابعه بقوة وكأنه يهياً نفسه لاستقبال ما يخشاه، ثم بعد ثواني من الصمت عاد يسأل: "هل كان يزورك؟".

- "في الحقيقة لا! كان يرسل خادمه الشخصي _كايل باتريكيل_ بفضله تمكنت أختي إيزابيلا من إكمال دراستها، وتكفل بزواجي شقيقتي الكبرى. كما أنه يتبرع بمبالغ كبيرة لدير سانت فليرك. كيف عرفت ذلك؟" اندفعت شارلوت وسبقت والدها في الإجابة إذا أن فضولها تغلب عليها، ولأن هناك سببًا آخر تخفيه في داخل قلبها الفتي.

- "كنت واثقًا من ذلك، هذا النبيل هو ذاته دانييل هاربر. ولكن، قلت إن آخر شيء سوف يؤكد لي شكوكي هي أفعاله، دانييل لم ينسك ولم ينسى دير سانت". قال تشارلز بأسى بالغ. لكن، تلقي كل هذه الأمور جعلت السيد لينوكس وابنته في غاية السرور بيد أن السعادة لم تكتمل. سألتته شارلوت بشيء من الاستياء: "ولكن، إذا كنت صادقًا بما تقوله، لِمَ لم يخبرنا؟ لِمَ لم يقل إنه دانييل؟".

هز رأسه لليمين واليسار: "لا أعرف حقًا، ربما لم يشأ فعل ذلك وتعكبر صفاء حياتكم".

- "ما كان ليعكرها أبداً!" انفعلت شارلوت بعض الشيء، وقد احتقنت الدماء في وجنتها المشدودتان، ورغم تقطيب حجبيها الرفيعان بدت مسرورة: "هل التقيتما؟". هنا تكلم المفتش نيابة عن تشارلز، فأخذ نفساً عميقاً ثم اتكأ بساعده الأيمن على المنضدة: "مع بالغي الأسف، الكونت أوليغر أو دانييل هاربرقتل، ونحن نحقق في قضية موته". شهقت شارلوت بقوة ثم رفعت يديها وغطت بهما فمها، تأثير الفاجعة بما أبلغت به جعلها ترتعش، حاولت كبح اضطرابها إلا أن الدموع تشكلت عند حدود جفניה لتجعلها كحد الأفاق محمرتان.

- "ككيف حدث ذلك؟! سأل والدها والذي لم يقل صدمتاً عنها. بقي تشارلز يبطأ رأسه ويحدق في المنضدة ولم ينبس بكلمة واحدة، فتولى السيد غريس الإجابة: "إلى الآن ليس هنالك ما يمكننا الاستناد عليه، كل شيء متداخل وفوضوي، إلا أننا ما زلنا نبحث ولن تغلق القضية حتى نعرف قاتله". اهتاجت مشاعر شارلوت غضباً وحرزاً كما اغرورقت عينها الجميلتان بدموع: "من هذا الحاقق الذي يقتل شخصاً مثله؟!". لم يجب أحد، وشعور تشارلز بالعجز جعله مستاءً وساخطاً من نفسه، راح يفرغ غضبه في الضغط على أصابعه المتشابكة بقوة.

انتهت تلك الزيارة المفاجئة بما حملته من حقيقة مؤلمة. أثناء عودتهما وهما داخل مقطورة القطار استفاق تشارلز من شروده البليد وسأل قائلاً: "هل تم استجواب خادم الكونت الخاص؟"

تطلع المفتش إليه ثم هز رأسه نافيًا وقال: "لا. وعلى ذكر ذلك احتمالية تورطه في شيء معدومة إلى حدٍ ما يا بني، فكما علمنا، لقد غادر العاصمة قبل زفاف الكونت إلى سأل. بحث سكود في شأنه، ليس لديه أي سجلات جنائية كما أنه وإلى الآن لم يعد من سأل". أوماً تشارلز ثم عاد يحدق من النافذة شاردًا، لا شيء يرى على مد البصر غير براري شاسعة فارغة كالفراغي الذي في داخله

في المساء عاد تشارلز إلى شقته وصادف الآنسة كنديل في الرواق. ابتهجت لرؤيته لقد أصبح يختفي كثيرًا ومن الواضح أنها متضايقه من ذلك مع هذا ضببت تعابيرها ومطت شفيتها المحمران لتصنع بسمة مأكرة: "ماذا يا سيدي المحقق لم نعد نراك في الجوار!".

إلا أن سرورها لم يدوم حينما تبينت لها ملامحه المرهقة الشاحبة، أحست وهي تنظر إلى وجهه بشيء من التردد هل تبقى على حيويتها المعتادة؟ أو كيف يجب عليها التصرف؟ لقد ارتبكت حقًا فالشخص الذي اعتادت على بسمته ليس هذا، فمن يقف أمامها بأئس حزين. تحل تشارلز بلباقة وقابلها بوجه مبتسم مما شجعها لتسأله بصوت حائني: "ما بك؟ هل أنت بخير".

- "بخير إلى حد ما".

- "أما زلت تشارك في قضية التحقيق التي تخص مقتل الكونت؟".

- "نعم، وللأسف لا جديد".

أخفضت بصرها وقالت بصوت رقيق مواسي: "أرجو أن تتمكنوا من معرفة سبب موته".

أوماً شاكرًا ثم استطرد قائلاً: "لقد اضطررت لذهاب إلى مكان بعيد لذا أشعر ببعض الانهالك. عذرًا".

- "آه بالتأكيد، عمة مساءً".

تخطاها بهدوءٍ شديد وذهب ناحية شقته. أما فلورا قد راودها شعور كئيب والإحباط ترسم في ملامحها، تهتت ثم قالت: "ألم تأتي هذه القضية إلا الآن. آه! فلورا لا تكوني أنانية... الأنانية ليست جيدة!".

عاد المفتش جون إلى منزله أيضًا وكانت في استقباله زوجته الحبورة. سألته بقلق حينما رأت الانهالك والشحوب على وجهه: "هل أنت بخير؟".

نزع معطفه الثقيل وسلمه لها، ثم تهتد بإفراط: "نعم، نعم!".

اتجه ناحية مقعده وجلس ليرخي جسده المثقل الهرم. علقت السيدة غريس المعطف في حامل بقرب الباب، ثم جلست على الأريكة: "إلى أين ذهبت أنت وتشارلز؟ هل كل شيء يسير على ما يرام؟".

- "لا أدري يا عزيزتي. بدأت أخشى أن كل ما عاشه تشارلز قد يحوله إلى شخصٍ حاقد".
 - "آه ما هذه الكلام! تشارلز شابٌ عاقل ويعلم أن كل ما حدث ليست إلا إرادة القدر. إنه أعقل من أن يضيع وقته في الحقد".
 - "أنا أيضًا أؤمن بذلك، ولكن ما رأيته منه اليوم يثبت عكس ذلك. لا تنسى أنه إنسانٌ مثلنا، ولا أنكر أن كل ما مر به ليس بشيء هين. كل ما أرجوه ألا يجد الشيطان سبيلًا إلى قلبه".
- زفر السيد جوناثان منهكًا محتارًا وقلقًا من المستقبل المجهول.

مال ميزان المساء إلى ليلٍ دامسٍ مرهب واختفت الأصوات وبدأ الثلج ينهمر بغزارة. انقضت نصف ساعة وهو مستلقي على سريريه، حصى التفكير بتلك القضية المربكة لازمته لتزعج نومه، اضطجع على يمينه وأغمض عينيه ثم راح يسترد بعضًا من ذكرياته، ويقلب في عقله كل الأحداث، والأسماء، والمواقف منذ بداية لقاءه بالكونت. بقي على حاله مدة من الزمن يبدو لناظر كأنه قد دخل في سبات عميق. فتح عينيه عندما تذكر تصرفات الكونت الشاب أثناء الحفلة وسؤاله الغريب بشأن اسم والده. قضم على شفته السفلى بقوة نادماً يلعن نفسه؛ لأن كراهيته لوالده منعتة من ذكر اسمه أمامه. أثناء ذلك، الثلج تكتل على الحافة الخارجية لنافذة حجرته، وفوق أعمدة الانارات، وعلى جوانب الأرصفة والشوارع وعلى أسطح المباني كل شيء يخلد إلى النوم تحت رداءٍ أبيض نقي.

**

داخل قصر أوليغرس، كانت الخادمة دورثي تنظف غرفة الكونتيسة، وقفت أمام تسريحتها وأغراها منظر المعطرات وكريمات التجميل التي على طاولة التسريحة اقتربت وألقت نظرت مغطاة لكل ما تملكه. فتحت الدرج الأيسر لتجد أنواع الحلي البارقة جربت بعضها ووضعته على رقبته، ثم أخرجت رأت علبة مخملية زرقاء، هي ذات العلبة التي تحوي العقد الألماسي الذي حملها الكونت بسعادة ليقدمها إلى أن.

تهددت بحسرة وقالت: "إنها لا تستحق شيئًا من عطفك أو حبك!". أخذت العلبة وفتحتها لتضعق وترمها مباشرة... لم يكن بداخلها عقد... بل مسدسًا صغيرًا!

الفصل الحادي عشر

مع أول بزوغ لنور الشمس حمل هذا اليوم مفاجأة صاخبة لتشارلز، فقد استفاق من نومه على صوت رنين الهاتف في الردهة. فتح أجفانه بكسلٍ شديد ثم زحف لينهض من السرير، شعره مشعث وملامحه وجهه مخدرة بالنعاس. حالما أجاب على المكاملة كما لو أن جرعة من منشطٍ ما انتشر في عروقه، بدا يقظاً بتركيز تام وهو يجيب: "فهمت، لا بأس سوف آتي فوراً!". هرع لغسل وجهه ثم ارتدى معطفه وأهمل إغلاق أزرار صدرته الكحلية، لم يذق لسانه لا طعام ماءً ولا قهوة. فتح باب الشقة ثم خرج وراح لشدة عجلته يخطأ في إدخال المفتاح داخل القفل: "تباً! أدخل!" هتف ساخطاً، ثم أنزل ذراعيه وشهق بعمق ليكيح انفعالاته حتى يتمكن من فعل شيء يسير كإغلاق غفل الباب. في نفس اللحظة خرجت فلورا من شقتها على بعد شقتين منه. عندما رآته ابتسمت بغبطة ولم تبالي بالتردد كالليلة الماضية، همت في محادثته: "صبي..." لكن تشارلز قاطعها بتهدئة راحة بعد أن تمكن من إغلاق الباب أخيراً، ثم التفت ناحيتها وحادثها بعجلة متهدجة سببت ارتباكاً لها: "صباح الخير، اعذريني علي الذهاب لدي أمرٌ ضروري. الفاك لاحقاً. صباح الخير!". ثم ذهب مهرولاً.

وقفت فلورا مهوتةً والاستفهام يعلو رأسها. ارتفع حاجبها السمكان قليلاً وهي تقول: "كررتها مرتين!" ثم زفرت بإحباط وانتحبت متذمرة: "آه، مجدداً! لقد سئمتُ من هذه القضية إنها تسرقه مني بالكامل أصبحت كالمجانين أغار من قضية تشغل تفكيره عني! هذا رائع فعلاً!" ثم بدأت بالسير في الرواق تتمتم وبالكد تكيح غيظها لاحت كالطفلة الصغيرة على وشك الانفجار: "رائع! أعتقد أن كذبة الزوج المزيف سوف تصبح حقيقة! آه سوف أبكي إن بدأ أبي بالسؤال عن تشارلز. ماذا سوف أقول له... عذراً أبي، ولكنه مشغولٌ في قضية الآن ولا يمكنه خطبتي. جميل أنتِ منحوسة يا فلورا!".

عند وصوله لمقر الشرطة دخل مباشرة إلى مكتب المفتش ليرى الضابط غرلين هناك وبحوزته مغلف بلاستيكي بداخله ذلك المسدس. وقف تشارلز ينظر إليه باندهاش، لم يرى المفتش ولا الضابط فقط ظل يحرق بالمسدس ثم نظر لكليهما سائلاً: "أين تم العثور عليه؟".

- "أولاً صباح الخير" أوما الضابط غرلين بابتسامة عريضة جعلت تشارلز يخفض بصره فاستحياء وضحك بهدوء، ثم أضاف الضابط: "لقد صدمنا مثلك حينما أبلغنا بهذا".
- "ولكن كيف ذلك أين تم العثور عليه؟".
- أردف المفتش: "في ذات الغرفة التي انتقلت إليها الكونتيسة بعد موت زوجها، لقد عثرت عليه خادمتها الخاصة داخل علبة الألباس. والأكثر من ذلك البصمات الوحيدة الموجودة على السلاح تعود للكونتيسة آن".
- "هل هي موجودة هنا!... في المركز؟" سألت تشارلز مأخوذاً من هذه الحقيقة المفاجئة.
- "نعم، نعم. هي حاليًا في حجرة الاستجواب مع النقيب سكود".
- "هل يمكنني حضور الاستجواب؟" سألت تشارلز فأوماً له المفتش خلال نهوضه قائلاً: "لا بأس يمكنك المجيء معي".
- اتجهوا إلى حجرة الاستجواب حالما وصلوا إلى الممر المؤدي إلى باب الحجرة سمعوا صوت صباح امرأة بائسة. اسرع تشارلز نحو مقبض الباب وفتحته، قبل أن تبصر عينيه شيئاً اخترقت صيحتها المريعة أذنيه:
- "أنا لم أقتل أحداً! أنا لم أقتله! لا يهمني إن صدقتم ذلك أو لا!".
- كانت السيدة أوليغرس منهارة فوق الكرسي وخصالتها تترامى على كف يديها اللتان تغطيان وجهها، بينما سكود يجلس مقابلها يفصل بينهما طاولة حديدية، يسند خده لكف يمينه محتاراً كيف يستجوب تلك المرأة الدرامية. التفت لجهة الباب عند فتحه وحالما رأى تشارلز عقد حاجبيه وعبس بإفراط: "لا يسمح لك بدخول إلى هنا!".
- ظهر المفتش من خلف تشارلز وتخطاه ببعض خطوات أثناء قوله: "لا بأس إنه معي" استطرد وهو يسأل آن: "إذن كونتيسة آن، كيف وصل المسدس إلى علبة الألباس؟"
- اهتمت الكونتيسة باحتدام مرة أخرى وبدت مذعورة: "أنا لا أعرف كيف وصل إلى هناك أقسم لكم!".
- قال سكود وهو يقلب بصره بضجر: "يا سيدتي، تعلمين أن بصماتك موجودة في السلاح لذا لا يمكنك الإنكار. إن لم تضعيه أنتِ فمن وضعه؟".

صرخت بصوت مرتفع افزع سكود وجعله يرتد لظهر الكرسي: "لا أعرف! أتفهم... قلت لك لا أعرف!" ثم انخرطت في بكاءٍ هستيري حتى انقبض وجهها محمرًا. تهدد المفتش خلال جلوس إذ نهض سكود عن الكرسي ليجلسه عليه وما زال يحدق فيها مشدوهُا.

قال المفتش: "حسنًا، استمعي إلي، حاولي أن تهدأي وتخبرينا، هل هنالك شخصٌ ما تشكين به وتظنين أنه يسعى لإدانتك؟".

هزت رأسها بقوة وهي ترتعش: "لا أعرف!، لا أعرف!". ورغم محاولتها لكبح صوت نحيبها وإخفاء رعبها ارتعاشُها يفضحها.

فكر تشارلز سريعًا، تمكن بطريقة ما في فصل عقله عن أحاديثهم ليحافظ على هدوءه، ثم نطق قائلاً: "ماذا عن الشخص الذي أذاك في ذلك اليوم، هل تذكرين ملامحه؟".

ضمت حاجبها وتطلعت إليه بعدم فهم، ليقول تشارلز موضحًا: "أريدك أن تتذكر بدقة، إن استطعتِ، هل رأيت وجه الكونت عند دخوله للغرفة؟".

تحولت عينها إلى غشاء مائي ملتصقٍ محمر بفعل تلك الدموع، أخفضت رأسها تحاول التذكر، ورؤوس أناملها على طرف شفاهها.

تحدثت بصوت كئيب خافت محشرج: "كنت على وشك أن أخلد للنوم، لقد دخل وأطفأ الشموع عادة هو لا يفعل ذلك... لم أرى شيئًا ولكنني كنت أشعر... لقد... لقد كان مربعًا! لما لا يصدقني أحد؟ أنا لم أقتله... لم أقتله!". قالتها وهي تغمض عينها والدموع تنساقط الواحدة تلوى الأخرى بحرارة فادحة، حتى سكود أشفق عليها.

- "لحظة، هذا يعني أنك لم تري بشكل واضح وجهه..." تمتم تشارلز، ثم أضاف وهو يحدث المفتش: "رجاءً أيمكن أن تطلب من أحد الرجال أن يجلب السيدة إغاردن إلى هنا؟".

- "حسنًا". التفت المفتش نحو الضابط غرلين وأوماً له.

تقدم تشارلز إلى آن وجلس على ركبته اليمنى، أمسك يديها اللتان تضعهما فوق حجرها. قال لها بسرعة واجتهد في إظهار عدم إلحاحه: "رجاءً، كوني هادئة اتفقنا، حاولي أن تتذكري أعلم أن هذا صعب، ولكن حاولي... هل رأيت وجهه... وجه دانييل بتحديد وجه زوجك الكونت أوليغرس؟".

صمتت برهة لتتذكر بينما الصور المظلمة تتقلب في عقلها. كانت هنالك ظلمة فظيعة، تذكرت لحظة سماعها لمقبض الباب يفتح، لم تدر ظهرها لترى وقتها؛ فقد كانت بين اليقظة والمنام إلا أن النعاس أثقل على جفنها. استدارت بعد ثواني ورأت شخصاً يدخل، كان يدير ظهره ويطفأ الشموع ليعم الظلام زوايا الغرفة، ثم اتجه إلى السرير.

حسبت أن أنه سيخلد للنوم لذا ارتخت وأغلقت عينها، وسريعاً ما شعرت بيد باردة تمتد إلى فمها وتغلغه، كانت الرؤية صعبة في الظلام... لكن مشاعرها الكارئة والحاقدة آنذاك هي التي تحكمت بها؛ تكدست مشاعرها واختلجت، استمرت على إصرارها كل هذا الوقت في يقين تام أن زوجها الذي أجبرت على زواج منه هو الذي سبب لها تلك المعاناة البشعة... ونسيت أن الظلام كان دليلاً على براءة ما ضاعت بسبب الضغينة!

هدأ انفعالها ونحيبها سكن بين أوتار صوتها، أخفضت منكبها ببطء وهي تقرو ويبدو على وجهها الهلع: "لا، لم أره! لم أره بوضوح... كان الظلامُ حالكاً!".

- "لم تري وجهه... لم تريه بشكل دقيق؟".

هزت رأسها تأييد قوله.

أخفض رأسه ثم غرق في صمت بينه وبين نفسه "هذا واضح، واضح جداً! هنالك من استهدف الكونت بعد خروجه من عند المحامي. بينما عاد الشخص الثاني إلى القصر منتحلاً شخصية الكونت" نظر لأن ثم تابع "تلك المدبرة هي الوحيدة التي رأت من عاد في تلك الساعة، أي أنها الوحيدة التي رأت ملامحه. إن افترضت أن عشيق أن هو الذي عاد إلى القصر فتلك الطلقة التي سمعها الخدم لن يطلقها إلا اثنان أن أوليونااردو. والأكثر أهمية من كل ذلك، كيف هرب ليوناردو دون أن يلاحظه أحد؟ وكيف تمت إعادة جثمان الكونت؟ يستحيل أن يتسلق أحدهم سورا مع جثت رجل! اهدأ، اهدأ قليلاً" أخذ نفساً عميقاً ثم وقف مستقيماً بينما الجميع ينظر إلى حالة الوجوم التي أصابته، لكن في داخل عقله ثرثرة صاخبة.

بعد عدة دقائق وصل الضابط مع السيدة إغاردن، استقبلوها بأنظارهم التي تجلب التوتور...

لكن تشارلز هو أكثر من بعث فيها هذا الشعور؛ فقد سألها مباشرة بحماسٍ مندفعٍ ملحوظ:

- "سيدة إغاردن، أريد منك أن تجلس هنا". سحبا من ساعدها برفق ليجلسها على الكرسي

وأضاف بدون مقدمات: "لقد قلتِ إنك رأيت الكونت يعود إلى قصره، صحيح؟".

- "نعم، قلت ذلك".
- "حسنًا، الآن أريدك أن تركزي معي، هل كنت وقمها في منطقة مضبوطة؟".
- فكرت المرأة ثم أجابت: "امممم، كنت أحمل مصباحًا. أذكر أنني كنت في الرواق الغربي، وكان الكونت يصعد الدرج اللولبي، ونادراً ما يصعد من هناك في الحقيقة؛ لأنه يخص الخدم. لقد أخبرتكم بذلك مسبقًا".
- صاح بنفاذ صبر: "رأيت وجهه أم لا؟!".
- "نعم، لقد رأيته! رأيت ملامحه لكنها لم تكن واضحة بسبب الظلام!".
- "يا إلهي! أنا أريد أن تكون واثقة من كلامك".
- فكرت المرأة ثانية وهذه المرة بدت مرتبكة لأنها بالكاد قد رأته وجهه فلم يخطر ببالها أن يكون شخصًا آخر على الإطلاق: "أنا امرأة مسنة يا بني، ولكنني إن رأيت الكونت لن أخطأه طبعًا. كما أنه كان يرتدي سترته الذهبية".
- "ماذا تقصدين؟" سأل سكود باستغراب
- "أعني تلك السترة الحريرية هي هدية من والده فصلت بشكل خاص للكونت، ولطالما كان الكونت الشاب يعتز بها ويرتديها في غلب الأوقات وحينما غادر من القصر كان يرتديها، وعندما عاد إلى القصر كان يرتديها أيضًا!".
- ساد الصمت المربك بين الجميع، في حين أخفض تشارلز رأسه وغرق في تفكير عميق يحسب بعض الأمور بسرعة، قال بعدها متعجبًا: "لحظة ألا يبدو هذا غريبًا، في مثل هذا الجو البارد خارج وهو يرتدي سترة من حرير فقط!".
- أردفت المدبرة وهي تلوح معترضة ببسارها: "كلا، كلا! الكونت عندما غادر كان يرتدي معطفًا ثقيل ووشاحًا بالفعل. أيضًا الكونت اعتاد دائمًا أن يأخذ معه في خرجاته عكاز والده".
- تنهد المفتش بقوة وأرجع كلتا ذراعيه خلف ظهره، ثم تكلم: "عندما عثر على جثمان الكونت، كان يرتدي قميصًا أبيضًا. وأنت يا سيدتي تصر على أن الكونت عاد وكان يرتدي سترة من الحرير، وهذا يبدو مريبًا وغير دقيق إلى الآن. حسنًا، أثناء تفتيش الشرطة عن السلاح في حجرة الكونت لم يروا أي سترة حريرية، لذا أخبريني أين اختفت السترة وأين ترك العكاز والمعطف قبل رجوعه؟ هل عثر عليهم الخدم في أي مكان داخل القصر؟".

صمتُ طويل اجتاح المكان، لم تجب المدبرة وجزعت جزعًا شديدًا حتى أنها أصبحت في شك حقيقي بأن من رأته ليس نفسه الكونت: "لو عثر عليهم أحد الخدم كان ليبلغني بالطبع... لكن، لم يبلغني أحد بشيء".

شردت أن تحدد في الطاولة وملاحمها المصفرة تفضح خوفًا داخلي. لاحظ تشارلز ذلك مما زاد ثقل الشك في ميزانه فقال مستذكرًا أمرًا: "الكونت يعاني من الربو لذا يستحيل أن يدخل مع ذلك غرفته كانت مكتومة بالدخن".

جفلت السيدة إغاردن وهي تفكر حتى كادت خلايا عقلها الهرمة أن تنفجر: "نعم هذا صحيح، إنه يعاني من الربو وهذا ما حيرني أيضًا! الكونت الشاب لا يمكن أن يدخل بأي شكلٍ مع الأشكال فإن لم يكن الكونت فمن يكون؟".

وقف تشارلز شاردًا وعاد إلى صمته الأولى، بعد ثواني رمق الكونتيسة بطرف عينيه لم تحب هي تلك النظرة أبدًا أحست أنه ينوي على شيء وقد صدق إحساسها إذ التفت للمفتش قائلاً: "ليوناردو براين، إنه من نبئت عنه".

انتفضت فجأةً لهتفت بحدة: "ما الذي تقصده؟ ليون لا علاقة له بذلك".

رمقها مرة ثانية لقد قصد قول هذا ليختبر انفعالها. قرأ تفاصيل جسدها ورأى كيف كانت يديها ترتعشان ووجهها منقبض بالخوف. رد عليها بصوت بارد: "سوف نحدد فيما بعد إن كان له علاقة أم لا". نظر للمفتش بعد ذلك وفهم ما يدور في ذهنه سريعاً. نهض معطياً أمراً بصوت هادئ: "كونتيسة آن، سوف تبقيين في ضيافتنا لبعض الوقت".

"مماذا؟" دب الهلع في صوتها ثم ثارت غاضبة: "لماذا سوف تبقى هنا؟".

أمسك سكود مرفقها برفق لكنها عاندة وسحبها ثم تراجع تصيح بحدة عليهم: "لا يمكنكم سجن! ألا تعرف من أكون؟".

أردف سكود ملولاً منها: "بلى، نعرف من تكونين تعالي معنا همدوء".

اضطر إلى إمساكها بقوة هو وغرلين ليأخذها بينما بقيت هي تصيح وتردد أنها بريئة. وقف المفتش بقرب تشارلز وسأله بهمس: "ما الذي تخطط له؟".

"أريد أن تتم مراقبة ليوناردو".

الفصل الثاني عشر

عند حلول المغيب. كان ليوناردو يبادر بالخروج من منزله، وبصحبتة فتى في الحادية عشرة، أمسك كتفه ومشيا بجوار بعضهما كأب وابنه.

داخل سيارة في الجهة المقابلة من الشارع تقف بشكل عريض، الستار المسدول على النافذة يغطي هوية من بداخلها، إلا أنه ازاح شيئاً يسيراً ليراقب به ليوناردو الذي ابتعد في طريق يعاكس وقوف السيارة.

ترجل بعد عدة دقائق وقال: "أبي، أبقى رجال الشرطة بعدين، لا أريده أن يشك بشيء".

- "سوف يبقون بالجوار لا تقلق إنهم متنكرين. كن حذراً".

ارجع تشارلز خصلات شعره الأمامية للوراء وسواها حتى يضع القبعة الدائرية السوداء على رأسه لتثبيتها، ثم مشى في ذات الطريق الذي سلكه ليو.

كان منحدرًا بعض الشيء غير معبد والتراب ممزوج بالثلج مكتلًا على جوانب أسوار خشبية، وعلى تلك الألواح الخشبية ملصقات مهترئة لجرائد وإعلانات وأشياء أخرى، خلف السور الخشي بعض المنازل التي طبع عليها اسم الفقر.

- "أخبرني، هل والدك يأخذ دواءه بشكل منتظم؟ ويل". سأل ليوون الصبي.

- "أجل، حتى أنه بدأ يزاول عمله، لقد أخبرني أن أشكرك إن رأيتك، لولا مساعدتك لما عاش أبي. شكرًا لك!". قالها بامتنان بالغ. ربت ليو على رأسه وابتسامة حانية على وجهه الأسمر الفاتح.

استمر تشارلز في تعقبه بمسافة آمنة وثلة من رجال الشرطة من ضمنهم سكود، كانوا متخفيين بأزياء مدنية يتبعون مسار سيره، سلكوا كل الأزقة التي سلكها، حتى وصلوا إلى شارع مفتوح يطل على الأسواق العامة حيث ضجة المدنيين وسيك من عربات الباعة والسيارات تزاحم الناس، وعلى بعد خمسمائة متر ميدان يتوسطه نافورة يزينها حصانٌ من الرخام الأسود. في الرصيف الذي يسير فيه تشارلز عن يساره تصطف مباني من القرميد الأحمر، لكن الطوابق الأخيرة تحوي محلات مختلفة ذات واجهات زجاجية.

في مرحلة ما تمكن ليوناردو من استشعار أمر ملاحقه، بفضل شاب غريب يرتدي معطفًا أخضرًا مرقعًا عند المرفقين بلون بني غامق ويرمي بقلنسوة المعطف على رأسه كما أنه يلثم نصف وجهه بقطعة قماش زرقاء ويحمل دلو طلاء. مر من محاذة ليوناردو مباشرة واحتك كتفه بكتفه الأيسر، حتى يتمكن من وضع قطعة ورقة صفراء صغيرة في راحة يساره جذبت انتباهه ليو.

ابتعد الشاب في حين فتح ليوناردو الورقة أثناء سيره ليجد مكتوبًا عليها عبارة مختصرة (أنت مراقب!)

ضم حاجبيه وضيق اتساع جفنيه، ثم التفت نصف التفاتة لجانب منكبه الأيمن وتطلع للوراء، رأى وجوه العامة لكنه لم يتمكن من معرفة أي واحد فيهم؛ فقد أخذ تشارلز حذره، توقف في الرصيف بقرب عمود إنارة وسمح لقلعة من الناس بتجاوزه، امرأتان وثلاثة رجال، ثم أمسك طرف القبعة ليخفضها قليلا أثناء طأطأت رأسه حتى يخفي ملامحه. قطع الشارع بعد أن مرت أمامه سيارة أجرة، تظاهر أنه يتجه إلى مجموعة رجال عند الرصيف المقابل. اثنان منهم كانا يدهنان جدارًا يخص متجر أحذية _الثاني هو صاحب المعطف الأخضر_ رمق تشارلز من زاوية عينيه اللتان تشبهان الشاهين، فرغم حدتهما كانتا مثقلتان برموش كثيفة وتلوحان مترهلتين، تقبع قزحيتين كلون لحاء البلوط داخلهما تبدوان شرسيتين متيقظتين لأمر تشارلز. مارس عمله في دهن الجدار بهدوء وثبات. أما الثالث كان جالسًا جلسة قرفصائية على قارعة الرصيف ويدخن، واثنان آخران يعملان في سد الفتحات في الجدران بالأسمنت. ألقى عليهم التحية في حين نظروا إليه بشكل غير مبالي.

رفع الرجل الجالس يده بوهن لإلقاء التحية، انتبه تشارلز على أن رباعيته مخلوعة وأن أسنانه شديدة الصفرة! مع ذلك حاول مجاراته، ازدرد ريقه وتصنع ابتسامة لبقة وراح يحادثه.

تابع ليو سيره بخطوات مسرعة وأخذ بيد ويل الذي استغرب انقلاب حالته. دخلا في زقاق بين مبنيين بطول ستين مترًا، ثم أمسك كتفيه وانحنى قليلا يحثه: "ويليام، أريدك أن تجري بسرعة من هذا الزقاق، اتفقنا؟".

- "لماذا؟".

- "لا شيء، فقط أفعل ما أقوله. هيا".

أوماً مستجيباً ثم انطلق يركض مبتعداً. اتجه ليوناردو إلى الناحية الأخرى ليراقب الشارع، تفحص الوجوه جيداً ثم وقعت عينيه على تشارلز الذي لا يزال يحدث الرجل الجالس ثم رآه يتجه نحو الزقاق. ما لم يكن تشارلز على دراية به، هو وجود شخص آخر يراقبه متوشحاً بمعطف بني داكن يقف أعلى البناية التي يقبع الزقاق أسفلها، جسده هزيل يتحرك فوق حافة السقف بخفة كالهر الماكر.

واصل تشارلز سيره حتى وصل إلى الزقاق وتفاجئ إذ لم يجد أمامه إلا غلساً يهيمن على طول الزقاق. بدأ بالسير حذرًا متيقظاً، وبعد عشرين خطوة، كأن نمراً انقض عليه من الخلف، طوق رقبتة بحبل متين شده بقسوة مسبباً اختناقاً غير محتمل، وفي لحظة من تلك الملحمة أحس تشارلز أن ثقل هذا الشخص أخفى من أن يكون رجلاً، بل استشعر بشيء يلاصق ظهره كالهلام الطري. استجمع قوته وتراجع للوراء بقصد صدم ظهر المهاجم الغادر بالجدار، سمع عندها صيحة قصيرة رقيقة الوتر. ارتخت يديه فتمكن تشارلز من الإفلات، لكن انقطاع الأكسجين اللحظي سبب له خللاً في التنفس. استغل المهاجم الفرصة ليخرج سكيناً من جيبه وهم بطعنه، تدارك تشارلز الموقف واستدار بسرعة ليمسك معصمه، لكن لم يدم هذا؛ رغم صغر جسده لاح أكثر رشاقة وليونة، سحب يده وكاد يركل رأس تشارلز بضربة من ساقه لكنه تراجع في اللحظة المناسبة. تراجع كل منهما مبتعداً، حينها تماماً لمح تشارلز بشكلٍ خاطف وشماً يشبه الطائر على رسغه، وخصلة داكنة الحمرة انفلتت من الجانب الأيسر لقلنسوة المعطف، مع ذلك صعّب عليه كشف وجهه بسبب القناع الأبيض. أخرج المهاجم سكيناً أخرى برق لون النصل وهم بطعنه إلا أن صفارة الشرطة حالت بينه وبين ذلك.

- "توقف عندك فوراً!" صرح صوت الشرطي وهو يشهر بمسدسه، مع ذلك إدراك المهاجم كان أسرع حيث صوب سكينه كالسهم ناحية الشرطي فأصاب كتفه اليمنى، بعدها لاذ بالفرار. جاء الضابط غرلين يلهث بوجهٍ شاحب، تفقد الشرطي الآخر ولم تكن إصابته بالغة، ثم هرع إلى تشارلز مسرعاً. أمسك كتفه الأيسر وسأله: "هل أنت بخير؟".

اكتفى بالإيماء بينما انحنى ظهره بمستوى الركوع وكلتا يديه على ركبتيه. التفت تشارلز إلى الشرطي ثم اتجه إليه وهو بالكاد يحافظ على استقامته. انحنى ناحيته يوجه بصره لسكينة التي انتزعها الشرطي من كتفه بعد أنين لحظي. ارتخى تشارلز على ركبته اليسرى ومد يده

للشرطي قاصدًا أن يسلمه السكينة، النصل قصير حاد له قبضة خشبية مبطنة بالجلد الذي نقش عليه طائر باللون الأحمر الداكن، أمعن تشارلز التحديق فيه والكثير من الأمور بل إنه عاجز عن تصنيف أفكاره الآن لقد سكن فقط ولم يبد أي ردة فعل ولو لا أن رثيته تزاولا عملية التنفس لحسبته تجمد كالصخرة.

عاد تشارلز إلى السيارة بصحبة أحد رجال الشرطة، يجر ساقيه بتعبٍ شديد، وعندما رآه المفتش الذي كان ينتظره على أحر من الجمر، هرع إليه وبالكاد كبت انفعاله حالما رأى وجه تشارلز، تلك الملامح لم يرها على وجهه منذ زمن... منذ أن رآه أول مرة شاردًا تائهًا في الشوارع، مظلم التقاسيم والاضطراب يغشاه بالكامل: "يا إلهي! هل أنت بخير؟".

- "نعم، نعم!". قال تشارلز ثم سقط على جانب الجدار وجلس يهدوء. لاحظ المفتش أن يساره تقبض على شيء، هو السكين ذاته إلا أن نصله من النوع الذي يطوى لتصبح قطعة من الجلد المزخرفة يقبض عليها بقوة، بدا متدهورًا وغير مستقر شيء ما بدأ ينكشف ولم يبدو بالنسبة له صحيحًا على الإطلاق.

- "لقد تعرض للهجوم من قبل أحدهم أثناء ملاحقة المشتبه ليوناردو براين". قال الشرطي.

- "هل أمسكتم به؟". هتف المفتش.

- "لا، لقد فر للأسف".

- "وليوناردو؟".

- "اختفى هو أيضا".

تقوقع تشارلز على نفسه حوط جسده بذراعيه كأنه يعاني نزلة برد، يحاول جاهدًا تهدئة الفوضى التي حلت كالإعصار في عقله وسببت انتفضت لكل ذكرياته المنسية. رغم ذلك بقي يرتعش ويطرف بمعدل متزايد يدل على انهياره التام، بعض الصور بدأت تصل إلى عقله بوضوح، اختلط الماضي بالواقع فإن صوت المفتش يزاحم تداخل الصور، والاصوات والضحكات التي بعقله وكأنما عانى لفترة من الزمن فقدانًا للذاكرة وبدأت الآن تعود إليه دفعة واحدة:

- "لماذا تظن أنه القاتل؟". سأله المفتش بينما جلس على ركبته اليسرى بتثاقل ووضع يده اليمنى على كتفه بهزه بقلق وخوف: "بني هل أنت بخير؟ أخبرني ما الذي يدور في ذهنك ما الذي تخفيه؟".

هذى بكلمة خافة: "الكاردينال الأحمر! إنهم هم! إنهم أحياء... لينهاستنغ... حانة آل بنجلي!.. هناك... هناك كان يجب أن نلتقي!" لاح أنه على وشك البكاء فعلاً. ومضت ذكرى لأيادي، ستة أيادي تعود لصبيبة في الثانية عشرة، أربعة منها تحمل وشم الطائر، والخامسة تحمل نقشا لجناح طائر غير مكتمل، أما الأخيرة فلم يكن عليها أي وشم!

الفصل الثالث عشر

عاد المفتش إلى مركز الشرطة، وأمر بجلب أن إلى حجرة الاستجواب. جلس مقابلها على الكرسي:

- "كونتيسة آن، حاليًا إني في حاجة ملحة لأن تزوديني بكل ما تعرفيه عن المدعو ليوناردو براين، بدون التكتم عن أي تفصيل". تكلم المفتش بلهجة رسمية جادة.

- "هو لا دخل له بشيء هو لا يعرفه حتى!". صاحت عليه باحتدام ثم أدارت وجهها ناحية النافذة.

- "لقد ذكرنا سابقًا، أثناء استجوابه، أن الكونت دانييل كان على اتفاقٍ معكما، يتزوجك حتى تخرجي من سلطة والدك ثم تنفصلي عنه لتمتكني من الهرب مع حبيبك، وكما يبدو فهو لم يفي بهذا الوعد، أليس كذلك؟".

أحمر وجهها من الغضب وازدردت ريقها متكتمة عن قول أي شيء. فقال المفتش محذرًا إياها: "السكوت ليس في صالحك، كونتيسة، المسدس عثر عليه بين حاجياتك".

- "لم أضعه". بقيت على عنادها تعرض عنه.

تلكم المفتش بضيق: "حسنًا، لا بأس. ستكون المسألة هكذا، تعاونتِ أنتِ وعشيقك لتخلص من الكونت، وسيتم اثبات ذلك لأن المسدس وجد بين حاجياتك، سوف نعتز على ليوناردو ونجعله يعترف".

وجهت بصرها نحوه في غضب عارم وهي تصبح: "هو لا دخل له، قلت لك لا دخل له! لقد كرهتُ دانييل وكنت مستعدة لقتله إن سنحت لي الفرصة". قالت بتهور وهي تهز كتفها: "لا أعلم ربما أكون فعلتها!".

غلظ صوت المفتش ومع ذلك لم يفقد رباطة جأشه والتي اكتسبها عن خبرة طويلة في هذا المجال: "أحترس! أتعرفين حجم الكلام الذي تدلين به، كونتيسة آن أوليغرس".

صمتت ولم تنطق بحرف بينما تشتتت عينيها في الأرجاء ولا يزال الخط الأحمر يتربع عند حدود جفنيها المثقلان بالوهن.

خرج المفتش بصحبة سكود وتحدث معه بلهجة سريعة: "حاول أن تبحث عن معلومة تخص جماعة تدع، الكاردينال الأحمر".

- "جماعة!"

- "نعم، ربما يكون عشيقها متورطاً مع عصابة ما".

- "أمرك!"

في تلك الأثناء عزل تشارلز نفسه داخل غرفته، متلحفًا بغطائه وكأنه يحيى نفسه من العالم الخارجي. إلى الآن هو لم يجد علاجًا لزعجة الخوف التي بداخله، لقد كره المجهول دائمًا لأنه يعلم علم اليقين، إن تكشف له فلا بد أن يحمل معه ضريبة من الحقائق ذات العيار الثقيل جدًا، وعليه أن يتحمل الأمر ككل مرة، لذا الاستمرار بتحقيق في هذه القضية بدأ يفتح له أبوابًا لقصة كان قد دفنها منذ خمسة عشر عامًا، لشيء كان يبكي متحسرًا عليه كلما ارتضى الليل وتمدد في الآفاق وقل صخب الأحياء من حوله، ليبقى وحيدًا مع ذكرى الموتى، إلى أن اعتاد تبليد المشاعر.

في المساء. قرعت فلورا باب شقته، ولكنه لم يفتح، حاولت مجددًا ولكن لم يتغير الوضع الصامت الريب. زفرت بسخطٍ شديد وقالت: "حسنًا، حسنًا! لا تنفجري ربما لم يعد بعد. نعم، نعم! كان سوف يفتح لي لو أنه موجود". هزت رأسها مبتسمة تحاول بصدق التمسك بالصبر، ولكن بعد ثانية تبدلت ملامحها المنشرحة لأخرى محبطة.

سارت في المروهي ترتدي قفازها الجلدي، ثم رفعت بصرها على وقع صوت أقدامٍ عجولة تصدح بقوة، لترى المفتش غريس وعلى تقاسيم وجهه تعابير تثير القلق. يمسك يديه خلف ظهره، ولا يطيق صبرًا حتى يصل إلى شقة المعني.

راقبته فلورا وهو يطرق الباب، لكن بلا استجابة.

- "عذرًا!" قالت فلورا: "لا أظن أنه في الشقة لقد قرعت الباب ولكن لم يفتحه".

- "هل أنتِ واثقة؟ هل رآه أحد يخرج؟".

- "لا أعلم، ولكن بإمكانك أن تسأل البواب، السيد هيرل".

نزل الاثنان للأسفل وقابلا السيد هيرل:

- "مرحبًا" قال المفتش: "أنا جوناثان غريس، جئت لأطمئن على تشارلز غرنالد وهو يقطن في هذا المبنى، ولكنه لا يفتح باب شقته. هل لمحته أثناء مغادرته؟".
- "نعم، نعم! عرفته. عاد قبل ساعتين تقريبًا ولم ينزل من هذا الدرج".
- أوماً المفتش: "هذا يعني أنه هنا".
- "ولكن لما لا يفتح الباب؟". قالت فلورا متعجبة.
- عاد المفتش لطابق الثاني وقف أمام الباب ثم قرع عليه بشكل أقوى هذه المرة وهو يقول: "تشارلز، افتح الباب، أعلم أنك في الداخل. علينا أن نتحدث، هيا افتح الباب!".
- بدت الدقائق كأنها دهر، قبل فتح تشارلز ليطل بوجهٍ شاحبٍ، وعينان منتفختان والخطوط المحمرة على جفنيه، حالته كحالة الشخص الذي أُبلغ بمرض عضال فراح يرثي ما تبقى من حياته في بؤس مرير..
- تهدد المفتش وقال: "هل تسمح لي بالدخول؟ هناك ما يجب أن نتحدث فيه".
- "لا أظن أنني صرت مفيدًا، تلك القضية أصعب من أن أحلها، اعذرنى!". قال تشارلز متهربًا، ثم هم بإغلاق الباب، لكن المفتش استهجن تصرفه، وضع قدمه ليحول بينه وبين إغلاق الباب مباشرة ثم هتف ساخطًا:
- "انتظر ماذا تحسب نفسك فاعلاً! لم أتي لتحدث في تلك القضية، جئت لأطمئن عليك. افتح هذا الباب يا ولد!".
- وقفت فلورا مدهوشة من فعله، لاح يائسًا وتعيسًا بطريقة لم تشهدا من قبل وهذا ما قرص قلبها: لأنها وبعد كل شيء ملزمة بالبقاء ضمن دائرة آخر من يعلم بما يحدث في حياة من تحب، ودون أن نخفي ذكر هذا الشيء فإنه حقًا ألمها وأغضبها..
- فتح الباب ثم تراجع، دخل المفتش مع فلورا لترى الشقة مقلوبة عن بكرة أبيها، يبدو أن نوبة غضب اجتاحتها فافرغها في قلب الطاولة ورمي كل الكتب من الرفوف، وكانت هنالك مزهية محطمة والكثير من الأشياء المبعثرة في كل مكان!
- "ما الذي جرى هنا؟". تمتت فلورا بدهشة رفعت حاجبها.

- "هل أنت بخير تشارلز؟". سأله المفتش بإلحاح يطالبه بالرد. لكنه ارتتم على الأريكة وأخفض بصره إلى أصابعه المتشابكة يعبث بها كالطفل الصغير، وكانت راحة يساره مجروحة وملفوفة بضماد أبيض.

- التفت المفتش إلى الأنسة كندل وخاطبه بلين: "من بعد إذنك يا بنتي، أيمكن أن تعدي قهوة؟".
 - "طبعًا، طبعًا! سوف أفعل". اتجهت للمطبخ فصعقت أيضًا عندما رأت بعض الصحن محطمة لشظايا: "يا إلهي! ماذا حصل؟ يستحيل أن يكون هذا من فعل تشارلز!"

جلس المفتش بجانبه وسأله بصوت رقيق حنون: "بني، تشارلز. أنت متضايق من شيء، يمكنني أن ألاحظ ذلك. بطريقة ما قضية موت الكونت فتحت علينا، أو بالأدق عليك بابًا حسبته أغلق منذ زمن. اسمع يا بني أعلم أن هذا صادم وربما الاستمرار في هذه القضية يدل على ما تخشاه، أنا لا أنكر ذلك... وفي الحقيقة أصبحت قلقًا... لأنك... لأنك لا تشاطرنني ما تفكر به. أنظر، دانييل هاربر كان في الثانية عشرة حينما غرق وظننت أنه فرق الحياة مع بقية رفاقك، والفتى الذي أنقذه الكونت جوزيف بنفس عمره" توقف قليلا ثم أخرج صورة من جيب صدرته وتابع: "حصلت على هذه الصورة من السيدة إغاردن. خذ ألقى نظرة على هذه الصورة التي تجمع الكونت جوزيف بذلك الصبي؛ أنت وحدك من يمكن أن يعرفه في ذلك الوقت".

أخذ الصور، وتأمل ذلك الصبي الواقف عن يمين الكونت جوزيف. صبي في الثانية عشرة، رغم أن الوجه واحد لكن الحالة والتغير الذياصاب دانييل بعد تبنيه، صنعت منه شخصًا وروحًا أكثر ابتهاج وغبطة، كان مبتسمًا مرتاح في تعابيره، مشدود الوجنتين ورفيع الحواجب متوسط الطول، لم تظهر الصورة ألوان الثياب ولا لون شعره الأشقر؛ فقد كانت تميل للبهوت، لكنها قطعت كل الشكوك وانتجت تأثيرًا بليغًا في نفسية تشارلز. ترقرت عينيه بالدموع، ثم تهدأ ليخمد نار الحسرة في صدره، أبعد عينيه عن الصورة.

سأل المفتش بصوت يغلب عليه الهمس: "إذن، هو نفسه؟".

أوما برأسه إيجابًا وكتلتا عينيه مغمضتان:

- "هو، هو ذاته.. أخبرتك... إنه هو دانييل إيمانويل هاربر. لا أحتاج للصور حتى أتأكد".

زفر المفتش ذاهلاً ثم تكلم قائلاً: "يا للقدر! هذا يعني أن هنالك احتمالاً كبيراً بأن يكون رفاقك الباقين على قيد الحياة أيضاً!"

تمتم تشارلز والشرود يتملك ملامحه: "أرجو أن يكونوا أمواتاً!"

قطب الرجل حاجبيه باستنكار لقوله:

- "ماذا؟"

- "هذا سيكون أرحم بالنسبة لي".

- "ما الذي تقصده؟"

صمت لفترة يحرق في السقف بعيون خاوية تقارب عيون النعسان، ثم تكلم بصوت متراخي مبحوح: "عشيق الكونتيسة، يملك شبةً بدانييل، شبةً حيرني. كان لدى دانييل توأم، لم يكنا متطابقين ولكنهما يشبهان بعضهما لحدٍ ما".

- "توأم! هتف المفتش بدهشة.

- "نعم، فرناند".

- "لحظة، لا تقل لي أنك تظن أن عشيق الكونتيسة ليوناردو، هو ذاته فرناند توأم دانييل الذي غرق برفقتكم قبل خمسة عشرة عاماً!" نطق المفتش مصعوقاً بشدة، وتوسعت عينيه الصغيرتان: "هذا جنون! إن كان كذلك فما الذي يجعلك تظن أن له علاقة في مقتل الكونت؟".

- "حينما قالت مدبرة المنزل أنها رأت الكونت دانييل وهو يصعد الدرج كانت مصرة على مشاهدتها له، لكن حارس البوابة لم يشهد عودة الكونت مطلقاً في تلك الليلة. كيف لمريض ربو أن يدخن؟ إنهما شخصيتان مختلفتان. شككت في إريك ولكن بعد محاولة قتله تساءلت ما سبب تعرض إريك لهذا الموقف؟ هل هو دبر ذلك حتى يخرج نفسه من دائرة الشبهة أم فعلاً هناك من يريد تصفية كل فرد من آل أوليغر. وحينما رأيت ليوناردو... حسناً، لنقل أنني استندت على افتراضي... لكنه... لكنه يشبه الكونت حقاً".

- "ولكن، نحن لا نملك دليلاً قاطعاً ملموساً يمكننا من إدانة المدعو ليوناردو، الشبه ورائحة الدخان لا يمكن أن تدينانه، هروبه هو السبب الوحيد الذي يدفعنا للبحث عنه الآن".

تهد المفتش بإرهاق من التفكير في شأن هذه المسألة المعقدة.

استطرد تشارلز بعد فترة من الصمت هو يغمض عينيه ويأخذ نفساً عميقاً:

"كان لدانييل حلم بأن يشكل أخوية تحت اسم، الكاردينال الأحمر. إنه نوع من الطيور يملك ريشاً أحمر دامي. استحوذت الفكرة على اعجاب دانييل وبدأ بتطبيقها... كنا ثلاثة ثم أصبحنا ستة. الشخص الذي هاجمني ترك خلفه سكيناً تحمل نقش طائر... وإن لم تخنّ عيني فقط لمحت على رسغه وشمًا يشبه وشي".

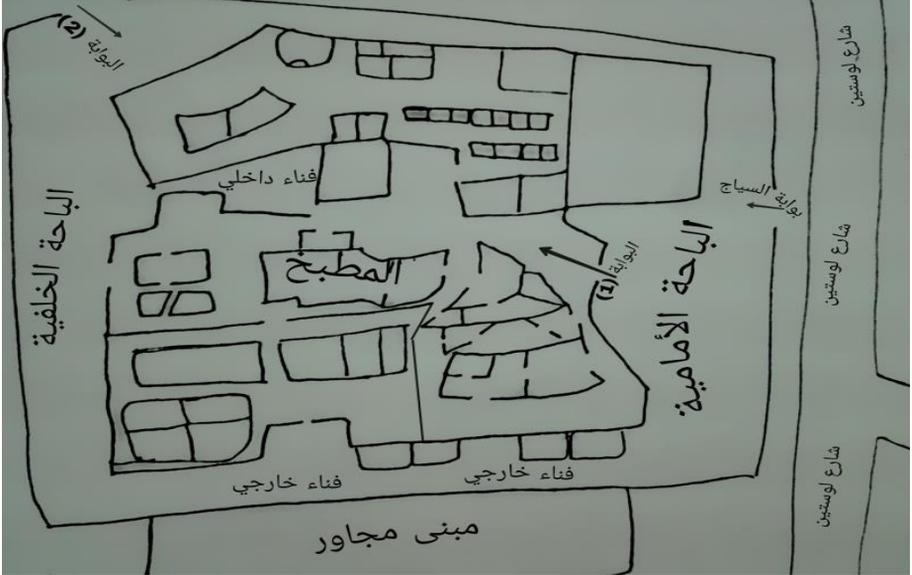
فكر السيد جون قليلاً ثم قال: "أعتقد أن هذه الجماعة اتسعت، وأن الكونت لقي حتفه على أيديهم؟ وإن كان كذلك ما السبب؟ مع ذلك هنالك تناقض في هذه المسألة يا بني، إن لم يكن الكونت يعلم بنجاتك أنت، فهل كان يعلم بنجات البقية؟ هل كان بينهم اتصال؟ وهل فعلاً كل رفاقك أحياء؟". تساءل المفتش جون بحيرة شديدة.

أجاب تشارلز بعد تهيدة طويلة وهو يفتح عينيه: "حانة آل بنجلي، هناك سوف نجد شيئاً يساندنا!"

ضاحية لينهاستغ، شارع لوستين الشرقي. المستودع رقم (٦) دخل المدعو فان إلى المستودع، فتح بوابة السياج الشبكي ثم سار في الباحة الأمامية حيث الأولاد الصغار يملأون المكان بالصخب فقد كانوا يلعبون الكريكيت بحماس ومن بينهم الصبي المدعو لويس. يمسك المضرب ويصد الكرات، وقد نجح بصدي ثلاث كرات والأخيرة صدها في حضور فان، طارت الكرة لناحيته فأمسكها بيمينه ثم نظر لصبية الذين يهتفون بعدم صبر "ارم الكرة! ارم الكرة!" ابتسم لويس وهو يلوح له يطالبُ بإرجاع الكرة. ربما فان براءة وخفة فقفز أحد الأولاد كالأنرب ليلتقطها وسرُّ بنجاحه في إمساكها حتى أنه بدأ يهتف بانفعال: "تمكنت من التقاطها! التقطت الكرة!" ضحك فان ثم تابع مسيره.

وصل إلى البوابة الأمامية، كانت كبيرة من الخشب المدهون باللون الأحمر وفي مصرع الباب الأيمن ما يشبه باب مصغري يسعى لدخول شخص بالغ. وكان هذا المستودع أقرب إلى ملجأ، من ثلاث طوابق، كل طابق به غرف يقطن فيها بعض من النساء الأرامل بأطفالهن، وشبان في منتصف العشرين وما يزيد عن ذلك. والطابق الأخير مكتظ بالأصوات النسائية الثرثرة إذ أن المطبخ كان في أقصى اليسار له مدخل واحد كبير لحدٍ ما ورائحة الأطعمة التي تعدها النساء تفوح بشكل مهيم على المكان كما لو أنه في بيت كبير يجمعهم. بعد المطبخ كان هناك بهو

يفضي لممرين شبه مظلمين، وفي أقصى الغرب درج من الخشب له دريزون طويل من جهة واحدة، أما الجهة الآخر فلم يكن لها دريزون لأن الدرجات ملتصقة بالجدار. أسفل الدرج بعد عشر خطوات مخرج يقود للفناء الداخلي وبعض الشبان مجتمعين هناك، بقرب بعضهم يشكلون دائرة مغلقة كأنما هم في نقاش مصيريّ وبقربهم بقليل برميل من الحديد أُشعل فيه نيران باستعمال الخشب والفحم.



من نافذة المطبخ الداخلية المطلة على الجو، لمحت السيدة كاترين دخول فان. توقفت عن محادثة النساء وأشارت لفتاة بعمر السابعة عشرة حتى تكمل تقليب الحساء عنها. مسحت يديها بالمريلة التي تلفها حول خصرها النحيل المنحوت بتناسق، أسرعته تعبر المدخل لتوقف فان قبل أن يتجه ناحية أولئك الشبان، نادته بصوت رقيق: "فان". التفت ناحيتها واقف مسيره ليعيرها اهتمامه. تقدمت وهي تقول: "لم أرك هذا الأسبوع، أين تختفي؟".

ابتسم بلطف وفي ابتسامته ما يوحي بالغموض رغم ملامحه المتسامحة المنشرحة، إذا رأيتَه في الطريق مصادفةً وابتسم لك لحسبته قديماً في إحدى الكنائس! وذلك لا ينفي وجود ظلمة محيرة تششت في هالة حضوره.

- "لا شيء، إنما كانت هنالك مسائل أفضيها. كيف حالك أنت؟ أحتاجن لشيء؟".

هزت رأسها بالنفي وهي تجيب: "لا، إلى الآن الوضع جيد. السيد أمارند أخبرني أنه سيتكفل بجلب قطع ثياب جديدة للأولاد الجدد. حاولت التحدث معهم لليلة الماضية، لكنني أظن أنهم يحتاجون لبعض الوقت، حياة الشارع القاسية لم تفارق مخيلتهم بعد، وتخطي ذلك يحتاج وقت كما تعلم".

لاح شاردًا يناظر الأرض في تفكير عميق ولم يخرج من ذلك سوى صوت كائرين والتي تكلمت بعد أن رمقت الشبان الواقفين في البعيد بتوجس وودت لو تعرف عما يتحدثون حتى أنها تريتت ولم تتكلم مباشرة بما يدور في ذهنها. لقد تنبه واحد من أولئك الشبان لأمر وصول فان. وهو ذات الشاب ذو المعطف الأخضر المرقع عند المرفقين بلون بني. ألقى السيجارة ثم داسها ليطفأها. تحرك بعدها ودخل الجهو ليلقي التحية وخلفه البقية: "مساء الخير، زعيم!" ابتسم مومئاً ورد: "مساء الخير، إلیا سوف أحدثك في مسألة معينة انتظرنني في الحانة" أوماً له ثم غادر. عندئذ قالت كائرين بانزعاج: "فان، أشعر بشيء ما يحدث وأنا لا علم لي به، أكل شيء يجري على العادة أم أن هناك خطبًا ما وجميعكم تهربون من إبلاغي! أليست فردًا منكم؟".

وضع يده بلطف على وجهها الضعيف الجميل وهمس برقة ليطمئنها: "لبي، لا شيء غير صائب يحدث، أخبرتكم إنها محض مسائل في العمل. هيا سوف أذهب لأطمئن على الأطفال" أنزل يمينه وقبل أن يخطو سألها: "ألم يحضر ريتش؟".

- "لا، إنه يختفي كثيرًا هذه الأيام أيضا. بالأمس عاد متأخرًا، وبلا شك كان يتعمد التهرب من أسئلتي... لقد اكتفيت من أعداره كلما سألته سؤالًا يتحجج بالتعب والإرهاق ويأجل الحديث للغد!" قالت كائرين باستياء جعل الدماء تصعد لوجنتها.

- "لا بأس، حالما يأتي للمنزل أخبره أنني أريد الحديث إليه سأكون في الحانة".

- "حسنًا".

تركها بعد ذلك وصعد للأعلى، أمسكت على ذلك القلق بداخلها ولم تفكر بالاقتناع بكلامه أحسبها يقنعها بأن خطبًا ما يجري... تهتدت بإحباط كلل وجهها المرهق بسنوات من المعاناة تركت بصمتها في جسدها الهزيل. رفعت ساعدها ونظرت لرسغها ثم ابتسمت وكأنها تسترجع ذكريات أيقظت بسمة طفيفة على ملامحها، خالط تلك البسمة حسرة واضحة، إنها ترمق وشمًا جميل حول رسغها الأيمن كأنه سوار رفيع في منتصفه طائر جميل يفرد جناحيه وأسفله تمام بتلات زهرة مزخرفة.

خرجت الأنسة كنديل من المطبخ بعد أن بذلت مجهودًا في تنظيفه، تحمل فنجان قهوة. توقفت بقرب الجدار الأيمن مترددة في إكمال مسيرها نحو الردهة. استمعت إلى بعض من أحاديثها وأحست بشيء من الانقباض والقلق بسبب تلك القضية التي تستزفهم جميعا بالأخص تشارلز. أغمضت عينها ثم تهتدت ودفعت نفسها نحو الردهة بابتسامة لبقة: "أعددت القهوة".

التفت الاثنان نحوها. أوماً المفتش شاكراً بينما تشارلز كان يتأملها ولاح متزعجاً من نفسه: لقد نسي ما بينهما ولم يكلف نفسه عناء التذكر وانغمس في هذه القضية. أخفض بصره وسرح في صميت مطبق، لكن ردة فعله جعلت فلورا ترتبك: فقد ظنت أنه غير راغب بالحديث في وجودها.

"ح حسناً، سوف أترككما!" قالت ذلك ثم نهضت من الأريكة. عادة للمطبخ وأخذت معطفها وحقيبتها لاحت ملامح الخيبة واضحة على وجهها حتى أنها رغبت في البكاء، مرت من خلال الردهة وودعتها بابتسامة طفيفة ثم خرجت بهدوء. تطلع المفتش لشارلز ولاحظ شروده فسأله: "ما بك؟".

هز رأسه للسيار واليمن ثم أجاب بصوت فاتر: "لا شيء!"

تأمل السيد جون ملامحه وقراء فيه احباط يثير حزنه. تهتد ثم همس بركة: "هل هذه هي الأنسة التي تحدثت عنها والدتك؟".

رفع بصره إليه مجيباً: "أها... إنها جارتني".

همهم السيد جون لبعض الوقت يفكر وهو يمسد لحيته ببطء ثم تأمل عيني تشارلز اللتان لاحتا محتارتين فقد تساءل في داخله ما الذي يفكر فيه السيد جونان.

"حسنا، إن ما قالته ريسا صحيح، إنها امرأة جميلة حقا!"

مد تشارلز بسمه طفيفة وخفض رأسه بدا مرهقا على الضحك حتى، ثم بعد صمت وجيز نطق بصوت ضعيف بأُس: "إنها جميلة فعلا... ولكن... أشعر أنه من الخطأ أن تكون معي".

"ما هذا الكلام يا ولدي!" صاح عليه مستنكراً قوله: "ليس هناك شيء يدفعك لقول هذا، أنت لست ناقصا أو معتلا عقليا حتى يكون من الخطأ البقاء معك".

أخفض تشارلز عينيه يحدق بأصابع يديه لاح مكتئبا جدا، مكتئبا بطريقة لم يفهمها السيد جون، قال حائر: "ما الشيء الذي يضيق صدرك يا بني؟".

"إنها تأمل مني أن احييها على طلبها". همس تشارلز

"أي طلب؟"

"إنها... لقد اعترفت لي بمشاعرها ولكنني... جيان!... أخشى أن أقبل بها" لمح السيد جون خجله الذي أجبره على طأطأت رأسه إنهخيرٌ في فهم تصرفات تشارلز؛ فإذا عجز حتى عن رفع بصره لمقابلة من أمامه فهذا دليلٌ على تردده وعجزه عن التحمل، ابتسم سعيداً لأن هذه الطباع لم تتغير في شخصيته، ثم تهجد بعمق شديد ونظر إلى الأمام قائلا: "ما الذي يدفعك لقول ذلك يا بني؟".

رد بصوت مخنوق يكاد يختفي بين أوتاره المهزوزة المترددة بسبب مخاوفه التي احكمت عليها دائما: "هذا واضح! لست واثقا من قدرت على أن أكون زوجا جيدا لها... ماذا إن أصبحت مثله في يوما ما..."

قاطعه بصوت مال إلى العتاب: "لماذا تفكر بهذه الطريقة يا تشارلز! كم مرة أخبرتك ليس عليك أن تضع افتراضات تعيقك عن التقدم... لا تستطيع أن تجزم بشكل قاطع أنك قد تكون سيئا مثل والدك السابق". وضع راحة يمينه على رأسه المنكس بالهم المضني، ربت عليها كما لو كان يربت على رأس طفل صغير ثم همس بحنان له: "يا بني الأفكار السوداء هي التي تجعلك سيئا، ارم الماضي خلفك وركز على المستقبل".

- "لا يمكنني اتخاذ قرار" هز رأسه يائسا بضيق شديد: "لا، لا يمكنني اتخاذ أي قرار قبل أن أعرف من قتل دانييل... قبل أن أتأكد هل الكاردينالات أحياء أم أن كل استنتاجاتي ضربت من الخيال".

- "وما الذي سوف تفعله لو ظهر أنهم أحياء فعلا؟" سؤاله جعل تشارلز يرفع رأسه ببطء ويوجه ناظريه بشتات تام لعيني السيد جون، تتمم قائلا: "لا أدري!".

- "أنت تعتقد أن ليوناردو هو رفيقك القديم توأم دانييل بسبب الشبه بينهما... أتعي حجم الكارثة إن كانت افتراضاتك صحيحة يا بني... هل ستكون مستعدا لتقبل ذلك؟"

لم يجب بشيء وظل شاردا مذعورا من هذا السؤال. نهض السيد جونان بتكلف من على الأريكة ثم خاطبه: "اسمعي يا بني، ابقى بعيدا عن هذه القضية لفترة ريثما نتحقق من كل شيء".

"ماذا! كلا، سوف أظل برفقتك!" اعترض تشارلز مباشرة، فأردف السيد جونان حازما في أمره: "تشارلز، أستمع لما أقوله! لا تقلق، أعدك أنني لن أخفي شيئا عنك، طالما نتأكد من الأمر سوف أتصل عليك. لقد لاحظت أنك تهمل عملك منذ بداية هذه القضية لذا أعد تركيزك عليه واذهب إلى الأكاديمية. مفهوم؟".

أزاح تشارلز بصره لزاوية الأرض في مضضٍ وزفر خاضعا يحترم رغبته.

الفصل الرابع عشر

في صباح اليوم التالي، عقد المفتش اجتماعاً في مكتبه وابتدأ في إطلاع سكود وبقية الضباط المعاينة ومعرفة الطريقة الأنسب حتى يتم فيه الإمساك باليوناردو براين. لكن، عندما أبلغهم المفتش عن استنتاجات تشارلز علق سكود مستغرباً: "هذا يبدو ضرباً من خيال! يمكن أن يكون عشيق الكونتيسة هو المشتبه الوحيد حالياً بسبب هروبه، ولكن هذا لا يمكننا من أن نثبت أنه توأم الكونت دانييل الذي غرق قبل خمسة عشر عاماً!".

أجاب عليه المفتش: "قد نتمكن من إثبات ذلك. لكنها ليست قضيتنا الأهم. ظهور الشخص الذي هجم على تشارلز تزامن مع المراقبة التي كنا نجره على ليوناردو" أخفض المفتش بصره إلى السكين الموضوع داخل كيس بلاستيكي فوق مكتبه، ثم أردف وهو يحمله مشيراً إلى شكل الطائر المنقوش على المقبض: "هذا النقش يشبه نفس الوشم الذي على رسغ تشارلز. لكن، هذا قد لا يكفي لإثبات وجود كيانٍ كامل لجماعة تدعى الكاردينال الأحمر. ستقولون هذا الآن. مع هذا هنالك نقطة تنهت لها، تم الهجوم على إريك أوليغرس لأسبابٍ نجهلها، ثم على تشارلز أثناء تتبع ليوناردو. ما أنا متفاجئٌ منه، كيف تم الكشف عن ملاحظتنا له؟ كل هذا يجعلني أثق أن هنالك أشخاصاً خلف الظلال يتحركون بشكلٍ مدروس حتى لا يتركوا دليلاً خلفهم، وربما يراقبون تحركاتنا لذا علينا أن نكون أكثر حذراً".

وقف الرجال ينصتون باهتمام لتحليل المفتش، وخنع سكود مقتنعاً بما قاله تقريباً. سأل الضابط غرلين: "إذن كيف سوف نتمكن من إيجاد خيطٍ يدلنا على موقعهم؟ لقد أفلت ليوناردو من قبضتنا".

تهمد المفتش تارگاً الكيس البلاستيكي بروية على الطاولة، كانت لحيته تلمس طرف ربطة عنقه السوداء من شدة انحناء رأسه في تفكيرٍ جاد وقد تذكر ما قاله تشارلز فيما يخص حانة آل بنجلي. رفع بصره نحوهم ثم تكلم: "سكود أنت خذ معك مجموعة من الرجال، أريدك أن تتوغل في ضاحية لينهاستنغ وتبحث عن أي معلومة تخص تلك الجماعة. غرلين، أريدك أن تبحث عن حانة باسم آل بنجلي، راقب تلك الحانة بدون أن تثير الشبهات: أعتقد أن أنها قد تدلنا على شيء. المدعو ليوناردو ذكر أثناء استجوابه أنه يعمل في حانة لكنه لم يذكر اسمها.

أيضا، أريدك أن تجلب لي معلومات تخص الأشخاص العاملين في حانة آل بنجلي. يجب أن نجد الحل لهذه القضية بأي ثمن!".

أدى جميع الرجال تحية التبجيل المتوارثة بين أفراد الشرطة وهتفوا بصوت جهوري "علم، سيدي!".

منذ انفلاج الفجر وبزوغ الشمس وإلى الساعة التاسعة صباحًا، ظل تشارلز منفذًا لوصية السيد جوناثان إذ لم يخرج من شقته واعتكف جالسًا على عتبة النافذة يراقب سير الحياة في الشارع، يبدو خاملاً بالكامل حتى القهوة التي أعدها لم يذق منها رشفة واحدة وتركها كم هي بجواره على العتبة. أخذ نفسًا عميقًا ثم انتفض من مكانه يصيح: "لا يمكنني البقاء ساكنًا هكذا! سأجن من التفكير!".

أخذ معطفه من على الأريكة وأسرع نحو الباب وهو يرتديه، أمسك المقبض وهم بفتحه، لكن، توقف عندما سمع صوت امرأتين في الرواق، تعرف على صوت واحدة منهما وهي فلورا.

"فلورا، عليك أن تعلني أن أبي ليس ذو صبر يمتد إلى الأبد! إن لم يأتي ذلك الشاب لخطبتك كما تجري العادة والدي سوف يشك بكلامك وسوف تقبلين في نهاية وتزوجين من ابن العمه جودي".

جاء صوت فلورا الشبه خافت والهامس مستاءً من حديثها: "بيتر، هل جئت لزيارتي أم لزيادة بؤسي بالضبط؟".

"جئت حتى أخرجك من هذه الشقة التي تسجنين نفسك فيها على أمل مصادفة فارس أحلامك كلما غادرت" ضحكت برقة بعد ما قالته وخاصة حينما أحست بالغیظ كالهالة يحوم حول فلورا. أخذت بذراعها تواسيها بلطف: "هيا لا داعي لهذا التجهم! أحاول إضحاك. اليوم كله سوف تقضينه معي". قالت شقيقتها الصغرى بيترا كنديل والتي قررت مفاجئة فلورا في زيارة صباحية لتجارتها من شقتها. كانت امرأة حسنة الملامح بيضاء كالبن، بنفس طول شقيقتها لكنها ضعيفة البدن نحيلة الوجه ولها شعرٌ بني كراميلٍ خفيف كخفة سيقان الشعير ترفعه للأعلى، ولها أيضًا غرة مستقيمة تغطي جبينها، عينها عسلتين نضرتين. لقد وقفت تحادث شقيقتها

بينما تغلق باب الشقة، فتمكن تشارلز من الاستماع لهما، ظل واقفاً خلف الباب يعتصر المقبض.

- "هل يعيش في هذه الشقة" سألت بيترا وهي تقف أمام باب شقته تمامًا وقد رآها من المنظار المخروم في منتصف الباب.

- "أجل".

- "هل أقرع الباب لأرى إن كان موجودًا، حتى أعاتبه لأنه يهملك!" قالت بيترا بطرافة لكنها لم تنجح في اضحاكها بل رمقتها بامتعاض ثم قالت: "تحرك! هو لا يبقى حتى هذه الساعة في شقته"

هتفت بيترا باندهاش: "واو، أنت تعرفين متى يخرج ومتى يعود! فلورا أنت مثابرة حقًا!".

زفرت ساخطة ثم هزت رأسها مستسلمة منها وسارت في الرواق. ترك تشارلز مقبض الباب ببطء وأخفض ذراعه ثم تنهد وهو ينظر إلى موضع قدميه. "ماذا ينبغي لي أن أفعل؟" سأل تشارلز نفسه بحيرة شديدة: "أنا حقًا لم أضع فلورا في بالي ولو لدقيقة منذ أن بدأت هذه القضية. لا أشعر أنني قادرٌ على اتخاذ أي قرار... ولا يمكنني تركها هكذا. إنها لا تستحق هذا مني!" رفع رأسه وأغمض عينيه أثناء استنشاقه قدرًا كبيرًا من الهواء ملئ صدره ثم أزر ببطء وأخفض منكبيه. ليست إلا دقيقة واحدة حتى انهارت فيه جدران مستقبله أمام الماضي إذ تراءى له صورة لطفلة ذات خصال حمراء طويلة تمسك وردة برية صفراء، في السابق كانت ملامحها مهمة، لكن الآن تذكر تفاصيل وجهها بالكامل. جميلة بعينين تشعان زرقاء. جثم تشارلز على ركبتيه ثم اتكأ بظهره على الباب واضعًا كلتا يديه فوق رأسه، متألمًا من التفكير، مع ذلك لم تشفق عليه ذاكرته واستمرت في إظهار تلك المقتطفات السريعة حين ملاحقة ليوناردو، ثم هجوم ذلك الشخص المقنع... تذكر تلك الخصلات الحمراء التي طارت من جانب قلنسوة المعطف آنذاك... لاح مفزوعًا للغاية ويتمتم

- "ما الذي سوف أفعله لو كانت على قيد الحياة! كيف سوف أختار؟... لا، لا، لا... ماذا إن كنت مخطئ؟ فالاننتين... أريدها أن تكون حقيقة... أريد لكل ما أشك به أن يكون حقيقة... أن يكونوا جميعًا أحياء، لا يمكن لأي أحد أين يعرف بشأن الكاردينال وذلك والشم سوانا... يا إلهي!

سوف أجن!...! شد على خصال شعره بقوة وأرخ جبينه إلى ركبتيه هامسًا ببؤس فظيع: "من الذي قتل هاري؟ من؟".

عند اكتمال الليل توغلت فرقة من أفراد الشرطة، وتفرقت في الأحياء الفقيرة، تحديدًا في محيط ضاحية لينهاستنج. البعض مالوا إلى ارتداء ثياب كالمدينين لأجل التمويه، ومنهم سكود. توقف عند مجموعة من الرجال يشربون البيرة ويدخنون بالقرب من برميل حديدى مشتعل بالنار ووقوده الكراتين والأخشاب، يدفؤون أنفسهم بلهيبه المتوهج

- "مرحبًا يا رجال!" قال سكود بتحية ارتجالية حارة: "أيمكن أن أطرح عليكم سؤالًا؟".

رد عليه واحد منهم، يمسك بيرة في يده ومعطفه مهترئ -ربما لم يغيره منذ سنة- وقبعة تعطي شعره الأشعث، شعر ذقنه غير مهذب، إضافة لوجود بثرة كبيرة أسفل خده، ورغم الحالة العصية التي هو بها لاح مقتنعًا ومتمتعًا بشرب البيرة.

- "نعم، تفضل!"

- "سمعت عن جماعة تدعى الكاردينال الأحمر - أو شيء من هذا القبيل، قوية تحكم في هذا الجزء من الحي بقبضة من حديد. لقد أغرتني هذه الأشاعات للبحث عنهم! هل هذا صحيح؟" تكلم سكود بلهجة تميل إلى التفضيم وأنزل من مستواه ليبدو كالعامة تمامًا بتلك الثياب البالية التي ارتداها.

نظر الرجل الذي يحمل البيرة إلى رفاقه وعيون الشك تتراسل بينهم. كان من بين أولئك الرجال شاب في مقتبل العشرين -إليا- كان جالسًا يمد ساقيه بارتياح ويتكئ على صندوق خشبي خلف ظهره، بقربه زجاجة بيرة كبيرة. كان يقضم في أظافره أثناء قوله: "أنت! أتصدق كل إشاعة تسمعها!" حالما خرج صوته الهائز التفتت جميع رؤوس نحو مباشرة، نظراته تبعث الشعاعية حادة كالنسر. نهض بتمايل وهو يحمل زجاجته، ثم مشى نحو سكود قائلاً: "مرحبًا، أدعى روني بالبار وأنا أدير منتجًا سياحي! أتصدق هذه الشائعة؟ أعني أيمكن أن تصدق لو أخبروك أن شخصًا يقطن في لينهاستنج يملك منتجًا سياحي؟" ثم رح يتمايل في ضحك هستيري، التفت نحو رفاقه وأشار لهم: "أتصدقون هذا؟".

قهقه بعضهم بينما هز صاحب البثرة رأسه قائلاً: "يبدو أنك ثملة جدًا يا صديقي العزيز!"

- "أغلق فمك!" لوح بيده بشكل بليد ثم استدار إلى سكود وحملق في وجهه لدقيقتين مما أربك سكود ودون أن يشعر مالت عينيه للأسفل نحو رسغه، وانتبه أنه لا يضع وشماً لا في يده اليمنى ولا اليسرى. سأل إليها مباشرة: "لا تبدو مألوفاً لي، هل أنت من هذه الضاحية؟".

- "هاه، لا، لا! انتقلت حديثاً إلى هنا. للأسف حظي في الحياة سيءً للغاية!" رد سكود وهو يضحك كالأبله.

- "لا عليك، لا أحد يملك حظاً جيداً على أية حال. ما هو اسمك؟".

جاءت استجابات سكود مع رجة متحمسة: "ألبرت، ألبرت نوتنج".

أوماً إليها ثم تمت بصوت يفوح بالريبة: "إذن يا سيد نوتنج، آسف... حقاً آسف! لكن هنالك الملايين من الإشاعات تنتشر كالذباب المزعج!... لذا لا يمكنني أن أجيب على سؤالك السابق" شرب من زجاجته حتى امتلأ ثم ربت على كتف سكود وكم بغض رائحة الكحول الشديدة التي تفوح من فمه وهو يقول: "مع السلامة!".

تمتم سكود: "تباً لك!". إلا أنه ثابر في إظهار بسملة بلهاء على وجهه أمامهم. رآهم قذرين، ولم يتحمل الابتسام في وجههم، فقد ظنهم _لولا سلامة عينيه _ كالبومة في تلك الجلسة الدائرية حول البرميل يرمقونه بفضول شره واحتراس واضح. أوماً سكود لهم ثم استدار وغادر.

في الصباح داخل مكتب المفتش، وقف سكود يبلغ السيد جونانان بمستجدات التحقيق، رغم أن الأمور تبدو راكدة بشكل بغيض بالنسبة له.

- "ألم تتمكن من معرفة ذلك الشاب حتى؟". علق المفتش سائلاً.

- "لم يصح باسمه، لكنني على ثقة بأنه منهم فقد كان مريباً للغاية، ليس هو وحده جميعهم يبدوون مثيرين للريبة. لكن المشكلة أن تلك العلامة لم تكن على رسغه. يبدو بأن لا أحد يضع تلك العلامة إلا إن كان قريباً منهم، وهو لم يكن يضعها".

- "ربما يكون نقشها في مكان آخر، هذه ليست المشكلة".

- "معك حق".

تهد المفتش وهو يراقب نافذة مكتبه، ثم استطرد: "أما زالت الكونتيسة ترفض التصريح بشيء؟".

- "نعم".
- "هل أبلغتها أنها سوف تظل في الزنزانة إن لم تتعاون؟ وأن سكوتها يدل على أنها مشاركة في جريمة قتل".
- "نعم، ولكنها عنيدة. من الواضح أنها متورطة مع عشيقها في شيء ما ولهذا لا تريد الكشف عن مكانه".
- "مكانه!". تتمم المفتش وهو شارد في زجاج النافذة الذي اختزل رطوبة الجو فشكل غشاءً ضبابياً، وانزلقت قطرات المطر الباردة عليها.
- انتبه سكود على حاله السارحة فسأله: "هل أنت بخير؟".
- تنهد بقوة وبعدها أصلح جلسته المائلة وأجاب: "نعم، كن حذرًا وأنت تبحث عنهم لا تثر الشبهات".
- "لا عليك هذا عملي". رد بثقة.

- في المساء، كان شارع لورانس يتغطى بظلال الغيوم المحمرة الزاهية، ونوافذ المحلات الزجاجية عاكسة شكل السحاب المتفرق. في نهاية الشارع وقبل الانعطاف للجهة اليمنى. كان هناك الباب مجوفٌ داخل الجدار مرتفعٌ له خمسة درجات. الأضواء الساطعة تتوهج من الزجاج الذي يتوسط الباب، ضجيج السكارى يخترق جدران الحانة، الضحكات المعرودة والصحبات الساخطة. وقف غرلين في بداية الشارع يسأل أحد العامة عن موقع الحانة.
- "حانة آل بنجلي!" همهم الرجل الذي سئل يفكر ثم قال وهو يشير إلى لافتة متوسطة الحجم في نهاية الشارع كتب عليها حانة، ألمارند :
- "أعتقد أنك تسأل عن تلك الحانة. فيما سبق كان اسمها حانة آل بنجلي ولكن بعد موت صاحبها اشتراها شخصٌ آخر وتم تغيير اسمها".
- أوماً غرلين شاكراً ثم اتجه إليها، وقف في نهاية الدرجات يتطلع إلى الباب الخشبي، أخذ نفساً عميقاً ثم صعد ودفع الباب فأصدرت الأجراس المعلقة في أعلاه صوتاً تردد في المكان لكن الصخب كان أعلى، وروائح الكحول تملأ كل زاوية، هناك ما يبدو كالضباب الرقيق يسبح مع نور المصابيح المعلقة في السقف، أغلب الرجال كانوا بالفعل يدخلون. أجر غرلين مسحاً

سريعة على المكان ورأى الرجال منهم من يقامر ومنهم من يشرب وينخرط في الأحاديث الجماعية، بينما كؤوس الشارب توزع من قبل الفتيات. ثم نظر إلى الساقى اتجه نحوه وجلس على الكرسي. ابتسم له الساقى والذي كان رولد، ألقى التحية ثم سأله: "ما هو شرايك؟".

- "أيُّ شيء لا يسبب الثمالة بشكل مفرط".

مد رولد بسمه جانبية أثناء مسحه كأسًا زجاجيًا بالمنديل، ثم قال: "أتساءل حيال مدى صعوبة حياتك التي تدفعك للمجيء إلى هنا حتى تشرب شيئًا لا يقودك لثمالة!".

أردف غرلين بطرافة وهو يلوح بيمينه: "حسنًا، كما تعلم، حينما تكون موظفًا تعيّسًا عليك أن تحرص على عدم الإفراط في الشرب حتى تستيقظ في الصباح وتركض كالمجنون إلى عملك!" استضحك رولد بتكلف وهو يضع الكأس جانبًا ثم التفت نحو أرفف الكحول. كان هنالك الكثير من أنواع المشروبات الموضوعة في الأرفف. أخذ واحدة من الزجاجات ثم فتحها ووضع كأس صغيرة الحجم أمام غرلين وسكب له

- "تفضل، أرجو أنك تملك مقاومة اتجاه المشروبات فهذه أكثر الأنواع الخفيفة هنا".

ضحك غرلين ثم حمل الكأس وارتشف منه القليل، ثم عم صمت وجيز، راقب فيه رولد وهو يلب طلبًا لزبونٍ آخر وحينما ذهب ذلك حاملاً كأسًا مملوءة بالبيرة. أخذ رشفة من كأسه ثم ابتدر يحادثه واتفق في جعل صوته يعبق بالشجون: "كنت أت إلى هذه الحانة فيما مضى كان المكان يعج بالنشاط، ولكنني كنت أحب المجيء إلى هنا كثيرًا مع رفاق نشرب ونفقد عقولنا بالكامل كما أن صاحب الحانة كان صديقًا عزيزًا علي. ولكن بعد فترة طويلة توقفت عن المجيء بسبب انتقالي إلى منطقة أخرى، واليوم قررت المجيء إلى هنا حتى أستعيد ذكريات الماضي، لكنني تهت حتى تمكنت من العثور على المكان، حتى أخبرني أحد العامة أنه تم تغيير اسم الحانة بعدما اشتراها شخص آخر ودلني عليها".

- "هذا صحيح، لقد غير اسمها" هز رولد رأسه متماشيًا معه.

- "لماذا؟ ماذا حصل لصاحب الحانة السابق؟ كان رجلًا رائعًا ويجب هذا المكان كثيرًا!" سأل غرلين يدعى والجهل.

- "ما أعرفه أنه مات خلال عراكٍ مع أحد رجال الشرطة ثم أغلقت الحانة وتم شراؤها لاحقًا من قبل رجلٍ آخر" أجابه بينما مد غرلين كأسه الفارغة حتى يصب له المزيد، تتمم بعدها وهو

يخفض رأسه بتأثيرٍ بليغ: "آه هذا مؤسفٌ حقًا!" ثم أضاف بشيءٍ من الدهول المصطنع: "ما الذي دفعه للدخل في عراكٍ مع رجال الشرطة؟"

- "من يدري". ناظره رولد بطرف عينيه وهو ويقول ذلك وكأنه يتحر الصدق في ملامحه.

- "ومن الذي أصبح يملك هذه الحانة الآن؟".

- "السيد جاليليو ألمارند".

هز غرلين رأسه ثم شرد يفكر بعد ذلك تطلع إلى عيني رولد اللتان لاحتا هادتين للغاية ومربكتين، أخفض بصره إلى كأسه ساثلاً: "هل أنت ابن صاحب الحانة اذن؟ تبدو شابًا يافعًا".

- "كلا" أجاب باقتضاب وهو يحك أسفل جفنه الأيسر وتحتمًا بقليل شامة سوداء. لاحظ غرلين خطأً حمراء تحيط جفنيه وكأنهما متورمتين. لكنه لم يسأل عن ذلك واستمر في حديثه، إذ همهم وهو يهز رأسه ويرفع كأسه الصغيرة بمحاذاة فمه. قبل أن يحتس سألته: "ما هو اسمك؟". جلس رولد على كرسيه ثم أعطه نظرة متأملة قبل إجابته: "ريتش رولد".

- "ريتش رولد! يا له من اسم غريب" قال غرلين. فابتسم الشاب ثم سألته أيضًا: "ما هو اسمك أنت إذن؟".

- "حسنًا إنه كيفين مولر".

- "كيفين مولر، سررت بالتعرف عليك".

اكتفى بأن هز كتفيه وأمال برأسه قليلاً راسمًا بسمة خطية على وجهه، ثم شرب كل ما في كأسه دفعة واحدة ليتركها على المنضدة بعدها وينهض قائلاً: "شكرًا على الشرب" ترك النقود بجوار الكأس مع بسمة عريضة متقنة: "سوف أحرص على أن أكون زبونًا دائمًا. سيد رولد!"

- "أهلاً وسهلاً بك في أي وقت" أوماً رولد ثم ظلت عينيه الشبه حاملتين تتبعان غرلين حتى الباب. نظر إلى الأمام مباشرة نحو فتاة يكاد مظهرها الخارجي يؤكد على أنها فتى لم يبلغ التاسعة عشر بعد. ترتدي قبعة صوفية بنية فوق شعرها الأحمر القصير، وتلبس كترزة صوفية وفوقها معطفٌ كبير يميل للون البني الداكن يصل لركبتيها، كانت ملامحها شاحبة منمشة لكن تجذبك لون قزحيتها البارقتين بزرقه صارخة. تقف وتضع كل تركيزها مع ريتش وذلك الرجل الغريب عليها. أعطائها ريتش نظرة مع إمالة بسيطة لرأسه يشير لها بأن تلاحق الرجل. أوماً مستجيبة ثم لحقت به بدون أن تثير النظرات نحوها.

في صباح اليوم التالي، خرج تشارلز من شقته عازماً على أمر، بينما كان السيد هيرل يحض بغفوة فوق مقعده الدافئ، يضم ذراعيه ويشخر بصوت مكتوم. دفع تشارلز الباب الزجاجي وسار على طول الشارع من جهة اليسار.

استقل سيارة أجرة واتجه إلى قصر الكونت. عند وصوله ترحل ثم وقف بقرب البوابة، أقترب منه الحارس وسأله: "من أنت؟".

- "تشارلز غرنالد، أعمل مع الشرطة. جئت للحديث مع السيدة إغاردن".
فتح الحارس الباب وسمح له بدخول. تظاهر تشارلز أنه يتجه إلى البوابة صعد الدرجات ثم قرع الجرس، انتظر ثلاثة دقائق لتفتح له إحدى الخدمة.

ابتسم بالباقة قائلاً: "صباح الخير! أنا تشارلز غرنالد. أرغب في التحدث مع السيدة إرغادن".
تطلعت نحوه برهة وهي تطرف بأجفانها ثم أفسحت له المجال بهتذيب ونطقت بصوت خافت: "تفضل!".

أدخلت وسارت أمامه تدله إلى حجرة الضيافة، كانت قصيرة سمراء البشرة وذات شعرٍ مجعٍ أسود.

- "انتظري هنا، من فضلك!"

- "بتأكيد".

جلس على الأريكة بهدوء في حين غادرت هي لتبلغ المدبرة. سلى نفسه بالنقر بأصابعه اليسرى على فخذه. استشعر بنسيمٍ بارد يلفح وجهه فالتفت نحو جهة النوافذ ليرى نافذة واحدة مفتوحة وستائرهما الشفافة ذات لونٍ سكري تتأرجح بخفة، شرد يحدق فيها بالأحرى يحدق بما خلف النافذة التي تقود نحو الحديقة الغربية، بدا أنه يفكر في شيءٍ ما. تطلع حواليه أثناء نهوضه، سار بخطواتٍ متباعدة سريعة وخرج من النافذة، سار أربعة خطوات على أرضية رخامية ثم نزل من الدرجات التي تتصل بها وتقود إلى أرضية معبدة من الحصى وصل إلى درجات منصبة رخامية فيها مقعد جلوس، ولها قبة رخامية دائرية يرفعها أربعة أعمدات، وعبق رائحة الثلج الرطب انتشرت كالعطر في أرجاء الحديقة إذ أن غلال من الثلج تربع فوق الأغصان وكذلك الأرض العشبية. ترك تشارلز الممشى المرصوف، وسار على العشب حتى وصل إلى المنطقة حيث وجد جثمان الكونت

رفع بصره إلى أعلى الشرفة. كانت بعد نافذتين في الطابق الأولى والثاني، إطار النوافذ بيضاء وفي أسفل الجدار على الزاوية هنالك أخص بها زرع أخضر مزهر واجمات مخضرة.
تراجع للوراء لسبع خطوات لجوف الحديقة الغربية، ثم تابع وكأنه يتجه إلى مكان ما يتأمل أن يعثر على شيء فيه، لكن لا شيء غير أرض ممتدة بيضاء وأشجار عارية. تشكلت زفرة إحباطه على هيئة دخان تسرب من بين شفثيه المحمران وأخفض منكبيه قائلاً:

- "إذا كان الكونت قتل قبل وقت من عودته، لا بد أن أحدًا ما أعاد جثته إلى القصر... من أين دخل؟ لا يمكن أن يدخل من البوابة الرئيسية دون أن يلاحظه أحد. إذا كانت الكونتيسة قتلتها، فلا بد أن لها شريكًا في الجريمة من المستحيل أن تفعل هذا بمفردها! لقد تمكنت من إدخال عشيقها إلى القصر بدون أن يلاحظ أحد... هل يعقل أنها فعلت ذلك مجددًا مع جثمان الكونت؟".

احترار وشعر بالوهن يتجدد بداخله يصاحبه ضيقٌ مقيد بغيض. أستمروا في التعمق حتى وصل لجدار السور القرميدي، كان طول الجدار يبلغ خمسة أمتار. رفع تشارلز رأسه وتطلع بدقة لحواف الجدار المدعومة بمسننات حديدية. تمتم قائلاً: "لا يمكن لامرأة أن تقفز من علو هذا الجدار مع جثت رجل بالغ! حسنا بالتفكير في ذلك حتى عشيقها سيجد صعوبة مع تلك المسننات".

أثناء سيره وبصره معلق على الحافة داس على شيء، توقف وأخفض رأسه ليرى بريقًا مدسوسا بين العشب، انحنى ليلتقطه فظهر أنها نجمة ثلجية سداسية الشكل من الكريستال الشفاف.

رفعها قليلاً وتأملها، ثم ومضة صورة لسوارٍ يحمل نفس هذه النجمة. انتفض تشارلز واقفًا وقال مأخوذًا بهذه المفاجئة:

- "لحظة! تلك الخادمة... كانت تضع شيء على رسغها!".

رفع تشارلز بصره لسور ولاح منفعلًا يمينه تعصر النجمة بقوة: "تلك الخادمة!" أخذ نفسًا وهدأ قليلاً، ثم استدار عائدًا ومشى ثلاثة خطوات للأمام، وعند الخطوة الرابعة أحس أن الأرض من تحته كأنها أقل قسوة فقطب حاجبيه باستغراب، تراجع للوراء ثم خبط برفق على الأرض، المنطقة التي خبط فيها بدت قاسية توحى بصلاية الأرض المعتادة، لكن حينما تقدم

خطوة وداس على المكان الذي أحس فيه بخطب، شعر كما لو أن الأرض تنغمس وصوت الخبط لا يشبه شيئاً كالأرض القاسية، بل شيئاً يتمتع بمرونة.

جلس على ركبته اليمنى ومرر يديه على الثلج ليزيحه، ظهرت طبقة العشب في تلك المنطقة ضم ما بين حاجبيه متعجباً، أدخل النجمة في جيب معطفه ثم وضع كلتا يديه على العشب وضغط بقوة ليكون الشعور قاطعاً لشك، هناك شيء ما تحت هذا العشب!

شد العشب برفق فاستغرب لما ارتفعت طبقة ترابية من العشب الأخضر، ثم بهت بهوتاً شديداً حينما وجد مدخلاً خشبياً له حلقة معدنية! استضحك قليلاً أثناء غمغمته: "ماذا وجدنا هنا!" ترك طبقة العشب جانباً ثم أمسك بالحلقة العنيدية واستعمل كل قوته لفتح المدخل الذي يزن ٢٦ كيلو غراماً، ورغم محاولاته فلم يرتفع شبرًا واحدًا. تريتًا قليلاً عن حماسه المندفعة وأمعن النظر إلى المدخل ليرى قفلاً صغيراً على الجانب الأيمن

- "يبدو أنه مغلق! لا بأس" وقف راح يتأمل جدار السور قائلاً: "لابد أن هذا المدخل يقود لمكانٍ ما".

أعاد الطبقة العشبية كما كانت ثم أسرع بالعودة كما جاء. دخل من النافذة ليجد السيدة إغاردن وبصحبتها تلك الخادمة السمراء. عندما رأت المدبرة تشارلز وهو يدخل من تلك النافذة استقبلته باستياء: "أين كنت يا سيد غرنالد؟".

تبسم بإحراجٍ مرتبك: "معذرة! أردت استنشاق بعض الهواء ولكنني ضعت قليلاً. الحديقة كبيرة جداً!".

ضيق عينها الصغيرتين ترمقه بشكٍ واضح. استطرد وصوتها لم يلبس أبداً: "ما الذي جاء بك؟".

- "حسناً لنرى، هنالك خادمة، أظن أنها استقبلتنا في آخر مرة جئتُ فيها مع المفتش جون. كان شعرها قصيراً وأحمر اللون..."

- "شعرها أحمر؟".

- "نعم، أحمر".

فكرت قليلاً ثم أجابت: "هممممم، ربما تقصد إبريل".

- "أجل هذه الخادمة، أريد أن أسأل عنها. منذ متى وهي تعمل في القصر؟".

- "ليس منذ مدة طويلة... أظن أنها قدمت قبل بضعة أسابيع".
- "قبل زواج الكونت أم بعده؟".
- "بدا سؤالاً غريباً لها لكنها أجابت: "لا، وقتها كان الكونت متزوجاً من السيدة آن".
- "هل ما زالت تعمل هنا؟".
- "في الحقيقة، هنالك أمرٌ غريب" قالت المدبرة وهي تهزيمتها، ثم أضافت: "أقصد لم يمضي على مجيئها سوى أسابيع قليلة وكانت تبدو محتاجة للعمل فعلاً، ولهذا قبلت بتوظيفها، ولكن بالأمس تركت العمل فجأة".
- "لسببٍ ما لم يفاجئ ذلك تشارلز كما لو أنه وضع بعض الاحتمالات في عقله وحفظها ريث حدوث إحداها لتستقر شكوكه. صمت يفكر وعينيه تتقلبان في الأرجاء، ثم عاد يسأل:
- "ألا تعرفين أي شيء عنها؟ عنوانها اسمها الكامل؟ أي شيء".
- "بصراحة لا أعرف إلا اسمها، إبريل ريغان. كانت كتومة ولا تتحدث مع أحدٍ أبداً".
- "حسنًا، سؤالٍ أخير".
- قلت المدبرة عينها بضجرٍ واضح ومع ذلك ظلت تتحمل هذا الفضولي بصبرٍ وحلم: "أسأل".
- تحايل تشارلز بمكره قائلاً: "كيف دخل عشق الكونتيسة إلى القصر؟ كونك الملة بشأن القصر كله هل تعرفين ما إن كان هنالك مدخلٍ آخر يمكنه من خلاله الدخول إلى هنا؟".
- انزلقت نظارتها الدائرية إلى عظم أنفها رمقته بتعجب واضح ولم تجب، يبدو أنها لم تحب تشارلز وفضوله الزائدة. التفت الخادمة إليها والتي بقيت طول هذه المحادثة واقفة تستمع حيث أنها أيضاً بدت مترقبة للإجابة. زفرت السيدة بانزعاج ثم أجابت وكأنها تجر الحروف من فمها: "على حسب ما عرفته من الكونت الراحل... فقد أدخلته من مدخلٍ يقع عند السور الغربي".
- استشرقت ملامحه بالبهجة حتى أن المدبرة والخادمة تعجبتا أمره. أكمل هو يسأل: "هل يمكنك دلي إليه؟".
- "حسنًا، لأكون صادقة معك، فذلك المدخل مغلق ولا أحد يعلم بمكان المفتاح إلا الكونت. لكن الكونتيسة وعلى ما يبدو قامت بسرقة. لا أعرف حقا كيف تجرأت على فعل ذلك".

- "وهل تعرفين مكان المفتاح الآن؟".
- "لا طبعًا!".
- تهمد مفضلًا منكبيه في احباط ومع ذلك كان مسرورًا بما اكتشفه حتى الآن. أومأ لهما قائلاً:
"شكرًا جزيلاً! أسف على الازعاج".
- تمتت المدبرة العجوزة: "فقط توقف عن المجيء" ثم استطردت تأمر الخادمة وهي ترمقه
شزرًا: "أشلي، قوديه إلى الباب. وتأكدي ألا يضيع!".
- حبس تشارلز ضحكته فهو يعلم أنها غير راغبة في متطفل يدور كما يشاء داخل القصر.
ما أن وصلا للباب قامت أشلي بفتحه، ليجدا شابًا أمام وجههما. ذو وجهٍ أسمر قمعي وعينين
مسودتين كمنقطين من حبرٍ أسود متشرب بلون بني داكن ورموش ثقيلة تحوط جفنيه، شعره
مفحم السواد ينسدل كالحرير. لاح الشاب مضطربًا يتنفس بصعوبة كما لو كان يركض من
وحشٍ فتاك، جسده الهزيل اختفى تحت رداءٍ أسود غط بدلته البنية الداكنة..
- خرجت الحروف من بين شفثيه الشاحبين وأنفاسه تزام صوته فلم يكن الصوت معتدلاً
وكتفيه ينخفضان ويرتفعان مع كل شهقة وزفرة:
- "من أنت؟".
- "آه، تشارلز غرنالد"
- "تشارلز غرنالد؟" قطب حاجبيه باستغراب. تقدمت الخادمة ونطقت بعد شهقة تفاجأ: "كايل!"
- التفت تشارلز التفتاةً بسيطة لجهة الخادمة في حين تخطاه الشاب مسرعًا نحوها
- "أشلي، ماذا حصل للكونت؟ ما تلك الرسالة التي وصلتني؟ هل أنتِ من أرسلها لي حقًا؟ أهى
مزحة سخيفة منه؟ أقسم أنها لو كانت مزحة من مزحه سوف أدفنه بيدي!"
- أمسكت الفتاة بديه وقضمت على شفثيها الزهريين بحسرة، أخفضت رأسها وجاهدت لابتلاع
الغصة ثم رفعت بصره لتقابل عينيه وتجيّب: "كما كتبت لك في الرسالة يا كايل، لم أكذب
عليك بأي حرف... لقد مات الكونت دانييل، مات!"
- فغرفاه الشاب ولو أن الصدمة التي اعترته تقاس بمقدار اتساع جفنيه لكان جفنيه تمزقا قبل
أن يحتويا الصدمة. تأمل تشارلز انبهاره بدقة رأى كيف ترنح حتى أن الخادمة أسندته ليجلس
على كرسي بقرب إحدى النوافذ الطويلة في الجهو.

- "كايل، كايل!" نادته وصوته يرتعش خوفاً، ثم راحت تنادي بصوتٍ مرتفع: "سيدتي، سيدة لافينيا! كايل قد عاد!"
- رأى تشارلز السيدة تقدم من إحدى مخارج الهو عن جهة اليسار. رفعت يمينها إلى فمها متأوهةً بحسرة: "أوه يا إلهي! سيد بارتكيل العزيز!"
- جلس الشاب بهدوء الصدمة أفقدته القدرة على النطق وظل يحرق بالفراغ. ثم تتمم كمن يهذي: "سيد لافينيا، لقد وعدني أنه سوف يزورني أليس كذلك؟ أعلم أنك الوحيدة التي سوف تكشف عبثه. هولم يمت أليس كذلك؟"
- "سامحي يا سيد بارتكيل، إن الكونت أوليغرس قد مات حقاً!"
- صاح باعتراض شديد: "مستحيل كيف مات؟ لم يكن مريضاً تركته وكان على خير ما يرام!".
- أطبق تشارلز شفثيه وسحب كمية هواءٍ ضئيلة إلى صدره من خلال أنفه، لم يكن يعلم هل هذا التأثير البليغ نابغٌ من صدمته بما حصل أم تزييف متقن... يبقى عاجزاً عن منع نفسه من الشك في نهاية. الشك يلزم الإنسان سواءً أحب ذلك أم لا. دنى منه بخطوات متقاربة أثناء حديثه: "تعازي الحارة، سيد بارتكيل".
- رفع كايل رأسه نحوه أحس تشارلز بشعور كالزعزعة في داخله حينما اتصلت عينيه بخاصة الشاب رأى ذبولاً قريباً بل شبيهاً بالذبول الذي يراه في عينيه حينما ينظر لنفسه في المرآة.
- "أنا أعلم مع الشرطة" ابتلع تشارلز ريقه ونطق بثبات دون التحيز لأحاسيسه.
- "شرطة!"
- "نعم، لقد تم قتل الكونت ونحن نحقق في قضية مقتله"
- طرف مذهولاً وهو يتمتم: "تتم ماذا... قتل؟... م ما الذي تقوله؟".
- "للأسف كما أخبرتك، وما يزال تحقيق جاري".
- أنكس الشاب رأسه بهدوءٍ وسكن في صمته جزعاً!

الفصل الخامس عشر

بعد أن شرح كل شيءٍ للسيد بارتكيل، اصطحبته أشلي إلى مقبرة آل أوليغرس. بالنسبة لتشارلز فلم يضيع الفرصة وبقي معهما بالأحرى يقف خلفهما بخطوة يتأمل كاييل الجائم على ركبتيه مصعوقا من هذه الفاجعة يحقد بشاهدة قبر دانييل.

سأله تشارلز: "سيد بارتكيل. بحكم كونك أكثر المقربين من الكونت، هل تعلم إن ما كان لديه أعداء أو أحد يضمر له الكراهية؟".

صك على أسنانه بدا صدره منتفخا من الحقد وهو يتمتم: "إريك..."

قطب تشارلز حاجبيه ومال قليل للأمام بقصد سماعه جيد: "عذرا، هل قلت اسم للتو؟".

"نعم، الشخص الوحيد الذي يمكنني الشك به و الذي يضمركراهية عمياء للكونت هو إريك!"
أردفت الخادمة لتقطع حوارهما بتهدج: "ك كاييل... أنت تعلم أن إريك غادر القصر منذ سنة تقريبا!".

التفت الشاب نحوهما، ثم قال بصوت محتدم: "أعلم ذلك، ولكن هذا لا يمنع أقدامه على فعل شيءٍ لأجل أن يحظى بالثروة التي حرم منها".

نهض كاييل بتكلف ووقف أمام تشارلز وحينما اتصلت أعينهم رأى حقد كبيرا فيهما يبعث على الحذر منه. قال كاييل: "إنه الشخص الوحيد الذي يمكنه قتله... لا أحد غيره! لقد رأيت به بعيني وهو يضع مسدسا على رأس الكونت... ولولا تدخل والده لكان قتله... لقد توعدده... غادر من القصر وهو يقسم بأنه سيعود وسيأخذ كل ما يملكه".

فكر تشارلز في كلامه وتذكر الوصية التي خطها الكونت لقد تنازل عن منصبه لشقيقه وكتب له الحصة التي حرمه منها والده... كما لو أن إريك حقق وعده وحصل على ما يريد، وتلك كانت النقطة المزعجة بالنسبة له.

تهدد ثم أرجع كلتا ذراعيه خلف ظهره وتكلم بصوت هادئ: "سيد بارتكيل، أرى أنك تكن كرها شديدا للشقيق الكونت، ولكن بالنسبة له فليديه حجة غياب قوية تجعله خارج حدود الشبهات".

"ماذا تقصد؟".

"لقد أجرينا تحقيقًا مع إريك.. وعلى حسب إفادته فهو جاء بقصد مصالحة شقيقه لينهي الخلاف الذي بينهما..." انقطع حديثه بشكل يسير فقد شرد يفكر بما أزعجه بصمت بينه وبين نفسه _صحيح، إريك مجددًا أعود لنفس هذه النقطة. قبل مقتل الكونت كان موجودًا في ياسك ولم يظهر إلا أثناء دفنه. تزييف الوصية كل ما استندت عليه ولكن للأسف كانت أصلية وبخط الكونت. إريك لن يكون في حاجة لقتله إن أعطاه كل ما يريد، كما أنه تعرض لمحاولة قتل وإلى الآن لم تكشف عن الأسباب الكامنة وراء ذلك!_ تغضن وجهه لكن سرعان ما أخذ نفسًا يسيرًا لينهي حديثه مع ذاته _أهدأ ولا تركز على شيء واحد. كل ما هو واضح قد لا يكون الحقيقة_

بالنسبة لكاييل فهو لم يتقبل ما سمعه ولاح أكثر غضبًا مما كان عليه، أخفض رأسه والتماعة الحزن المختلطة بالكراهية لا تفارق عينيه. يتمتم بحرقه شديدة : "إذن من... من قتل الكونت؟ إنه شخص طيب من هذا الحاقد الذي فعل ذلك؟".

نفس السؤال الذي يؤرق تشارلز لكن الإجابة أبعد من متناولهم، بقي صامتًا يتفحص وجهه كاييل الأسمر لم يكن باستطاعته الكشف عن صدره ليرى الحقيقة بدون أن تتلوث بالريبة.. لكنه أمعن النظر فيه وفي الخادمة أحس كما لو أن من فقده شخص من ضمن عائلتهما لقد بدوا مكسورين حقا، فسأل قائلاً: "يبدو أن الكونت كان يعني لكما الكثير".

اجاب كاييل سريعًا والمرارة تغلف صوته: "أجل، لقد كان شخصًا يستحق الاحترام... لو لاه لكانت أمي ميتة لقد تبرع بالكثير لأجل علاجها" ثم رفع بصره إليه راجيًا بصوت حزين: "أعثر على قاتله، رجاء! أريد أن أعرفه"
اكتفى تشارلز بالإيماء ثم شرد في شاهدة القبر.

حانة أمارند. دفع رولد باب الحانة ثم دخل واتجه نحو منضدة الساقى. وبإماعة خفيفة ألقى عليه التحية: "صباح الخير إلياس".

أردف بابتسامة عريضة مرحبة: "أهلاً، ليس من عادتك أن تأتي في هذا الوقت. أليس لديك عملٌ في الميناء؟ وأيضا أين تختفي هذه الأيام فان سأل عنك أكثر من مرة".

- "لقد كنت متواجداً بالأمس. على العموم. لقد جئت لسؤالك عن أمر ثم سوف ألتقي بفان لأجل إنهاء تلك المسألة اللعينة" قال ريتش وشيء من الضيق يخفق صوته وقد لاحظ إليا، أو إلياس ذلك . أخفض بصره ولاح شارداً أثناء حديثه: "تلك المسألة لن تنتهي بسرعة. أعتقد أن علينا التريث والانسحاب في الوقت الراهن حتى تهدأ الأوضاع. هذه أفضل "
- "هذا مستحيل" رد ريتش سريعاً باستهجان وحرص على خفض صوته، ثم أردف: "الآن وبالذات لا يمكنه أن يختفي هو يعي هذا جيداً! عليه أن يلتقي بهيروسك لينهي مسألة المسروقات والمخدراتالبعيضة التي نهربها".
- نظر له إليا بحدة واقترب من المنضدة متكئاً بساعده اليسرى عليها ليقترب منه هامساً: "هذا ليس الوقت المناسب لتحديثه بهذا الشأن يا ريتش".
- زفر ريتش ساخطاً ثم استطرد: "الأهم جئت لسؤالك عن شخص يدعى كيفين مولر. هل كان والدك يعرف رجل بهذا الاسم؟".
- قطب حاجبيه يحاول التذكر أخفض رأسه في صمت وجيز ثم هزه لليمين واليسار مجيباً: "لا أتذكر كل معارف والدي، لذا لست متأكداً".
- وجه ريتش بصره إلى أرفف الكحول قائلاً: "بالأمس جاء رجلٌ إلى هنا قال أنه كان رفيق والدك القديم ويدعى كيفين مولر، بد مرينا لي لذا أرسلت فيرا خلفه"
- صمت لبعض الوقت وكلمها صارا يتبادلان نظرات مريبة مهمة. تباع ريتش حديثه: "اخبرني أنه ظل يحوم حول الحانة ويسأل عن جليلو المارند ويطرح بعض الأسئلة بشأن العاملين في الحانة".
- "ذكرتني!" هتف إلياس بصوت خافت ثم أردف: "قبل عدة أيام جاء رجل يدعى ألبرت نوتيج يسأل عن جماعة الكاردينال. وبعض الأولاد أخبروني أن هنالك رجالاً غرباء يسألون عن ذات الأمر. ما رأيك في ذلك؟".
- توجس ريتش بشدة وبدا عليه القلق حتى انقبضت ملامح وجهه، كل تلك المتغيرات التي بدأت تطفو في السطح لم تعجبه أبداً. نظر له قائلاً: "يجب أن يعلم فان بذلك عليه اتخاذ قرار فوراً. أخبرني أين هو؟".
- "في البيت الكبير!"

سحب يديه من على المنضدة وقال سريعاً: "كن حذرًا إلياس، أغلق الحانة مبكرًا وخذ طرقًا ملتوية أثناء مجيئك إلى البيت".

أومأ له ثم حرر ريتش ساقيه نحو الباب وهو يغطي رأسه بقلنسوة معطفه الأسود الكبير. سحب الباب ثم دفن يديه داخل جيوب المعطف.

بعد ثلاثين دقيقة وهو يمضي بين الأزقة وقد حرص أن يسلك طرقات متفرعة كالمناهات ضوء الشمس بالكاد يزحف إليها. وصل إلى البيت الكبير. دخل وتخطى مجموعة من الأولاد الذين يمرحون في الأرجاء ولم يهمل وضع ابتسامة لطيفة على وجهه. حالما دلف تلفت في الأرجاء باحثا عن فان، لكنه عثر على زوجته كاثرين التي خرجت من المطبخ بوجه بشوش ضاحكة تتحدث مع أحد السيدات. فور أن رأت ريتش أخذت نفسا كبيرا تدعى الدهشة وهي تقول: "أوه! يا للعجب... ظهر ريتش المختفي!".

ضحكت المرأة التي ترافقها ثم أردفت: "توا كانت تنتقدك يا سيد رولد".

ضحك بتكلف ثم أخفض رأسه. استأذنت السيدة وذهبت لحال سبيلها، بينما سأل ريتش وقد عادت الجديدة للمامحه: "أين هو فان؟".

"أين هو فان؟" أردفت كاثرين تقلده بغيظ شديد، ثم أضافت: "أهذا أول ما تسأل عنه فور ظهورك؟".

تنهد مغمض لعينيه ولاح حلیم الرشده حيث قال بصوت هامس رقيق: "متأسف حقا يا لبي! ولكنني مجبر... هناك مسألة مهمة علي أن أحدثه بشأنها".

أردفت بضيق: "كلكم تقولون ذلك، حتى فيرا تردد نفس كلامكم! أريد أن أعرف ما هي هذه المسألة المهمة يا ريتش... لما تصرون على إبعادي وكأنني لست فردا منكم" قالت كلماتها الأخيرة بإحباط وخيبة يائسة تغدق صوتها. حينها شعر ريتش بتأنيب الضمير وظل يتأمل عينها البريبتين عاجزاً عن النطق بشيء يريح قلبها القلق. طأطأ رأسه وابتلع ريقه، بعد صمت وجيز رفع بصره إلى عينها وحوط وجهها الجميل بين كفيه الدافئين، همس لها بلطف: "كل ما في الأمر أننا قلقين بشأن مسألة تهريب المسروقة مع البضائع إضافة لتلك الأشياء الكريمة؛ نخشى أن تكتشف الشرطة ذلك. لذا أحاول إقناع فان بالتوقف".

- "هل هذه هي الحقيقة حقاً؟" سألته وكلتا عينيه تراقبان عينيه هي تعلم جيداً أن زوجها يخفي شيئاً ما وهي متأكدة إلا أن ريتش لم يكن يوماً كتاباً يسهل قراءته. قبل جبينه ثم أجهها: "أجل، إنها الحقيقة. أعلم أن هيروسك ضالع في هذه الأمور ولكن نحن علينا ألا نغرق أكثر في عالمه... إنه عالم المافيات، ذلك المكان لا يناسبنا... فان يدرك ذلك وأنا سأحاول دعمه بكل ما أقدر". أخفضت عينيه راضخة ثم قالت: "معك حق، كلنا سوف ندعمه. إنه في السطح" ثم ابتسمت بسمة خطية.

تركها ريتش واتجه إلى الدرج، صعد عليه حتى وصل إلى غرفة في نهاية الممر، فتحها وحالما داست قدمه اليمنى عتبة الغرفة لفح وجهه نسيماً بارد لكنه كان خفيفاً لطيفاً ينعش الروح. أغلق الباب ثم توجه نحو النافذة الكبيرة المفتوحة والستائر تتراقص مع الرياح. خرج من خلالها إلى سطيحة المبنى، بدا له الأمر هيناً لم يفزعه ذلك الارتفاع راح بكل توازن وثبات يسار على طول قمة السقف، من الجهتين ينحدر بشكل مثلي يوطده قطع القمر. كان المنظر من ذلك الارتفاع يطل على العديد من المستودعات والمصانع ويفصل بين المنطقة الصناعية والمنازل في الجهة الغربية نهر لار الجاري كأنه لبس ثوب السماء الملبدة بالغيوم الداكنة، وأسطح المباني أغلما غطيت بلون الثلج النقي.

لكن، ريتش لم يلتفت إلى لوحة الحياة البيضاء تلك، كان يضع عينيه نصب فان الذي يسند رأسه لحائط المدخنة يغمض أجهانه ويلوح نائماً في سكينه تامة والرياح تتلاعب بخصال شعره الشقراء، في يمناه زجاجة بيرة، وفي يساره سيجارة. وقف ريتش على بعد سنتمترات بسيطة يتأمله وكلتا يديه في جيوب معطفه الأسود. فك التحام جفنيه فتباعدت أجهانه البنية لتظهر قزحيته الرماديتين كالضباب الميت، رفع بصره إليه، ابتسم بشكل يسير ثم رفع يساره بتكلف وبطاء يلوح قائلاً بصوت فاتر: "بو، بو!"

- "لدي رغبة في رميك من هنا". أردف ريتش بتعليق ساخر جعل فان يضحك ويقول: "سوف تقدم خدمة عظيمة لي!"

خطى خطوة ثم انحى إليه أخذاً زجاجة البيرة ثم جلس بجواره أثناء الشرب منها، بعد ذلك خاطبه بشكل حازم: "فان، استمع إلي جيداً. لقد وصلنا إلى نقطة علينا الرجوع عنها، أنت تعي

ذلك جيداً. البضاعة الأخيرة التي احضرها يوريا سوف تكون الأخيرة، لن أقوم بهريب أي شيء بعد الآن".

هز فان رأسه مستجيباً له مع ذلك أحس ريتش بالغيب لأنه لا ينطق. زفر بانزعاج ثم تابع: "أنا جاد يا فان!".

أغمض عينيه ثم عاد يسند رأسه لحائط المدخنة مردفاً: "لا تقلق، أعدك إنها المرة الأخيرة". صمت ريتش ولم يتحدث بعدها لبرهة من الوقت كان شاردًا في ذلك العالم الفسيح، لقد لاح كمن في داخله غيمة مكفهرة سوداء تخفي سرًا منهكًا لروحهِ. نظر لفان فجأة ثم قال بصوت هادئ متردد: "فان".

- "نعم".

- "أتذكر الرجل الذي قتله إلياس؟"

- لماذا تذكر هذه المسألة الآن؟ ألم أطلب منك نسيان هذه الحادثة!"

- "ألا تعتقد أنه سيأتي يوم ندفع فيه الثمن على ذلك؟".

- "ريتش!" قالها فان بصوت معانٍ وهو ينظر مباشرة إلى عينيه بحزم: "توقف عن التفكير بهذه الطريقة. قلت لك الأخطاء تحصل؟"

تهمد ريتش بضيق يجثم على أنفاسه ثم رفع بصره لسماء مستطردًا: "حسنًا إذن، ماذا سوف تفعل؟ هل سوف ترسل إليا مجددًا ليتخلص منه؟".

- "كلا، لم يعد هذا مجددًا!" أغمض عينيه وعاد يريح رأسه. أردف ريتش بعد نزاعٍ مزعجٍ في صدره: "هنالك تحركات مثيرة للشبهات حول الحانة. لنوقف هذا... عليك مغادرة المدينة".

- "غير ممكن، سوف أكمل ما بدأتُه. أيضا لا يمكنني أن أعطي قرارًا في هذه المسألة بدون الرجوع إلى آرائهم جميعا".

اجتاحته نوبة احتياج كما لو كان مذعورًا من أمرٍ ما: "هل فقدت عقلك! استمع لي لما أقوله لك مرة واحدة".

لم يفقد فان هدوءه كما أن صوته بارد كأنما روح الشتاء هي التي تنتطق: "سوف تغادر المدينة".

جفل ريتش مدهوشًا: "ماذا!؟".

- "أنت وولي وابنتك وكذلك لويس، وسوف تأخذ فيرا وإلياس... الحانة سوف تغلق لعدة أيام" قال فان، ثم صمت وكم كان صمته ثقيلاً مهيّباً. رفع سيجارته واستنشق منها ثم نفث سحابة كبيرة تكاد تبدو كالضباب تحوم حوله. تحدث ريتش مهوياً مما قال: "فان ما الذي تخطط له هذه المرة؟".

- "لا أخطط لشيء. أريد الضمان عليكم".

- "وما الذي ستفعله أنت؟ ما الذي سيحل على هذا البيت؟".

- "السيد جاليلو سوف يهتم به".

- "وماذا عنك أنت؟".

- "قلت لك سابقاً سوف أنهي ما بدأته".

تلك الجملة أثارت حنق ريتش وجعلته يكشر عن غضبه، اجتر فان من ياقته وقال له بصوت يلوح كزنجرة وحش: "أسمع أيها الأحمق! لقد دخلت لحلقة النار... وكلنا خلفك! لا تدفعني لرميك من هنا!".

وضع يمينه على قبضته وابعدها برفق: "أهدا يا ريتش. ما الفائدة في سقوطنا جميعاً؟ أنهي عملية نقل البضاعة وتأكد من وصولها إلى هيروسك. هذا ما عليك التركيز فيه حالياً". قال ذلك ثم نهض مستنشقاً آخر ما بقي من سيجارته وأثناء ذلك كانت تحترق ورمادها المنفوش يتطاير مه الرياح، نفث الدخان وهو يتطلع إلى المدينة الصناعية واجهة ياسك البائسة، المداخل التي تسرب الأدخنة تنتشر في كل مكان مفسدة نقاء السماء: "غداً سوف نجتمع وسوف أطلعهم علماً أخبرتك. لن أقبل النقاش". كظم ريتش امتعاضه بشدة حتى بانث أوداجه على طول رقبته. في داخله، في أعماقه هناك شيء ريتش عجز عن البوح به ومتحسراً يبطأ رأسه، بينما كان فان يبتسم ويتأمل الأطفال يلعبون في الأسفل

حمل تشارلز النجمة التي عثر عليها واتجه إلى مكتب المفتش، بعد أن اطلعه بكل شيء. أخذ إلى المختبر ليتم استخراج بصمات منه. وفي غضون ساعات أرسل تقرير إلى المفتش ووقف النقيب سكود يقرأها أمامه وأمام تشارلز المتوتر.

- "لقد صدر تقرير البصمات، سيدي المفتش". قال سكود

- "جيد، أقرأ ما ورد فيه".
- أوماً ثم فتح الملف وقرأ التقرير: "تم استخراج ثلاثة بصمات أثناء الفحص اليدوي للنجمة الكرسالية. الأولى تعود لشخص يدعى ثاليبي بروس. والثانية لإلياس بنجلي. والثالثة لفالانتين فيليس".
- رفع تشارلز رأسه مباشرة وقد تبدلت ملامحه كلياً وبشكلٍ تلقائي ارتجفت يده اليسرى كما لو أن تياراً لسع حواسه. تتم مأخوذ الرشد: "فالانتين... ه هل أنت متأكد؟".
- "نعم، تحليل البصمة خرج من المختبر بعد دقيقٍ كامل".
- اجتاحت خيبة الأمل قلب المفتش فلقد تمنى ألا تكون شكوك تشارلز حقيقية من صميمه لئلا يواجه موقفاً كهذا... لكن يبدو أن الحقيقة تأب إلا أن تظهر. تنهد قائلاً: "هل تم التحقيق في خلفية هؤلاء الأشخاص؟".
- "نعم سيدي. الأولى وهو المدعو ثاليبي بروس تأكدنا من هويته وهو بائع حلي يملك متجرًا صغيراً في حيي جارس مقابل شارع اسبيرغ. قمنا بإجراء تحقيقٍ سريعٍ معه وأريناه النجمة الكرسالية، فأطلعنا على رجلٍ قام بشراء سوارٍ يحوي عشرة نجمة كرسالية وهذه صورة مماثلة للسوار". تقدم ليناوله الصورة من الملف. أخذها المفتش وأمعن النظر فيها ثم أراها لتشارلز الذي صدق عليها.
- استرسل سكود: "اسم هذا الرجل كيفين مالس. لكن الغريب، لم يكن هناك بصمات لشخص يحمل هذا الاسم... فالبصمات الوحيدة التي ظهرت هي لثلاثة أشخاص فقط".
- "ربما يكون إلياس وقد استخدم اسمًا مستعار. هل عثرت على شيء بخصوصه؟".
- "نعم، لكن كل ما عرفناه أنه يكون ابن فينرال هارموند بنجلي، الرجل الذي قتل برصاصة طائشة خلال مشادات بين رجال الشرطة وذلك كان قبل خمسة عشر عامًا. أتذكر يا سيدي قضية سارق محل مالينيا للمجوهرات".
- "أجل، أذكر ذلك. ولكن ألم يكن ابن فينرال هو السارق حينها؟".
- "نعم، ولكن... ذلك كان يدعى ليوناردو بنجلي".
- قطب المفتش حاجبيه مرتبًا ثم قال: "إذن فينرال لم يكن لديه ابن واحد بل اثنان؟".

أجاب تشارلز وقد كان شاردًا مذهولًا بالكاد يتمكن من استيعاب كل هذا الضخ من الحقائق: "ليوناردو... نعم... ليوناردو بنجلي كان ابنه بالتني...".

نظر له المفتش باستغراب: "هل كنت تعرفه؟".

- "نعم، وشم الطائر... هو الذي وشمه لدانييل. أما بخصوص الابن الثاني إلياس بنجلي فأنا لست متأكدًا".

ازداد غضبين جبين المفتش وصار يفكر بشكلٍ أعمق: "لنرى، ليوناردو بنجلي اتهم بسرقة محل مجوهرات مالينييا، بعد أن قضى في السجن سبعة سنوات تم إخراجه ولكن لم يسمع أحدٌ عنه شيئًا بعد ذلك. إن كانت له خلفية بأمر الكاردينال. لحظة، أخبرني يا بني هل كنت أنت وبقية رفاقك على علم بشأن المدعو ليوناردو بنجلي؟".

- "بتأكيد، دانييل اصطحبنا إلى حانته حتى نضع وشم الطائر... كما أنه من عرض علينا الهرب من الدير والعيش عنده. أذكر بأن فينزال بنجلي كان يعتني بأطفال الشوارع وكان لديه ملجأ يؤويهم فيه"

- "همممممممم، عشيق الكونتيسة يحمل اسم ليوناردو براين... كنت سوف أقول أنه ليوناردو بنجلي ذاته ولكن قام بتغيير لقبه، مع ذلك فارق السن يدحض هذا الاحتمال. لذا بقي احتمال أن أحد التوأمين هو الكونت وأنت تعتقد بأنه دانييل هاربر".

- "أجل".

- "والتوأم الآخر هو عشيق الكونتيسة... فرناند هاربر".

أومأ تشارلز بينما مسد المفتش ذقنه ثم ارتقى بظهره على المقعد منهكًا من التفكير: "يا إلهي! هذه القضية تتجه لمنعطفات أكثر تعقيدًا كلما تعمقًا فيها".

عند تمام الساعة الثالثة، تم جلب الكونتيسة آن أوليفرس من الزنزانة لتجلس مقابل المفتش وسكود في غرفة الاستجواب. لاحظ عليها طلائع الإرهاق الشديدة وشريط أحمر حول جفنها الناعسان.

- "صباح الخير" قال سكود ثم أردف بابتسامة شبه ساخرة: "أرجو أن الحبس راق لك، رغم افتقاره إلى المرفهات".

لم تباي بكلماته، كلتا يديها فوق المنضدة ومقيدة ومع ذلك تبدو كما لو أنها تليقة تتمتع بكل قوتها وكبرياءها:

- "ماذا تريدون؟". تحدثت بجفاء فض.
- "عائلتك، يبدو أنها مستاءة من بقائك في الحجز، ويرون ذلك معيياً لسمعة العائلة، يطالبون بإخراجك فوراً". وعلى إثر إجابته أطلقت ما يبدو أنها آهة متفاجئة مع ابتسامة ساخرة: "ظننتهم قد نسوني!".
- وعند ذلك سمعوا صوت ضوضاء من خلف الباب ولم يلبث أن فُتح ليطل تشارلز وهو يلهث وخصلاته مبعثرة على جبينه. قطب سكود حاجبيه مستنكراً ثم نهره بحدة: "إنها جلسة استجوابٍ رسمي! ما الذي كنت تفكر فيه حينما اقتحمت بهذه الطريقة؟".
- قال تشارلز بصوت جاد: "أريد المشاركة في هذا الاستجواب، سيدي المفتش!".
- أمعن المفتش في ملامحه وراه مصراً على طلبه. دخل الشرطي متهدجاً: "سيدي، أنا حقاً حاولت منعه من الدخول ولكنه تملص مني!".
- "لا بأس" صدر صوت المفتش الهادئ ثم نظر بعيون معاتبة لتشارلز والذي أحس أنه سوف يرفض طلبه فسبقه قائلاً: "رجاء! لا يمكن لهذه القضية أن تكتمل بدوني!".
- "ماذا تحسب نفسك يا هذا!" قال سكود مندهشاً. أخذ المفتش حدثه بمحمل الجد فأرخی منكبيه وتهد مستسلماً ثم قال: "حسناً، إنها المرة الأخيرة!".
- طف الامتنان على وجهه ثم تقدم ووقف خلفهما يحمق بنظرات مباشرة تبعث الرهبة نحو الكونتيسة أن مما أجبرها على خفض بصرها وابتلع ريقها. أشار المفتش للشرطي الشاب فخرج بهدوء وأغلق الباب.
- بعد زفرة طويلة ساخطة أخرجها سكود. نطق المفتش جون قائلاً: "حسناً، لنكمل. كونتيسة أوليغرس، أنت امرأة عاقلة وهذا ما أنا متأكد منه، عَشِقك ربما يجعلك تتسترين على مجرم، لذلك نطلب منك أن تفكر ملياً وبشكلٍ عقلائي، جنبي مشاعرك التي تكنها له فقط لهذه المرة وتعاوني معنا حتى نتمكن من استخلاص الحقيقة. السيد ليوناردو أطلعينا على مكان تواجده".
- "لماذا أنت مصرّ على جعله يبدو مجرمًا!" صاحت بحدة: "ليون لا دخل له!".

قبل أن ينطق سكود سبقه تشارلز بسؤال مباغت: "إذن أخبريني، هل كان لديك إطلاع كافي على حياة عشيقك؟".

تطلع سكود بعينين حانقتين نحوه لكنه لم يعره اهتمامًا وظل ينتظر إجابة أن، التي قالت بثقة عمياء: "نعم، كان يتيمًا، تربى بين كنف القسوة والحياة الظالمة ورغم ما يعاني منه... كان يساعد الفقراء والمساكين!".

- "يبدو أنه قديس!". أردف تشارلز متهمًا: "أتعلمين أن هنالك شهادات تدور حول كونه ينتهي إلى جماعة قد تكون عصابة إجرامية".

- "ماذا؟" تجهمت مستنكرة قوله.

أردف تشارلز: "كما سمعت".

نكرت باعتراض قاطع وعلى ما يبدو أنها حملت صدرها بضغينة عليه: "محال! ليون لا يغمس يديه في مياه قدرة".

- "الجميع يغمسون أيديهم في مياهٍ قدرةٍ حينما يكونون عطشى!". رد تشارلز.

رمته بسهام مقمتها المشتعلة في عينها، لقد استمرت على رفضها وإنكارها بعزم يثير الحنق: "لا أصدق، لا أصدق!".

تهدد تشارلز وترفق بمحادثتها لعل اللين ينفع مع امرأة صعبة المراس مثلها، فقال: "إذن أخبريني، هل أطلقت النار على زوجك ثم خبأت المسدس بين أغراضك؟ ومثلت دور التي تعرضت للعنف بقسوة من زوجها؟".

حدجته بحنق وثائرتها تفور: "لم أفعل ذلك طبعًا!".

- "حسنًا إذن، شخصٌ آخر أطلق النار عليه، ثم جاء إلى قصره وبكل جراءة دنيئة اقتحم فراش زوجته، ثم ساعده أحد على إدخال جثمان زوجك ووضعه هناك... حيث بتحديد يجب أن يسقط، ثم خبأ المسدس بين حاجياتك!".

سرت قشعريرة في جسدها واعتملت أنفاسها، لاحت مرعوبة وشاحبة الوجه، والخوف من تحليله استفحل إلى قلبها. هزت رأسها بقوة مستنكرة تكابر بيأس:

"محال، محال! هذا غير منطقي هل أنت مجنون؟".

أردف تشارلز: "نعم، ليس منطقي... موت الكونت ليس منطقي، إلا إن دبر هذه الطريقة".

- "حسناً، يمكن أن يكون أي شخص ولكن ليس ليون!" زعقت في وجهه هائجة: "ربما... ربما إريك الكل يعرف انه يكن ضغينة شديدة لدانييل؟ لما لا يكون هو؟ دبر مؤامرة ليوقعني أنا وليون حتى يظفر بكل ما يملكه شقيقه".
- تهمد المفتش: "لقد تعرض إريك للاعتداء وكاد أن يفقد حياته على إثر ذلك. حالياً ننتظر استفاقة لعله يتذكر من هاجمه وحاول قتله".
- ارتعبت واكفهر وجهها، راحت تحدد بالطاولة وتفكر إلا أنها استمرت على انكاره وعنادها الغير محتمل: "ليولم يفعل ذلك أنا أعرفه أكثر من أي شخص". قالتها ورجفة تهز صوتها.
- أردف المفتش مرة أخرى بنبرة متعطفة مع الثقة التي تولمها لذلك الرجل وكم أشفق على إخلاصها: "لو أنك تعرفين كل شيءٍ عنه حقاً لما كنت سجينه هنا الآن يا بنتي. لو كان بريئاً حقاً لما يهرب؟ لماذا يعرضكٍ لمثل هذا الموقف المسيء إلى صورتك؟" بعد صمت وجيز أردف المفتش مرة ثانية بنبرة هامسة رقيقة: "لو كان فعلاً يكن مشاعر صادقة لك ما كان ليهرب، ولما ترككٍ ثانية واحدة هنا".
- تأملها تشارلز جيداً ورأى كيف أثرت كلمات المفتش على عنادها، ثم فتح زر كمه الأيسر وسار مقترِباً من جانبها الأيمن وأراها العلامة التي على رسغه قائلاً:
- "هل لعشيقك علامة كهذه يا ترى؟".
- نظرت إلى رسغه وصعقتها بما رأت جعلت أنفاسها تهديج: "نعم، نعم! ولكن... ك كيف؟".
- "هذا يثبت أنك لا تعرفين شيئاً عن عشيقك".
- كلما تعمق تشارلز في الحديث عن هذه المسألة، ازداد شرد المفتش جون لمسألة أخرى، كأنه خارج الحوار، يزم شفثيه ويضيق اتساع جفنيه، هيئته تبدولك كمن نام فجأة، وسكود حانقٌ يخبط بقدمه اليمنى الأرض ويعقد ذراعيه، ليبقى الحديث يدار من قبل تشارلز:
- "ربما تجدين الأمر صعباً... ولكنها الحقيقة... ربما ليونارد وليس اسمه حتى. هنالك خادمة تدعى إبريل ريغان تعمل في القصر، هل تعرفينها؟".
- "ليس مطلوباً مني أن أعرف كل الخدم هناك". أجابت.

- "لا بأس، تلك الخادمة لقد عثرنا على شيءٍ يعود لها بالقرب من السور الغربي وبعد إجراء فحص للبصمات، كشف لنا أن اسمها الحقيقي هو فالتين فيليس وليس إيريل ريغان. من الأكيد أن لها صلت به... أعني... بعشيقك".
حدجته بنظرة حادة وقالت: "ماذا؟".

- "كما سمعتي، هي متعانة معه... ربما تكون هي من وضعت المسدس في أغراضك. لقد تم توظيفها بعد زواجك، كما أنها كذبت حيال اسمها، ثم بعد موت الكونت هكذا وبدون أي سبب وجيه بعد أن كانت محتاجة للعمل تستقيل وتغادر. ألا يثير هذا شيئاً من الشكوك؟".
فكرت في كلامه وهذه المرة أعطت لنفسها فرصة لمحاولة فهم ما يحدث حولها: "ما فائدة قتل دانييل؟".

زفر المفتش جون وخرج من سرحانه ليقول: "أخبرنا عشيقك أثناء استجوابه، كنت تعانين بسبب تسلط والدك، كما أنه ارغمك على أن تصبجي زوجة للكونت، أليس كذلك؟".
انخفض منكبيها وأغمضت عينها ولم يبدو عليها السرور من ذكر هذه المسألة وحتى أنها تجنبت النظر إليهم أثناء كلامها: "نعم، لقد وعدني أنه سوف يساعدني... مثلنا أمام أبي والعالم أننا تزوجنا... كان عليه تنفيذ وعده... بعد خروجنا من أسوار إيفري كان علينا أن نفصل حتى أستطيع أن أهرب مع ليو، ولكنه لم يفي بوعه".
رفع المفتش حاجبيه متمماً: "يبدو أنه أحبك".

وكما تفعل القطة حينما تهيج فجأة وتقفز صارخة بوحشية، صاحت أن باحتدام: "كان يعلم علم اليقين بأن لا شيء سيكون بيننا!".

- "ربما هذا ما دفع عشيقك للجنون" قال تشارلز: "فأقدم على قتله... ولكن لا يبدو أنه كان يريد تخليصك. حاولنا تتبعه لأجل معرفة مع من يعمل، ولكنه هرب منا. إن كان بريئاً لماذا يهرب؟
كما قال المفتش غريس".

طأطأت رأسها وهي ترفع يسارها لتغطي وجهها وتمسد جبينها المتعرق رغم برودة الجو، بينما اليد الأخر ارتفعت وعلقت في الهواء بسبب اتصالها بسلسلة القيد، اختنق صدرها بكلامهما وأحست برغبة في الخروج من المكان بأي ثمن بل إنها رغبت في البكاء لكل هذا الضغط، لذا مالت لتغطيت وجهها خجلاً من تلك الدموع المنكسرة.

شقيق تشارلز وهو يرجع خصاله للوراء بكلتا يديه، ثم زفر بقوة حتى انتفخ خديه واحمر وجهه، هو أيضا تعب وانك من هذه المحادثة. رغم قصرها إلا أنها تستنزف منها الطاقة والصبر:

"أخبريني، هل كان عشيقك، يعلم أن الكونت سوف يكتب لك حصة من الثروة؟". سأل المفتش وظل الاثنان يتقربان جوارها بينما تشارلز يذرع الحجرة يمينًا ويسارًا يكافح لضبط نفسه الثائرة. بعد صمت قصير نطقت: "نعم، لقد... لقد وعدني دانييل... إذا ما نسيت أمر ليو وبقية معه... سوف يكتب نصف أملاكه باسمي. أخبرت ليو أنني رفضت ذلك لأنني أريد أن أكون معه".

بدر من تشارلز تصرف غير متوقع كأنه ضرب ناموسة في الهواء على حين غرة، فبعد اجبتها توقف عن ذرع الغرفة والتفت مع تصفيقة لم يتأهب هو بذاته لتأديتها لكنه كان كاتمًا لما في داخله وقد أرقه الصبر على سجنه وعند أول فرصة أطلقه في تلك التصفيقه وسبب افزاع المرأة بصوته المرتفع: "تمامًا! هذا ما كان يحتاج إليه إخلاصك الاعمى له! لقد طلب منك أن تظلي مع الكونت دانييل، أليس كذلك؟ لقد اعترف بعظمة لسانه أثناء استجوابه لقد فضل تركك معه حتى تعيش حياة مرفهة. هذا كان عذره وهذه هي تضحيته المزعومة! وكل ذلك حتى يصل إلى تلك النقطة... فحالما يكتب الكونت نصف ثروته باسمك، يقتله لتصبحي أرملة وبعد ذلك يكمل مسرحيته الغرامية ويفرقت بحبه ثم يتزوجك!".

رمق كل من سكود والمتفش تصرف تشارلز وعلى محياهما صدمة مدهوشة، صوته المرتفع الثائر لم يكن معهودًا بالنسبة لمربيه السيد جوناثان وهذا ما زاده صدمة. بينما ارتعشت شفقي المسكينة ودارت بها الدنيا لقد انكسر غلاف الزجاج الحاد الذي سترت به روحها الهشة الرقيقة.

اقترب تشارلز من الطاولة ودنى منها، كان يبدو منفعلاً لدرجة أن وجهه انقبض بحمرة قرمزية: "أريد أن أسألك سؤالاً صريحًا الآن. أخبريني كيف دخل عشيقك إلى القصر دون أن يلاحظه أحد؟ عندما أكتشفكما الكونت داخل الغرفة معًا، وإياك أن تكذبي!".

شعرت بالخجل والمهانة فطأطأت رأسها، لم تتوقع مطلقًا أن يصل الأمر إلى هذا الحد، عضضت على شفيتها ثم رفعت كلتا يديها وغطت وجهه الشاحب، وبعد برهة أجابت بصوت يتحشر متألماً معذبًا يتوق للخلاص من كل هذا:

"ه هنالك سرداب... عند جهة السور الغربي... اكتشفته أثناء تجولي في الحديقة".

- "هذا سرداب يمكن من خلاله الدخول إلى القصر والخروج منه صحيح؟".
- "نعم، أخبرتني أنني سوف أفتحه لهوأني سوف أترك نافذة الغرفة مفتوحة".
- هز المفتش رأسه مستذكراً كلام ليوناردو عندما سئل عن كيفية دخوله للقصر. ضيق عينيه وغمغم: "لقد كذب إذن".
- في حين ابتسم تشارلز ولاح مرتاحاً في التهيدة التي أطلقها وهو يري منكببه فما توقعه كان صحيحاً: "الدليل الذي عثرتنا عليه والذي يعود إلى تلك الخادمة كان سقطت بالقرب من السور الغربي تحديداً بقرب مدخل السرداب، حيث على بعد عدة أمتار جثمان الكونت. لا أحد يعرف ذلك المدخل سواك و الكونت الذي مات والسيد لافييينا إغاردين... وأخيراً عشيقك ليوناردو براين" صمت هنيهة ثم أضاف: "أتعرفين ما الخطوة الثانية بعد التخلص من الكونت؟ إحكام السيطرة عليك بعد الزواج فتصبح كل تلك الثروة ممنوحة له بكل سخاء. والآن فقط يمكنني أن أفهم سبب الاعتداء على إريك؛ فظهوره عرقل خطته" وضع سبابته اليسرى على شفتيه مهمهم ومهزأ رأسه بخفة مفكراً بأمر وذراعه اليمنى خلف ظهره، تكلم مرة أخرى وهو يحرك يساره في الهواء: "لكن هناك نقطة لا أفهما... لماذا تم وضع المسدس في مكان يسهل العثور عليه؟ داخل علبة الألباس... لو كان ليوناردو يرد الزواج منك بعد قتل الكونت فمن الطبيعي ألا يضع أية شبهة حولك. وأعتقد أن التفسير الوحيد لهذا الفعل، هو أنه أراد التخلص منك أيضاً بعد الزواج وبعد أن يضمن أن كل شيء أصبح له، وللأسف اكتشاف المسدس بهذه السرعة لم يكن ضمن خطته. أليس هذا مؤلماً سيده أن؟" سألتها خاتماً حديثه. تساقطت دمعاتها الواحدة تلو الأخرى وأعلنت انهزامها أمامه انهارت تجهش في بكاءٍ مرير ووجهها طمس بحمرة قائمة. ولكن تشارلز تابع بصوت خافتة مخنوق: "ولكن أتعرفين ما يجعلني أجن؟ ... قاتله... قد يكون شقيقه! ولست قادراً على إيقاف هذه الأفكار! أريد استخلاص الحقيقة... لذا رجاءً ساعدنا وتخلصي من حيك الأعمى!" دنى منها أكثر حينما قال ذلك وأسنانها تصطك بقوة فخرجت الحروف وكأنها تتعذب من بين أسنانها بوجع وقهر: "السيدة إغاردين تصر على أنها رأت الكونت، ولكنها لم تره في الحقيقة بل رأت ليوناردو، تشابه عليها الأمر وظننته هو لكنني لا أتحدث عن إريك هنا... بل عشيقك... فرناند... وليس ليوناردو... فرناند هاربر".

لم يحب المفتش تصرفه هذا لقد كان من الواضح حتى لسكود أن كل ما يهم تشارلز هو العثور على فرناند خاصة بعد أن أصبح لديه خيطٌ أكيد على حياة فردٍ فهم وهي فالانتين فيليس، لم يكن مبالياً بها ولا بتواجدهما بل شك سكود أنه على وشك قتلها إن لم تنطق حالا.

سألها المفتش أملاً أن تنطق: "أين يمكن أن نجده؟ يا سيدتي".

تمهدت أن معلنه عن سقوط حصون عنادها، ثم أطلعتهم قائلة:

"ل لديه صديق... يعمل في الميناء الشرقي يدعى ريتش رولد؛ كان يتردد على ذلك المكان أحيانا لمقابلته.. ذهبت مرة واحدة معه إلى هناك... ل لكنني لا أعرف أين يمكن أن يكون فعلاً... صدقني!" ثم غاصت في بكاءها.

قطب تشارلز حاجبيه بشدة وكان أمراً ملحاً يجول في رأسه يحاول إمساكه... ثم فجأة انفجرت أذفانه لأقصى حد؛ لقد تذكر إخوة الصبي مارتين وذلك الشاب الغريب الذي اصطدم به، لقد نادوه ب السيد رولد! الاسم يطن طنيناً متكرراً في أذنه. بينما نهض المفتش متهدداً يجدد همته لبدأ العمل. وضع قبعته على رأسه قائلاً: "كونتيسة آن، يجب أن تعلمي أن وجود بصماتك على المسدس ليس شيئاً جيداً لذا انسي أمر ليوناردو ووكلي محامي".

تركت دموعها تفيض بجريان السيل، غطت فمها بكلتا يديها لتجيب صوت أنينها الجارح للمسامع. بينما خرج تشارلز مسرعاً وقلبه يتوق متهافئاً لمعرفة الحقيقة والانهاء من هذه الفوضى المريعة... ما كان بين ستة أيتام، الحلم المشترك، الاسم الواحد، لم يعد الآن سوى مجهولٍ هويته تتأرجح بين الظلمة والنور!

وكانه موعدٌ منتظم عند منتصف الليل، وقف أمام شاهدة القبر تحت سماءٍ حالكة السود لم يكن هناك بريق لأبي نجم فالغيوم غطت كل شيء، كما غطت الكآبة ملامحه، والحمرة الشديدة افترشت أرض أذفانه المرهقة، كان يحيط نفسه بمعطفٍ أسود داكن اللون يغطي بالقلنسوة رأسه المطأطأ، هالة الأرواح البائسة تحوم حوله بطريقة منفرة، ظلت عينيه ثابتةً على شهادة القبر، وبعد صمت ثقيل نطيق بصوت هامسٍ مبحوح: "دانييل، أرجوك! توقف عن الظهور في عقلي... لا أستطيع النوم أكد أجن! أعرف أننا ارتكبنا إثم كبيراً... لا يمكننا تغيير شيء الآن!"

سحب هواءً باردًا إلى صدره وخلال إطلاقه من بين شفثيه تبعثر دخان رقيق، رفع رأسه لسماء وأغمض عينيه يرى تلك الذكرى العابرة... كيف قام إلياس بنحز عنق رجلٍ أمامه مباشرة. فتح جفنيه وهو يتمتم: "كنت أعلم أنني سوف أدفع الثمن على تردي في تلك اللحظة، لكنني لم أتخيل أن العقاب سيكون مؤلمًا لهذه الدرجة أبدًا!... عدالة القدر، إنها قاسية! في نهاية المطاف... سوف تكفر عن خطايانا في الدنيا أو في الآخرة، ليس هنالك مهرب!". نظر إلى شاهدة القبر مرة ثانية وبدا كما لو أنه على يقين أن الراقد يتسمع له، ابتسم مشفقًا ربما على نفسه أو على ما اقترفه من خطأ.

(في نهاية المطاف... سوف تكفر عن خطاياك في الدنيا أو في الآخرة!)

الفصل السادس عشر

وصل أفراد الشرطة متخفين بأزياء مدنيه إلى الميناء، يصطف على طول المئات من قوارب الصيد والسفن التجارية منها ما أبحر مبتعدا عبر الخليج الهلالي إلى البحر الممتد ومنها ما اصطف عند المرافق. الروائح والأدخنة التي تفيض من مداخن السفن تتشكل كالمسحبات الرمادية تطوف وتجول حول منطقة الميناء، والناس تجيء وتذهب في الممشى المطل على الشوارع، وعلى أرصفة الميناء الكثير من العمال يعملون في توزيع البضائع وترتيبها على ظهور سفن الشحن التي تتمايل مع تيارات البحر، بدت الحالة فوضوية ولكن كل شخص يعرف منطقتة جيداً.

كان رولد مسؤولاً عن سفينة الشحن خمس وأربعين، يراقب تحميل الرجال للبضائع.. وقف رولد يدخل وهو يراقب عملية النقل عند رصيف الميناء، عينيه فاترتين مرهقتين وخطوط الاحمرار سطرت أسفلهما، أكثر من كونه يراقب كان شاردًا. جاء شابٌ لطخت ملامحه بغيار الفحم، همس في أذنه: "زعيم، لقد تأكدنا من تحميل البضاعة الخاصة".
نفث صاحبة دخان ثم دنى منه يحادثه بصوتٍ مبجوح: "أمتأكد أن لا أحد لاحظك؟".

- "طبعًا".

- "أحسنت! اذهب الآن".

حينما تم إبلاغ الضابط غرلين عن اسم رفيق ليوناردو براين، كان متفاجئًا بشدة فالاسم هو نفس اسم الساقى في حانة أمارند، فأمر المفتش غريس بإرسال مجموعة من الضباط متخفين بأزياء مدنية إلى حانة أمارند برفقة الضابط غرلين، لقد فضل الاحتراز هذه المرة لثلاث خسروا رولد كما خسروا ليوناردو. ظل غرلين يحرس بعينه ويراقب الداخل والخارج من تلك الحانة من جحر سيارته التي تقع في نهاية الشارع، وزميله بجواره يراقب الشارع. أما سكود اتجه مع زملاؤه إلى الميناء وأحد الذين كانوا مع غرلين في الحانة سابقًا تمكن من التعرف على ريتش رولد فهمس لسكود: "ذلك هو، الرجل الذي يقف عند سفينة الشحن رقم خمس وأربعين".

نظر سكود إلى حيث كانت عينا زميله تشيران، رأى ريتش واقفًا في نهاية درج خشبي يصل سطح السفينة بالرصيف يدخن ويتحدث مع أحدهم. همس سكود: "أبلغ الرجال أن يقتربوا بحذر من حوله، ولا تلفتوا النظر سوف نتبعه، قد يقودنا إلى ليوناردو".

أوماً ثم ذهب. بينما تمشى سكود حول مصب النهر، ثم توقف عند أحد الباعة ليشترى منه وراح يجادله في السعر، ثم تقدم بين العامة، لكنه كان حذرًا فلم يقترب من رولد وظل يراقبه، بيد أنهم لم يحيطوا علمًا بمن يراقبهم، كأنها عملية تريبص داخل الغابة، الثعلب يريبص بأرنب كبير، والصقريريبص بالثعلب الغادر.

عينها اليقظتان والواسعتان تضرب أعماق الروح بزرقها القرمزية، كانت هي فيرا، تراقب بكل حرص سكود ومن معه، ملكت جمالًا أخذ لكن العمل في الميناء سلبها حقها في إبراز ذلك كأى أثنى، ملابسها أقرب للملابس صبية الشوارع.

هيمن الليل وهدأت الحركة في محيط الميناء. أنهى رولد عمله، أغلق لائحة البضائع المحملة ووضعها في الدرج ثم نهض من كرسيه، أخذ معطفه من على الشماعة وأغلق المصباح، ثم قبل أن يغلق باب الكشك الخشبي هرع إليه صبيٌّ في الثالثة عشرة يحمل صندوق حلويات موصول من الجنبان بحبل يساعده على حمله حيث يرجعه خلف رقبته. قدم له حلوى وقال بابتسامة عريضة: "هل يمكنك شراء هذه الحلوى مني يا سيدتي؟".

ربت على شعره الأشعث الذهبي، بينما استلم منه الحلوى وابتسامة حانية على وجهه، ثم ترك المال في الصندوق. همس الصبي قبل أن يبتعد: "إنها خاصة!" وغمز بعينه اليسرى.

بعد أن ذهب، فتح كيس الحلوى ليرى كتابة عليها (ريتش، هناك من يراقبك!) تصرف بشكل عادي التقم الحلوى ثم عجزن كيسها بين يديه ثم دسه في جيب بنطاله. ارتدى معطفه وهو يراقب المكان بعينين يقظتين، ثم التفت إلى مجموعة رجال عند الرصيف، كانوا قد أخذوا راحتهم وتجمعوا حول نار موقودة من الحطب، يشربون ويلقون النكات.

رفع يده وهتف: "إلى الغد يا رجال".

رفعوا أياديهم وهتفوا بحيوية: "إلى الغد!".

على قمة سطح إحدى المنازل المطلة على الخليج، كان إلياس أشبه بصقرٍ مراقب جالسٍ على قمة السطح يترصّد تحركات أفراد الشرطة وعلامة طائرٍ موشومة على عنقه، وهنالك آخرون في جنح الأرقعة المظلمة يراقبون ويتربصون كالشياطين.

ثم لمح إلياس، سكود وهو يرمي سيجارته ويظهر من خلف عمود إنارة، ذاكرته النبيه مكنته من تميز شخصه وكشفه. فابتسم بسمّة جانبية وقال: "اللعنة عليك! روبرت نوتج إذن".

ابتداء ريتش لعبة المماثلة مع سكود، مشى حتى عبر جسر لار، واستمر على طول الشارع حتى دخل إلى حانة في نهايته، بقي فيها لما يزيد ربع ساعة يحتسي الشراب ويتحدث مع الساقى. ثم خرج وغط رأسه بقلنسوة معطفه الأسود وتابع مسيره، وسكود ومن معه خلفه بمسافة آمنة. أثناء مسيره بثقة فوق الرصيف الذي خل من العامة، صادف رولد رجلًا كبيرًا في السن فحياه بابتسامة بشوشة: "طاب مساؤك يا عم كولمير".

- "اييه سيد رولد! مساء الخير، مساء الخير!.."

توقف عنده وسأله: "هل بدأت ابنتك بالدراسة؟".

- "أجل، لقد بدأت منذ أسبوع. شكرًا على اهتمامك يا بني".

ربت على كتفه برفق؛ فقد كان رجل عجوز منحني الظهر أبيض كل شيء فيه: "لا داعي لشكر. أخبرني عن صحتك هل هي جيدة؟"

قال بامتنان وصوته الهزيل يهتز: "الحمد لله لقد تحسنت كثيرًا، شكرًا لاعتنائكم بابنتي فليقدرني الرب لأرد لكم هذه الجمائل! أبلغ تحياتي إلى سيد براين".

- "بتأكيد".

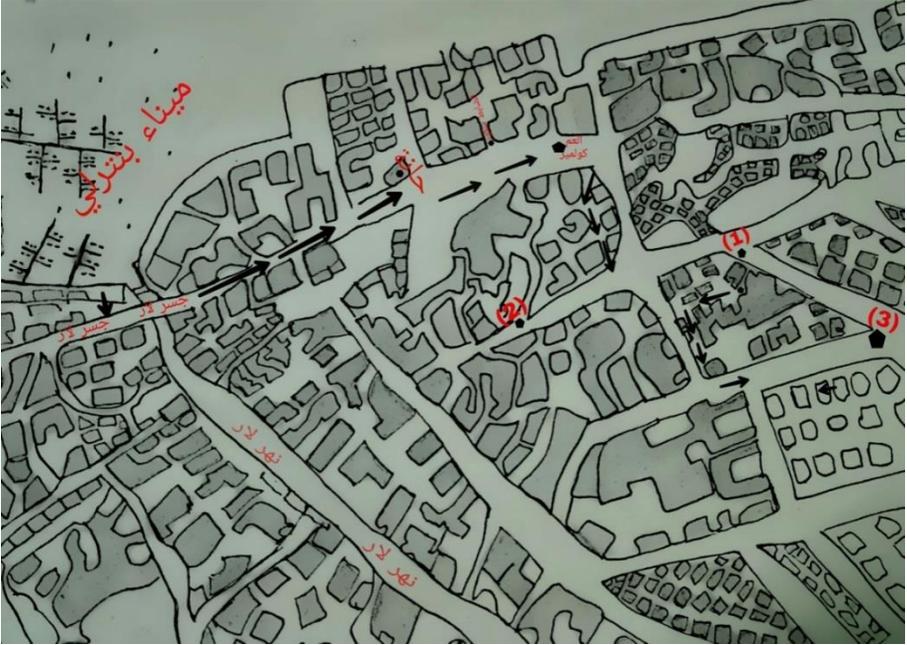
ثم أكمل طريقه. خرج سكود من الزقاق الذي اختبأ فيه، وتظاهر بالمشي وظلت عيونته تتبع ريتش.

فجأة، توقف ريتش فتوقف سكود، ثم فجأة بدأ يركض ودخل من طريق فرعي بين المنازل. هرول سكود ونبضاته تتصاعد باضطراب، حينما وصول إلى ذلك الطريق توقف مهوّنًا فلم يجده: "تبا! من أين ذهب؟". ركض مسرعًا على طولته وتجاوز أثناء سعيه للمطاردة سلّمًا حديدي يتصل بأعلى البناية وبعض المداخل يستعمل للطوارئ.

صعد على ١٥ درجة من الأسمنت الحجري ليجد نفسه أمام شارعٍ فسيح وأمامه على بعد ٧٠ مترًا مبنى شاهق غلف أجزاءه الظلام وعلى طول الشارع من اليمين واليسار أعمدة مضيئة، الصمت مطبق يبعث رهبة في النفوس. تلفت سكود غير عالمٍ للطريق الذي سلكه ريتش، ثم وأثناء تلفته اليأس لمح شخصًا يتعد من الجانب الأيمن لشارع ويكاد ينعطف ويختفي خلف مبنى، يرتدي معطفًا أسود ويغطي رأسه بقلنسوته. صك على أسنانه وهم يركض خلفه. لكن، أحد زملائه لمح شخصًا آخر بنفس المواصفات من الجانب الآخر للشارع فهتف قائلاً: "هناك!" توقف سكود والتفت للناحية الأخرى، أصبح في حالة اضطراب تام لم يعلم أيهما ريتش. فنطق بحنقٍ شديد: "انفصلوا! رالي ألحق الشخص الذي سلك الطريق الأيسر وأنا سوف ألحق بالشخص الآخر". تم تنفيذ الأمر وانفصلوا لمجموعتين.

إلا أن الشخص الذي لحق به سكود، دخل زقاقًا ضيقًا وحالما وصول سكود مع زملائه لم يجده... كأنما شبح تقمص لون الليل واختفى. كاد سكود يفقد عقله جراء ما يراه... لا شيء على مد بصره غير منازل وأزقة، فصاح بغضب شديد:

"محال! أهو بشري!"



تابع يسعى في الزقاق وقد بدأ الارتباك يتمكن من ثباته وأبخرت أنفاسه الباردة تفوح من بين شفثيه الجافان الغليظان، جهله مما قد يظهر له في هذه اللحظات بدأ يربعه ويخل رزاقته، ازدرد ريقه وجاهد لثبات فبعد كل شيء هذا عمله. وصل لنهاية الزقاق فرأى ميدان واسع لتقاطع الطرق والبنائيات تحوطه من كل جانب. مسح على وجهه غير مصدق أنه أضاعه راح يتلفت وهو يسير بخطوات ثقيلة، بعض السيارات تجري في تلك الطرقات وقلة قلال من الناس تسير كلٌّ إلى ما يشغله. لمح بعد أن ضاعت عينيه في الأرجاء شخصًا مقاس معطفه الأسود يبدو شبيهًا بمقاس معطف من يلاحقه كما أنه يغطي رأسه بالقلنسوة. شحذ همته وانطلق مسرعًا نحوه، أخرج مسدسه وصاح هذه المرة بنفاذ صبر: "الشرطة توقف عندك!" وعلى إثر ذلك قبض على معصم الشخص وجذبه بقوة مجحفة ليلقيه على الأرض ثم نزع القلنسوة عن رأسه، ليصعق برؤية شعرٍ محمر! واكتمل الأمر حينما سمع صوت نحيب متألم. اجتمع من كان من الناس ليروا الحادثة كلٌّ يحدق بعيون فضولية واسعة، بينما نهض سكود وسحب الفتاة

لينظره مجفلاً مفزوعاً وبل كادت عينيه تقتلعان من الدهشة: "كيف لهذا أن يحدث؟ أين تبحر؟!"

تطلع لوجه الفتاة ورأى خصلاتها تحجب تفاصيل وجهها فأزاح الخصال ليتأكد أنها فتاة. وتلك بدأت ترتجف وتتوسله: "أرجوك يا سيدي، أنا لم أقترف أي خطأ! أرجوك أتركني اذهب!"

بدأ عدد الناس يتزايد حول سكود مما أحرجه فترك معصم الفتاة والتفت كالتائه يبحث بيأس عن ضالته. هرولت الفتاة مبتعدة وحينما أصبحت في معزلٍ عن أنظار سكود خلف الحشد غطت رأسها مجدداً بالقلنسوة ابتساماً بسمة مأكرة وتمتمت: "أحمق!"

عملية الملاحقة الفاشلة أبلغ بها المفتش في صباح يومٍ يزخر بخليطٍ من الثلج والمطر، ولكن برودة الجولم تطفأ سخط وغضب المفتش من هذا الإخفاق، وكان سكود يطأطأ رأسه.

- "يا إلهي!" زفر المفتش بعصبية: "إن استمرينا على هذه الحالة لن نصل إلى أية نتيجة تذكر!"

ثم نظر إلى الضابط غرلين وسأله: "ألم تتمكن حتى من معرفة عنوان منزله يا إريك؟"

طأطأ رأسه هو الآخر مجيباً: "يؤسفني أننا لم نتمكن من ذلك يا سيد المفتش! في المرة السابقة حينما تتبعته بعد انتهاء دوام عمله في الحانة، دخل إلى إحدى الأزقة وبعدها اختفى."

أردف سكود ساخطاً: "هذا ما حصل معي، كأنهم أشباح!"

استدار تشارلز عن النافذة ثم تدخل في حديثهم قائلاً: "كنت متوقفاً هذه النتيجة!"

حدجه سكود بنظرة محتدة للغاية ولم يرق له كلامه. تابع تشارلز: "لا أظن أن ريتش رولد هو اسمه الحقيقي"

قطب المفتش باستغراب: "ما الذي تقصده؟"

- "كان ريتش اسم ريتشارد المختصر في بيننا. كان واحداً منا الفرد الرابع. لو صدقت توقعات فإنه ريتشارد ستيوارت وليس رولد"

- "حسنًا يا تشارلز" قال المفتش ثم أردف: "حتى الآن نصف ما قلته بدأ حقاً يطفو في السطح وأصبحت أقتنع أن موت الكونت جاء لسببٍ كبيرٍ جداً."

- "إن فكرنا ملياً في المسألة" قال سكود: "الكونت دانييل كان يحمل نفس العلامة. والمدعو ليوناردو كما توضح لنا من حديث الكونتيسة يملكها أيضاً" أعطى تشارلز نظرة ثم تابع: "وأنت كذلك. كنتم في ذات الدير. كما أنك لمحت نفس العلامة على رسغ الشخص الذي هاجمك، لسنا واثقين من هذا حتى الآن. ولكن، هناك احتمالاً كبير بأن يكون هو نفس الشخص الذي هاجم السيد إريك... كل ذلك يعني شيئاً واحداً، أننا أمام جماعة متمكنة، ومن يدري قد يكون الكونت ممولاً لهم وإلا كيف وصلوا إلى تلك النقطة من القوة، ثم وقع خلاف بينهم فقتلوه... وأظن أن الخلاف واضح، عشق امرأة".

عارضه تشارلز مزعجاً من استنتاجه: "غير صحيح، لو أن فرناند كان على إطلاعٍ بحقيقة هوية الكونت أوليغرس، لو كان حقاً يعلم أنه شقيقه لما أقدم على قتله أبداً!"

- "يمكن لعشيق امرأة أن يفرق الأخوة ويسبب حروباً، هذا ليس مستحيلاً".

صك تشارلز على اسنانه حانقاً وارتفعت نبرة صوته المثارة بالاستياء مما جعله يبدو متناقضاً: "أنها مجرد استنتاجات وأنا غير واثقٍ حتى من كون المدعو ليوناردو ذاك هو نفسه فرناند هاربر!..فرد سكود ذراعيه وهز منكبيه غير ابيه لانفعاله ومضى يقول: "ألم تصرح الكونتيسة على أن عشيقها يملك نفس وشمك، هذا دليلٌ قاطع على وجود صلة بينهم. وعلى الأغلب تشاجرا بسببها فقتل الأخ أخاه. ولكن، من جانبٍ آخر يمكننا القول بأن الكونت كان يتأرس جماعة ما وعلى حسب ما قلته أنت قد تكون ذاتها الكاردينال، ربما مضى في تكوينها بعد أن افتقرت طرفكم وضم إليه المدعو ليوناردو براين. إذن نحن في دائرة مغلقة... إما يكون المدعو ليوناردو هو نفسه فرناند_وهذا ما يفسر تشابههم أو شمتكم_ وإما أن الكونت أوليغرس فعلاً كانت لديه أفعال مشبوهة كتأرس جماعة خفية وذاك الشخص. أعني بذلك ليوناردو، منظم إليها وهكذا حصل على وشمكم" زفر مرهقاً وهو يتمتم: "آه يا إلهي اصبت بدوار من هذه القضية!"

- "ما الذي تحدث عنه؟! هتف تشارلز وازداد حنقاً، مع ذلك هذا لم يثني سكود على المتابعة فيما يعتقد: "ما أتحدث عنه واضح، وإلا فسر لي سبب تشابه أو شمتكم والتي أقرت الكونتيسة بجد ذاتها على تشابهها؟".

عجزه عن الرد وسمح لمقدارٍ هائل من العصبية أن يتدفق إلى عروقه حتى جعلته يقبض على قبضتي يديه ليفرغ بعضاً من البغض الذي اجتاح صدره كأنما هنالك وترٌ حساس يأب تشارلز

أن يتم لمسه مطلقاً، لقد أراد أن يكون مخطئاً ومصيباً في ذات الوقت؛ لقد أراد أن تصيب الكونتيسة في اعترافها عن وجود تشابه بين وشمه ووشم ليوناردو؛ فذلك يعني أن هناك دليلاً ملموس على حياة فردٍ آخر من رفاقه. وفي نفس الوقت شعر بالانزعاج من تحليل سكود ولم يرق له من كل النواحي. كما أنه وللحقيقة، يكشف ذلك بكل سهولة على ملامحه، لقد ضم ما بين حاجبيه عابساً وأشاح بصره عنهم، ولما رأى المفتش ذلك فضل إنهاء سجاليهما قائلاً: "دعوا هذه النقاشات جانباً الآن. علينا الإمساك بليوناردو أو ريتش هذا قبل أن يلذا بالفرار".

أردف تشارلز مستطرد بعد صمت وجيز: "هناك مكانٌ أعتقد أننا سوف نتمكن من معرفة شيءٍ يساعدنا"

تساءل المفتش: "وأين هو هذا المكان؟".

- "هنالك طفل يدعى مارتين... توقف وشرّد قليلاً. سأله المفتش حينما طال صمته: "ما بك تشارلز؟". رفع بصره نحوه ثم نطق بشتات واضح وصوتٍ شبه هامس: "عائلة هذا الفتى... يمكن أن تقول أنني أعرفهم إلى حدٍ ما" تهذبضيق ثم قال بعجلة وكأنه يتهرب: "سوف أذهب إلى منزلهم؛ أعتقد أن ذلك الفتى قد يفيدنا بشيء".

- "لن أسمح لك بالذهاب بمفردك".

- "سأكون بخير لا تقلق. يفضل أن أذهب بمفردى حتى لا نثير الشبهات".

أصر المفتش في حزم: "مع ذلك، سوف أرسل ضابطين معك".

أردف تشارلز بعناد: "أبي رجاء! إن شعرت والدته بخطب قد نفسد كل شيء!".

- "لا بأس لن يدخلوا معك للمنزل سوف يبقون في الخارج احترازاً".

تهذب تشارلز مستسلماً. خلال ذلك قرع شرطئ الباب ودلف قائلاً: "سيدي المفتش، أسمح لي بالدخول؟".

- "تفضل". أذن له المفتش.

تقدم ناحيته وهو يحمل ملفاً، وضعه بين يديه وقال: "لقد بحثت في الموضوع الذي أوكلتني به. تمكنا من جلب بعض المعلومات عن تلك الجماعة. لن تصدق ما سوف تقرأه".

فتح المفتش الملف وبدأ يقرأ، إلى جانب كل صفحة تحوي معلومات، صفحة أخرى تحوي صور، رسومات لجدران نقش عليها رسم طائر، وصورة آخر لجبين رجل نقش عليه بألة حادة

ليخلف جرح يشبه جناح طائر.. رغبة تشارلز في معرفة ما يحمله ذلك الملف جعلته كمن يقف على جمر، فسأل مترددًا: "ه هل هي سيئة؟ المعلومات". سأل تشارلز.

"حسنا، لم يفاجئني هذا نوعًا ما". أجاب المفتش وهو يرفع كلتا حاجبيه: "قبل عدة سنوات كانت هنالك حوادث غريبة تحدث في غاليرياسك، لم تستطع الشرطة اكتشاف محدثها، وغالبًا كنا نعرث على

خرايش مهمة المعنى. من تلك الحوادث، اقتحام قصر البارون فيكتور هوانس، قُطعت يدي الرجل ثم ترك على جبينه جرحٌ بليغ يبدو بالشكل العام كجناح، وسلبت كل الأموال من خزنته بالإضافة إلى مجوهرات امرأته. في بادئ الأمر ظننا أنها عملية سرقة، لكن وخلال أربعة أيام عُثِر على خمسة رجال بنفس الحالة، تم قطعوا أيديهم ونقش على جباههم نفس العلامة بألة حادة. الغريب في الأمر أن هؤلاء الرجال لم يكونوا ذوي مكانة اجتماعية مرموقة، فقد ظننا أن الجريمة التي حصلت في قصر البارون ليست إلا عملية سرقة تنطوي على إجرام وحشي، لكن ظهور ضحايا متتابعين بنفس نمط الجريمة جعل القضية تتجه لاتجاهٍ معاكس، ثم صدمنا حينما وصلنا بريد من مصدر مجهول يحوي ملفات مشبوهة عن البارون وأن هناك صلة بينه وبين أولئك الرجال الخمسة. قادتنا تلك الملفات إلى شبكة تتاجر بالقاصرات في النهاية. وبعد فترة من ذلك الاكتشاف تأتينا أنباء عن سرقة شحنة كاملة من الأدوية، كان يفترض إيصالها إلى مشفى هرنيند الملكي وتركت علامة منقوشة على الشاحنة ولكن هذه المرة كانت عبارة عن طائر. لم تنتهي تلك الحركات الغامضة حيث تم اتلاف بعض الممتلكات التابعة للحكومة عن طريق رسم كتابات ونقوشٍ غريبة. من يقوم بذلك؟ ولأي غرض ولصالح من يعمل؟ كل ذلك بقي بلا أي جواب. والآن يمكنني أن أعرف ما الذي يرمز له ذلك الرمز... "رفع بصره لتشارلز متمًا: "إنه طائر، وقد يكون طائر الكاردينال!".

أردف سكود بعده: "إذن نصل إلى جواب هذه القضية أخيرًا، الكونت كان هو من يحرك تلك الجماعة والمدعو ليوناردو جزءٌ فيها، ربما قام هو وأن بالتعاون لقتل الكونت أوليغرس. ومن يدري ربما مساعي ليوناردو لم تكن فقط من دافع هيامه المفرض بل استغلالًا لأجل الزعامة".
لم ينطق المفتش بأي شيء بل نظر إلى تشارلز وتأمله بإمعان رأى عدم الاقتناع على وجهه!

الفصل السابع عشر

الساعة الثالثة إلا ثلث. ضاحية جاريس الشرقية. المنزل رقم خمسة وثلاثين، توقفت السيارة على بعد من ذلك المنزل، نزل تشارلز وهو يحمل قبعته، التفت نحو الضابطان وتحدث معهما بلباقة: "أرجو منكما أن تظلا هنا".

"لا عليك، ولكن إن شعرنا بأي خطب سوف نكون بداخل، هذه أوامر المفتش". أجاب الضابط شيلس كورند وقد بدا جاداً فتمهد تشارلز واكتفى بالإيماء. أثناء قطعه للشارع في اتجاه الرصيف المقابل، أرجع خصلاته السوداء للوراء ثم وضع القبعة فوقها. وقف أمام باب المنزل ثم أخذ نفساً عميقاً وقرع الجرس. خلال انتظاره سمع أصوات ضحكات أطفال فابتسم بسمة طفيفة، ثم سمع صوت مارتين المرتفع يبدو أنه كان يبوح إخوته أثناء اتجاهه للباب، بعدها سمع صوت غفل الباب يفتح وأطل مارتين بملامح منشرحة لاح أكثر نظارة وجمالاً من المرة الأولى التي التقاه فيها. وقف الصبي مدهوشاً فاغراً يحدق بتشارلز، في حين هو كان يلوح بيمينه مبتسماً: "مسء الخير، أيها الرجل الصغير!".

"أ... أن... أنت!" تلعثم مارتين مما جعل تشارلز يضحك بتكلف. ظهرت السيدة هيلي من خلف الجدار الفاصل بين الردهة وباب المنزل. تقدمت تسأل باستغراب: "من هذا الرجل يا مارتين؟". التفت لأمه وبقي يتلعثم: "إ... إنه... إنه السيد ذو الأسئلة الكثيرة".

قطبت والدته بتعجب مما يقوله لكن فور أن تذكرت ما كتب في الرسالة نظرت بصدمة لتشارلز مغمغمه: "ه هذا الشاب هو..." أخفضت بصرها لحذائيه البنين ثم بدأت ترتفع ببطء حتى وصلت لوجهه الباسم تنطق دون وعي: "يا إلهي!".

"عذراً على ظهوري بهذه الطريقة!" قال تشارلز مومئاً. تقدمت السيدة هيلي في ارتباكٍ شديد وهي تقول: "لا، لا! فقط... ل لقد تفاجأت فعلاً! تفضل!".

"شكراً، اعتذر مجدداً على ازعاجكم".

دخل تشارلز وبعد جلوسه في حجرة الضيافة، غابت السيدة هيلي قليلاً لتحضير الشاي. ألقى تشارلز نظرة على امتعهم التي لا تزال داخل الصناديق في الممر. بينما كان مارتين مع أخويه

يجلسون مقابله ويحدقون به كما لو أنهم مجموعة من القطط التي تشاهد شيئاً ساحراً. وجه تشارلز بصره إلى مارتين وابتسامه حنونة تغدق ملامحه: "كيف حال الرجل الصغير؟". لم يجب الصبي لقد تذكر كيف عامله بجفاءٍ أول مرة فأحس بالخجل وأخفض بصره يجيب بصوت منخفض: "بخير".

- "من هذا؟" سألت أخته الصغرى فأجاب تشارلز بوداعة: "صديق مارتين".

أطلقت الصغيرة صوت يدل على دهشتها الشديدة وقالت: "هاه! صديق مارتين طويلٌ جداً!". انشرفت اسارير تشارلز وضحك بهدوء، بينما أسرع مارتين لإسكاته: "أسكتِ مونيا!". جاءت السيدة هيلي وهي تحمل صينية القهوة، قدمتها لتشارلز ثم سعلت فجأة مما جذب انظاره إليها بقلقٍ واضح. رفعت راحة يمينها وغطت فمها ليخرج صوتها المحرج مكتوماً: "متأسفة جداً!".

- "لا بأس. هل ذهبتِ إلى الطبيب؟".

جلست بجوار ابنها ثم اجابت: "بلى، قد ذهبت وأعطاني ما يكفي من الأدوية ولكن فصل الشتاء قاسي دوماً".

أوماً متفققاً، ارتشف من القهوة ثم تذكر أمراً فسارع للقول: "يا إلهي! لم أعرف عن نفسي بعد. تشارلز غرنالد".

- "يشرفني حقاً أن التقي بك يا سيد غرنالد، لقد حاولت معرفة أي شيء بخصوص الشخص الذي قدم لنا هذه المساعدات... لكن لم أستطع، الرجل الذي أعطانا مفتاح هذا البيت رفض إطلاعنا بأي شيء". قالت السيدة هيلي.

- "نعم، أنا طلبت منه أن يفعل ذلك، اعذريني. رأيت أن هذا قد يكون أنسب... ولكن... قررت أن آتي حتى اطمئن بنفسي أنكم لست في حاجة لأي شيء" اعطى نظرة لمارتين مضيئاً: "أريد أن أحرص على تمهيد مستقبلٍ جيد لمارتين، أنا واثقٌ أنه فتنٌ ذكي يحتاج فقط إلى فرصة حتى يدخل إلى المدرسة ويثبت ذلك، أليس كذلك؟ مارتين".

ارتفع منكبيه منكمساً قليلاً على ذاته، هز رأسه ثم رفع بصره نحوه بثقة تامة، وقلبٍ مملوءٍ باللهفة لإثبات ذلك.

تكلّمت السيدة هيلي بامتنان بالغ: "لا أعرف كيف سوف أرد لك معروفك هذا يا سيد غرنالد. شكراً، شكراً جزيلاً لك حقاً!".

بعد صمت وجيز همهم تشارلز وكان يحاول إيجاد افتتاحية لحديثه القادم، وضع الفنجان على طاولة بقربه ثم استطرد قائلاً: "هناك معروف جئتُ حتى أطلبه منك يا سيدتي. أرجو أن تعذريني!.."

اندفعت تقاطعه بسرعة: "ما الذي تقوله يا سيد غرنالد، بعد كل ما قدمته لنا... بتأكيد سوف أكون سعيدة بتقديم ما أقدر".

ابتسم شاكرًا لفهمها فقال: "لقد لحقت بمارتين حتى أعرف عنوان منزلكم". هتف مارتين مدهوشًا "ه هل تبعتي؟!".

مطى تشارلز بسمة عريضة مرحة وهو يحدثه: "طبعًا، رفضت إطلاعي على عنوان بيتك، لقد كنت ولدا حذرا وهذا ما أعجبي فيك".

احمر وجه الصبي واخفض رأسه أكثر حتى بدا كأنه سوف يدفنه داخل ثيابه من الخجل.

استضحكت والدته قليلا ثم ربتت على رأسه بلطف بعدها أخفضت بصرها، وعندما تكلّمت أحس تشارلز بنغمة مرهقة كسيرة في صوتها:

- "أرجو منك أن تعذره على ذلك، يا سيد غرنالد. لا بد أنه حسبك أحد الدائنين فخاف أن يعطيك عنواننا. لقد مات زوجي وترك لنا ديونا كثيرة!".

أوماً تشارلز متفهمًا ثم رح يطمئنهما بصوت هادئ يكفي لإخماد نيران قلبها المستعرة: "سوف أحرص ألا يزعجكم أحد بعد الآن".

- "شكرا جزيلا لك!".

همهم لبعض الوقت ثم احتسى الشاي ورحت عينيه شاردتان، لكن داخل عقله الكثير من الضوضاء الغير محتملة كان يفكر كيف سوف يتابع حديثه. وضع الفنجان على صحنه ثم زفر قائلاً: "ح حسنا، في ذلك اليوم حينما اتبعتك يا مارتين، أذكر أن هناك رجل كان يقف بقربك، أتذكره?".

رفع رأسه وطرف باستغراب: "رجل!".

- "أجل، لقد دعوته بالسيد رولد".

- "هاه، نعم، نعم!".
- تهند تشارلز بارتياح ثم تكلم: "هذا جيد، لقد أعطيت أمانة وطلب مني أن أسلمها إلى شخص يدعى ريتش رولد. ولكن لم أكن أحسب أن ذلك الرجل الذي كان يقف معك آنذاك هو ذات الشخص الذي أقصده. ظلت أبحث عنه حتى يُدست، ثم تذكرتك".
- تمتت السيدة هيلي بصوت مسموع: "ريتش رولد، نعم أعرفه... إنه شخص طيب حقاً! لقد ساعدنا هو وزوجته كثيراً وقد سد بعض الدين الذي علينا".
- رفع حاجبيه والدهشة تطفو بشكل يسير على ملامحه، وتمتم مأخوذاً بما سمع: "زوجته!". ثم رفع صوته مسترسلاً حديثه: "إذن، لكِ معرفة سابقة بهم. ألا تمنعني في أن تعطيني عنوان منزلهم، أنا في حاجة ماسة لأن أتأكد هل هو ذات الشخص الذي أبحث عنه أما لا".
- "بتأكيد" وضعت يدها خلف ظهر مارتين قائلة: "عزيزي، أذهب وأجلب ورقة وقلم".
- نهض وغادر الحجرة. بينما سألت السيدة هيلي بفضول: "ما هي تلك الأمانة؟".
- "إنها أمانة أعطاني إياها شخصٌ مقربٌ منه حينما كنا صغاراً" أجاب تشارلز وكم بدا هادئاً جداً، أخفض بصره متمماً: "وعلي إيجادها بأية طريقة حتى أسلمها له".
- كان يستحيل على السيدة هيلي أن تجد مثقلة ذرة من الكذب في وجهه المخادع، لقد كان محققاً في جزء مما قاله، هذا ما أمن به على الأقل وربما لهذا كانت ابتسامته تبدو صادقة!
- جاء مارتين وهو يحمل دفترًا وقلم، أعطاه لوالدته فكتبت عليه العنوان ثم شقت الورقة وقدمتها لتشارلز قائلة: "تفضل، إنه يعيش في ضاحية لينهاستنغ. (شارع لورانس ٢) إذا سألت أي شخصٍ في تلك المنطقة سوف يدلك مباشرة إلى منزله".
- "حسنًا، شكرًا جزيلاً لك" أردف تشارلز بامتنان، وحينما هم بالنهوض تذكر أمرًا فنظر إلى الدفتر ثم مد يده قائلاً: "هل يمكنني أن أستخدمه؟".
- "آه بتأكيد". سلمته إياها مع القلم. فكتب تشارلز عليه (شارع د. جيلبرد. بناية شارتيير. شقة رقم ٢٥٠) ناولها الدفتر قائلاً: "هذا عنواني، إن احتجتم أي شيء أرجو ألا تتردد في مراسلتي".
- أومات وابتسامة جميلة تكلل وجهها. خرج تشارلز وهو يحمل قبعته بيساره أجرى محدثة قصيرة مع السيدة ومارتين عند مدخل المنزل ثم ربت على رأس الصبي. التفت ناحية السيارة وهو يرتدي قبعته. حينما دخل إلى السيارة سأله شيلس: "إذن كيف جرّ الأمر؟".

تهمد بعمقٍ شديد ثم أجاب: "ضاحية لينهاستنغ شارع لورانس ٢. يعيش هناك!".
حرك شيلس السيارة خلال حديثه: "حسناً هذا قريبٌ من حانة أمارند. تلك المنطقة وكل ما حولها سوف تتم إحاطتها برجال الشرطة".

وقتئذ اجتمع ريتش وإلياس، وتلك الفتاة ذات الشعر الصاخ بحمرة النارية، فيرا، مع فان في حجرة مغلقة تقبع في الطابق الثالث داخل البيت الكبير، الباب موصل والجو يبدو محموم بين ريتش وفان الجالس على كرسي ويضع ساعديه فوق طاولة أمامه مباشرة.

- "فان، أنا لا أفهم سبب قلقك! أتظن أن أولئك الرجال قادرين على إمساك واحدٍ منا؟".
لم يجبه ولاح هادئاً رغم أنه قبل قليل كان في أوج غضبه لكنه سار كمسار العاصفة التي رمت أنقالها وسكنت، شاردٍ يحرق في اللاشيء إلا أنه من الداخل في همٍ عظيم شحب له وجهه. نطق بعد بضع ثواني بنبرة خافتة تناقض نظرتة الحازمة: "نعم، هذا ما كان سيحدث لولا انتباه فيرا! كنت سوف تقع بين أيديهم".

- "ولكن هذا لم يحدث أليس كذلك؟ استمع إلي جيداً، إذا كنا سوف نرحل عن هنا فلن نغادر بدونك أتفهم. لنترك ياسك!". زعق بوجهه وهو في قمة كبتة لغضبه.

- "لا يمكنني المغادرة إلى أي مكان قبل أن أكمل ما بدأتها يا ريتش!" أطلق الآخر صيحة هائجة في وجهه مما أيقظ جنون الثاني ليجتره من ياقته بقوة مباغته: "ما المهم! ما المهم في إكمال هذه الأمر اللعين! أخبرني" لاحت صبحته مكبوتة جريحة متألمة بشدة .

كلُّ من فيرا وإلياس يشاهدان نازاً محتدماً تحوم حول ريتش، بينما بدا فان باردًا، باردًا كجبلٍ من الثلج. أجاب بهدوء يبعث القشعريرة: "لأجل كل تلك الأيادي التي تنتظر رغيغ خبز سوف أتابع! حتى إن غرست كلتا يداي في الدماء... سأكمل ما بدأتها!".

بينما هم غرقين في سجالهم، كانت كاثرين تقف أمام الباب الحديدي، تقرب أذنها اليمى منه وتستمع إليهم، رغم ذلك لم تتمكن من فهم حوارهم القائم، شعرت بالقلق من صوت ريتش المرتفع الذي زاد رعبها واثار هواجسها! بدأت تصدق شكوكها بأن لا خير فيما يخفونه عنها. تراجعت عن الباب حينما سمت صوت خطوات تتجه نحوه؛ فقد أبعد فان يدي ريتش عنه وفضل إنهاء السجال قبل أن يخرج عن مساره ويصبح سيئاً. قال أثناء توجيهه للباب بصوت

حاسم في قراره: "غدًا سوف ترحلون هل هذا مفهوم!" قبل أن يمسك مقبض الباب أوقفه قول ريتش: "ألستنا نهرب!... إذا غادرنا هذا المكان ماذا سوف يحل بكل هؤلاء الناس الذين يثقون فينا؟ ألن نعرضهم للخطر لو هربنا؟ الشرطة قد تعتقلهم جميعًا... سوف تصبح حياتهم جحيمًا أكثر مما هي عليه الآن."

- "سوف أحرص على عدم حدوث ذلك... لهذا أبعدهم من هنا. أفهمني رجاء!" كانت تلك آخر جملة نطق بها فان قبل فتح الباب، أحست فيرا بخطب ما... شيء ليس صحيحًا في كليهما وجعلها غاضبة ومتوجسة فقررت الخروج واللحاق بفان أما كاترين التي اسرعت بالهرب إلى جهة الممر المعاكسة واختبأت خلف الجدار، بدت مفاجوعة للحد الذي جعلها تشل في مكانها وتتمتم: "م ما الذي يحدث؟".
اقرب إليها من ريتش وهو يتأمله بنظرات مريبة ثم همس بصوت هادئ: "ما الأمر؟ ري".
- "لا شيء!".

- "ما الذي رأيته في ذلك اليوم؟ أو بالأدق ما الذي رأيته على ذلك الرجل؟".
التفت نحوه بسرعة بل اندفعت يده لتحط على كتفه اليمنى سحبه بشيء من الرفق وخاطبه بوجهٍ يدعي الثبات: "قلت لك، لم أرى شيئًا!".
رمقه بطرف يعينه مرتبًا: "ري، أنت تكذب!"
- "ولماذا أكذب؟".

- "لا أعرف. أظن أنك تحاول الهرب من شيء".
- "أغلق فمك!" قال بابتسامة تبطن غضبًا شديدًا ثم غادر المكان.

في الفناء الخلفي عند زاوية الزقاق الذي ركن فيه بعض الخردة والصناديق، حبس فان نفسه وسط صندوقين من الخشب، يدخن بشراهة، وفي صدره صخرة عظيمة من الهم تجثم على أنفاسه، أراد الانعزال والبقاء وحيدًا مع ذلك الضعف الذي يستفحل كسم الزعاف في روحه، أصبح المكان الذي هو فيه محاطًا بسحابة خانقة، بإمكانه سماع صوت صخب الأطفال وهم يلعبون في الباحة الأمامية، وذلك جعله راغبًا في الموت، شد خصال شعره الدهنية المموجة كأنه يبتغي اقتلاع التفكير من رأسه حتى لو اقتطع الأمر نزع كل خصلة من شعره، التفكير في

مستقبلهم، هؤلاء الأيتام، هل ستترك الحياة لهم مجالاً لينعموا فيها؟ هل يمكن للحياة أن تمنح التعاسة من سجلات حياتهم؟ الكثير من التفكير، والكثير من الغم كاد يقتله؛ فقد صنع من نفسه أباً روحياً لهم جميعاً!

استنشق بهستيرية من سيجارته، كأنه يحاول خنق نفسه بالدخان السام عمدًا، يريد أن يتغلغل إلى أعماق نقطة، أعمق من قلبه ورئتيه إلى روحه فيقتلها، حينما شعر بالاختناق أبعد السيجارة وسعل بإفراط بينما الدخان يفيض من فمه وانفه! عندها، تمكنت من معرفة مكانه بفضل تلك السحابات العائمة في الفضاء. تقدمت ثم جلست على أمشاط قدميها مقابله تمامًا. قد أرخى ظهره للجدار في فتورٍ كامل والدخان يعوم كاللعنة حوله. تأمل عينها في صمت، وهي تأملت رماديتيه كأنهما تشكلتا بعد نار جهنمية عصفت بكيانه... وكما لو أنهما يجريان حديثًا جنباً في الحروف، وظل لدقيقة كاملة حتى قالت:

- "فان، لم تكن هكذا أبدًا... لم تكن متزعزعاً أبدًا، هنالك ما يزعجك. أخبرني ما هو؟".
- تكلم وعقله سارخٌ في مكان آخر رغم أنه ينظر إليها مباشرة: "لا أعرف يا فيرا. ولكن، ذلك الشخص، منذ أن التقيت به، وأنا أشعر برغبة جامحة في الابتعاد عنه".
- "لماذا؟ إنه مجرد شخصٍ آخر جيبه مملوءٌ بالمال، إنه كذلك الثري اللعين! كلهم متشابهون الأثرياء محملين بالعفن أينما كانوا!".
- قالتها بهدوءٍ مرعب ثم ابتسمت وأمسكت يده اليمنى قائلة: "نحن معك، لا تقلق، هنالك الآلاف معك".
- لم يرد بشيء وبقي ينظر إليها، لاحظ سلسلة ذهبية ترتاح على رقبتها البيضاء القصيرة بينما نصفها الآخر مختبأ تحت قميصها. مد يده وأمسك طرف السلسلة ليخرجها ويرى وردة حمراء نحها دقيق متقن وغاية في الجمال، ابتسم بشجن وقال: "ما زلت تحتفظين بها".
- أوامات بابتسامة لا تقل بهوتًا وأسى عن سائلها. عاد يسألها مجددًا: "أتظنين أنه على قيد الحياة؟".
- "حتى إن لم يكن على قيد الحياة في هذا العالم، فهو..." رفعت بصرها إلى السماء وتابعت تقول بابتسامة راضية: "قد يكون مرتاحًا بجوار والدته... هناك".
- "هل كان ليوافق على ما نقوم به لو كان بيننا؟".

أنزلت بصرها إليه ولم تجبه بسرعة، تطلع كليهما إلى بعضهما وكأن الجواب يحرم البوح به. أشاحت وجهها عنه ولاحت غير واثقة مما تقوله: "من يعلم، لطالما كان غرينو عاقلاً. ولكن، لو رأى مقدار تعاسة كل هؤلاء الناس لعرف أن القانون لا عدالة فيه". أرجع رأسه للحائط ورفع بصره للسماء زافراً زفرة طويلة منهكة وتدفق الدخان لا يزال يتسرب من بين شفتيه أثناء قوله: "غرينو... هاري!".

الفصل الثامن عشر

تمت مراقبة منزل ريتشارد ستيوارت منذ اللحظة التي نقلت فيها المعلومات إلى المفتش فأصدر أمره بمراقبة المنزل وترصد أية حركة من حوله. أهم شيء كان يركز عليه المفتش غريس ليس القبض على ريتش فحتى ورغم أنه أصبح مشتبهًا من الدرجة الأولى، إلا أن المفتش رغب في جعله الخيط الممدود الذي يقودهم إلى فان مباشرة. لذا كان امره يقتض بمراقبة أي شخص يدخل بيته وتبعه.

كان ريتش يسير على الرصيف عقله ترك القيادة لقدميه اللتان تحفظان طريق منزله وكل الأذقة في هذه الضاحية، لم يكن يرفع بصره حتى ليرى أين توصلوه قدميه من شدة شروده! مر من جانب عربة لبيع الخضروات، والرجل الذي يبع لم يكن إلا أحد المراقبين من قسم الشرطة. رفع حبة طماطم فكانت كالإشارة المشفرة لأحد المراقبين، وقد كان يقف في الجهة المقابلة من الشارع، يتكئ على عمود إنارة ويقرأ جريدة بينما يدخل. قلب ثلاثة صفحات من الجريدة ليوصل الرسالة إلى زميله الآخر داخل السيارة. بينما ريتش يمضي في سكينه تامة غارقًا في تفكيره، توقف فجأة كما لو أن طنينًا صاخبًا أيقظه للعالم. طرف مرتين وهو يتمتم: "عربة خضار! لم يكن هناك أية عربة في هذا الطريق من قبل!" التفت نحوها ثم سار بخطوات متكلفة ووقف أمام البائع يتفحص الخضروات بعينين خبيرتين. كل الخضروات ناضجة وتفوح منها رائحة زكية تدل على جودة عالية. أعطى البائع نظرة حينما سمعه يقول: "هل تريد الشراء يا سيدي؟".

- "أجل، من فضلك! أعطني أربعة حبات من البطاطس، وخمسة حبات من الطماطم. والفجل، والفلفل الأخضر..." حك شعره متدمرًا: "تبًا! لقد نسيت بقية الطلبات! سوف تقتلني زوجتي إن عدة بدونها كان علي أن أكتب قائمة قبل خروجي!" قال ريتش بنبرة فكاهية وهو يمثل بإتقان أمام الرجل، أضاف قائلاً: "لا بأس سوف أعود مجددًا وأتلقى محاضرة طويلة منها. على أية حال، هذه أول مرة أراك هنا؟".

- "نعم، نعم! لقد بدأت العمل قبل مدة وجيزة" أجابه وهو يتسم بكل بشاشة ويدعي الانفتاح التام كما لو كان بائعًا حقيقيًا، بيد أن ريتش كان أكثر دهاءً، قال سائلًا: "أليس غريبًا أن تبيع في هذا الشارع؟".
- "لما؟ ما ما الغريب؟" سأل مستغربيًا فأجابه: "أعني غالبًا لا أحد يعبر من هذا الطريق، لن تكسب الكثير هنا".
- "أوه! لا تقول ذلك" هتف الرجل باستياء: "وأنا الذي أسأل نفسي لماذا لا يظهر أحد هنا! تبًا كنت سوف أقضي اليوم كله أقف كالأحمق انتظر أحدًا ليشتري".
- أمسك ريتش حبة طماطم وعانيتها جيدًا ثم راح يرمي بها للأعلى ويمسكها أثناء سؤاله الماكر: "خضرواتك مملوءة بالحياة. أخبرني، من أين تجلبها؟ إنها مختلفة بعض الشيء؛ أقصد إنها ناضجة حقا على عكس بعض ما يجلبه الباعة في هذه المنطقة. أغلبها تكون صالحة للكلاب فقط!".
- تلبك الرجل قليلا واسترجل في حديثه: "هاه، ر... ربما هذا يعود إلى جدتي... أمممم.. أقصد هي تملك مزرعة صغيرة خلف بيتها وتزرع الخضار فيها. إنها تحب ذلك كثيرًا حتى ورغم كبرها في السن ما زالت تستمر في الزراعة بكل حب، لذا قلت سيكون من الجيد أن أبيع الخضار الزائد لنكسب النقود".
- أوماً ريتش وهو يرمق الرجل بتفحص ودقق في ملامحه جيدًا بدا شابًا في منتصف العشرين، بني الشعر وعينيه تميلان للون الكستناء الداكن، ثم نظر إلى أصابع يده بشرته نقية بيضاء، اظافره مقلمة نظيفة ولا تبدو أبداً كيدي شخص يكدح في الحياة. رفع حاجبه الأيسر سائلًا: "هل تحصد المزروعات مع جدتك؟".
- "آه، أجل في بعض الأحيان".
- "هل لديك عائلة؟".
- "بطبع".
- "هل هذا العمل مصدر رزقك الرئيسي؟".
- بدأ الشك يساور قلبه خشي أن يكون قد اكتشف أمره ولم يجد مفرًا من الإجابة على سؤاله فراوغ قائلاً بتحفظ: "لدي عملٌ آخر اتكل عليه بجواري ببيع الخضار".

لم ينطق ريتش لبعض الوقت، وضع حبة الطماطم ثم ألقى نظرة للأمام أثناء قوله: "أتري هذا الشارع" اشار له ثم تابع: "امضي فيه ثم انعطف لليسار حتى تصل إلى نهاية الشارع؛ يمكنك البيع هناك فالكثير من المارة يعبرون من هناك خاصة في وقت الظهيرة. أرجو أن تجد مكسبًا جيدًا!".
أوماً شاكرًا له.

تابع ريتش مسيره وقد اتنبه لأمر الرجل الذي يحمل جريدة ويقف في زاوية الشارع يتكئ على عمود الإنارة، أعطه نظرة من ركن عينيه محملة بالشك. وضع كلتا يديه في جيبه. توقف فجأة... ثم سلك الزقاق الأيسر. فأغلق ذلك الرجل الجريدة وطواها ثم تأبطها، ثم قطع الطريق بشكلٍ مستقيم ودخل الزقاق الذي دخل إليه ريتش. مشى بخطوات هادئة رزينة خلفه بمسافة. انعطف ريتش إلى اليمين، نزل من ثلاث درجات حجرية، وعلى بعد خمسة عشر مترًا أربعة درجات أخرى وكان هناك ما يبدو كالجسر المقوس يصل بين جدارٍ عن اليمين وآخر عن اليسار. كلما نزل ريتش كان نور الصباح يبتلع بظلمة هذا المكان المنغلق. في نهاية وصل إلى باب كبير دفعه ودخل، تتبعه المراقب بكل صبر وحينما دخل وجد نفسه داخل مجموعة كبيرة من الناس الغربية، معظمهم تغطهم الوشوم ويلوحون للناظر كالهيمج تمامًا! ضاعت عيون المراقب في هذا المكان الرحب، رائحة الأفيون تفوح مسببة هلوسة له، ضجيج وصياح الرجال الثائرين في حماسة وبعضهم في سخط بسبب تلك الرهانات القائمة على مصارعين داخل حلبة في أقصى اليمين. حاول إيجاد ريتش بين وجوه هؤلاء الناس لكن عبثًا يحاول؛ التمت حسناوات يرتدين أزياء رقيقة ملونة طويلة بأكمام واسعة ولكن معظم مفاتهن بارزة، عيونهن مسحوبة صغيرة وخصلات شعرهن طويلة سوداء كخيوط الحرير، التتمن حوله وصارت كل واحدة منهن تتغنج وتبتغي الفوز به.

كان ساقى الكحول يتابع ما يحصل بنظرات مريبة غامضة، عينيه تبدوان كثلعب ماكر، له شاربين نحيلين كالخط أعلى شفتيه، قدم كأسًا لمرأة تجلس على كرسي مرتفع بلا ظهر، وسألها: "ما رأيك يا هوانغ، فيما تورط ري العزيزيا ترى؟"

رمقت ذلك المدعوة هوانغ المراقب بطرف عينها المسودتين كليلي قاتم، ويزين أجفانها لونٌ أحمر لامع، تلبس لباسًا حريري يصف مفاتن جسدها ذو لون أخضر داكن، خصال شعرها

السوداء كأنها كومة من الخيوط الرفيعة تجمعه وتحكمه بدبوس شعر أنيق له شكل تنين ذهبي ملتوي، يتدلى من الدبوس سلسلتين تحويان حجرين كريمين ذو لون أحمر. خصالها الامامية تأطر وجهه المكتنز. سحبت زاوية شفثيه الكرزيين للأعلى في بسمه جانبية ثم أمسكت طرف غليونها بخفة، كان طويلاً من خشب الأبنوس نهايته مزخرفة بلونٍ ذهبي. باعدت بين شفثها لتخرج سحابة دخانٍ رقيقة ثم نطقت بصوت ثقيل مهيب: "من يعلم! لكن، هيرو عزيزي أوصانا بهم. لذا إذهب ونظر ما به ري العزيز واحرص على مساعدته جيداً يا لاوند".

"حاضر، أختاه!" أوماً ثم ترك مكانه بهدوء. سار باستقامة نحو ستائر من الخرز الزرق، دخل من خلالها وسار في رواق خشبي طويل، ثم دخل إلى الحجرة الثلاثة. كان ريتش واقفاً ويبدو في حالة تشتت يقضم ظفر إبهامه، تأمله لاوند قليلاً مرتاباً فسأله أثناء التقدم نحوه: "ري يا صديق الحميم تبدو في همٍ عظيم".

التفت نحوه ولم ينطق بشيء.

"ما الأمر؟ هل تواجه مشاكل في التهرب؟".

"كلا".

"لديك تلك الهالة التي تقول، أنا على حافة الانهيار!" قالها بطريقة هزلية خلال تمايله وهو يرفع كلتا ذراعيه بثناقل ويهزهما وكان كميّ رداءه طويلاً ذو لونٍ بني يتلملم مع تحركه، ثم ابتسم بسمه عريضة وهو يضع كلتا يديه على خصره. ظل ريتش صامتاً يحدق في الأرض وبعد صمت وجيز نطق قائلاً: "هل يمكنك إخراجي من هنا بدون أن يلاحظ أحد؟".

"بتأكيد!" هتف لاوند بغبطة وأضاف بصوت بليد: "نحن ننحر الكثيرين من الخنازير هنا ونخرج أجسامهم في وضع الظهيرة بدون أن يكتشف أحدٌ، كالسحر!".

أبدى ريتشارد الضيق من تفاخره إلا أنه تجاوز الأمر وقال: "إذن أنا مضطّرٌ إلى استعمال سحركم الآن. أيضًا، سوف أكون ممتنّاً لو أرسلت شخصاً ما إلى منزلي؟ لا يمكنني الاقتراب منه حالياً".

قطب لاوند حاجبيه في متعجبا ثم سأل: "خيرًا، ما الذي يمنعك من الاقتراب إلى منزلك؟".

"مسألة لا تخصك! فقط أرسل أحدًا ليتأكد إن كانت كائرين هناك. رغم أنني متأكد أنها تكون في البيت الكبير في هذه الساعة".

تفحص لاوند تعابيره ولم يرتج مطلقاً من التكتّم الذي يبديه. لآك لسانه داخل فمه ثم حك جبينه العريض. تغيرت نغمة صوته المرحّة إلى شيءٍ جدّيّ وهو يقول: "ري العزيز، هل هنالك مشكلة ما؟ وهل هذه المشكلة سوف تلسعنا بطريقة ما؟".

حدّجه ريتش بنظرة حادة ثم وقف أمام وجهه وتكلم متهمكماً: "لا، لا تخف لن تلسعكم البعوضة فداؤكم مرة!".

ضحك لاوندضحك عاليًا خلال قوله: "يا رجل أنت ظريفٌ جدًّا! حسنًا، يبدو أنك في مشكلة حقيقة. هل فان يعلم بها؟".

شرد ريتش قليلاً ثم أجاب: "نعم، بالأدق أريدك أن ترسل شخصًا آخر حتى يخدره. هل يمكنك أن تفعل ذلك؟".

رفع حاجبيه بدهشة شديدة وهتف بصوت مكبوت: "ماذا! هل تشاجرتما؟ هل تعني بتخديره قتله؟".

- "طبعًا لا!" هتف مستهجنًا.

تذمر لاوند وهو يهز كلتا يديه في الهواء: "أوه عزيزي ري حيرتني، لتخدير درجات عندنا كما تعلم. ثم ماذا، هل هي حالة ثورة على الزعيم؟ نحن ندعم هذه الأمور أيضًا" سأل ساخرًا، لكن لم يجبه وظل يحدق ببرود فيه ثم ابتسم ببلادة وقال: "أنسى أمر فان لن تتمكنوا من امسكه لتخدره أصلا. فقط اخرجني من هنا بدون أن يلاحظ أحد. أيضًا أريد أن أهاتف هيروسك"

- "هممممم... ري بدأ الفضول ينهشني... فعلا ما الذي تخفيه من هذا الذي يراقبك؟".

- "هذا عربون شكر من قبلكم على خدماتنا في التهريب لذا نفذ طلبي بدون طرح أسئلة متكررة".

كشر مستاء ودمدم: "أيها الوغد! حسنا، وماذا عن زوجتك الجميلة؟".

- "أرسل شخصا يخرجها من المنزل إذا كانت هناك، وأخبره أن يكون حذرا".

- "طيب. وأين تريد منا أن نأخذها؟".

- "اجلبها إلى هنا".

- "حاضر، أي طلبات أخرى؟".

أطلق بسمة لئيمة تثير حنقه وأجاب: "لا".

- "جيد، الحقني". قالها بجفاء وهو يستدير

خرج لاوند وخلفه ريتش، أخذه إلى عمق الرواق ثم فتح باب في نهايته. كانت حجرة صغيرة لها نافذة واحدة مسدولة بستار أسود، وفي الزاوية اليمنى طاولة مستديرة لها أرجل رفيعة منحنية وينسدل عليها غطاء أبيض ذو حواف مزركشة، وعليه هاتف. أشار لاوند نحوه قائلاً: "تفضل يمكنك إجراء المكالمة من هنا. لكن لا تثرثر طويلاً".

تقدم ريتش وأمسك بالسماعة وقبل أن يحرك قرص الأرقام انتبه على أمر فالتفت إلى لاوند مبتسماً ثم قال: "أخرج للخارج".

كبح الرجل حنقه وطفق بلسانه مغتاض أدخل يمينه في كم يساره ويده اليسار أدخلها في كم يمينه ووقف وقفة متغطسة ثم استدار وغادر.

حدق ريتش في قرص الهاتف لما يزيد عن دقيقتين ثم بدأ يديره، وضع السماعة بقرب أذنه وانتظر يستمع لرنين الهاتف.

- "مرحباً!"

انبثق صوته الهادئ من خلال السماعة كان هادئاً وبارداً وعميقاً كأنه يصدر من جوف كهف سحيق. تردد ريتش في النطق لثواني حتى سمعه يقول: "من المتصل؟".

- "ليوناردو".

- "ريتشارد؟".

- "أجل!".

مال صوت المدعو ليوناردو إلى الابتهاج خلال رده: "لم أسمع صوتك منذ فترة! كيف حال الكارد؟".

- "بخير" أجاب ريتشارد باقتضاب وقد استشعر ليوناردو بخطب ما في صوته الفاتر، فسأل متوجساً: "ما الأمر؟ اعتدت على أن تتصل حتى تعترض على سياستنا وتسمعني خطاباً طويلاً. تبدو هادئاً، هل حصل شيء؟".

- "بضاعتك هربناها مع آخر سفينة. كما تعلم إنها الخدمة الأخيرة لن نهرب أية مخدرات بعد الآن".

- "هممممممممم، أجل لقد أبلغني فان بذلك. لا بأس مع ذلك هذا لا يعني أننا لن نلتقي مجدداً، صحيح؟"

- "بخصوص ذلك" نطق ريتش متذبذبًا وبدا كما لو أنه يجر الحروف من فمه ويقنع نفسه أو بالأدق يسلم نفسه لذلك الخيار الأخير. حينما طال صمته سأله ليوناردو بقلق: "ريتشارد، ماذا هناك؟".
- "أحتاج خدمة منك".
- "بتأكيد! أطلب ما سألت".
- "هل يمكنك أن تخرج فان من راشنفيرد؟".
- استقبل الرجل هذا الطلب باستغراب شديد ترجم في صوته: "لماذا؟ ما الذي حصل؟".
- "لا يمكنني أن أشرح لك كل شيء على الهاتف. ولكن... لقد اقترفنا خطأً جسيمًا! كل ذلك بسببي لو وقفت في وجهه ومنعته لما حصل ذلك!" تكلم ريتش بحرقه تلهب في صدره واعتصر مقبض السماعة بقوة.
- استغرق ليوناردو بعض الوقت حتى أجاب وتلوح الجدية التامة في صوته: "ريتشارد، تحدث ما هو هذا الخطأ؟".
- "أشعر بالخجل ولا يمكنني حتى البوح به! كل ما أريده هو دفن هذا السرمعي إلى القبر... أحتاج منك هذا المعروف فقط. خلال هذين اليومين سوف أجلب فان إليك".
- "حسنًا لا بأس" قال ليوناردو بضيق من تكتمه ثم أضاف: "سوف أخبر هوانغ أن تجهز لكم رحلة سريعة".
- "قد أضطر إلى جلب فان وهو فاقدٌ للوعي إذا لم ينصت إلي، لذا اجعل الرحلة خاصة".
- صاح ليوناردو عبر الهاتف بسخطٍ شديد: "أنت! تكلم ما الذي تخفيه؟ ما هي الكارثة التي اقترفتوها؟".
- رد الآخر بصوتٍ مكبوت هائج: "قلت لك! لا يمكنني البوح به!".
- "حالمًا تصل إلى (اسغراس^٤) سوف أكون بانتظارك ولن أقبل بهذا العذر، أتفهم؟".
- "حسنًا، الأهم فيرا ولبى وإليا وسيكون معي طفلان أيضًا".

³ راشنفيرد، هي البلاد التي تسري فيها أحداث القصة، وهي بلاد خيالية. عاصمة راشنفيرد (غاليرياسك)³
⁴ اسغراس، مدينة تقع في شمال راشنفيرد⁴

تسربت زفرة ساخطة للمرة الثانية وهو يقول: "سوف أحاول أن اضبط نفسي حتى تصل إلي". كان لاوند واقفًا خلف الباب يتنصت بجهدٍ حثيث، يلصق أذنه اليمنى على الباب حتى بدا أنه سوف يخترق الباب. دمدم بسخط: "سحًا هذا الوغد يتعمد الحديث بصوت منخفض! هوانغ سوف تغرز أظافرها في عنقي إن لم أعرف شيءًا!".

فجأة فتح الباب فرجع كالثعبان الزاحف للوراء بسرعة خاطفة واستقام في وقفته كان قصير القامة، خبأ يديه في أكمامه، أطلق بسمه بشوشة وقال: "أنهيت اتصالك، لقد أطلقت خيرًا". قابله ريتش بذات البسمه المصطنعة الماكرة قائلاً: "بعد عدة دقائق سوف يصل اتصال من هيروسك أجعل هوانغ تجيب عليه".

تقدم خطوة ثم التفت نحوه وأكد بوجهٍ جادٍ حازمٍ: "اجعل هوانغ تجيب!".

زعق عليه: "فهت لست أصمًا!".

- "هيا، جد طريقة لإخراجي من هنا؟".

- "الحق بي"

أخذة لـحجرة أخرى خاصة بالفتيات بها الكثير من الملابس، والكثير من أدوات التجميل النسائية مبعثرة على طاولة المرأة. طلب لاوند من إحدى الفتيات قائلاً: "أنت، اجلب ثيابًا بمقاس هذا العملاق!".

حدجه ريتش بطرف عينيه ثم نطق بجفاء: "لن أرتدي لباسًا نسائي".

- "لا تقلق لست لثيمًا لهذا الحد" ثم تتم مع بسمه جانبية خبيثة: "رغم أنه انتقامٌ رائع!".

بعد عدة دقائق، وجد ريتشارد نفسه أمام المرأة يرى رجلًا آسيويًا من الأعلى إلى الأسفل. ارتدى قميصًا أسود متوسط الطول له ستة أزرار على الجانب الأيمن بلون الأصفر وحواش الأكمام الواسعة والياقة زخرفة بالخيوط الصفراء، كذلك أطراف السروالين الواسعين. كما وضع له لاوند شعرًا مستعار له ضفيرة طويلة وشاربين، وأثقلت السيد بأي مسؤولية التجميل من وضع البودرة على وجهه، وحتى لا تظهر لون بشرته مختلفة عن يديه ألبس قفازين أبيضين. كان ريتش يحرق فاغر الفاه مذهولًا من هذه الصورة التي يراها في المرأة، ثم زفر راضحًا لهذا الوضع.

قهقه لاوند ضاحكًا، عندما أغمض عينيه اللتان لا تحويان رموشًا هكذا تبدوان كالخطين الرفيعين إن أغلق جفنيه وابتسم بدا ثعلبًا مكار: "ألا يبدو من عرفنا يا فتيات".

ضحكت الفتيات برقة بينما رشقه ريتش بسهام بصره.

- "هيا يا ري! تبدو وسيما لو عملت عندنا سوف تكسب الكثير!".

- "اخرس! أخرجني من هنا الآن".

أخذه إلى مخرجٍ بعد درجٍ طويلٍ أوصلهما إلى بابٍ صغير. وقف ريتش للحظة قبل خروجه وهمس له: "تأكد من جلب كاترين إلى هنا بدون أن يلاحقهم أحد!".

- "لا تقلق بخصوص ذلك".

ثم عاد ريتش يؤكد وهذه المرة بنبرة مهددة: "وتأكد من ألا يلمس أحدٌ شعرة واحدة منها، وإلا قتلتك أنت!".

ابتلع الرجل ريقه مرتبكا وأوما برأسه، لكن ريتش لم يرتج وفي آخر لحظة بدل رأيه واستدر نحوه قائلا: "لحظة، غيرت رأيي لا أريد إتعاكم معنا. يمكنك أن تأخذها إلى منزل السيد جاليليو أمارند. تعرفه صحيح؟".

لاك لاوند لسانه داخل فمه حنقا منه مع ذلك استمر بإظهار ملامح مبتسمة صابرة وهز رأسه: "نعم، أعرفه لا تقلق سوف نوصل زوجتك وابنتك الصغيرة بسلام وأمان إلى السيد أمارند، لكن أرحنا وغادرا!".

خرج ريتش بعد ذلك ليجد نفسه في حي كل ما تراه العين فيه هي محالٌ صينية، الوجوه، الملابس، اللغة، كما لو أنه عبر بوابة لعالمٍ. عبر العتبة ليقف في منتصف الشارع وعن يمينه ويساره أضواء خافتة كانت عبارة عن قناديل معلقة في أغلب المحال الممتدة على طول الشارعين يميل ضوءها للاحمرار الزاهي.

الفصل التاسع عشر

حينما حال المساء، كان أحد رجال المراقبة يجول بالقرب من منزل ريتش في مراقبة صارمة. وحالما لمح امرأة ترتدي معطفًا طويلًا من الفراء تتقدم بثبات نحو باب المنزل، قرعته وبعد ثواني فتحت لها كاثرتين لاحظ ذلك المراقب ملامح الجديفة على وجه تلك المرأة وتبدل وجه كاثرتين إلى قلبي وتوجس مما تقوله. دخل كليهما للمنزل وبعد عشر دقائق خرجت كاثرتين وهي ترتدي معطفها ومعها ابنتها الصغيرة سارا ذات السابعة أعوام. ثم خرجت تلك المرأة الصينية بعدهم. ساروا على الرصيف وكتاهما تتبادلان أطراف الحديث بشكل هامس. أثر هذا الانقلاب السريع ربة المراقب فلحق بهما وحرص على المشي بمسافة واختلاط ببعض العامة لئلا يثير انتباههما. همست المرأة الصينية لكاثرتين بشيء ما ثم غيروا مسارهم ليدخلوا إلى زقاق. تبعهم المراقب أصبح يمشي بخطوات متباعدة سريعة حتى لا يضيعهما. دخل للزقاق وسار حتى وقف عند منعطف الازقة، فور أن التفت يمينًا رآهم فهم بتحريك قدمه... لكن، في أعلى البناية شاب صيني يقف متأهبًا، يرتدي ثوبًا طويلًا أخضر داكن حواشه مطرزة بخيوط حمراء وتحتة سروالين أسودين.

نفخ في قصبه خيزران صغيرة تحوي إبرة، انطلقت بسرعة كومبضي خافت واصابت عنق الرجل مباشرة، فأطلق على إثرها صيحة أنين للحظية جذبة مسامع كاثرتين لتلتفت جزعة وترى رجلًا غريبًا يترنح يمينًا ويسارًا ثم جث على ركبته اليسرى وهو ينتزع الإبرة، أحس بدوارٍ شديد وكان الجاذبية تبتلعها لداخل الأرض، سقط مغشيًا عليه أمام عينيها مما دفعها للبلع والصياح: "يا إلهي! ماذا حصل له؟".

جذبها المرأة الصينية من ساعدها قائلة: "تحركإنه سكران!".

- "و... ولكن".

- "تحرك هذا ليس من شأنك! لا بد وأنه مرتاحٌ بنومه على الأرض".

أجبرت على السير خلفها وهي تحمل ابنتها بين ذراعيها. التفت تلك الصينية صوب الشاب الواقف أعلى البناية وأومأت له.

وقتنئذٍ كان تشارلز يواجه معركة ضارية، لكن بدون أسلحة. واقفًا أمام باب شقة فلورا يصارع نفسه حتى ترضخ وتكف عن التهرب، كلما اقترب من قرع الباب أرجع يده وظل عدة دقائق على هذه الحالة يكلم نفسه ويؤنّبها: "كفى عن هذه التصرفات الصببانية! عليك أن تواجهها... لن تبقي المرأة عالقّة هكذا أي رجلٍ ستكون حينها!" أخذ نفسًا عميقًا وتأهب لقرع الباب. بيد أنه فتح عندما هم بالطرق مباشرة لتجد الأنسة كنديل يده مقابل وجهها. وقفت بتعجب وهي تبتسم: "تشارلز!".

أنزل يده سريعًا وابتلع ريقه محافظًا على رباطة جأشه أمامها: "أممم. كنت... كنت أريد دعوتك على فنجان قهوة في الأسفل".

- "أوه، بتأكيد ولما لا؟" أجابته برحابة صدر وكم رأى الحماسة والسعادة في عينيها، أردفت وهي تخطو للخارج وتغلق الباب: "لقد كنت أخطط للزول وشرب شيءٍ ساخن. يا لها من مصادفة حسنة!".

بهجتها الغامرة غيرت الجو من حوله وأحس كما لو أن روحه خفيفة من الداخل. تشارلز يعلم جيدًا بالراحة التي يشعر فيها حينما تكون بالقرب منه، ابتسامتها اللطيفة وتصرفاتها العفوية تكشف العبوس عن وجهه وتجبره على الابتسامة. لذا كل الكلام الذي كان في جعبته تشتت. سار بجوارها يستمع لحديثها وصوتها المفعم بالحوية.

حينما نزل من الدرج لمحهما العم هيرل فلوح بيمينه فأوماً الاثنين له. تبادر إلى ذهن العم هيرل أن المسألة تمت بينهما لذا كان مسرورًا وبتبسم. دخل الاثنين إلى الهو وجلسا أخذًا طاولة بقرب واجهة زجاجية تطل على شارع بلتسكارت. لم تمضي سوى ثلاثة دقائق حتى جلب لهما النادل قهوة بالحليب في خضم حديثهما حيث كان تشارلز يقول:

- "إذن قضية يوما ممتعا مع عائلتك".

- "يمكنك قول ذلك، لقد سحبتني أختي وأجبرتني على التسوق معها، ثم تناولت العشاء مع عائلتي. أه لا يمكنني وصف مدى التوبيخ الذي استمرت امي في تكراره عن كوني مهملة ولا أهتم بزيارتهم!".

ضحكا سويةً، ثم حل صمت مزعج لم تحبه فلورا أبدأً أحست أن هناك شيئًا في جعبة تشارلز وذلك أخافها قليلا. أخذت نفسًا عميقًا وابتدرت الحديث قائلة:

- "كيف تسير أمور القضية هل تمكنتم من معرفة سبب موت الكونت؟".
- "لا للأسف! ولكن عثرنا على بعض الخيوط المهمة. أرجو فقط أن تمكنا من إيجاد الحقيقة".
- "أرجو ذلك! شعرت أن هذه القضية استهلكتك بالكامل". حينما قالت ذلك استشعر تشارلز بشيء دافئ في صوتها وعينها تبرقان هذا البريق مألوف بالنسبة له... إنه بريق عيني والدته الحنونة، ابتسم شاردا، ثم قال:
- "فلورا، هل يمكن أن أقول لك شيئا، أعلم أنني تأخرت كثيرا ولست أعلم من أين أبدأ حديثي".
- "بشأن موضوعنا السابق، أليس كذلك؟".
- "أوما إيجابا ثم أردفت فلورا: "مهما كانت الإجابة سوف اتقبلها لا عليك".
- "المسألة ليست في الإجابة فأنا لم أجد إجابة إلى الآن... لا أعلم هل يحق لي إبقائك منتظرة كهذا وأعلم أن هذا مرهق ومؤلم لقلبك!".
- "أخبرت أنك أنتظرة، سوف أنتظرة!" قاطعته فلورا.
- "للصبر حدود يا فلورا، أخبرت أنك لست واثقا من كوني الرجل المناسب لك.... لا أعلم" أخفض رأسه ولاح يائسا ومزعجا من نفسه المترددة: "لا أريدك أن تنتظري، لا أريدك أن تضيعي وقتك في انتظاري وقد يكون هناك شخص أفضل مني".
- كظمت فلورا حزنها من حديثه حتى أحمر خديها ولاحت كالمحمومة توشك على البكاء من حوى عشقه. أخفضت بصرها وشدة على قبضتها اليمنى قائلة: "هل تحاول إبلاغي برفضك يا تشارلز كن صريحا معي!".
- تأمل انكسارها وكره نفسه على ذلك: "هناك أمر يؤرقني في المدة الأخيرة..." توقف فجأة حينما تذكر قول المفتش عن أهمية نسيان الماضي... ظل صامتا يحدق في الطاولة ويكلم نفسه: _لا، لا! هذا ليس صائبا يا تشارلز، لا يمكن أن تخبرها بشيء كهذا أي حثالة سوف تكون!... فكر بمشاعرها... إذا أخبرتها أنكتبحت عن الفتاة التي أحببتها في الماضي، هذا الأمر سوف يسحقها.يا إلهي لا يمكنني التفكير بشكل سليم!_
- أخذ شهيقا عميقا صفى عقله وتوقف عن التفكير بأي شيء تأمل كيف ترفع منكبيها وتنكمش على ذاتها ودت أن تخفي وجهه بأي شيء حتى لا يرى ملامحها المنكسرة المحرجة

- "فلورا، أعلم أنني أثقل عليك، عائلتك ليست في استعداد لانتظار شخص متردد في قبول مشاعر ابنتهم، أعلم أنك تجاهدين لصدوم أمام إلحاحهم... لقد سمعت حديثك مع شقيقتك في ذلك بالأمس"
- رفعت فلورا عينها مدهوشة حينما صارحها بذلك، عضت شفها السفلى وأحست بقصرمة ألم شديدة..
- صمتٌ ولا شيء آخر، طاولتهما هي الوحيدة المنعزلة عن ضجيج الطاولات الأخرى، ندم تشارلز ندما شديدا لأنه نطق بذلك، وبعد برهة وجيزة تكلم بصوت مهزوز: "هل هذا... أعني... الرجل الذي..."
- "لا تكمل يا تشارلز!" قاطعته بحدة وصوته يارتجف حرقرة ثم أردفت: "لقد أخبرتك، أخبرتك، أنت ولا أحد غيرك!"
- حينما رأى لمعة الإصرار في عينها تساءل في صميمه محتارا ومندهشا هل النساء كهذا دوما؟ أليس مؤملا أن يعيشن شخصا بكامل جوارحن. هل هذه حماقة أم مشاعر يصعب كبحها؟ تذكر والدته وكيف كانت تعفو عن أخطاء والده مرة تلو الأخرى، مهما فكر لم يستطع إيجاد إجابة شافية تجيب عن سؤاله الذي استمر في تكريره منذ أن كان طفلاً، لماذا كانت والدته تعفو عن تجاوزات سكير لا يهمنه إلا المال؟ لم يكن يرى الحب في ما تفعله بل ضعفاً وانقياداً لمشاعر ساذجة فلو أنها قطعت علاقتها به لما تعرض لكل تلك المعاناة في حياته.
- تأمل وجه فلورا حتى ارتبكت المرأة وعندما أطال في التحديق همت تسأله لكنه نطق فجأة: "فلورا."
- "نعم."
- "ماذا سوف تفعلين إن تحولت إلى شخصٍ سكير؟"
- رفعت المرأة حاجبها بتعجب شديد وارتدى طرفها أربع مرات تحملق فيه لثواني ثم تلعثمت: "س سكير... ما الذي تقوله؟ ولما سوف تصبح سكيراً أصلاً؟"
- "لنفترض أنني سلكت طرفاً سيئاً"

همهمت لبعض الوقت لا تعلم بما ترد، أخفضت بصرها وعضضت على شفيتها متضايقاً فأى سؤال هذا. نظرت له ثم قالت: "لست أدري!... لكن... لا أعتقد أنني سوف أدعك تسلك طرقاً سيئة تقودك لمثل هذا المصير أبداً".

مد شفيتها صانعا بسمه خطية لم تستطع فلورا أن تفهم ما يدور في تفكيره وسؤاله هذا كان أكثر ما حيرها. تنهد تشارلز ثم قال: "قد أكون أنانيا ولكن... لن أستطيع شرح الأمر لك الآن... هناك مسألة علي البحث فيها إنه شيء يخص ماضي... أنا عالق بسببه لذا إن انتظرتي..". هتفت فلورا بانديفاع: "سوف انتظر! أخبرتك سوف أنتظر... ولكن... لن أقبل إجابة غير التي أتوقعها!" قالت ذلك وهي تنظر مباشرة في عينيه مصممة ألا أحد غيره سوف يسكن قلبها. فابتسم تشارلز مشدوها من أمر الثقة التي في داخلها إنها مؤمنة بمشاعرها اتجاهه، فتأكد له أن النساء يجبين حقاً بكامل جوارحن. لكن، حينما استفاق لأمر مشاعره وأبعد القضية التي تشغل عقله باستمرار. سأل نفسه قائلاً فلورا تحبني إنها صادقة في مشاعرها عينها لا تكذبان، لكن أنا ما الذي أكنه في داخلي؟..

في المساء قرابة الساعة الثالثة كان تشارلز قاعدا على كرسيه متكنا بمرفقه الأيمن على طاولته يسند وجهه لكف يده، وعلى ما يبدو فلم يكن في مزاج جيد لإلقاء محاضرة اليوم فترك الطلبة يثرثرون كيفما يشاؤون. تنهد وبدا منهكا من التفكير بشأن فلورا وتلك القضية، فتمتم متحسرا: "اشتقت لأيامي الهادئة!"

دق الجرس معلنا عن انتهاء وقت المحاضرة. نظر أحد الطلاب إلى تشارلز بينما البعض منهم شارعوا في توضيب كتبهم داخل الحقائق مستعدين للنهوض محدثين معهم جلبة خافته. كل ذلك وتشارلز سارح في دنيا أخرى، ليقظه أحد طلابه إذ هتف قائلاً: "أستاذ، أستاذ غرنالد!" لم يسمع فنظر الشاب إلى زملائه مستغرباً أمره، ثم عاد يناديه: "أستاذ غرنالد". أدار تشارلز وجهه لناحية مدرج الطلبة ولم يعلم حتى من الذي نادى عليه لاح مأخوذ البال. تحدث الشاب والذي يدعى كريستيان مرة أخرى وهو يتسم بارتباك: "أستاذ، لقد دق الجرس إنها آخر محاضرة لنا اليوم، أسمح لنا بالمغادرة".

"هاه، نعم، نعم يمكنكم المغادرة!" أجاب عليه ثم رجع لشروده.

بدأ الطلبة ينزلون من الدرجات التي تتوسط المدرج على دفعات، يتسامرون ويتبادلون الأحاديث وقد بدا بعضهم مستعجلين للمغادرة على نحوٍ مريب. واحدة من رفيقات ناتالي شاهدها وهي تجمع أوراق وتتأكد من عددها فسألته مستفسرة: "ما كل هذه الأوراق نات؟". اجابتهابا بتسامية حيوية نشيطة: "لقد اتممت مراجعة البحث الذي طلبه الأستاذ. سوف اسلمه قبل مغادرتي".

اتسعت أجفان الفتاة وهرعت تتشيث بيدها اليمنى تنهاها قائلة: "لا، لا، لا، لا يمكنك فعل ذلك يا نات؟".

التفتت نحوها متعجبة: "لماذا".

- "ألم تكوني موجودة في اجتماع المكتبة؟ لقد اتفق الجميع حتى ممن أنه البحوث على عدم تسليمه اليوم. كما أن الأستاذ لم يتذكر الأمر. لا تفضحيننا!".

- "لحظة، أفضحكم!" قالت ناتالي باستنكار شديد فمضت الأخرى تشرح لها بهمس: "أغلبنا لم ينهي البحث وبعضنا نسي أمره. لذا اتفقنا على عدم تذكير الأستاذ به ريثما ينتهي الجميع". حدجتها بنظرات باردة ثم قالت: "ما شأنى بكم إن لم تنهوا بحوثكم. لقد انتهيت وسوف أسلمه أريد أن أحصل على معدلات تامة".

كظمت رفيقتها غيظها وحاولت إخفاض صوتها قدر الإمكان: "نات لا تكوني أنانية فكري بزملائك!" ثم نهضت ومالت للأمام لتمد يدها نحو ياقة شاب يجلس مقابلهما. سحبته قائلة: "إيفان، إيفان!".

اختنق الشاب ولم يتمكن من الرد حتى، التفت نحوها غاضبا: "كدت تخنقيني ريلينا!"

- "اسمع، أختك البلهاء سوف تفضحننا!"

- "ماذا؟"

- "سوف تذكر الأستاذ بشأن البحث"

رشق أخته بنظرة جزعة ثم تتمم: "نات تريدين الموت؟".

- "لا، أريد أن أسلم البحث. ثم ألم أذكرك بإنهاء البحث قبل أمس".

أثناء حديثهم، استفاقت ذاكرة الأستاذ حالما رأى ثلة من الطلبة يهيمون بمغادرة القاعة، فنادى عليهم: "لحظة!" حالما خرج صوته تجمدوا. التفت كريستيان يسأل ورعشة تسري في صوته: "م ما الأمر أستاذ؟".

- "معذرة، نسيت أن أطلب البحث. ضعوه على الطاولة ثم غادروا".
 ابتلع الشاب ريقه ثم التفت نحو استاذة بالكامل مع بقية رفاقه، لينطق بعدها: "أستاذ!"
 - "نعم".

ابتسم الجميع بتودد ورجاء بينما نطق كريستيان: "يمكن أن تمنحنا يوماً إضافياً؟ أغلبنا لم ينهي البحث".

حدق تشارلز بدون انفعال بدا لهم أنه لم يسمع ما قاله لكن بعد صمت نطق يخاطب الشاب: "كريستيان".

- "ذ نعم".

- "منذ متى طلبت البحث؟".

- "منذ أسبوع".

- "وها نحن ندخل الأسبوع الثاني. صحيح؟".

جملته تلك كانت نذير واضحاً بالشؤم. التفت تشارلز نحو المدرج ليخاطب بقية الطلبة: "من جلب منكم البحث فليرفع يده".

رفعت ناتالي يمينها هي وتسعة طلاب آخرين. تكلم الأستاذ: "ضعوه على الطاولة" قلب وجهه نحو كريستيان ومن معه مضيفاً: "من لم يجلب البحث منكم؟".

أجاب كريس على مضض: "أنا، لم أتمكن من إنهاؤه بعد".

- "وماذا عن البقية؟".

أجاب بعضهم بنفس حجة كريس. ضيق تشارلز جفنيه حتى بدا أنه على وشك إغلاقهما عقد كلتا ذراعيه وراح يهيمهم بطريقة لم ترح الطلبة، من كان مسروراً للغاية

- "فرصة ممتازة لتفريغ الشحنات السلبية" غمغم تشارلز ثم تبسم بسمة تبطن شراً ثم ما لبثت أن قال: "حسناً، إضافة لهذا البحث الذي لم يسلم سوف تقمون بجلب بحث عن أصول الموسيقى التقليدية وأريده من عشر صفحات. سأكون رحيماً واكتفي بذلك".

من شدة الصدمة ابتلع كريس حروفه وفغرفاه استفاق على نفسه وراح يترجاه قائلاً: "أستاذ أي شيء... أي شيء إلا هذا! سوف أقبل بأي عقاب لكن لا يمكنني جلب بحثٍ آخر سوف أجن!".

ابتسم بسمة عريضة وهو يغمض عينيه: "حقًا، سوف تقبل بأي عقابٍ آخر؟".
- "نعم".

- "حسنًا، المحاضر القادمة سوف تكون من تحضيرك لذا جهز لها جيدًا".
صاح مذهولًا وكتلتا حاجبيه ارتفعا عاليًا لكن قبل أن ينطق بحرف سبقه تشارلز: "كلمة أخرى وأجعلك تقوم بتحضير المحاضرة بالإضافة إلى البحث"
كظم الشاب غيظه حتى كاد يبكي قهزًا بينما من أتموا بحوثهم سلموه لينجوا بأنفسهم. كان إيفان بعد شقيقته وضع بحثه ثم حرك ساقيه مستعجلًا ليفر لكن تشارلز هتف يناديه: "إيفان!".

تحنط في مكانه ثم التفت ليراه يقرأ بحثه المتكون من ورقتين ثم سمعه يقول: "أذكر أنني طلبت شرحًا عن واحدة من مقطوعات يوهان باخ وتركت لكم حرية الاختيار. ولكن لماذا بحثك من ورقتين؟".

ابتلع ريقه ملتفة نحوه رغم ارتبাকে نجح في جعل صوته هادئًا: "أممم، هذا ما استطعت استخراجها من عقلي أستاذ".

- "هممم حقًا!" أوما تشارلز ثم أضاف: "طيب ساعد كريس في تحضير المحاضرة القادمة لعل عقلك يستجيب. كليكما سوف تعملان على تفصيل خمسة نوتات موسيقية لخمسة مؤلفين بالإضافة إلى شرحها، ولكما حرية اختيار المؤلفين على أن يكون خمسة" ثم خاطب بقية الطلبة ممن لم يتم إكمال البحث بصوت جهوري: "عدى من سلموا اليوم سوف تكتبون ملخصًا عن أصول الموسيقى التقليدية وأريده من عشر صفحات وسوف أستلمه بعد غد. يمكنكم الانصراف " ختم بابتسامة وديعة لكنها تثير الحنق بالنسبة لإيفان وصاحبه كريس. حاولت ناتالي ضبط نفسها لثلاث تفجرات ضحكًا فكما يبدو أن مزاج أستاذهم جيد جدًا اليوم.

وقتنئذٍ أبلغ المفتش عن استفاقت إريك أوليغرس، فخرج من مكتبه واتجه إلى منزله. حالما وصل استقبلته راشيل بابتسامة بشوشة نضرة. قدته لغرفة إريك، قرعت الباب ثم فتحته وهي تقول: "عزيزي، لقد جاء المفتش غريس لزيارتك".

جاء رده البليد أثناء التريبت برفق على رأسه المضمدة: "تقصدين جاء لطرح الأسئلة!" ضحك المفتش بتكلف وهو يخطئ لصدر الغرفة.

- "اسمح لي أن أفسد لك يومك إذن. كيف حالك؟" قالها المفتش ضاحكًا. ابتسم ساخرًا وأجابه: "حالي! أشعر أن رأسه انتزع من محله ثم ركب من جديد!".

أردف المفتش وهو يجلس قبالة من جهة اليمين على كرسي: "عليك أن تكون فخورًا لأنك لم تخسر رأسك!".

- "شكرًا جزيلًا على سخريتك! أرجو أنكم قبضتم على الوغد الذي هاجمني. أه لحظة، دعني أخمن الجواب. لا". رد إريك متهمًا، لكن المفتش كان واسع الحيلة فابتسم مومئًا خلال رده: "لا، قد فرَّ هاربًا منك ولم يظهر بعدها أبدًا! تحسرت لعدم قدرتك على امساكه وأنت خريج مدرسة عسكرية"

كشطت البسمة عن وجه إريك سريعًا من قوله لم تستطع راشيل كبح ضحكها الرقيقة وذلك ما أغاظه أكثر!

استطرد المفتش قائلاً: "أرجو أنك تذكر أي شيء عن ذلك المهاجم يا سيد إريك؟".

- "كلا، ذلك اللعين كان يرتدي قناعًا على وجهه".

- "كيف تمكن من الدخول إلى منزلك؟"

- "لم يدخل من باب المنزل هذا ما أنا واثقٌ منه، هناك من قرع الجرس بشكلٍ متكرر وحينما نزلت لفتح الباب لم يكن هناك أحد. لكنني وجدت بعد ذلك نافذة غرفة الجلوس مفتوحة رغم كوني أغلقتها قبل النوم".

أطرق المفتش في تفكيرٍ لحظيٍّ ثم سأله مجددًا: "أنت ليس لديك أعداء يمكنهم التريص بك هكذا، صحيح؟".

تهمد إريك ثم امطى ابتسامة مغترة وهو يقول: "في الحقيقة، لدي الكثير والكثير من الخلافات مع الكثير من الناس! ماذا أفعل فالناس لا تحبني".

استضحك المفتش حتى اهتز منكبيه قليلا. سرح إريك عندما استذكر أمراً وبقي المفتش ينتظر منه أي قول. بعد ثواني نطق بشيء من التردد: "أثناء اشتباكك معه لمحت شيئاً على عنقه... أعتقد أنه كان وشماً. حسناً لست متأكدًا فقد كان الظلام حالاً إلى حدٍ ما لكنه بدا قريبا إلى شكل طائر... تفاجأت لأنه يشبه وشم دانييل!"

حالما سمع المفتش بشكل تيقظت على حواسه باهتمام وقال بصوت جاد: "وشم! هل أنت متأكد من ذلك؟".

"قلت لك كان قريبا إلى وشم طائر، ونفس هذا الوشم رأيته على رسغ دانييل مرارا".

أوماً المفتش جون حاسماً حديثه فنهض قائلاً: "سيد إريك، شكراً لك. يبدو أن القطعة الأخيرة من الأحجية قد اكتملت. يبدو أننا عما قريب سوف نقبض على قاتل الكونت دانييل".

**

خرج تشارلز مسرورا من الاكاديمية وقد أزاح الثقل الذي يجثم على صدره بعد معاينة طلابه. وصل إلى مركز الشرطة، دفع الباب الرئيسي ودخل ألقى التحية على الضباط الذين مرّ من جوارهم وبادلوه التحية. عندما عبر الممر ووصل إلى باب مكتب المفتش سمع صوت غليظاً ساخطاً جعل يده اليمنى تتوقف في الهواء بقرب مقبض الباب

"كيف!" انبعث ذلك الصوت المرتفع في توبيخٍ قاسي: "تخفقون للمرة الثالثة على التوالي! كيف سوف نجد دليلا واضحا الآن بعد فقدان أثر رولد؟ هل كنتم تراقبون أم تلعبون؟".

كور تشارلز فمه لزاوية يهيمهم مفكرا: "هل أعود في وقت لاحق؟ هممم لا، لا يمكنني التراجع بعد سماع هذا فضولي سيقتلني". جهز نفسه بأخذ نفسٍ عميق ثم فتح شقاً يسيراً من الباب ودلف بهدوء رأى المفتش غريس عابسا وتكاد حواجبه تلتحم ببعضها لشدة تقطيعه، وكان سكود والضابط غرلين وآخرين ممن وكلوا بمهمة مراقبة ريتش يقفون صفا واحدا ويطأطؤون رؤوسهم من عار الفشل.

"تشارلز، لقد جنّت في وقت غير مناسب" قال المفتش وقد هدأت نبرته المثارة ثم أردف: "على أية حال ليس هناك فائدة من الحديث. انصرفوا!"

تنحى تشارلز ليسمح لهم بالعبور، لمح وجه سكود لقد كان أكثرهم تجهماً وإحباطاً. تنهد المفتش ثم ارتم على الأريكة ولا يزال في ضيق شديد. تقدم تشارلز نحوه بخطوات بطيئة ولم يعلم هل يسأل أم يضبط فضوله

قال المفتش وهو يمسد جبينه متحسراً: "فقدنا الخيط الأخير، ذلك الرجل المدعور ولد يبدو أنه كان أكثر حذراً حتى أثر زوجته اختفى".

جلس تشارلز بجواره سائلاً بصوت هادئ: "كيف حصل ذلك؟".

"أثناء ملاحظته دخل إلى معقل للرهانات في منطقة تسمى لونغ ثم ضاع أثره هناك. أما زوجته اختفى أثرها بعد أن جاءت امرأة إليها لقد أخذتها مع طفلتها وحينما تتبع الضابط لوغان أثرهما تلقى إبرة مخدرة على عنقه".

قال تشارلز شاردا: "إبرة مخدرة!"

"أجل، لا يزال يتعافى من أثارها في المشفى، لقد شلّ مفعولها جسده بالكامل وأفقده الوعي، أثناء سؤاله بدا مشتتاً وغير قادر على الحديث حتى". رمى بكل ثقله على الأريكة فبدا كأنه ينغمس داخلها، زفر زفرة طويلة ثم استطرد: "بعد أن ظننت أننا تمكنا من الإمساك بدليل قاطع على وجود كيان الكاردينال بفضل شهادة إريك أوليغرس... نفقد الآن الخيط الذي يرشدنا إليهم!"

التفت تشارلز متفاجئاً وقال: "هل استفاق إريك؟".

"نعم، أخبرنا بمعلومة مهمة جداً، الشخص الذي هاجمه يملك وشم طائر على عنقه".

ارتفعت حواجب الشاب وجفل مشدوها يتمتم بصوت متقطع: "وشم... طائر... على عنقه!"

"أجل يا بني"

"لم يكن بيننا من يضع وشما على عنقه!"

"وهذا يرجح أن هناك أفراداً آخرين من جماعة الكاردينال، وقد يكون تحليلك بشأن كون عشيق الكونتيسة هو فرناند خطأ ربما المدعو ليوناردو براين ما هو إلا فردٌ منضمٌ إليهم وحصل خلاف بينه وبين الكونت دانييل أدى لقتله، ربما لا يكون فقط بسبب عشق امرأة بل لأجل الزعامة كما قال سكود!".

شرد تشارلز وطفق يطرف بعينه مذهولا لم يرد تكذيب الحقيقة في كون فرناند حي... وفي نفس الوقت لا يريد أن يكون هو المجرم الذي قتل دانييل... أصبح في عقدة لا نهاية لها. انحنى ظهره وأسند مرفقيه على فخذه وطأ رأسه ثم مسح بكتفا كفيه شعره وصولا لمؤخرة رقبته حيث شابك أصابعه ببعضها وظل صامتا يحدق بالأرض. انتبه السيد جون على الكأبة التي حلت عليه فتهد وخاطبه بصوت حاني: "لقد خرجت هذه القضية من بين يديك إنه أمر يفوق قدرتك، منذ اليوم لا أريدك أن تتدخل فيها".

رفع رأسها ولم يبدي ترحيبه بما قاله: "لماذا؟".

- "لقد دخلت القضية في منعطفٍ صعب، سوف نتعاون مع شرط المخبرات الجنائية، لقد فقدنا كل أثرٍ يدل عليهم في ياسك ولا نعلم أين يمكن إيجادهم. رولد لم يعد إلى منقطة الميناء ولا إلى الحانة. تم استجواب كل العاملين في تلك الأماكن ولكن جميعهم يقولون أنه رجلٌ جيد ويستغربون من الأسئلة التي تطرح عليهم وأعلمهم يرفض الإجابة، وإلى الآن لا معلومات عن فالانتين. ويبدو أنك لم تكن تلاحظ ما يحدث من حولك يا بني".

- "ماذا تقصد؟".

- "الصحف كلها تستمر بملاحقة هذه القضية منذ أن بدأت أشعلت ضجة حول موت الكونت أوليغرس وعدم قدرتنا على معرفة قاتله ترك وسمت عار في جبيننا". تهده مطولاً ثم أضاف: "كل ما أريده هو أن تبقى بعيداً عن كل هذه الأمور هذا أفضل لك".

لم يجب تشارلز لكن الكأبة تعتم لون قزحيته المصفرتين. بعد دقيقتين، ركب المفتش سيارته وأخذ تشارلز بصحبته، يقود في سكون مطبق، التفت ناحيته فرأه يسند رأسه لزجاج النافذة يغط في نوم عميق ويقرؤوا الشحوب والإنهاك في وجهه.

الفصل العشرون

في صباح يوم الأحد، بدأت كرات الثلج البلورية تتساقط منذ الفجر فوق مدينة ياسك والريح الباردة تزار في الشوارع الخالية. اعتكف تشارلز في منزل السيد جون فوق مقعد عند الممر بعد مدخل في أقصى الزاوية، متلحفا برداء أخضر من الصوف ويميل في جلسته إلى المسند الأيسر ويسند خده على قبضة يساره يتأمل من النافذة مشهد هبوط الثلج الغزير. عبر السيد جون المدخل واتجه نحوه وهو يحمل كوبين من القهوة الساخنة، وضعهما على طاولة مستديرة بين المقعدين وجلس هو على المقعد الأيمن. أمعن في الوهن الذي يغدق عيني تشارلز، تهتد وابتدر الحديث: "اعتدت أن أراك هادئاً، ولكن الآن لم يعد يعجبني هذا الهدوء".

أبعد عينيه عن النافذة ونظر له، بالكاد أبدى بسمة على وجهه الشاحب. نطق بصوت مبوح: "هل سُلمت أوراق القضية؟".

- "أجل، سوف يعممون كل المعلومات الخاصة بهذه القضية على كافة دوائر الاستخبارات في راشترفيد، أينما ذهبوا سوف تتم ملاحظتهم".

اكتفى بالإيماء ثم راح يحرق شاردا، أحس السيد جون بالامتعاض لحاله هذه فقال بصوت بهيج يزيح الكتابة التي حولهما:

- "أخبرني، كيف تسير أمورك مع تلك الأنسة. أود أن أجري حديثاً عائلياً بعيداً عن كل هذه الفوضى".

انغمس في الأريكة وأمال رأسه في ضيق شديد وكان صوته فاترا ووجهه عابسا: "لا أعلم! أعتقد أنني فاشل طلبت منها الانتظار مرة أخرى... وأنا كل ما يشغل بالي هي قضية دانييل... ثم بعد أن تبينلي أن تلك الخادمة، إبريل ريغان تكون فالانتين... أصبحت مشوشا. أشعر بالخجل لأنها تفكر بي وتكن لي مشاعر صادقة، أنا لا أستحق ذلك!".

مد السيد جون بسمة عريضة تفيض بحنانٍ أبوي، قال له بصوت عميق يغلب عليه الهمس: "أنت ميؤوسٌ منك! بني، أخبرتكَ الماضي لن يتعلق بك أنت من تتعلق به لهذا أنت على هذه الحالة الكئيبة".

- "أعلم ذلك!" هتف تشارلز بصوت مكبوت مختنق: "ولكن ماذا أفعل لم أستطع طرد هذه الأفكار! والآن تلك النجمة الكرسطالية وثقة حياة واحدٍ منهم.. حياة فالانتين! إن نجت هي فهناك احتمال كبير بأن يكونوا نجوا هم أيضًا.. لقد كنت واثق منذ البداية أن ليوناردو هو فرناند... أحتاج فقط لرؤيته ثانية، ولو لمرة واحدة فقط".

تأمل المفتش عينيه الراجيتين فسأله محتارًا: "بني، أخبرني الحقيقة... كل هذا الجهد لأجل ماذا، أنت تبحث عن رفاقك أم عن قاتل رفيقك دانييل هاربر؟ عن من تبحث بالضبط؟" كان سؤال من أصعب الأسئلة التي وجهه له، بقي أحرسًا يحدق في السيد جونانان ولا يردى هو ذاته ما هي الإجابة. استكمل السيد حديثه بصوت خافت: "ما الذي سوف تفعله إن رأيت فرناند مرة ثانية؟ ألم نتحدث في هذا مسبقًا، ماذا سوف تفعل لو ظهر حقا أنه قاتل دانييل... ألن تكون مستاء! ماذا عن فالانتين ألن ينفطر قلبك إن رأيتها وهي تعتقل؟ أليس الأفضل أن تتجنب كل هذه الحقائق، اترك عنك الماضي قبل أن تدمرك". بدا صوته معاتبًا بشدة مما أجب تشارلز على الانكماش في صمت يعقد ذراعيه ويحدق في الأرض، بدأ الخوف ينخر في أفكاره بعد سماع ما قاله. رق قلب السيد جون على حاله، وبعد صمت وجيز قال له مواسي: "تشارلز، لا تهك نفسك الحياة تعطيك فرصة لتكون سعيدا. الأنسة فلورا امرأة جديرة بأن تكون معها لو أن روزا في مكانها لما ظلت ثانية تنتظر شابًا متلكنًا مثلك!".

طالعه بامتعاض فضحك السيد جون ضحكة متكلفة على حالته العابسة ثم قال ناصحًا: "صدقني إن المرأة تملك ما يكفي من الوفاء لتبقى صابرة إن أحببت شخصًا بصدق... لا تخسرها يا بني".

مقولة السيد جون بعثت صورة والدته إلى ذهنه، فغمغم متحسرًا: "أحبت شخصًا بصدق! ألهذا كانت تسامحه؟ هل الحب بصدق يعني الموت بسببه؟".

- "بما تحرك شفيتيك يا ولد؟" قطع صوته ستار الشرود قبل أن ينسدل على عقله في حجبه عما حوله

تهمد ولاح مرهقًا: "أفكر. أنا لا أعرف ما هي المشاعر التي أكنها لها... هي تحبني ولكن ألن أظلمها إن تزوجتها بدون حب".

- "أيها الغبي!" صدح صوته بغلظة جعلت تشارلز يجفل ثم حاضره بحزم: "هنالك الآلاف من الأزواج تزوجوا بحب ثم مات هذا الحب في منتصف الطريق لأنه لم يكن هناك التقدير والاحترام، وهنالك الآلاف من الأزواج تزوجوا بدون حب ولكن في منتصف الطريق بدأ الحب ينشأ. ليس الحب وحده هو العامل الرئيسي في بناء العلاقة يا بني، الاحترام والتقدير فيما بينكما له دور في إنشاء الحب".

مالت مقلتي تشارلز لزواية النافذة وأحمر وجهه

- "لن أشعر بذلك... لن أشعر بالراحة إن لم أعثر على قاتل هاري..." تهرب من هذا الحديث بالعودة الى المسألة القضية.

ضيق السيد جون مدى اتساع جفنيه وبدا مغتاضاً من تصرفاته التي تفوق تصرفات الصبيان: "وهل سوف تظل تطارد هذه القضية حتى مماتك يا بني؟".

لم يجب وظل هائما في شرود. استطرد سائلا: "ماذا سوف يحدث للكونتيسة؟".

تهمد السيد جون غير مصدقٍ أنه يفكر حتى بتلك المرأة العنيدة، اجابه: "ليس باستطاعتنا فعل الكثير لها، بسبب وجود بصماتها على المسدس وضعها سيءٌ جداً. الأهم أنها وكلت محامياً لأجل جلسة الاستماع في المحكمة بعد أربعة أيام".

- "بصماتها!" تمتم تشارلز، ثم عاد صامئاً يحدق في النافذة حتى قال: "أتذكر ما قالت خادمة الكونتيسة الخاصة، ليوناردو كان يعمل خادماً في منزل عائلتها... كونه كان يرافقها أحيانا أثناء خروجها خارج منزلها".

- "أجل، أذكر ذلك"

- "تبادر إلى ذهني مسألة معينة، ماذا لو أن ليوناردو استغل إحدى هفواتها حينما كانت تشرب وتقيب عن الوعي... أعني ربما جعلها تمسك بالمسدس وهي ثملة!".

أوما برأسه ورأى أن استنتاجه حيال هذه المسألة شيءٌ محتمل مع ذلك أخذ نفساً عميقاً ثم شد على ركبتيه ونهض قائلا: "رغم ذلك يظل قولك هذا مجرد احتمال يا بني. نصف الدلائل التي بحوزتنا لم تجديّ بسبب اختفاء المشتبهين والاستناد على الاحتمالات لن يحرك شيء ما دمننا لم نمسك بليوناردو، الحقيقة كلها بين يديه... ذلك العشيق الهارب" استقام واقفاً ثم

استطرد: "هيا تعال لنجلس مع البقية لا تبقى وحدك هنا. لقد أعدت أمك مخبوزات ساخنة. اجلب قهوتك وانهض".

- "سوف آتى بعد قليل".

زفر السيد جون بنفاذ صبر وشد عليه: "تشارلز!".

- "صدقني سوف ألحق بك! هناك شيءٌ أريد مراجعته مع نفسي قليلاً".

تهد مستسلماً ثم حمل كوبه وأردف بطريقة مهددة: "سوف أنظر للساعة، إذا تعدت الأربعة دقائق سوف أرسل السلاح الأخير ديانا وليا، أتفهم".

استضحك تشارلز بشكل فاتر حتى اهتز منكبيه قليلاً.

داخل إحدى المنازل في ياسك الشرقية المطلة على ممشى الشاطئ، كانت كاثرين واقفة أمام النافذة تراقب هيجان الأمواج في جموح مع عواصف الثلوج، وفي عينها الكستنائيتين خوفٌ يمتص جمال ملامحها. التفتت للوراء حينما سمعت خطوات ثقيلة تحدث صوت صرير خشبي، ثم تقدمت خطوتين وهي تكلم رجلاً ينزل من درج الهوى، بدت مندفعة في لهفة شديدة: "سيد ألمانند، ماذا جرى؟ هل أخبرك ريتشارد بشيء؟".

نزل ذلك الرجل الخمسيني ذوقامة طويلة مهيبة يرتدي سترة بنية فوق قميصه الأسود وبنطالاً أسود، اصطبغ لون شعره بالبياض نزولاً لصدغي شعره ولحيته الخفيفة، عينيه مجوفتين، قزحيته مخضرتين، الحنكة بادية على ملامحه القمحية. وقف أمامها ثم أجاب بصوت غليظ: "كلا، لم يخبرني بأي شيء مفيد، أخبرني فقط أن أبقىك أنتِ وسارا عندي لبعض الوقت ريثما ينهي بعض الأمور الضرورية".

أخفضت منكبها محبطة وتمتمت بصوت مستاء: "لماذا يرفض الحديث إلي؟ ما الذي يخفيه؟... ما الذي يخفيه الجميع عني؟"

- "لا بد وأن لديه أمراً مهمًا. ريتشارد ليس على طباعه كان صوته متبدلاً على غير ما عهدته. أتشاجر مع فان؟".

- "لا أدري حقاً ما الذي يجري بينهم، جميعهم أصبحوا متكتمين!".

تهد قائلاً: "حالمًا تهدأ هذه العاصفة سوف أخرج لملاقاتهم وفهم ما يحصل، لا تقلقي أنتِ".

البيت الكبير. دخل ريتشارد إلى غرفة فان، فتح الباب ودلف ليجده جالسًا على كرسيٍ مقابل طاولة عريضة. أغلق الباب ثم تقدم نحوه قائلاً: "فان، أريد الحديث معك في مسألة جدية".

- "ماذا؟" رفع بصره نحوه مستغربًا يراقبه يجر كرسيًا خشبي خلفه، وضعه مقابل فان ثم جلس ووضع كلتا يديه على الطاولة:

- "اسمعي، لم يعد هنالك أية جدوة. انس الأمر.."

قاطعها بزفرة توضح اعراضه عن محادثته وقد اشاح بوجهه عنه مما جعل ريتشارد يقترب من الطاولة حتى لامس حافتها وخبط بشكل طفيف على الطاولة، صوته كان حازمًا أجفل فان بحد ذاته: "أتحدث معك بجدية لا تنظر لجهة أخرى!" زعق عليه ثم صمت برهة قبل أن يضيف: "انس أمرها لن تتمكن من إيجاد طريقة لإخراجها من السجن! لقد تداعى كل شيء فور موته... " أخفض ريتش بصره ممتعضًا نادمًا بشدة: "ما كانا علينا اقرار ذلك الخطأ".

- "قلت لك، لم تكن غلطتك ولا غلطت إليا... ما حدث قد حدث".

- "تماما، لذا دعنا نغادر ونترك كل شيء" قال ريتش بصوت خافت كما لو أنه يترجاه: "دعنا ننس ما حدث".

أردف فان بعد تهيدة متضايقة جدًا: "لا يمكنني أخبرتكم!".

- "ما الذي يربطك بهذه المرأة لا شيء! ألم تقل أنت ذلك بحد ذاتك! أكبر عقبة أمامك الآن حتى تتابع في هذه الخطة هي إخراجها من السجن، هذا مستحيل! ولم نتوقع ظهور شقيقٍ له... انتهى الأمر لقد تداعى كل شيء. لذا رجاءً قبل أن تزداد الأمور سوءً دعنا نغادر ياسك، عيون الشرطة تركز على ضاحية لينهاستنغ أفهم!"

لم ينطق فان بحرف واستمر في شرود كئيب لاح أنه يائسٌ ومحبطٌ بشكل تام، تأمله ريتش فتلطف قليلا وحادثه بهمس مسموع: "صدقي هذا لمصلحة الجميع، لنغادر إلى اسغراس. لقد تحدثت مع ليوناردو إنه ينتظرنا... سوف نبتعد ونترك الأوضاع حتى تهدأ قد نحتاج لوقتٍ طويل ولكن هذا أفضل من سقوطنا لا تنس أن هنالك أشخاصًا كثيرًا يتبعونك... سوف نعتد عليهم لجلب آخر التطورات. تلك المرأة ثرية لا تقلق عليها سوف تتمكن من الخروج من السجن".

وكالطفل يستمع له بدون التفوه بأي كلمة، هز رأسه المنهك من التفكير ثم رفع يده اليمنى ومسد جبينه. شعر ريتشارد بالارتياح حينما استجاب له أخيرًا. أخفض منكبیه كأنما حمل

ثقيل زاح عنهما. خاطب ذاته وفي عينيه لمعة إنكسار قوية _ صدقني أنا أفعل هذا لمصلحتك أكثر من أي شيء آخر. لو علمت ما أعلمه لفقدت عقلك!_

- "كن صريحًا معي يا ريتشارد... لقد اقترفت غلظة فظيعة أليس كذلك؟". قطع فان حبل الصمت بسؤاله وقد نظر مباشرة إلى عيني ريتش، الذي رأى روح رفيقه المعذبة من خلالهما، حتى أنه لم يرد مباشرة، عقد قبضته بقوة وأصر على أسنانه، ابتلع غصته بينما ينطق بصوت ضعيف: "لا... ليست غلطتك وحدك!... تأكد من هذا جيدًا. أعلم أنك منهك يا فان... حمل كل هذا العبء على كاهلك، كل هؤلاء الناس تقديم المساعدات لهم ليست شيئًا هينًا... أدرك ذلك أكثر من أي شخصٍ آخر ورغم ذلك كنت أصر أن اتخذ طريقًا مستقيمًا وأنا أعلم بمقدار الصعوبة التي تواجهها في ظل هذا المجتمع اللعين... ربما العمل مع ليوناردو كان أفضل من أن نقع في هذا الخطأ... ولكن... لم يعد هذا مجديًا الآن، لا يمكننا تغيير ما حصل".

أرجع فان ظهره لظهر الكرسي وأرخی ذراعيه. كان يرتدي قميصًا قطبيّ ذو ياقة فضفاضة، حيث برز وشومٌ كالنار على هيئة جناح يمتد على طول ظهره، الجزء المكشوف يمتد من مؤخرة عنقه وصولًا للجانب الأيمن. رفع بصره لسقف وابتسم بسمة متأسية خلال قوله: "أتعرف... شاهدت حلمًا".

- "حلم؟"

- "نعم، دانيل... شاهدت حلمًا عنه وكان تشارلز برفقته!"

ارتجفت يمين ريتشارد حينما سماعه ذلك وجفل يحدق به، ثم ابتلع بذلك جهده لمطى بسمة متذبذبة: "ر... ربما اشتقت لهما".

- "همممممم، ربما!"

- هدأت العاصفة الثلجية وسكنت مدينة ياسك في صمت كالعروس مغمورة بالبياض. خرج تشارلز برفقة السيد جون فقد أصر على الذهاب إلى حانة المارند. وقف هناك مباشرة أمام الدرج يحدق بالباب المغلق، بينما البرد أزعج السيد جون، حتى ورغم أنه غلف يديه بقفازين جلدین وخبأهما داخل معطفه الثقيل كان البرد يجد سبيله إلى عظامه، يلف وشاحا حول رقبتة وقبعة صوفية تغطي رأسه. لم يقوى على الوقوف ساكنًا فكان يتململ واسنانه تصطك.

التفت لتشارلز وراه ثابتا في استقامة لاح لهو عمودا متجمدا يرتدي معطفا جلدي طويل بلون الأسود والوشاح الثقيل يلتف على رقبته. يخرج أبخرة من بين شفثيه وكان أنفه احمرًا، بقي هكذا صامتًا ضائعًا في ذكرياته. سأله السيد جون: "يا بني، لما نقف هنا؟". أخرج صوت مبحوحا كأن أوتاره متجمدة: "أحاول تذكر شيء".

- "وهل أنت قادر على تشغيل عقلك في هذا الجو." قال السيد وهو يحك يديه ببعضها يحاول تولد حرارة تدفئه: "تم استجواب الأشخاص الذي يديرون هذه الحانة، لكن للأسف لم يتم إعطائنا أي شيء يدعم مسار التحقيق".

تهد تشارلز وبدا شاردًا وهو يتكلم: "في هذه الحانة رسمًا وشم الطائر!".

- "ماذا؟"

- "كان لدانييل صديقٌ أكبر منه في العمر. يدعى ليوناردو بنجلي، هو الشخص الذي رسم له الوشم... وبعد ذلك جلبنا دانييل إلى هنا".

تبسم السيد جون قائلاً: "يبدو أنه كان ولدًا يهوى المجازفات!".

مد تشارلز شفثيه المحمرين ولشدة البرودة لم تكن إلا طيف بسمه ضئيلة تحوي قدرًا هائلا من الحزن، قال بعد ذلك: "أذكر كيف قام بتشجيعنا لرسم الوشم، وحينما قام فرناند بفعلها انهار باكياً ظل طوال الوقت يبكي. أما ريتشارد في بادئ الأمر امتنع عن إظهار دموعه لكن وجهه تحول إلى طماطم حمراء لشدة كبحه للألم، لكنه بكى في نهاية أيضًا".

تأمله السيد جون بصمت ورأى كيف بدا سعيدًا وهو يذكر الماضي ، فقال له مازحًا: "وماذا عنك أشك أنك كنت أسوءهم! لا أصدق كنتم في الثانية عشرة فقط!".

أخفض رأسه ضاحكًا متورد الوجنتين ثم أردف وقد كبت صوته بفعل الوشاح الذي رفعه إلى مستوى فمه: "يمكنك القول أنني ترددت، ثم أحسست أنني جبان لأنهم تمكنوا من تحمل الألم بينما أنا لا. في الحقيقة ظلت أبكي حتى قبل أن يبدأ في نقش الوشم، واستغرقت ساعتين حتى أتمكن فقط من الثبات".

قهقهه جوناثان حتى أحس بجفافٍ في حلقه وحرارة طفيفة تسري في جسده. ثم ساد الصمت لبعض الوقت وظل تشارلز يتأمل في شرود باب الحانة ويرى صور أولئك الأولاد المشاغبين وهم يركضون على الرصيف ويصعدون إلى الدرج، تبدو خيالات الماضي كأنها حية أمامه، صورة

دانييل وهو ابن الثانية عشرة، كان له روحٌ مندفعة جريئة. والبسمة معلقة على وجهه، مضيء بقزحيتين رماديتين تتلألأان بالحياة. قال وهو مأسورٌ بالشroud: "أتساءل، لو أنني لم أياس واستمرت بالمجيء إلى هذه الحانة، هل كانت لتُخلق فرصة ما تمكنني من العثور عليهم؟".

- "من يعلم يا بني، لكن تأكد أن ما ينبغي أن يحدث هو ما سيحدث فقط".

أخذ شهيقاً عميقاً من ثما اعقبه بزفيرٍ خلال قوله: "تمنيت لو أننا لم نقدم على تلك المجازفة!".

- "ذلك الشاب ليوناردو بنجلي قد دعاكم للعيش في ملجأ. أليس كذلك؟".

- "نعم، وذلك ما شجع دانييل للهرب من الدير بشكلٍ نهائي. ولكن، كل شيءٍ تدمر! ... كنت مؤمناً أننا سوف نلتقي هنا... لكن عندما وصلت للحانة وجدتها مغلقة".

أطرق السيد جون برأسه وضيق اتساع جفنيه وكلتا ذراعيه خلف ظهره استحضر مسألة مهمة إذ قال: "هممممم، تزامن هروبكم مع مهمةٍ لفتت لذلك الشاب المدعو ليوناردو بنجلي، وقتئذ جاءت الشرطة لاعتقاله وحدثت مناوشة بينه وبينهم وأثناء ذلك أطلقت رصاصة طائشة أصابت فينرال بنجلي مالك الحانة السابق"

رفع رأسه وصار مثل تشارلز يحدق في باب الحانة وكأنها ينتظران من الباب أن يتكلم، وبعد برهة تتم قائلًا: "ليوناردو بنجلي... ملجأ! هممم ذلك الملجأ الذي ذكرته يا تشارلز كان يؤوي الأطفال المتشردين صحيح؟".

أوماً إيجاباً فتابع السيد: "لو افترضنا أن الكونت وبالأدق رفيقك دانييل هو زعيم جماعة الكاردينال وحصل بينه وبين ليوناردو خلاف سواءً كان ذلك ناتجاً بسبب الصراع على الزعامة، أو بسبب عشق امرأة. بالنسبة لنا نحن لا يمكننا إلى الآن تأكيد كون فرناند هو ذاته ليوناردو، ولو أننا تمكننا من اكتشاف أمر فالانتين في وقتٍ أبكر لتمكنا من فهم ما حصل... أعني هي قدمت للعمل كخادمة تحت اسم مستعار، لماذا سوف تفعل ذلك ولأني غرض؟ وهل كانت على علمٍ بحقيقة الكونت؟. وإذا ركزنا على أنشطة الكونت أوليغرس، تبرعاته لدير سانت فليرك، ولذلك الرجل الريفى لينوكس وبناته؛ لذا سوف يكون من الأرجح تصديق كونه هو من يزعم الكاردينال وهو الذي سعى لإنشائه ثم بسبب أحد الافتراضين الذين ذكرتهما سابقاً انتهى أمره... لكن الآن ما ذكرته حيال الملجأ لفت نظري؟"

تطلع تشارلز إلى حذائيه الأسودين اللذان انغمسا قليلا في كثافة الثلج، يفكر بتركيز تام متمعناً في كل ما قاله السيد جوناثان غريس، ثم بعد صمّت الرياح الباردة تلمس وجهيهما، نظر الاثنان لبعضهما ونطق السيد غريس أولاً: "هل تعرف أين هو ذلك الملجأ يا بني؟".

هز رأسه لليمين واليسار مجيباً: "كلا، دانييل هو الوحيد الذي تمكن من زيارة ذلك المكان. ولكنني واثقٌ أنه في هذه المنطقة في ضاحية لينهاست " فجأةً بترت ذكرى مباحثته حديثه تذكر كلمة قالها دانييل لهم حينما كانوا جميعاً جالسين فوق سقيفة الدير، كان متقدماً وهو يتكلم بشقْفٍ كبير

(لقد رأيت، رأيتة بنفسي! إنه مكانٌ كبير قد يبدو كالمستودع ولكنه كبيرٌ جدًّا وهناك العديد من الأطفال في مثل سننا، يمكننا أن نبدأ من هناك! أن نبدأ في تشكيل الكاردينال وليو سوف يساعدنا!)

قطب تشارلز حاجبيه ومالت زاوية شفثيه للأسفل حتى بدا كالعابس: "م مستودع... أذكر أن دانييل شبهه بالمستودع!"

- "همممم، شبهه بالمستودع!" قال السيد جون وهو يمسد لحيته ويلوح أنه يخطط لشيء ما: "حسنًا، لنرى كم مستودعٌ في هذه الضاحية ولأجل ماذا يستعمل".

عاد المفتش إلى المركز وفرض اجتماعًا عاجل مع كافة الضباط داخل مكتبه الفسيح، وتم فرد خريطة كبيرة على الطاولة تضم فيها جميع الأحياء والمناطق داخل العاصمة، ولكن هنالك إشارة كبيرة حمراء تحيط حي لينهاستنغ بالذات. إلا أن المشكلة التي صادفته هي وجود العديد من المستودعات داخل نطاق هذا الحي ولأن تشارلز لا يعلم بشكل دقيق أيها الذي كان من المفترض أن يتجه إليه ليلتقي برفاقه، تلك كانت الحلقة الضائعة منذ خمسة عشرة عامًا والآن وجودها لم يكن فقط ضروري بالنسبة لتشارلز بل لكافة رجال الشرطة.

- "ما دام أن هنالك العديد من المستودعات فمن المستحيل أن نتمكن من العثور عليهم بدون إثارة الشبهات، وهذا سيقدم لهم وقتًا كافي ليتمكنوا من الهرب" قال سكود غير قانع بفكرة اقتحام جميع المستودعات داخل حي لينهاستنغ، فالتفت نحو المفتش الغارق في التفكير والتحديق بتلك الدائرة التي تحيط الحي. هنالك أربعة شوارع رئيسة تقود إليه بشكل مباشر،

والعديد من الطرقات الفرعية والأزقة... وتم وضع دوائر صغيرة حول كافة المستودعات في تلك المنطقة والتي تتجاوز تقريباً ٤٠ مستودع. استمر في تأملها ولاحظ ثغرة نهته على أمر، هنالك طرقات إن تم سدها فسوف تقطع الطريق على كافة المستودعات بحيث لا أحد يتمكن من الوصول إلى الطرقات الرئيسية. تكلم أخيراً ليفضي بما يفكر به وهو يشير إلى تلك الطرقات الفرعية: "هذه، وهذه، وهذه، وهذه. كل هذه الطرقات الملتوية هي ما علينا التركيز عليها. لیتم نشر فرق من الخيالة لتحيط وتغلق الطرقات الضيقة. تكمن الصعوب فعدم السماح لهم بالهرب خارج المنطقة ... عليكم بسد كل منفذ للهرب خارج لينهاستنغ" صمت قليلاً ثم أضاف وهو ينظر نحو النقيب: سكود".

- "نعم، حضرت المفتش".

- "اتصل من الخط الأرضي وأطلب دعماً كامل. نحن لا نعرف حجم الإمكانيات التي تملكها تلك الجماعة لذا علينا أن نكون مستعدين لأي شيء".

بعد أن انصرف الضابط للتنفيذ، أوقف المفتش غرلين ودعا لجانبه ثم همس له: "أرسل اثنين من الرجال إلى شقة تشارلز، واثقٌ بأنه سوف يقدم على تصرفٍ مهور، لذا أريده أن يبقى في إقامة جبرية حتى تنتهي هذه العملية".
أوماً متفهماً ثم ذهب لتنفيذ أمره.

قبل أن يكتمل ظهور القمر في رقعة السماء المزرقة، شحذت قوة الشرطة وانتشروا في محيط لينهاستنغ بسلاسة وسرية.

حين إذن كان تشارلز يذرع أرجاء شقته يفكر، ويفكر حتى شعر بالصداع فغلغل أصابع يده اليسرى داخل خصاله يهذي كالمحموم. قرر الارتياح وفعل ما يمليه عليه عقله، حمل معطفه واتجه إلى الباب أثناء ارتدائه وما أن فتحه حتى وجد رجلين يرتديان زي الشرطة. وقفا باعتدال، ثم تكلم أحدهما: "مساء الخير، سيد غرنالد".

طرف متعجباً وهو يسأل: "ما الذي تفعلانه هنا؟".

أجاب الآخر: "لقد طلب منا التأكد من ابقائك داخل شقتك اليوم".

رفع حاجبيه مشدوها إلا أنه لم ينبس بكلمة أوماً لهما بابتسامة لا تبطن خيراً. أغلق الباب، ثم تراجع إلى الردهة تأمل الأريكة لبرهة ثم اندفع نحو غرفته، أغلق الباب بالمفتاح ثم راح إلى نافذته فتحها وخرج من خلالها إلى سلالم الطوارئ الحديدية، أغلق النافذة ونزل بحذر.

بعد أن تمكن من الخروج بهدوء اتجه إلى المركز، فاستغرب أن المكان يكاد يخلو من رجال الشرطة، سأل أحد الحراس الذي يريضون أمام البوابة لكن لم يجد منه إجابة شافية. خرج من هناك وأستأجر سيارة أجرة طلب من السائق أن يقله إلى حي لينهاستنغ.

ومع وصوله إلى شارع لوستين وجد حزمة كبيرة من عناصر الشرطة مسلحين وينتشرون في كل مكان، حتى أنهم لم يسمحوا لسيارة الأجرة بالمتابعة إذ أن واحداً من الرجال اعترض طريق السيارة وصاح بصوت غليظ جهور: "لا يسمح بالتقدم عد أدراجك!".

ارتبك السائق والتفت ناحية تشارلز لسمع منه قولاً: "لا بأس" أعطاه أجرته ثم ترجل وغادر السائق بسلام. تقدم الشرطي خطوة ناحية تشارلز ليخاطبه بحدة: "ما عملك هنا قلت انصرف!".

ناظره بعيون باردة وتجاهله ليمشط المكان باحثاً عن المفتش وبقي ذلك الجندي الحانق يحادثه وتشارلز يتجاهله. حينما عثر على مراده تحرك باتجاهه مما زاد الرجل غضباً لعدم الاكتراث له، فصاح قائلاً: "هل تجرؤ على تجاهل التنبيهات! إن تحركت خطوة أخرى سوف يتم القبض عليك!".

تابع تشارلز مسيره وكأنه أصيب بالصمم مما جعله محطاً للشبهات، فتأهب الرجال وحوطه مشيرين بأسلحتهم وتلك الضجة لفتت انتباه المفتش ومن معه من المسؤولين. ساروا إليهم ليستطلعوا أمر هذه الجلبة، فلما رأى المفتش تشارلز أبعد الغليون عن شفثيه وهتف مدهوشاً: "يا إلهي! تشارلز ما الذي تفعله هنا؟".

ثم تقدم بخطوات متباعدة مندفعة وطلب من الرجال إنزال أسلحتهم: "اهدأوا إنه ليس خطراً أنزلوا اسلحتكم!".

وقف أمام تشارلز هامساً بنبرة مكبوتة مستاءة: "ما الذي جاء بك إلى هنا؟".

- "ما الذي تفعله؟" سأله تشارلز وفي عينيه بريق امتعاض.

- "ما الذي تراني أفعله؟ أنا أقوم بعمله يا تشارلز".

- "ولكن... ستقبض عليهم؟" تتم بصوت مرتجف
 - "يا بني، هذا عملي. لقد عثرنا على طرف خيط ولن نهمله. المسألة لا تتعلق بقتل الكونت فقط، إهم جماعة خطيرة قاموا بتنفيذ عمليات تعتبر خارقة للقانون وهذه يلزمنا القبض عليهم" تطلع هنيئة إلى الحزن الذي ملء جوانب ملامحه إنه يعلم ما الذي يمكنه صدره وأشفق على ذلك فقال بهمس يحثه كما أنه أخذ بساعده اليمى وسحبه برفق أثناء حديثه: "تشارلز، كما أخبرتك قد لا يكونون هم. عد إلى شقتك هذا ليس مكانك لا يجب أن تكون هنا... سوف أبلغك بكل ما يحدث لاحقاً".

بيد أن تشارلز ثبت في محله: "لا، سوف أبقى هنا. هناك ما يثبت أن فالانتين حية".
 عاتبه المفتش وقد نفذ صبره: "تشارلز، ليس من الجيد أن تظل هنا المكان خطر. أفعل ما أقوله لك؟".

- "سأظل! أريد أن أشهد بعيني!". أردف بعناد صلب حاسماً القرار.
 - "يا لك من يابس الرأس! إن كنت ستبقى لن تبرح عني خطوة واحدة، أتفهم؟".
 رغم أنه هز رأسه راضحاً لطلبه إلا أن العزم الخفي في عينيه يقول عكس ذلك.
 بينما هم يجرون تلك المحادثة كانت العملية قيد التنفيذ فقد تم بشكلٍ مباغت اقتحام بعض المستودعات ولكنها لم تكن إلا مخازن خاوية وبعضٌ منها تابعٌ لمصنع تغليب السمك. ثلاثة من المستودعات في شرق الحي تم مداهمتها من قبل الفرقة الثانية، وجدت فيها كميات من النبيذ المهرب بطريقة غير قانونية فتم إسقاط الصناديق التي تحوي تلك الزجاجات فتحطم بعضها لقد كانت مداهمة شرسة بحق! تم القبض فيها على كل العاملين هناك، بينما الفرق الأخرى تمشط باقي المستودعات بالتزامن مع المداهمات.

بقي تشارلز على أعصابه رجله اليسرى تطرق على الأرض مراراً، كان بإمكان أي شخص أن يلاحظ توتره وقلقه، هو بذاته لاحظ ذلك وجاهد لإخفاء الأمر. ربت المفتش على كتفه الأيسر وهمس برقة: "إن كانت من بينهم، فلا أنصحك برؤيتها يا تشارلز لن تتحمل ذلك. عد إلى المنزل استمع إلي!".

- "كلا، أريد ذلك". أجاب وعينيه لا تفارقان تلك القنطرة الكبيرة ينشق منها طريقٌ حجري. بعض الشرطين كانوا فوق أحصنهم يمشطون المكان. تسللت الفرقة الرابعة بقيادة سكود ومعه

غرلين إلى خلف المنازل. كان خبيرًا بنشر الرجال ليحيطوا بكل المخارج ويغلق المسارات الملتوية. أبعدها أي ظل لكائن حي. كأن الليلة هي موعد مهم بين الماضي والحاضر، فعدة العدة بإحكام. اقتراب سكود برجاله. في زقاق يطل على شارع بيروستغ، أمال برأسه ورأى على بعد منهم في زاوية الشارع المستودع الكبير ذو القرميد الأحمر محاطًا بسياج من الشبك الحديدية. انتبه على وجود مجموعة أطفال في الباحة الخلفية. التفت إلى رفاقه قائلاً: "لا تؤذوا الأطفال فوراً اقتحامنا فلتقم مجموعة منكم بإبعادهم عن المنطقة".

"هل سوف نقتحم ذلك المكان أيضاً؟" سأل غيرلن مستغرباً: "إنه مجرد ملجأ".

ذخر سكود مسدسه قائلاً: "حتى رغم ذلك، كل المستودعات داخل المنطقة ضمن حيز التفتيش. كونوا حذرين وأنتم تبعدون الأطفال فقط". ثم أشار للفريق الأول بالتقدم. تحركوا مسرعين ليطوقوا المستودع والمسدسات مصوبة مستعدة لاصطياد الأرواح. تقدم سكود مع المجموعة الثانية وركل باب سياج الباحة الأمامية مطلقاً صوت جمد الأطفال فزعاً.

انطلق مجموعة من الرجال ليزيحوا الأطفال من المنطقة، ثم أسرع سكود يعدو، ألصق ظهره للجانب الأيمن من باب المستودع الكبير، وفعل غرلين المثل في الجانب الآخر. أوماً له، ثم تحرك سكود بسرعة وركل الباب المتوسط فندفع يطرق بصوت مدوي بعد أن اصطدم بالبوابة الكبيرة، دخلوا جميعاً كالفيضان الكاسح!

توقف سيارة في شارع لوستين، كان بداخلها السيد أمارد وكاترين. تعجب السيد لما رأى سيارات الشرطة تملأ المكان وتغلق الطريق الغائر نحو ضاحية لينهاستنغ، فقال: "ما الخطب يا ترى؟ لا يبد خيراً أبداً!"

انقبض قلب كاترين وأحست بالخوف الشديد، ثم فتحت الباب قائلة: "يجب أن أعرف ما الذي يحدث!"

"توقفي! ماري، ماري! لا يمكنك إختراق كل هؤلاء الرجال... ماري!"

لم تستمع له اتجهت نحو أحد أفراد الشرطة وسألته بأنفاس متقطعة: "عذراً، عذراً! ما الذي يجري؟"

"إنه أمر أمني، عليك المغادرة من هنا فوراً!" أجهها بصوت جاد يبعث الرهبة، مع ذلك لم تزحزح نظرت لتلك الحواجز المنصوبة على الطريق والشرطة تتوزع في الأزقة.

عادت إلى السيارة وقالت فور أن صعدت وأغلقت الباب: "عم ألمانرد أيمكنك الرجوع من هذا الطريق سوف نلتف حول الحي".

- "ما الذي تنوين فعله يا بنتي؟"

- "يجب أن أصل إلى البقية".

- "ولكن يا بنتي كيف سوف تصلين إليهم؟ الشرطة تملأ المكان".

- "التفت حول الحي من الجهة الشمالية".

تراجعت السيارة للوراء ثم دارت وعادت من الطريق، استمرت تسلك شارع لوستين ثم انعطفت يساراً وبعد نصف كيلومتر وصلت إلى تقاطع فاتجه السيد يميناً. وقتئذ كانت هوانغ تحظى بمشروها لم يكن هنالك الكثير من الضوضاء داخل المكان إلا عددٌ قليل من لاعبي القمار في زاوية أقصى اليمين. دخل أحد الرجال فجأة وهرع مسرعاً نحوها يحمل في ملامحه جزعاً كبير، صاح قائلاً: "سيدتي، سيدة هوانغ... سيدتي!" التفت نحوه مقطبة بانزعاج من صوته المرتفع: "لما تصيح كالديك في آخر الليل؟".

وقف بقرها لاهتأ وهو يقول: "الشرطة، الشرطة! إنهم... إنهم يقتحمون أغلب المستودعات في المنطقة".

صدمة بقوله كانت الفاجعة كفيلا بتغيير ملامحها الباردة وإظهار شيء من المشاعر على محياها، قد ارتفعت حواجبها ودب الاضطراب في أوصالها. نظرت بسرعة نحو لاوند أثناء نهوضها: "انزل إلى الأسفل بسرعة وأبلغ الرجال بإغلاق المكان جيداً. أخفوا كل شيء" أضافت وهي تشدد في كلماتها: "أخبرهم أن يحترسوا أثناء نقل التحف!".

أوماً ثم ترك مكانه مسرعاً ودخل عبر ذلك الممر. بقية هوانغ تفكر وتحدث نفسها: "هؤلاء الكاردينالات المملعين! هل فعلوا شيئاً؟ هيروسك... سوف أغرس أظافر في عنقك إن حدث شيءٍ لعملي!".

اتجهت إلى غرفة الهاتف، أمسكت السماعة بعنف ثم حركت بأصابعها قرص الأرقام. ظلت تخبط الأرض بحذاءها الأسود في عصبية ونفاذ صبر، وفور أن سمعت إجابة على اتصالها نطقت بحدة: "هيروسك!".

- "كلا إن..."

- "أعطني هيروسك فوراً!!" قبل أن يكمل كلامه قاطعته بعصبيتها الثائرة.
 - "ح حسنا، انتظري قليلاً!"
 - بعد ثلاث دقائق رد هيروسك: "هواند" وقبل أن يكمل داهمته بصوتها المنفعل: "أيها الوغد!"
 - "لاروي!" جاء صوته على نحوٍ مندهش فتابعت تلك: "أخبرني فوراً ما الذي يجري؟ الشرطة تقتحم المستودعات في المنطقة... هل فعل كردينالائك شيئاً؟ أقسم لك لو ظهر وأنهم على علاقة بما يحصل سوف أغرس أظافري في عنقك!"
 - "اهدأي قليلاً لأوري!"
 - "كيف تريد مني أن أهدأ!"
 - "أنا مثلك لا أعرف ما الذي يحدث ريتشارد لم يخبرني بشيء... لكنني واثقٌ أن هنالك خطباً ما."
 - "لا يهمني! فقط عليك أن تعلم سوف تنشب حرب بينك وبينني إن تمكنت الشرطة من القبض على أحد اتباعي. أفهمت ذلك"
 - صمت هيروسك لبعض الوقت ولاح صمته مريباً حتى أن هوانغ استغربت عدم رده... لكن بعد دقيقة انبثق صوت هادنا على نحوٍ مهدد: "لاروي هوانغ، تعلمين جيداً أنك لن تجدي ممولاً غير داخل السوق السوداء... كوني حذرة أثناء الحديث إلي!".
 - ابتلعت ريقها واهتزت أرنبه أنفها بحنق واحتكت أسنانها ببعضها قائلة: "إذن كن حذراً وأنت تتعامل معي أيضاً".
 - "سوف أتى إلى غالبريساك بنفسني لأرى ما الذي يحدث."
 - "سيكون هذا أفضل".
 - أغلق هيروسك الخط مما أثار ثارت لاروي فشبهت بصوت عالٍ قائلة: "أغلق... أغلق الخط في وجهي! حسناً يا هيروسك!"
- ***
- وصلت كاثرين إلى منزل امرأة تدعى سوزان قرعت باب منزلها وانتظرت برفقة السيد المارند.
 - حالما فتحت اندفعت تتكلم مباشرة: "سوزان، اعذريني أحتاج لمساعدتك".
 - "ب بالتأكيد! ما الأمر؟". أجابت المرأة بارتباك نسبي.

- "الشرطة تملأ المكان ولا أستطيع الدخول إلى داخل العي. هل يمكنني استعمال باب منزلك في الجهة الأخرى؟".

- "بالطبع تفضلي. ولكن ما الذي يحدث لِمَ الشرطة في كل مكان؟".

أجابها أثناء الدخول بصحبة السيدة أمارند: "فعالاً لا أعلم، ولكنني قلقة على رولد والبقية أريد الاطمئنان عليهم".

كان منزل المرأة المدعوة سوزان له بابان الأول يطل على شارع لوستين ٣ والثاني من الجهة الأخرى يطل على زقاق بين المنازل. خرجت كاثرين من خلاله مع السيد وشكرت المرأة. تابعا على طول الزقاق وحين وصولهما لنهايته المطلة على شارع وقفت كاثرين تنظر إلى جهة اليمين فرأت بضعة من الشرطة، ثم سمعت صوت السيد أمارند القلق: "يا بنتي، ما نفعله خطر قد يعقلوننا!".

اجابت بثقة تامة: "أنا لا أفعل شيئاً خاطئاً! أريد الاطمئنان على زوجي وعائلي!". قالت ذلك وهي تضم حقيبة يدها بيمينها إلى صدرها تشد عليها بقوة لتخفي خوفها: "يمكنك أن تعود يا سيد أمارند لا أريد توريطك معي!".

دهش بقولها فعاتبها: "ما الذي تقولينه يا بنتي! أتريدين مني أن اتركك بينما كل هؤلاء الشرطة منتشرين كالذئاب في الغابة!".

استطرد السيد بعد أن نظر إلى الجهة اليسرى لم يكن هنالك العديد من رجال الشرطة، لكنه تراجع نحو الزقاق لما يزيد عن عشرين خطوة فبعد باب منزل سوزان على بعد منه مدخل لزقاق آخر طويل. أشار لكاثرين بأن تأتي نحوه فتحركت مهولة. قال السيد: "سوف نسلك هذا الزقاق!".

- "حسناً".

حالما اقتريا من نهايته كان هناك فوق سطح البناية... من لقب بالنسر؛ كان يراقب ويرى رجال الشرطة ومواقعهم من أعلى البناية وعندما التفت إلى الزقاق الذي يسلكه الاثنان فغر مشدوهاً وقال: "م ماري والعم أمارند!" تحرك من مكانه راضياً ثم قفز إلى سطح المجاور ركض نحو مخرج السطح وقد كان باب حديد فتحه ودخل عبره، ثم نزل درجات البناية مسرعاً توقف عند نافذة طويلة بلا زجاج وقف على حافتها وأبصر أمامه درج طوارئ، قرر عقله المتهور

اختصار النزول وشحذ كل قوته إلى ساقيه ليقفز قفزة عالية نحو ذلك الدرج. تمكن من أمسك أحد القضبان الحديدية، رفع نفسه ثم وقف على أرضية الشبك الحديدية. رآته كاثرين وهو ينزل من هناك فتوقفت وهتفت: "إلياس!" لم يستخدم السلم المتصل بالدرج بل قفز نحو الأسفل يملك من الرشاقة والخفة ما تعجب له السيد أمارند فقال: "يا لك من متهورا!" هرول إليهما ثم أمسك كاثرين من عضديها يلهث متهدجًا: "ما الذي تفعلينه هنا ماري؟ عدي إلى المنزل الشرطة في كل مكان".

"مستحيل! لا أستطيع فعل ذلك! ريتشارد أرسل امرأة غريبة بالأمس لقد أخذتني مع ابنتي إلى منزل العم أمارند وأخبرتني ألا أعود لمنزل أبدًا. أريد أن أفهم ما الذي يحدث بالضبط؟ ما الذي تخفونه عني؟"

أخفض إليا عينيه إلى الأرض ولاح شارداً، كلم نفسه المدعورة ريتش، ما الذي يفعله من ورائنا؟ أيقظه السيد أمارند بصوته المنادي: "إلياس، إلياس! ماذا بك؟" أجاب متذبذباً ووجهه يدل على غموضٍ غير مريح: "لا، لا شيء. عم جاليليو، رجاءً خذ ماري وغادرا المكان".

صاحت تلك بصوت مكبوتٍ معترضٍ بشدة: "قلت لك لن أذهب لأي مكان! أريد رأيت ريتشارد والبقية... وأريد فهم ما يحصل؟". شد على عضديها وخاطبها بغلظة: "ريتشي سوف يقتل نفسه إن أصابك مكروه! عليك الذهاب".

"لويس هناك.. لقد بقي في البيت الكبير أيضًا أنا قلقة عليهم أفهمي لا أستطيع البقاء هكذا!".
- "أعدك سوف أذهب إلى هناك الآن فورًا. ولكن كما ترين هناك العديد من رجال الشرطة وقد يوقفوننا إن رأونا جميعًا، أنتِ والعم لن تتمكننا من القفز فوق الاسطح مثلي، لذلك عودي مع العم وأنا أعدك سوف اتصل فور وصولي إلى البيت الكبير وأجعلك تطمئن عليهم. أقسم لك بذلك!".

حبست أنفاسها المحمومة وكان القبول كمثل إمسك جمره ساخنة عليها، زفرت مستسلمة ثم اعطته نظرة توضح مدى جديتها: "يفضل أن تتصل قبل الغروب!".
وأما قائلا: "أعدك. والآن هيا اذهبي".

أمسك العم مرفقها برفق ليأخذها ولكن إلياس استذكر أمرًا فأوقفهما بسرعة وقال: "لحظة. إذا حدث ولم اتصل عليك أو لم يأتي أحد إليك... اذهبي إلى مدينة اسغراس واتجه مباشرة إلى حانة (برودسال) أخبرهم أنك تعرفين شخصا يدعى هيروسك. تذكر ذلك جيدًا، هيروسك..."

"مماذا؟"

"سامحيني لا يمكنني أن أشرح لك شيئًا الآن. إن حدث ولم نستطع التواصل معك سوف نذهب إلى هناك لذا أحرصني على أن تتواجدي في حانة برود سال" مسح على رأسها بيد حانية وقال بحسرة تهرق في عينيه: "ماري، إن حصل وسمعت أي شيء سيء عن ريتشارد فلا تكرهيه. يجب أن أذهب الآن."

صاحت وهي تراقبه يبتعد: "لحظة إيليا... إلياس! ما الذي تقصده؟"

أمسكها العم من ذراعها ليمنعها من اللحاق به.

**

انطلق إيليا عبر شارع فرعي نهايته كانت مسدودة لكن ذلك لم يرقد عزيمته. تراجع عدة خطوات للوراء ثم ركض بسرعة كبيرة وقفز صوب الجدار كما لو أنه صار يمشي عليه حتى وصلت يمينه للحافة وتمكن من امسكاها ثم مد يده اليسرى وضغط على نفسه ورفع نفسه حتى تمكن من وضع ركبته اليسرى على الحافة ثم وقف وقفز صوب غطاء الحاوية ثم على الأرض. بعد ذلك سلك زقاقًا يؤدي لمنزل له ثلاث درجات حجرية. قرع الباب وظل يقرع حتى فتح رجل في منتصف الثلاثين يلوح بشكل عام ذا بنية عريضة قوية تتحمل أعمالاً شاقة وساعدين نبت فيهما الشعر قليلاً، خصاله بنية فاتحه وعينيه متباعدتان تومضان بلون خضر داكن.

"مرحباً جاين، ألدك وقت لمدي العون؟ الرفاق منكون". قال إيليا تلك الكلمات وكأنها شفرة مهمة. أوماً ذلك ثم عاد خطوة لداخل المنزل ونادي قائلاً: "جيزيل، جيزيل!". مثلت زوجته أمامه بأصابع تتشابك في ارتباك وخيفة.

همس لها: "اجلبي بندقيتي".

شهقت وارتعد كل جزء في جسدها ولم تتزحج، لكنه أيقظها بنبرته الصارمة: "أحضري البندقية جيزيل!".

غابت لدقيقة ثم عادت وهي تحمل البندقية. استلم جاين البندقية من زوجته التي لاحت قلقة وهي تنظر لإلياس وكأنها تطالبه بتفسير. فقال مشفقاً على خوفها: "جاين، يمكنك أن تبقى".

- "ماذا؟ سوف آتي معك. أنا أدين لفان بحياتي".

- "أنت أب ولديك مسؤولية".

لم يتزعزع اصراره الحاسم إنه ذاك النوع من الرجال الذين إن خدمته مرة واحدة صاروا عوناً لك مدى الحياة لشرفهم ونزاهتهم، إذ قال بحزم قاطع: "فان خاطر بحياته لإنقاذ طفلي لولا تلك الأدوية لما تمكنت من سماعي ضحكتها مجدداً لذا أنا أدين له بحياتي أفهم. سوف آتي معك".

التفت لزوجته: "عودي لداخل واغلقي الباب".

اتجه الاثنان بحذر شديد متجنبين الطرقات المتعددة، لكن صادفهما قبل الخروج من أحد الأزقة كتيبة من رجال الشرطة، كانوا على بعد منهم ما يقارب ٢٠ مترًا يعبرون الشارع وبعض العامة يقفون عند مخرج الزقاق وفي الرصيف يتسائلون بفضول جامح. توقف إلياس مباشرة ثم التصق ظهرهما بالجدار. ظل يراقب كتائب الشرطة تسير وبعض الرجال يحجبون الرؤية أحس بالخطر من عناصر الخيالة التي تدخل الأزقة الضيقة فالتفت لجاين قائلاً: "غير مسارنا".

غيرا المسار وسلكا طرقاً ضيقة أخرى حتى أوصلتهما إلى منطقة خلف إحدى المنازل المهجورة. كان نصف سقف المنزل مهدوم والنوافذ يعبر الريح منها، نوعاً ما مدفون تحت أكوام من الثلج. استدارا وراء جدار المنزل من الخلف، جدار عريض طويل وقد زحفت النباتات الضارة على جدرانه ونبتة بعض الحشائش الخضراء في جوانبه. بعد خمسة أمتار كان هنالك فتحة مغطاة بالخشب أبعدها الاثنان واستعملا قوتيهما الكاملة حتى يتمكننا من رفعه. ثم دلف إليا هابطاً من السلم الحديدي الصداً وتبعه جاين.

داخل البيت الكبير، تلك المداهمة المباغطة هزت أركانه، بعض من ساكنيه عكفوا على حماية العجائز لكن ذلك كان عقبة بالنسبة لهم وكذلك الشرطة فوجود النساء والعجائز سد فوهات

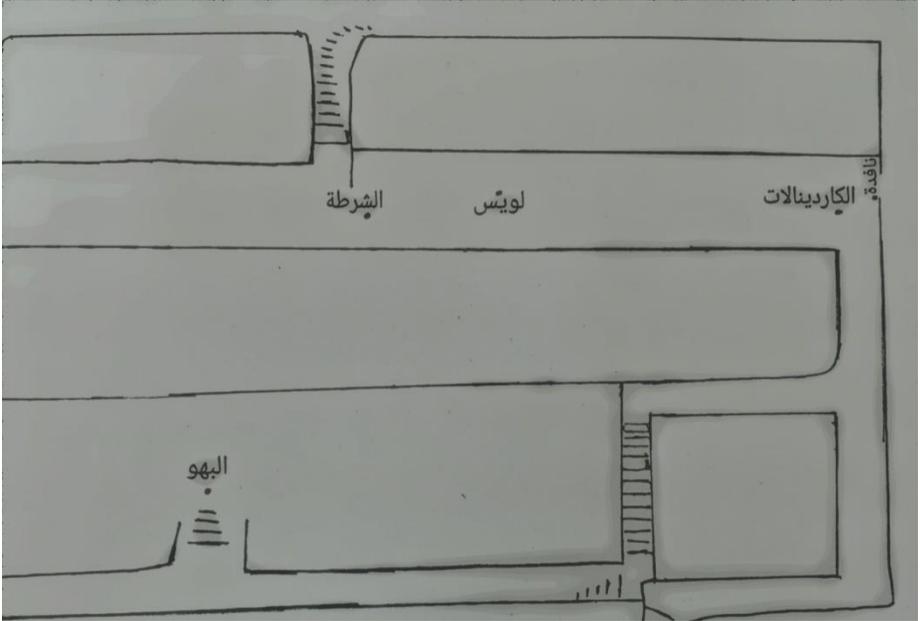
الأسلحة كانوا يخشون إصابتهم. لكن سكود قرر التحرك لأجل السيطرة على الوضع فقال صائحًا بصوت غليظ: "ألقوا أسلحتكم وسلموا أنفسكم حتى لا يصاب أحدٌ بأذى!"

كان الجو محتدمًا وصياح النساء وبكاء الأطفال يعيق التركيز. ظهر بعض الرجال في الطابق الثاني وقد كان مكشوفًا للساحة الداخلية داخل المستودع. فزع أحدهم قائلاً: "يا إلهي الشرطة!". واحدٌ منهم بدا أكثر هدوءً لم يفزع كبقية رفاقه، أسمر البشرة خصاله متعرجة مسودة تترامى إلى كتفيه العرضين، عينيه عسليتين مجوفتين يعلوهما حاجبين كثيفين. نطق بصوت شبه غليظ مخاطبًا أحد رفاقه: "أذهب وابلغ فان بسرعة!" ثم أخرج مسدسه وكان أول من أطلق رصاصة أصابت كتف شرطيٍ فأخرج البقية مسدساتهم وأخذوا حذوه في إطلاق النار على رجال الشرطة من الأعلى ليبدأ مسلسل تراشق الرصاصات بين الشرطة وكل من يملك سلاحًا داخل هذا المستودع الكبير. احتتم غيرلن وسكود خلف أحد الجدران وعن يمينه كان هناك درج.

- "سكود علينا طلب الدعم هناك الكثير منهم!"

طقطق سكود بلسانه ساخطًا وقال: "إنه معقلهم لقد تمكنا منهم لا يمكننا الانسحاب الآن!"

وقتئذٍ كانت المجموعة الثانية بقيادة شيلس قد داهمت البيت من خلال بابٍ يقع خلف الفناء يقود نحو درج. صعدوا من خلاله على دفعات بحذر وحرصوا ألا يصدر ضجة تدل على اختراقهم. خرج الصبي لويس من إحدى الغرف فزعًا من أصوات الرصاص والصياح الذي ملأ المكان في نفس اللحظة التي اقترب فيها أفراد الشرطة من نهاية الدرج، بالإضافة إلى ظهور فان ومعه فيرا وريتش من الجهة المعاكسة للرواق، لتحصل المواجهة المحتممة حيث رفع رجال الشرطة أسلحتهم مباشرة وفي المقابل وجه الثلاثة مسدساتهم في وجوههم، لكن، وجود لويس في المنتصف حقن الدماء. هتف شيلس بصوت جهوري: "ألقوا الأسلحة فورًا، المكان محاصر!"



اجتاح صدر فان الخوف الشديد ليس من أولئك الرجال بل من رؤية لويس في ذلك الموقف يرتعد وينظر لرجال غرباء باسرين يوجهون أسلحتهم في وجهه، خشي أن يصبه مكروه لكن قبل أن يفتح فمه بكلمة انطلقت رصاصة من نهاية الدرج أطلقها أحد أفراد الكاردينال فأصابت شرطياً. حين إذن رد زميله بالمثل وأطلق النار على الشاب فقتله. وذلك أشعل الموقف بشكل سيء إذا أطلقت فيرا النار على شيلس لترد على قتل أحد أفرادهم لكنها لم تتمكن منه، ثم هتفت بعد ذلك قائلة: "لويس تعال إلى هنا!". ظل لويس متجمداً من الذعر وكل أوصاله ترتجف كأنه وسط ساحة حرب طاحنة وأصوات الرصاص أفقدته القدرة على التركيز. صاح فان ليقظه من خوفه: "لويس أسرع!" في تلك اللحظة تماما حينما تقدم فان خطوة للأمام وكأنها زائرة أسد بثت الرعب في قلب رجال الشرطة فأمسكوا مسدساتهم متأهبين للإطلاق. صاح شيلس مرتبكا وهائجا فما أن رأى ذلك الشاب عرفه مباشرة: "ليوناردو! سلم نفسك المبني بأسره محاصرا!"

لم يبالي بتحذيره وكلُّ من فيرا وريتش متأهين لإطلاق النار إن أطلق أي واحدٍ من جهتهم. فكر شيلس سريعاً بينه وبين نفسه ذلك الطفل! ذلك الطفل هو ما بأسره... علينا ألا نسمح له بأخذه!

- "لويس لا تخف تعال إلي لن يؤذيك أحد!" مد يده اليمىى وابتسامه مطمئنة تجمل وجهه وسط هذا الجو المحتدم، بدا واثقاً أنهم لن يفعلوا شيئاً ما دام الطفل بينهم وخلفه نسران يتربصان بظهور أي حركة من منهم. تمكن لويس من الخوف الذي في داخله وتحرك ناحية فان.

- "تباً علينا الإمساك به!" صاح شرطياً بذلك ثم تقدم عن شيلس وأطلق النار بقصد اصابت ليوناردو حتى لا يهرب بعد أخذ الطفل. لكن، تلك الرصاصتين كانتا طائشتان وكادت تصيبان الصبي لويس ... لولا تدخل فان السريع... لقد احتضن لويس والتف مسرعاً ليعطي ظهره فأصابت الرصاصة الأولى كتفه اليمىى والثانية خدشت ساقه اليسرى فجعلته يركع على ركبته... عندئذ وقبل أن يفتح شيلس فاهه فجع برصاصة اخترقت منتصف جبين زميله أمام عينيه مباشرة، ارتفعت حواجبه وانفتق فاهه متخشباً وهو يراه يخر صريعاً على الأرض، كانت تلك الرصاصة الدقيقة من مسدس ريتشارد! لم يتوقف عن الاطلاق واستمر يرسل الرصاصات بدقة متناهية وأصاب ثلاثة منهم، بينما تراجع شيلس واحتوى خلف الجدار الممتد من عند الدرج. هم بالرد وقبل أن يطل برأسه قليلاً لجهة الرواق حتى يطلق، اطلق ريتش مرة ثانية ولكنها لم تصبه وخدشت الجدار. عاد للوراء ساخطاً: "سحقاً! هل هو قناص!"

أثناء ذلك تحامل فان على ألمه ووقف على كلتا ساقيه ثم حرك لويس المرتعش بين يديه قائلاً: "تحرك لو!" هرع فيرا لتسنده بينما صدح صوت ريتش المهدد بغلظة شديدة: "إن صعد أحدٌ فيكم الدرج إلى الرواق سوف يحصل على رصاصة بين عينيه!"

ظل ريتش وحقاً يحرس ظهور ظل أي شرطي حتى يطلق النار وأعطى الوقت لثلاثة ليغادروا من خلفه عائدين من نفس الرواق الذي جاؤوا منه.

نظرت فيرا لفان سائلة: "تباً كيف عرفوا بشأن هذا المكان؟".

- "لا أدري".

حرق شيلس بجثث زملاءه الثلاثة الملقاة عند جانب الجدار الممتد من عند الدرج، حاول ابتلاع ذعره ثم التفت للبقية ممن كانوا خلفه لم يبق منهم سوى ثلاثة وهو رابعهم: "سحقاً!"

عند مقربة من الدرج الثانوي الذي يقبع في جهة الرواق الذي سلكه البقية، جلس فان وهو يُصِرُّ على أسنانه كاذمًا لألمه مدد ساقه المصابة ببطء واتكئ على الجدار، كانت كتفه اليمنى مرتخية والدماء تتسرب مغبرة لون قميصه الأبيض. سحبت فيرا شالها الأحمر ولفته حول فخذ المصابة لتوقف النزيف وهي في قمة ارتباكها واستياءها: "لا يمكنني التصديق! هل خاننا أحدهم؟ من المستحيل أن يعرفوا مكانك يا فان إلا لو حصل ذلك!"

ابتلع ريقه مجهدًا وهو يجيب: "فيرا هذا ليس مهمًا الآن" ثم نظر إلى ريتش في نهاية الروق المطل على الدرج الآخر يتربص صعود أحدهم ليطلق، ناده بصوت فاتر: "ريتشي، ريتش". التفت إليه ثم خطى مسرعًا نحوه وجثى على ركبته اليمنى: "ماذا؟".

خاطبه بأنفاس متقطعة: "خذ فيرا... ولويس... غادروا ساكون عائنًا. استخدموا النفق...". قاطعته فيرا غاضبة بشدة: "ستأتي معنا أتفهم! لذا لا تهلوس بكلام سخيف عن كونك عائنًا!". أخذ ريتش من ذراعه السليمة ليسانده على الوقوف، ولكن حالما وقف واهتزت كتفه المصابة أطبق على شفثيه يكيح أنين وجعه. أمسكت فيرا لويس واخذته معها، وبيسارها كانت تمسك سلاح فان. مسدس بمسورة طويلة تلمع بلون خشب البندق الصافي، مقبضه مزين بزخارف زهور ذهبية بديعة تحتضن طائر أحمر.

الرجال المنتمين إلى الكاردينال الأحمر يقومون ببسالة جنونية في الأسفل، إنه الدين، إنها اللحظة التي يثبت فيها أي شخص فيهم ويستمر في الطريق التي اختارها، ليس هنالك صوابٌ أو خطأ... كل شيء مبعثر، بموجب القانون فإن الشرطة ترى الحق في مسارهم، واجبهام هو القبض على المجرمين، ورجال طائر الكاردينال الأحمر، يرون الحق في مسارهم، المسار الذي يُعنى بجلب الخبز للفقير، حتى لو بطرق غير شرعية. الكل يريد أن يكون على الحق، فمن الحق؟

الفصل الحادي والعشرون

حينما نختار الطريق المظلمة، نحن نختار ذلك بكامل قوانا العقلية... لكن هنالك سبب يقودنا لاتخاذ ذلك المسار... إنها المعاناة المجحفة! ومن هنا تبدأ مناظرة لا تنتهي عنوانها، من المخطئ؟

وصل ريتشارد ومن معه للطابق السفلي عن طريق درجات خشبية مهترئة، لم يكن هنالك شيء سوى ممر واحد سلكوه واستمروا حتى وصلوا لدرجاتتوصل إلى بهو أرضي بمساحة متوسطة يستعمل لتخزين براميل النبيذ بالإضافة إلى بعض المون الغذائية.

حينما شعر شيلس أن الوضع هدا في تلك الجهة أطلق طلقتين ليري إن كان هناك من سوف يرد وبعد برهة وجيزة لم تحصل استجابة، فتحرك وتبعه بعض الرجال اقترب بحذر ثم وجه مسدسه مباشرة ليتسعد للإطلاق لو ظهر أي شخص أمامه من جهة الرواق الأيمن، حينما رآه خاليًا أسرع راکضًا حتى وصل للدرج الخشبي. توقف للحظة حتى يذخر مسدسه ثم سحب زناد الأمان والتفت للرجال هامسًا: "كونوا حذرين!"

في القبو استند فان على حائط ليمينه، ورغم أنه واجه صعوبة في الوقوف باستقامة بسبب ساقه المصابة أخذ شهيقًا عميقًا ثم قال: "أسرع! قم بإزاحة الخزانة"

- "حسنا، راقب المكان فيرا". قال ذلك أثناء تحركه نحو خزانة خشبية لها أربعة أرفف تحوي زجاجات خمر، وقف للجانب الأيسر وبدأ يدفعها بكامل قوته وقد تمكن من زحزحتها ليظهر باب خشبي بطول نصف متر. تنبه فان لارتعاش لويس فهمس له وابتسم رغم شحوب وجهه: "هيه، لو تعال إلى هنا! ليس هناك شيء مخيف. سنلعب لعبة الاختباء من الشرطة أتذكرها؟". هزرأسه إجابًا فربت فان على رأسه بلطف.

- "حسنًا" قال ريتش وهو يتنهد بارتياح، التفت عائداً نحو فان ليعينه على الوقوف: "هيا، استند علي!".

أتت صيحة تحذير من فيرا التي تقف عند الدرجات الثلاثة وذلك برصاصة أطلقتها عندما رأت شيلس في نهاية الممر. التفت ريتش متزعزعاً بعد أن فتح باب النفق وهذا ما بدا في عينيه كل ما فكر فيه هو كيفية اخراج فان وكان يستحيل أن يفكر بترك فيرا وحيدة هنا لتمنعهم عن

ملاحظتهم. وحينها كإخلاص الإلهي جاء ذلك الضوء الأصفر الباهت مع صوت مألوف ينادي: "ريتشارد!". جذب ذلك كل حواسه ليرى إلياس يصعد من درجات حجرية وبرفته جاين. أطلق زفرة قصيرة تنمو عن تفاجئه وسعاده البالغة: "يا إلهي! إلياس!".

- "ما الذي يجري الشرطة تملئ الحي؟"

- "نعم، حالياً هم في ضيافتنا".

اتسعت أذنيه صدمة: "ماذا؟ هل عرفوا شيئاً عنا؟".

- "لا أدري. الأهم الآن، عليك مساندة فان لقد أصيب" أخذ إلياس بذراعه لسنده فتابع ريتش حديثه: "عليكم الإسراع، جاين اهتم بلويس. الشرطة وصلت إلى هنا فيرا تمنع تقدمهم سوف أبقى لمساندتها".

تحدث فان بصعوبة: "عليكما المجيء".

- "لا تكن أحماً! إن غادرننا جميعاً سوف يلحقون بنا. على أحدنا أن يبقى".

- "أغلق فمك وأحضر فيرا". قال فان بصوت محتدٍ من الغضب

تجاهله ريتش وحدث إلياس: "هيا اذهبوا من هنا".

أردف إليا متردداً: "و.. ولكا".

فقد فان صبره وثار تآثرته عليه: "ريتش! لن أتحرك إن لم تتحرك أنت وفيرا أمامي". يعلم ريتش مقدار عناد صاحبه وأنه سيفضل الموت على تركهما هنا وراءه، فقد أبى التحرك من مكانه وظل ثابتاً ينظر نحو ريتش بإصرار، فما كان منه سوى استخدام آخر حلٍ يعالج الموقف، نطحه بجبينه نطحة قوية أفزعت إلياس بينما زاغ بؤبؤ فان وفقد القدرة على الإدراك وخلال ثواني كاد يخترق ساقطان على ركبتيه لولا إمساك إلياس وجاين به. هتف جاين مذهولاً: "كان هذا مبالغاً فيه!".

ورغم أن ريتش تلقى ذات الضرر الذي تلقاه فان لم يكن ظاهراً عليه أي عرضٍ من أعراض الألم سوى حمرة طفيفة على جبينه. قال وهو يستدير: "عليكم الذهاب من هنا فوراً! سوف أغلق النفق".

رأى إلياس الجدية التامة في ملامحه فجفل مذعوراً: "وكيف سوف تخرج أنت وفيرا؟".

- "لا تقلق، سوف نجد طريقة".

- "ر.. ريتش" تتمم إلباس ولم يرتج مطلقاً لما يقوله، لكن صيحة ري القوية أيقظته من شروده:
"إلباس تحرك!".

وقف جاين أمام فان ثم طلب من إلباس أن يضعه على ظهره ليحمله بعدها التفت نحوهما
وخطب إلباس: "هيا لنذهب علينا ألا نضيع الوقت ريتش محق. هيا إلبا!". رضخ الشاب للأمر
الواقع أخذ بيد لويس ثم نزلوا من الدرجات. ظلت عينيه لويس الصغير معلقتان على ريتش
يراقبه وهو يغلق الباب، أحس برجفة خوف شديدة، نادى عليه بصوت ضعيف مبحوح كأنه
يخرج للمرة الأولى من حجرتة "ري" لكن الباب أغلق والنور ركع أمام سلطة ظلمة النفق.

وقف ريتشارد في منتصف الجهد يحرق بالأعمدة الخشبية التي تحمل السقف، ثم أعطى
براميل النبيذ نظرة غامضة وكذلك كيس الطحين الكبير بقرب رف خزانة أخرى مغلقة في
الجدار. اتجه إلى فيرا وهمس لها: "إيمكنك منعهم من التقدم لبعض الوقت؟".

- "أجل، لا عليك".

- "كن حذرة!".

عاد للهبو، أخذ نفساً عميقاً أثناء فتح زر كمة الأيسر وعطفه للأعلى ثم فعل المثل بالكم
الأيمن، فظهر وشم سيف يمتد من رسغها إلى نهاية ساعده، قبضة السيف عند الرسغ مزخرفة
بشكل دقيق يتوسط النقوش وشم طائر، أما النصل فكتب عليه كلمة "محارب"
أمسك كيس الطحين ووضعها عند الدرجة الثانية وحينما انتهت فيرا استغرقت لكنها بقية
يقظة تنتبه للممر وتساءل: "ما الذي ستفعله؟"

أجاب ضاحكاً أثناء إزالة سداة أحد براميل النبيذ: "أقوم بتحضير المكان لاستقبال نيران
جهنم!" ألقى البرميل على الأرض لينسكب كل ما فيه متسرباً في كل مكان، استمر بفعل ذلك
وازال كل السدادات عن البراميل وسكبها على الأرض. ثم اتجه إلى صندوق خشبي، فتحه وكان
ما يحتويه عدة أسلحة. أخذ بندقية وسحب زناد الأمان عنه ثم التفت نحو فيرا وهتف قائلاً:
"فيرا، خذي هذا!" رماه لها فالتقطته بييمينها، تخلت عن المسدس وبدأت تطلق بالبندقية. تابع
ريتشارد عمله بعد أن أخذ ما يكفيه من الرصاص ودس مسدساً آخر خلف ظهره. فتح خزانة
المؤن وأخذ علبة زيت حديدية متوسطة الحجم، ثم أخذ زجاجتي نبيذ وأفرغ كل ما فيهما

ليقوم بتعبأتهما للنصف بالزيت. بعد ذلك وضع علبة الزيت أمام باب النفق الخشبي، ثم تراجع بعدها نحو الدرج وصعد عليه، رفع مسدسه ووجه نحو علبة الزيت أطلق النار فانفجرت بشعلة لهب سرعان ما اتسعت تحتس الكحول المسكوبة على الأرض بنهم!

"فيرا، أمسك هتان الزجاجتان وبقي خلفي" قال ريتش بينما تناولت الزجاجتين منه ثم راقبته وهو ينحني ويحمل كيس الطحين. قام بسكبه وبعثره بالكامل في الهواء. التفت شيلس نحو الممر وحينما رأى سحابة كبيرة بيضاء تنتشر كالضباب الكثيف وتحجب الرؤية ذهل قائلاً: "تَبًا!". التفت للرجال وصاح نائراً: "علينا التقدم!" تحركوا كتلة واحدة صوب السحابة الطحين وهم يطلقون النار في الهواء بدون اصابت شيء. ازدادت سحابة الطحين فيالانتشارلتغطي كل شيء مسببة العمى لشيلس ومن معه وكم أغاظه ذلك حد رغبته في تفجير المكان كله ونسف أفراد الكاردينال معه. لكن، وبينما هو يفكر بذلك ظهر ظل أمامه فحسب أنه أحدهم واندفع يقبل على الإطلاق... بيد أن صوته حال بينه وبين تسرعه إذا كان أحد زملاءه. لقد كان ريتش أكثر دهاءً فقد استعمل سكينه لتخلص ممن يقف أمام هروبهما. فور وصولهما للجبهة الأخرى أخذ زجاجة النبيذ المعبأة بالزيت قائلاً: "تراجعي للخلف فيرا." ثم رمى بالزجاجة عاليًا وابتسم بسمة شريرة: "رحلة سعيدة إلى جهنم!" ثم اطلق النار لتنفجر ومع شعلة النار وسحابة الطحين شكل ذلك انفجارًا ناريًا فظيغًا كأنها قنبلة! حتى أن تأثيرها طال كليهما أثناء هروبهما من الممر فقد كانت الريح الحارة قوية جعلتهما يترنحان. ضحكت فيرا مستمتعة بالموقف: "أنت مجنون ريتشارد!"

"لنسرع ونخرج من هنا!"

تمكننا من الهروب إلى الطابق الثاني ولكن، لم تنتهي المعركة فقد ظهر أكبر كارثة يمكن أن يتم وصفها وهو سكود ومعه فرقة كاملة فقد تمكنوا من السيطرة على الطابق الأرضي بعد مجيء الدعم. رفع سلاحه مباشرة وصاح بصوت جهوري: "أنتما رهن الاعتقال! ألقيا السلاح فورًا!"

همهم ريتش وأمال برأسه يفكر بشيء ثم ابتسم وأخذ زجاجة النبيذ الثانية ليرمها عليهم وقد أخطأ سكود حينما أطلق النار على الزجاجات إذ انفجرت في وجهه مسببة الذعر، وشظايا الزجاج أصابت بعض الرجال. استغل ريتش الموقف وأمسك يد فيرا كان هناك نافذة في نهاية الممر خلفهما، ركضا بسرعة كبيرة وأثناء ذلك أطلق النار بشكل متتالي على زجاج النافذة

لتنحطم.. لم يكن لديه ذرة خوف مطلقاً وهو يجرفيرا خلفه للقفز من تلك النافذة نحو سطحٍ منخفض لبناية تجاوز المستودع، حيث ما يفصل بينهما زقاقٌ ضيق فقط. قفزا في الهواء ثم سقطا على سطح البناية. فارسكود غاضباً بشكلٍ هستيريّ وقبل أن يصرخ حتى ويفكر بالتقدم نحو تلك النافذة جاءت النار الهائجة من صوب الرواق الأيمن وقد ابتلعت كل شيء في طريقها وهاجت كما تهيج أمواج البحر الكاسرة. صرخ حينها مذعوراً وهو يتراجع: "عودوا للخلف! عودوا للخلف هناك حريق!"

وقف ريتشارد مع فيرا يراقبان اشتعال الرواق وتحطم الزجاج وأعمدة الدخان الأسود يتحرر إلى السماء.

- "البيت الكبير... يسقط!" تمتت فيرا واكلتا عينهما تبرقان بحسرة أليمة. تنهد ريتشارد ثم همس لها: "لنذهب!"

أخلي المكان بسرعة بينما صارت النار تخرج من النوافذ هائجة ولا يبدو أنها سوف تهدأ أبداً ما حدث توّاً أدخل تشارلز في حالة من الهلع فأى مبصر كان بإمكانه رؤية أعمدة النار الضخمة تميل للون المسود الرمادي لاحت كأنها تلتحم مع غيوم السماء. التفت ناحية المفتش منفِعلاً وأعصابه تكاد تنهار:

- "هيه م ما الذي يحدث!؟"

- "على حسب ما أرى يبدو أن الكاردينال كشف عن نفسه".

زادت نبضات التوتر وبدأ يقضم إبهام يساره مجدداً. نظر إلى يمين الشارع حيث هنالك ثلاثة سيارات تابعة للشرطة، ثم التفت إلى اليسار ورأى دورية كاملة من الشرطة تجوب أرجاء المكان وتبعد المدنيين. لاحت عليه طلائع التخطيط لشيء ما، ثم حدق مباشرة في تلك القنطرة المجوفة التي تؤدي للجانب الآخر، بعدئذٍ ألقى بنظرة خاطفة على المفتش الذي ابتعد عنه قليلاً واهتمك في حديث مع بعض المسؤولين. عزم أمره ثم أطلق بعدها ساقيه راكضاً، انساب بغتة بسرعة وخفة من بين رجال الشرطة، حالما تنبه المفتش جون صاح مدهوشاً: "تشارلز توقف! امسكوا به! بسرعة لا تدعه يذهب!... تحركوا!"

قبل أن يدرك الرجال شيء فر تشارلز ودخل من زقاقٍ فرعي استمر في الركض على طولهِ. لاح تائمًا وهو يحاول البحث عن طريقة للعثور على ظلال رفاقهِ، يريدُهُم أحياء لا أموات، الرغبة لرؤية أحدهم أحكمت على تفكيرهِ، كأنه قصد عمد ألا يفكر سوى بالوصول، فمن بينهم روحٌ أحمها ولم تختفي ذكرياته عنها رغم تراكم السنين.

وصل إليها ومن معه إلى نهاية النفق، تسلق إلياس السلم الحديدي الصديء، وكان لويس على ظهرهِ، وضع يديه الصغيرتين على الأرض ثم ساعد نفسه ليصعد. خرج إليها ثم التفت مسرعًا ليمد ذراعهُ لجاين:

- "هيا حاول رفعهُ سوف أسحبهُ".

تأكد جاين من حملهُ جيدًا ثم وضع يده اليمنى على السلم وسحب نفسه للأعلى بينما اليد الآخر تمسك فخذٍ فان وكلتا ذراعِيهِ على كتفٍ جاين. انحنى إلياس للداخل أمسك فان من كتفِيهِ وسحبهُ للأعلى مستعملًا كل قوته. أثناء ذلك كان هو يستعيد وعيهُ تدريجيًا. قام لويس بإمسك ذراعٍ فان وسحبهُ ليسانده إلياس، حينها فتح عينيهِ وحرك ركبته المصابة تلقائيًا ليتكئ على الأرض ويدعم نفسه، لكن الألم أعاده إلى الحياة سريعًا وأجبرهُ على تحرير أنيهِ خافت. خرج جاين ثم قام بإغلاق الفتحة. ما أن استرد فان كامل وعيهُ تطلع لوجههم ولم يرى وجه ريتش وفيرا، شهق بذهول ثم أصر على أسنانه غاضبًا: "ذلك الوغد ريتشارد!". غضبه تبخر فور أن شعر بالألم في جبينهِ.

- "فان" قال جاين: "لا تقلق عليهِ، هو وفيرا لن يقعا بسهولة. عليك ألا تضيع مجهودهما.. يجب أن نبتعد من هنا بسرعة!".

أردف إليها: "معهُ حقٌ" ثم أمسك ذراعهُ ليدعمهُ على النهوض. تحركوا مبتعدين إلى داخل البيت.

أما الاثنان الآخران فقد تمكنا من النزول عبر سلم البناية الحديدية. هبط ريتش، ثم نزلت فيرا.

- "لنذهب من هنا". سلكا المسار الأيمن بين جدران المباني، ركضنا بسرعة لما يقارب ثلاثين مترًا، ثم دخلنا من إحدى الازقة وتابعا الركض. ازقة هذه المنطقة أشبه بمتاهات مرتبطة لا يعرف كيفية الخروج منها إلا من طبع في عقله خريطة لا تمح!
- وقتئذ كان تشارلز يعاند رجال الشرطة ويأبى التوقف. انعطف إلى زقاقٍ أيمن ثم دخل زقاقٍ أيسر بعد خمسة أمتار، كانت الجدران ضيقة والمساحة تكفي بالكاد لرجلٍ بالغ. لم يكن يدرك أي طرق هي الصحيحة، فقط كان يركض لا غير، كأن القدر يسحب خيوط المصير ببطء ويقربها إلى نهايات السطور، دون أن يدركوا ودون أن يعلموا كيف... إنها مسارات القدر التي تفوق إدراكنا، مبنى واحد يفصل بين التقائهم... خرج غرنالد من الزقاق الضيق ثم قطع الشارع نحو زقاق واسع أمامه مباشرة، وريتش وفيرا من الجهة المعاكسة للزقاق... وعند الانعطاف... التقت الأرواح التائهة لخمسة عشر عامًا، الذكريات كأنها تعيد ترتيب نفسها الآن، لقد تذكر تشارلز أول مرة قابل فيها ريتشارد مصادفة في هذا الحي، لم يكن يفصل بينهم شيء عدى بعض خطوات... لكن ريتش لم يتذكره فقد كان مضطربًا لدرجة أنه رفع سلاحه مباشرة في وجهه وأرجع فيرا خلفه، ليبارد تشارلز برفع كلتا يديه وقال لهدهته: "لا بأس... لا بأس! لست مسلحًا، لست مسلحًا!".
- "تنحى إذن". أمره ريتش بجلفة وحدة.
- "لا يمكنك المتابعة، الحي بأكمله مطوق برجال الشرطة. سلم نفسك ولن تتعرض للأذى".
- قهقه ريتش بسخرية بينما ارتخت ذراعه الممدودة قليلاً أثناء قوله: "أتمزح معي يا هذا؟" ثم صاح بعصبية: "تنحى من طريقي قبل أن أفجر رأسك!".
- "أهدأ، اهدأ رجاءً هذا لن يفيد... ريتشارد". قال تشارلز في أمل ليستجيب له: "ريتشارد ستيوارت، أليس كذلك؟".
- لاحت الدهشة على تعابير ريتش بل فزع ورح يكلم نفسه والهواجس تتخبط به_ك كيف يعرف اسمي الحقيقي، بل اسم عائلي التي نفيتهما من حياتي؟!_
- "تتنحى عن طريقي قبل أن أقتلك يا هذا!". صرخ ريتش في وجهه وحينما أمعن النظر فيه تمكن من تذكر أين رأى وجهه، ومع ذلك ما زال مذعورًا من شأن معرفته باسمه الكامل فقال يكلم نفسه المشوشة مرة أخرى_هل كانت الشرطة تتجسس علينا؟ لا... حتى رغم ذلك وصولهم إلى

حقيقة اسمائنا.. هذا يعني وجود خائني بيننا. لا أحد يعرف اسمائنا الحقيقية، إنها محصورة بيننا نحن الخمسة ولا يعرفها إلا قلة من الناس!..

أما فيرا كان هناك شعورٌ مهم ينبعث في داخلها، لم تكن هذه المرة الأولى التي تحس فيها بهذا الشعور... النظر إلى ملامح تشارلز جعلتها في كل مرة تتوقف وتفكر. همست لريتش بصوت مرهق مبجوح: "إنه محقق، كان يحقق في قضية موت الكونت مع الشرطة".

- "توقف، ما تفعله لن يفيد. ريتشارد، هذا الطريق مملوء بالشرطة سيقبضون عليكما إن سلكتماه". تأملت فيرا عينيها المتوسلتين، المشاعر اختلجت في صدرها كأنها تعرفت عليه قبل عقلها، حملقت في وملامحه التي اتخذت نضج واضح، لم تتمكن من تبيين الصورة المشتتة التي تلج لعقلها، عن ذلك الفتى، الصبي ذو الثانية عشر، إنه مختلف متوشح بلحية خفيفة، أكثر طولاً وصلابة، هيئته المكتملة الرجولية محت كل وجود لذلك الصبي. لكن، أصبحت الصورة أقل تبايناً والريبة انقلبت للشك، عندما رأت العلامة على رسغه اليسرى، لقد انجذب كمقيصه قليلا عندما رفع ساعديه، فهتفت بدهشة:

- "إنه منا!".

التفت ريتش سريعا لها وقال: "ماذا؟".

- "العلامة التي في رسغه، أنظرا!".

أبتسم تشارلز بسعادة رغم الموقف الراهن الشجون والحزن على كل تلك الأيام التي كانت لتكون أعظم، التي لو فقط منحت لهم جميعا ليعيشها معا، كان مزعج لهذا المصير ولكنه عجز عن منع حدوثه، أراد أن يقتنص الفرصة ولو في خضم الفوضى ليقابلهم، فقال راجياً أن ينصت له: "ريتشارد، ريتش... لقد مر زمن طويل... لم أظن... لم أظن أبدا أن لقاءنا سيكون هكذا... ولكنني سعيد لرؤيتك... أنت وفيرا".

أردف ريتشارد بغضب حائق وقد تضرجت أوداجه بالحمرة القانية: "منا! كيف له أن يكون منا وهو يعمل مع أولئك الحثالة؟ هـ... هل تسللت بينا يا هذا؟".

- "ألقي سلاحك، رجاء! دعنا نتحدث. سوف يأتون في أي لحظة. دعني أساعدك".

- "أغلق فمك أيها اللعين! فيرا اذهب من الطريق الآخر. هيا!".

اندفع تشارلز يناديها بيأس حتى أن يديه ارتعشتا: "فيرا لا تذهبي!" تجمدت ونظرت له شعرت بشيء يقيدها ويمنعها من التحرك، شيء ما في داخلها يصرخ بالحنين.

- "فالانتين فيليس". قال تشارلز.

- "كيف تعرف اسمي؟". سألته وقلها ينقبض متلهفًا، لكن ريتش لم يترك فرصة لجعل أجزاء الصور تكتمل. أمسكها من يدها وجعلها تتحرك خلفه بسرعة. حاولت مجاراته ولكن عينها قيدتا بتشارلز.

قبل أن يباشرا بالابتعاد صاح يترجاهما: "توقفا، رجال الشرطة يملؤون المكان صدقتي!". توقف ريتش حينما رأى مجموعة من الشرطة تأتي من خلف تشارلز وقد أطلق أحدهم طلقة تحذيره ليجبرهما على الوقوف. حينها توقف والتفت إليهم مرجعا فيرا خلفه، دمدم بسخط: "اللجنة عليكم!". أراد أن يرفع سلاحه، لكن تشارلز نهاه بشدة: "توقف اتوسل إليك! لا تفعل شيئا أحمقًا ريتش!".

كبح نفسه بكل ما يملك حتى لا يقدم على فعلٍ متهور، أما فيرا أو فالانتين ما تزال تحديق في تشارلز، كأن العالم لم يعد مهمًا بالنسبة لها، كل همها إيجاد صورة من بين صور ذكرياتها الأليمة الكئيبة، السعادة لم يكن لها إلا ركن ضئيل في ذاكرتها تحمل صورًا بسيطة لتلك اللحظات التي قضتها مع شخص كان السبب الذي جعلها ترى في الحياة لون غير الاسود القاتم... شخص تعرفه جيدًا ولم تنس صوته الدافئ الرقيق... صوت غرينو!... أملت من كل قلبها أن يكون هو، هو ولا أحد آخر.

جاء صوت يزعم بعنف: "تشارلز غرنالد!" وبعدها لم يرى تشارلز إلا عددًا من رجال الشرطة لم يتمكن من عددهم حتى تخطوه وتقدموا للأمام يوجهون أسلحتهم في وجه ريتش وفيرا، كانوا كالجدار البشري الذي فصلهم.

عاد الصوت المستاء الغليظ الذي يعود للمفتش ليصيح بقوة: "هل أنت مجنون لتقتحم منطقة عمليات! ماذا إن تعرضت للأذى!". كان غضبه نابع من القلق الذي عاناه في تلك اللحظات.

قال تشارلز يتوسله: "لحظة، رجاء لا تجعلهم يطلقوا النار! رجاء! .. أخفضوها!" بالكاد حفظ على هدوئه بينما تلك الأسلحة توجه عليهما وقد يطلق أي واحد طلقة في لحظة توترٍ وخروجٍ عن السيطرة.

- "رجاءً اخفضوا تلك الاسلحة اللعينة!" صاح تشارلز بغضب جامح حتى أحمر وجهه. تقدم المفتش هاتفاً بنبرة صارمة اللهجة: "أخفض سلاحك! أخفضه لم يعد لكما من مفر. أنزل السلاح ونعدك، لن نؤذيك ولن نؤذي الفتاة. نفذ لينتهي الأمر على خير!"

كان ريتش حاليًا في عالم آخر، بعد أن ذكر اسم تشارلز غرنالد أمامه، وقف في شتات ودهشة، حتى أن ذراعه بدأت تتخفف بروية دون أن يشعر. في أول وهلة كان يظن أنه تشابه، ولكن تشارلز تقدم من بين أولئك الرجال المنفعلين، قال: "ريتش، ريتش يا صديقي القديم! أخفض السلاح أرجوك!"

- "هذا غير ممكن!" نطق ريتش وهو أقرب لمن يهذي بعينين مجفلتين، في حين انهمرت دموع فيرا عندما تيقنت أن صورة الصديق القديم التي حفظها في ذاكرتها، تعود لهذا الرجل الذي لا يفصلها عنه سوف أمتار... وبضغطة أسلحة!

- "هـ هل، هل أذنت... تشارلز... تشارلز غرنالد... غرينو؟". سأل ريتشارد بحروف تتقطع وصوت يغيب ويعود.

أوماً تشارلز وابتسامته لا تفارق وجهه الشاحب: "نعم، نعم! هذا أنا، أنا يا صديقي!". بدأ يتقدم بحذر ويمد يمينه حتى يقترب من يد ريتش التي تحمل المسدس. وذلك لم يفق بعد من صدمته. اقترب تشارلز أكثر ولم يعد يفصل بين يده والمسدس سو سنتمترات قليلة: "أخفض المسدس، دعنا نتحدث... لم أكن أظن أبدًا أنني سوف ألتقي بك... لقد مضى وقت طويل... طويلٌ من الوحدة التعيسة!... لقد حاولت العيش بذكراكم... كنت يائسًا من العثور عليكم... ولكنك أمامي أنت وفيرا... هنا أمامي. هيا أخفض المسدس". قال ذلك بينما أمسك بالمسدس وراح يخفضه ببطء ولطف. عيون ريتشارد لم تفارق ملامح غرينو الصديق القديم والفرد الثالث من الأخوية التي فرقها الأمواج الغادرة. بكت فيرا مستسلمة للواقع وغاضبة من كل شيء، وحقيقة فإن تشارلز عجز عن كبح نفسه أراد البكاء هو كذلك..

فجأة وعندما ظن الجميع أن ريتش قد خضع، وأن الخطر زال... تراجع للوراء ووجه المسدس في وجه تشارلز صارخًا بشراسة: "فلتبتعد أيها الملعون! أتحاول خداعي! من أين جلبت كل هذه البراءة لتدعي أنك ريفيقي! ماذا هل كنتم تجمعون المعلومات عنا إلى هذه الدرجة؟". قال ذلك ثم انقض جاذبًا تشارلز بعنف من رقبتة ووضع المسدس على صدغه الأيمن: "أفدنا بشيء أيها الممثل!".

وفي تلك اللحظة أشهرت الأسلحة ووضعت الأصابع في الزناد تستعد لتطلق. لكن المفتش نهاهم: "تمهلوا!".

- "ريتش، ريتش لا تفعل ذلك! أهدأ هذا سوف يجعلك في موقف أصعب، رجاء!".

- "سد فمك!" قال ريتش ثم صاح على المفتش: "قل لرجالك أن ينسحبوا فورًا!".

رفع تشارلز يده وجذب الكم ليريه وشم الطائر: "أنظر، أنظر! هذه ألا تثبت لك أنني صادق؟". نظر ريتش إلى رسغه، إلى علامة الطائر الأحمر. كان يعلم أنه هول لكنه يأس من كون أن معرفة ذلك، وفي هذا الوقت بالأخص لن ينفع في شيء!

همس له والغصة تتأرجح في حنجرتة كاللهب: "وحتى إن كنت، ماذا في ذلك؟ أريد أن أسألك سؤالاً واحد فقط" همس ريتش في أذنه اليسرى: "هل عرفته أنت أيضا؟ ... هاري". قطب تشارلز حاجبيه مبهوتًا: "لحظة... ماذا تقصد؟ هل كنت تعرف أيضا؟".

- "للأسف، نعم...! لكن بعد أن قتلته... فان لا علاقة له بالأمر.. إنه لا يعرف أن ذلك الشخص هو هاري... حتى فيرا لا تعرف لا أحد يعرف أن ذلك الكونت هو هاري عداي أنا وأنت" رجاه بصوت هامس ملء حرقة: "لذا أرجوك... إذا كنت تقدر علاقتنا القديمة أنس أمره... أنا من أطلق النار عليه! لقد كان عقابًا وأنا من سأتحمله".

- "م ما الذي تقوله... أتريد التستر على هويته؟... لن أسمح بذلك!" انفعل تشارلز لكنه حرص على خفض نبرته.

شد من إحكام أسره وقال بينما أسنانه تصطك في مرارة هامسًا: "قلت لك... عرفت بعد موته... لا أدري أيهما أفسى... قتلي له أو معرفة أن هاري هو ذاته الكونت الثري أوليغروس!... القدر حتمًا يسخر منا. لنترك الأمر عند... قطع كلامه حينما لمح تحركًا من أحد الرجال فصاح بغضب خارجًا عن السيطرة: "إياكم أن تقدموا على أي حركة!".

ليأتيه في المقابل صوت المفتش الجمهور الحازم: "أنت تعلم أنك لن تتمكن من الهرب، الشرطة في كل مكان سوف يقتلونك. أتركه فوراً!".

ازدرد تشارلز ريقه وقال أملاً في تهدئته: "ريتش، رجاء! رجاء! اهدأ! لا تفعل ذلك سنحل الأمر".
صاح بنبرة مكبوتة مختنقة: "هل أنت أحمق! أي حل سوف تخلقه الآن؟".

- "كفى!" جاء صوت فالانتين والمهر والقانط من الخلاص: "كفى! ريتشارد... هذا لن ينفج!".

- "أغلقني فمك!" صاح بحدة ونزق: "لن نسلم أنفسنا لهؤلاء الملعين!".

إحتد صوت المفتش وقد نفذ صبره وارتفع ضغطه: "ريتشارد ليس هناك مكان تهرب إليه أنت محاصر لذا قبل أن تفعل أي شيء سوف تكون ميتاً!".

- "ريتش، استمع لهم، أرجوك!". قالت فالانتين والدموع تسيل من عينيها كأنهما بحيرة فاضة من أحزانها: "أنهي هذا!".

أردف تشارلز بنبرة هامسة: "ماذا جرى للطائريا ريفيقي، الطائر الذي يريد أن يكون حرّاً؟".

اغرورقت عينا ريتش رغماً عنه، تضحج وجهه بالحمرة حتى أصبح قطعة زهرية وبرزت أوداجه الخضراء على طول صدغيه... من صميمه قهر لهذا المصير البائس فهمس في أذنه: "أنت لا تفهم... قتلت شقيق ريفيقي... قتلت دانييل... إن علم فرناند سوف يقتل نفسه... لقد مات هذا طائر قبل أن يكون حرّاً! أنا... أنا أباكى حرقه على كل طائرٍ يحلق بعيداً... بينما روجي سجيناً في هذه الأرض القذرة! رجاءً غرينو، لدي عائلة لذا لا تسعي خلفهم" أخذ نفساً عميقاً ليخمد مشاعره المثارة، وتابع يقول: "لنهي الأمر هنا... اتفقنا؟ أنا قتلته... أنا وحدي... ولا أحد آخر!".

قال ذلك ثم دفع تشارلز بقوة ليترنح الأخير وفور أن استعاد توازنه التفت ليرى ريتش يضع المسدس على جانب صدغه الأيمن وهتف بصوت عاليٍ جهوري: "أنا قتلت الكونت الثري... لذا أعتذر! ... لكن لن أموت على أيادي أولئك الحثالة.. فيرا تحركِ سوف أمنعهم من التقدم!".

- "ريتش لا يمكنكك".

- "قلت لك تحرك!" صرخ عليها بحدة شديدة فما كان منها سوى أن تلقى نظرة وداعٍ حزينة على غرينو وحالما تحركت صاح المفتش: "توقف عندك!"

أطلق أحد الشرطين طلقة تحذيره وفي المقابل أطلق ريتش فأصاب جبينه... لم يكن مهتماً أبداً ظل يطلق النار أرد توجيه تركيزهم نحوه لذا أطلق على كل من تقع عينيه عليه، لكنهم كانوا

أكثر عددًا، أصابوه بطلقاتهم وكأنها عملية إعدام رميًا برصاص، رصاصه أصابت ذراعه الثانية ساقه، وثالثة أصابت كبده والرابعة أصابت صدره! بينما اندفع المفتش وسحب تشارلز من ذراعه اليمنى حتى يمنعه من التدخل... توقف إطلاق النار ما أن بقي ريتش واقفًا بهدوء لقد تمكنوا منه لكن بعد أن أردى سبعة منهم، لاح كالمحارب الجريح الذي رك في منتصف معركة ضارية، حتى سالت الدماء من جسده ملطخة الثلج الأبيض. راقب غرينو انياره على ركبتيه تعابيره المفجوعة كانت مشابهة لفجعه يوم موت والدته... بقي متجمدًا يحدق في وجهه لقد تبسم وكأنه سعيد لهذه النهاية رغم الدموع التي تهمر من عينيه.. ثم سقط على وجهه بدون حركة والدماء تستمر في التدفق... هرعت فالانتين إليه أمسكته من كتفيه لتديره، رأت ملابسه غارقة في الدماء فزاد ذهولها حتى ارتعشت يديها وبدأت تصيح وتبكي بهستيرية تامة غير مصدقة لما حصل... ثم رأت المسدس الذي ما يزال بيده، أخذته بسرعة ووضعتة على رأسها لتنهى معاناتها هي الأخرى... هربًا من مواجهة الحقيق

الفصل الثاني والعشرون

بعد تلك الفاجعة التي تشكلت أمام عيني تشارلز... رؤية الدماء تتناثر في الهواء جعلته هلعًا شامخًا البصر. لم يكن الوحيد، فكل من حضر هذه اللحظات الختامية وقفوا مشدود الأعصاب... انساقت عينا المفتش جون مباشرة نحو تشارلز فقد دفعه شعور الأب في داخله إلى إحكام يده حول ذراعه لئلا يفلت منه... صيحات فالانتين وبكاؤها الكليم أجبرها على إغلاق منافذ الرشد إلى عقلها، ولكنها ساهمت في فتح رشد تشارلز وإخراجه من صدمته، فعندما رآها تحمل المسدس وتهم بإطلاق النار على نفسها بجديّة راضخة ليأسها، أسرع بلا تفكير وسحب ذراعه بقوة، هرع بسرعة بينما رجال الشرطة اجتاحتهم الارتباك ومنهم من رفع مسدسه مجددًا خوفًا مما قد تفعله فالانتين. داس تشارلز على دماء ريتشارد!... انزلق ساقطًا على ركبته اليمنى لكن يده وجدت مسارًا مستقيمًا لأخذ المسدس من يدها رغمًا عنها، ألقاه بعيدًا وليمنعها من الابتعاد أحكم إمساكها بكلتا يديه واحتضنها.

لم يتمكن المفتش من فعل أي شيء عدى المراقبة.. السماء اسقطت أمحالمها البلورية الباردة ملامسة وجه ريتش الشاحب الساكن وكأن روحه المعذبة قد ارتاحت من حملٍ عظيم. تقدم أحد أفراد الشرطة بحذرو وهو يحمل مسدسه وبقربه المفتش. حالما أقترب من جوار ريتش هبط على ركبته اليمنى وتحسس نبضه من خلال عنقه. نظر للرجال وقال: "لقد مات اخفضوا أسلحتكم".

انخفضت الأكتاف المشدودة وأخذ الجميع شهيقٍ من الراحة. تقدم ثلاثة من رجال الشرطة بقصد القبض على فيرا والتي كانت خائفةً تتشبث بتشارلز... لم يرد إفلاتها، ولم ترد إفلاته!... في تلك اللحظة اجتاحت تفكيره السواد التام وود لو أنه يطلق النار على الجميع حتى ينهي هذا المصير البائس، لكن كل ما استطاع فعله هو امساك يدها بقوة وحالما أمسك الشرطي عضدها ليحملها على النهض... ترك يدها!

تم تقيدها وأخذها بعيدًا ثم حُمل جثمان ريتشارد على حاملٍ وغطى بغطاءٍ أبيض وبين كل ذلك هو بقي ساكنًا في مكانه على الأرض مذهولًا من كل ما حصل!

بعد عدة ساعات، انتهت عملية المداهمة وأحصي عدد المصابين والموتى ومنهم كان شيلس كوريند وعددٌ من الضباط الذي شاركوا في اقتحام البيت الكبير. تم اعتقال الذين نجو من رجال الكاردينال، وأغلبهم تمكنوا من الهرب. لم تنسحب قوات الشرطة من الحي، تم نشر دوريات على كافة انحاء لينهاستنغ للمراقبة. كانت هذه الليلة عصابة على الجميع، وأكثر من كره هذا كانت هوانغ إذ اضطرت للمغادرة من لينهاستنغ فور أن سمعت بعمليات المداهمة ونُقلت معظم التحف المسروقة عبر انفاق تحت الأرض. كانت تصعد قطارًا يتجه إلى بلدة ثورني. صعدت أربعة فتيات من مساعدتها خلفها يحملن حقائب كبيرة. التفت لاروي هوانغ إلى شقيقها الأصغر لاوند قائلة: "ابق على تواصلٍ معي أبلغني بكل ما يحصل. أحرص على تنظيف معقل المراهنات من كل شيء قد يدل علينا، اتصل بمندوبينا وابلغهم ألا يتحركوا ما لم أصدر أي أمر، أطلب منهم أن يوقفوا كل المزايدات في لينهاستنغ في الوقت الراهن حتى نفهم ما الذي حصل، أخشى أن الشرطة تتبع الكاردينالات وهذا قد يكون سيئًا بالنسبة لنا".

- "لا تقلقي، سوف أفهم ما الذي حصل. إن اضطرتت سوف أقتلع الحقيقة من فم فان نفسه".
أردف لاوند بجدية تامة وقد بدا مختلفًا هذه المرة، يرتدي بدلة سوداء ومعطفًا بني طويل وقبعة دائرية.

- "كلا!" قالت لاروي: "كن حذرًا، لا أريد من ذلك الوغد هيروسك أن يكشف عن أنيابه. انتظر مجيئه إلى ياسك ولا تحتك بفان إنه مجنون لا بد أنه فعل شيئًا ما هذه المرة... شيءٌ قد يسبب بسقوطنا جميعا لذا إحرص على ألا تحصل مشاكل بيننا وبينه حتى وصول هيروسك".

- "لا عليك سوف أكون حذرًا وأمنع رجالنا من الاحتكاك مع رجاله حتى لا تحصل مشاكل. أهتني بإدارة العمل من هيدر° وكني حذرة".

انطلقت الصفارة معلنة بدأ انطلاق القطار فتراجع لاوند مبتسمًا وهو يودع شقيقته.

هيدر، إحدى المتاجر التي تملكها لاروي هوانغ في ثورني⁵

دخل المفتش إلى مكتبه حيث ترك تشارلز هناك على المقعد كما هو لم يتحرك من مكانه كما لو أن الروح غادرت جسده، يحدق في الأرض شاردًا. تقدم نحوه وابتدر بصوت شبه هامس رقيق: "بني، لماذا لا تذهب إلى المنزل وترتاح قليلاً".

- "هل يمكنني رؤيتها" سأل تشارلز ولم يبعد عينيه عن الأرض. تهجد المفتش مستاء من حالته: "كلا، لا يمكنك إنها تخضع لبعض الإجراءات الآن".

- "هل يمكنني رؤية ريتشارد إذن".

زفر المفتش وعبس بشدة إنه لا يأبه لصحته وذلك ما أغضبه أكثر فحادثه بصوت حازم: "تشارلز، اذهب إلى المنزل أنت تحتاج للراحة انظر إلى نفسك في المرآة".

- "أريد رؤيته"

- "لقد مات يا بني".

- "أعلم، مع ذلك أريد رؤيته".

- "وما الذي سوف تستفيد؟ هذا يكفي لن تشارك في هذه القضية بعد الآن هل هذا واضح".

صاح عليه المفتش كان مشفقًا عليه حتى رغم شدته

رفع تشارلز رأسه ونظر بعينين متبدلتين لكن فيهما إصرار مخيف. قال بصوت فاتر: "لقد وصلتموا إلى هنا... لن اتوقف حتى أجد فرناندا!"

هز المفتش رأسه يائسًا وسأله: "وماذا بعد ذلك يا بني؟".

أخفض بصره وأجاب شاردًا: "ماذا بعد ذلك... بعد ذلك سوف أضربه حتى يشفى غليلي".

- "أنت تعلم أن حكمًا كالإعدام قد يصدر في حقه إن تم الإمساك به... هل أنت مستعدٌ للمتابعة حتى النهاية لرؤية ذلك؟"

أنكس رأسه وبقي صامتًا.

عند الساعة السادسة صباحًا ما زال الثلج ينهمر بكثافة والشوارع تزينت بالمارة اللذين يحملون مظلات بشتى الألوان. لكن من بين الناس كان هو يمشي وحيدًا الثلج يغطي كتفيه ويبلل رأسه. وصل إلى باب البناية دفعه ليلفت انتباه العم هيرل الذي انشغل بقراءة كتاب لكن فور أن رأى

تلك الهالة الكئيبة تمشي أمامه بصمت قطب حاجبيه مشدوفاً وخاطب نفسه: "السيد غرنالد، يا إلهي يبدو في حالة مزرية!".
صعد الدرج بتثاقل شديد كل عضلة في جسده تئن ألماً. سار في المرحتي وصل لشقته فتحها ودلف مهدوء ولشدة ارهاقه سقط على الأريكة وأغمض عينيه لينام في مكانه.

في الساعة العاشرة صباحاً، مثلت فالانتين فيليس أمام المفتش في تحقيق عسير، لقد رفضت النطق بأي كلمة، كأنها مثل كرسها الذي تجلس عليه، صامته كجثة، لقد انطفأ النور في عينها الزرقاوان، بقدر الجمال فإن التعاسة أعظم.

- "لقد رأيت كيف أنهى رفيقك حياته، فضل الموت على تسليم نفسه. لذا قبل أن يفكر كل رفاقك بفعل شيء جنوني، أخبرينا هل لديهم مخبأ آخر؟" حادتها المفتش بصوت هادئ لا يميل للقسوة الحادة، على عكس سكود الذي حدجها بنظرات مستحقرة مملوءة بالكره، وحاول ضبط نفسه بصعوبة لئلا يمد يده ويجبرها على النطق.

تهمد المفتش وقال: "في قضية الكونت أوليغرس... هل تعاونتم جميعاً على قتله؟".

بعد دقيقة من الصمت الثقيل، رفعت بصرها ونظرت إليه بعيون باردة تجمدت المشاعر فيها: "لتحترق روحي في الجحيم، إن نطقت بحرف". العزم والقوة اللذان اظهرتهما في ملامحها دفع سكود لجرها من شعرها بعصبية وصاح بصوت هز كيائها وجعل دموعها تفر كشريدة من عينها: "إذا لم تنطقي هنالك طرق سوف تتمنين أنك لم تتعرض لها أيتها الساقطة الحقيرة! لقد تسببتم في موت نصف رجالاً الاخيار!". ثم أمسك كيساً بلاستيكية بداخلها النجمة الكرسالية وعاد يصيح باحتدام نزع: "هذا الدليل يؤكد أن لك علاقة بقضية موت الكونت لذا لا نحتاج لاعترافاتك سوف تتعنين في السجن!"

نهض المفتش بغضب وصرخ في وجهه وقد تغضنت تعابيره بشدة: "سكود أبعد يدك فوراً! أين تحسب نفسك؟".

لم يستجب، وبقيت يده القاسية مستمرة في جذب خصالها حتى حمر وجهها من كظم الألم، لكنها جاهدت بكبرياء لكبح أنيتها وعدم اظهار ضعفها، إلا أن ارتعاش جسدها فضح خوفها.

- "أمرك أن تتركها فوراً!". جاء صوت المفتش هذه المرة أكثر حدة وصرامة. قبل أن يبعد أصابعه الخشنة عن خصالها الناعمة دفع برأسها للأمام، بدا الأمر كما لو أنه يدفع ريشة غضة ضعيفة، تساقطت الخصال على وجهها الشاحب، وجاهدت لثلا تبكي أخذت نفساً عميقاً وعضت على شفها السفلى.
- "أخرج منها سكود!". أمره المفتش بنبرة غليظة
- "ولكن سيدي".
- "قلت أخرج حالاً!"
- خضع على مضض ثم فتح الباب وصفقه خلفه بقوة ليرتعد جسدها.
- صدح صوت المفتش بقوة منادي: "رونالت".
- دخل عند مناداته شرطي وأدى التحية التبجيل قائلاً: "نعم سيدي".
- "أجلب كوب ماء".
- "أمرك!". أوماً ثم غادر مغلقاً الباب.
- جلس المفتش وهو يتهد بإرهاق: "أنت بخير؟".
- اكتفت بنظرة متمعضة من بين خصالها المحمرة التي أطرت وجهها وغطت جزئياً عنها اليمنى. أعطى نظرة للنجمة الكرستالية ثم زفر وهو يغمض عينيه، فتحهما أثناء ابتدائه في الحديث: "حسناً، أنت على علم بالأمور المدانة بها، كونك من ضمن تلك العصابة، الكاردينال الأحمر، هل أناديك فيرا أو إبريل، أو فالانتين فيليس؟ ابنة عالمي الآثار آرثر وكاترينا فيليس" رمقها المفتش بأسى بل إن التحسر طغى على تعابيره وصوته: "لا أحد يختار مسار قدره. أليس كذلك؟"
- "لو لم نختر مسار قدرنا لكننا أموتاً منذ زمن!" اجابته بصوت تشرب بالحدة والقسوة رغم صفائه الرقيق.
- أبحر في زرقتهما ومهما حاول التعمق لا شيء كالآفق الخالي، لاحت فزحيتها بحرًا قاتم الزرقة يضيع المرء إن فكر باكتشاف خبايا روحها شيء واحد يمكن أن يُرى فيها قصة من المعاناة الطويلة تختصر في نظراتها الشرسة.
- تهدد المفتش مستطردً: "حسناً، بجانب الانتهاكات التي تم ارتكابها تحت اسم جماعتكم وكونك عضوي يعني أنك متهمة أيضاً..."

- "عذراً، انتهاكات!" استقطعت حديثه متهمته بدون أن يرف جفن الندم في صدرها: "ولماذا لا يحاسب الأثرياء عندما يرتكبون الانتهاكات أيضاً؟ نحن فقط نطبق القانون الذي عجزتم عن تطبيقه".
- "الكل يحاسب بمقدار يستحقه يا أنسة. كنتِ تعملين في قصر الكونت دانييل أوليغرس، أليس كذلك؟".
- رمقته بنظرة غريبة حينما ذكر ذلك، ثم أشاحت بوجهها عنه.
- "فالانتين، لقد تقدمتي للعمل كخادمة في قصر الكونت وعلى حسب ما تم اطلاعنا فقد كنت في حاجة ماسة للعمل لذا تم قبولك، ثم فجأة تركتِ العمل بدون سابق ائذار بعد موت الكونت بعدة أيام. لذا دعيني أسألك سؤالاً صريحاً... أليست صدفة غريبة أن يكون لك صلة بجماعة الكاردينال وفي نفس الوقت تقدمتِ للعمل كخادمة بعد زواج الكونت وفور أن ماتت تركتِ العمل، من الواضح أنكِ كنتِ عين الكاردينال داخل القصر وكنتِ تراقبين تحركات دانييل أوليغرس. صحيح؟" سأل المفتش ولكنها ظلت على هدوئها تتجنب النظر إليه.
- قرع الباب فالتفت المفتش وقال بصوت جهور: "تفضل".
- دلف شخصٌ يحمل كوب الماء، لكن ليس رونالت، بل شخصٌ شهقت فالانتين حينما رآته وتزعزع توازن برودها فطفت مشاعر قلبها على ملامحها، اخفضت بصرها وجاهدت لعدم النظر في عينيه.
- "ماذا تفعل هنا يا تشارلز؟ لقد انتهى عملك". قال المفتش مندهشاً ولم يخفي انزعاجه.
- سار بخطوات رزينة بينما لم تفارق عينيه فالانتين، من الصعب أن يفارق النظر إليها أصلاً، كأن الضحكات البرينات بالأمس تعزف كلحن صاخبٍ اليوم في أذنيه، يرى ومضات من الماضي أمامه، لتلك الطفلة المرحة المسالمة يحاول أن يستوعب أنها نفسها تلك الجالسة على الكرسي كأنها قطعة ثلج باردة حادة وقاتلة. في جزء ما داخل قلبه هناك نارٌ تكويه غضباً وحسرةً لهذا المصير، الصديقة، والحب الأولى بعد فراق طويل جعله يأمن بموتها، يكون اللقاء على هذا النحو المزري. وقف بقرنها تماماً ثم وضع الكوب على الطاولة
- أشفق المفتش جون على هذا اللقاء وشعر بالتعطف مع تشارلز، وفي نفس الوقت تأمل أن يكون له تأثير عليها بحيث يجعلها تنتطق وتدلهم على مكان زعيمهم.

- "صباح الخير!". قال تشارلز بصوت مبحوح، وكانت عينيه خاملتين وخطوط الحمرة تسطر جفنيه.

استمرت في تجاهل النظر نحوه وبقية معتكفة على صمتها.

- "مرزمن... فيرا.. حسنًا، ما رأيك أن أخبرك بامرٍ سوف يجعلك متفاجئة. أصبحت عازف بيانو، أتصدقني ذلك!".

تهمد المفتش وبقي صامت رغم كونه يلاحظ أن مسار تشارلز ينحرف عن التحقيق. نظر إلى فالانتين ورآها تجاهد لكبح دموعها تنكس رأسها، كان بإمكانه الشعور بالغضب الذي بداخلها.. كما لو كانت تصرخ وتطلب منه الابتعاد عنها. بعد صمتٍ وجيز عاد تشارلز يتكلم مع ابتسامة متأسية: "لم يكن ذلك من ضمن ما خططت له... لم أفكر أبدًا بأن أصبح عازف بيانو... كما لو أتخيل يومًا مصيرًا هكذا... أتساءل ما الذي دفعكم للتخطيط وقتل الكونت أوليغرس... هل كانت إرادة القدر فعلاً هي التي قادتكم إلى هذا الطريق?... أم أن هناك سببًا آخر?".

لم تجبه، وظل هو يتأمل خصلاتها الحمراء تشرق مع نور الشمس المنبعثة عبر النافذة. مد يده فشبهت منكمشة على نفسها بارتعاد ومالت إلى الابتعاد عنه قليلا، ظنت أنه سوف يعنفها كما فعل السابق. لاحظ تشارلز موقفها هذا وشعر بالامتعاض ينهش قلبه بل كشخص يطعنه بهمجية قسوة! إنها تعده غريبًا ولا تثق به.

أمسك يدها برفق، وقد كانت مكبلتان، سحب كم قميصها ليرى السوار على رسغها الأيمن نزعها ووضعها على المنضدة، عندها بان الوشم. طائرٌ محمر من اليمين واليسار خطين يمتدان كالسوار حول رسغها، كأنها صلة الدم بينهم. ابتسم وقال: "فالانتين فيليس، الاسم الرمزي داخل الأخوية، فيرا".

نظرت له ثم سحبت يديها بقوة وانزلتهما إلى حجرها، واشاحت بوجهها عنه مجددًا.

- "هل كنتم على علم بهوية الكونت قبل قتله؟".

أجابت بصوت جاف ناغم: "من لا يعرف عائلة أوليغرس" وجهت بصرها له مبتسمة بتهكم: "إمبراطور شركة أوليغرس التي تهدم منازل الفقراء لتقييم مشاريعها العظيمة!".

- "هل هذا ما دفعكم لقتله؟". سأل.

عرضت عنه عابسة.

- "ما رأيك أن نراجع الأمور ببطء. فان، هو المحرك الأساسي لهذه المؤامرة كونه يملك الأفضلية من ناحية الشبه بالكونت، حيث لعب دوره وعاد إلى قصره على أنه هو، في تلك الأثناء تكفل ريتش بقتل الكونت، لكنني على ثقة أن قتله بتلك الطريقة لم تكن رغبتكم، ومع ذلك قام ريتش بإرجاع جثمان الكونت إلى القصر، وأنت كنت المفتاح الأهم، قمت بتمهيد الطريق له حتى يدخل جثمانه دون أن يلاحظ أحد وكان ذلك عن طريق السرداب في جهة السور الغربي. خطت محكمة كادت تنجح في جعل الحقيقة تدفن مع الكونت، ولكنكم لستم أكثر دهاءً من القدر".

حمل الكيس البلاستيكي وراح يتأمل النجمة لبعض الوقت، ثم قال: "تبدو كحلي سقط من سور أو سلسال، أليس كذلك؟" أخذ السوار وقرب الكيس قليلا. كانت مشابهة للنجمات التسعة. ابتسم تشارلز ثم نظر إليها قائلا: "إنها جميلة وتبدو متطابقة، كما وجدت بصماتك عليها!".

خانت الحروف فيرا وابتلعت ريقها بتوتر حاولت الصمد والإعراض عنه وتغضبت تعابيرها لشدة ما كتبتة ، فكذبت بياس: "لم ألاحظ سقوطه، ربما سقط عندما كنت أتجول في الحديقة".

- "هناك بقعة دم". قال المفتش وهو يدقق إلى طرف السوار وقد تلطخت ببقعة دمٍ صغيره وجفت عليها، ولكون السوار متشكلاً من خيوط سوداء لاحت بقعة الدم قاتمة اللون. تهد المفتش ثم استطرد: "حسنا، لنحسم الأمر، أنسه فالانتين. ريتشارد ستيوارت أعترف بكونه من قتل الكونت قبل أن يقدم على فعله الانتحاري، لذا ابليغينا بالمكان الذي يختبئ فيه فان لقد اقترفتهم جريمة بحق إنسان... وعلى العدالة أن تتحقق"

أعطت المفتش جونathan نظرت مجفلة كما لو أنها سمعت شيئاً غريباً، ثم ما لبثت أن قهقهت بصوت عالي وهي تقول مهممة: "عدالة! ليس هنالك عدلٌ في هذه الأرض ما دام أن ميزان الأثرياء لا يوازي ميزان الفقراء" أضافت بعد أن أصبح صوتها شرساً محتدماً: "هم يسرقون ويقتلون ولا أحد يحاسبه! عن أي عدالة نتحدث؟ بل أين كانت عدالتكم المزعومة عندما تغتصب فتيات من قبل أصحاب نفوذ والجاه... وبرشوة سريعة يتم هضم حقوقهن في

الاقتصاص منهم!... عن أي عدالة تتكلم وهناك الآلاف من الأطفال يتشردون في الشوارع ويموتون جوعاً أو يتم استغلالهم وتشويه براءتهم... العدالة الوحيدة التي نؤمن بها... هي عدالة الكاردينال الأحمر ولا شيء آخر! يا حضرة المفتش الموقر".

صعق تشارلز وبقي أحرساً لعدة دقائق غير قادرٍ على تصديق عينيه وأذنيه وكأن وجهه يسأل من هذه الفتاة؟"

- "عدالة الكاردينال!" تكلم المفتش مستنكراً: "أهي عدالتكم التي اباحت لكمسرقة شحنات أدوية وتنفيذ أحكاماً على الناس بدون الرجوع للقانون... إن أراد كل إنسان تطبيق عدالته الخاصة لفسدت الأرض!"

- "عذراً يا حضرة المفتش الموقر، نحن لا ننفذ أحكامنا إلا على من يستحق ذلك" أردفت فيرا. زفر المفتش في استياء من أسلوبها الهائز الوقح ثم سألها: "كيف عرفتم أن البارون فكتور هوانس له علاقة بشبكة تتاجر بالقاصرات؟ إلى أي مدة تصل قوة الكاردينال لتتمكن من كشف شيء كهذا؟ هل هنالك من يعينكم وتعملون لصالحه؟ وأين أخذتم الأموال وتلك المجوهرات؟".

قلت عينها غير مكترثة لسؤاله ورمت بظهره لظهر الكرسي. بقي الصمت لمدة وهي غير أهبة لوجودهما أجابت وهي ترتدي سوارها: "لا نعمل لصالح أحد. أما عن ذلك البارون، أنتم سطحيون عودتم أنفسمكم على رؤية الظاهر من الناس وما يعتاد أمثال ذلك البارون على ارتدائه من ثياب النبلة النقية، الكل يوقره ويجله، الكل يذكره بالسمعة الطيبة... ولكن في الخفاء، كان قذراً خسيساً وعديم الشرف، يعتدي على خادمت قصره ويرتش رجال الشرطة حتى لا يحققوا في أي قضية تخص هذا الجانب عندما يذكر اسمه. أغلب من تعرضن لتحرش والاعتداء انتحرن لأن لأحد أستمع لصرخاتهن... وأنا... كنت إحدى الخادمت" رفعت حاجبها الأيمن مع بسملة طفيفة تجعلها تبدو صلبة كالحديد: "لكنني لم أختار الانتحار". رفعت عينها لتشارلز متمتاً: "لقد قطع الكاردينال يديه القدرتان وجلهما لي... وأنا احرقتهما حتى الرماد. وأما المال ومجوهرات زوجته النافهة فقد وهبناه لكل الخادمت اللوات تعرضن لما تعرضت له. أما كيف عرفنا عن تلك الشبكة، فقد كان من بين الأمور التي يخبئها في خزنته ملفات مشبوهة" نظرت للمفتش وقالت بابتسامة استشفاء هازئة وهي تهز منكبيها: "فأخذتها وسلمناها لكم.

أليس هذا هو العدل؟ يا حضرة المفتش الموقر؛ فأنا واثقة أنه كان لينجو من تلك الفضيحة... بعد كل شيء هو بارون وله صلات أعلى منك تضمن له الخلاص من العقوبة".
دهش تشارلز بل وارتعش جسده رعشة أفقدته القدرة على الإحساس بشيء حتى كاد يقع من طوله، شعر ولأول مرة برغبة جامحة في الاعتراف أن ما حدث ليس خطأ بل عقاب جزائيًا عادل.

تحدث المفتش بعد صمت ثقيل رهيب ولم يبدو عليه التأثر البالغ كتشارلز؛ في نهاية تلك هي مسارات الأقدار ولم يكتب للبشر أن يحاطوا علمًا بكل شيء. تهذ وقال: "وهذا ما دفعكم لقتل الكونت أيضًا، السعي للحصول على ثروة أوليغرس عن طريق نقلها باسم زوجته ثم قتله لتصبح أرملة... بعدها يتزوج ليو أو فان أيًا كان بعروسته، المنغص الوحيد هو ظهور إريك لهذا كان عليكم التخلص منه كذلك؛ حتى تعود كل الثروة للكونتيسة، وليوناردو يتحكم بها في الخفاء لأجل استخدام أموالها في تحقيق عدالتكم! أم أنكم خططتم لقتل الكونتيسة أن بعد ذلك؟".

ظلت صامته تحدد بالطاولة.

نقر المفتش على الطاولة بإصبعه ينتظر صوتها السليط ليخرج، ثم حينما يأس منها قال: "لقد خططتم مسبقا لتخلص منها، وإلا لما دسست المسدس بين حاجياتها. لكن المشكلة... أن الوقت لم يكن في صالحكم، ما كان على المسدس أن يظهر في وقت أبكر".

زفرت ضجرة من هذه المحادثة وحولت بصرها لجهة النافذة. خيوط القضية تدلت بين زوايا الظلام ملتفة حول عنق الكاردينال ومؤكدةً على بشاعة جرمهم. ظل تشارلز شاردًا، ما يزال يحاول استيعاب ما نطقت به قبل قليلا عن كونها تعرضت للاعتداء، لم يهتم لشيء ولوهلة أصبح متبلدًا لا يعرف ما الذي عليه تحمله بالضبط؛ من جهة هم قتلوا المؤسس الأصلي للكاردينال (دانييل هاربر) أي حسرة عليه أن يتلع! بعد صمته طويلا نطق وغصّة تجرح حلقة: "اعذريني فالانتين، الشخص الذي تعاونتم لقتله... كان هاري... دانييل هاربر".

التفتت ناحيته بسرعة واعتلت عينها دهشة لحظية ثم أظهرت تعبيرًا مستهينًا بكلامه. لكنه كان يومئ دون إحساس ويتابع حديثه... عينيه بعينها تجاهل ألمه وجعله حبيسًا بين زوايا قلبه، أصر على قول الحقيقة حتى تدرك حجم الإثم الذي أقدمت عليه الأخوية في جهل منهم.

- "عثر الكونت السابق، جوزيف أوليغرس على طفل غارق، أنقذ حياته ورباه كأبنه ومنحه لقبه، لقد هرب مع شقيقه وأربعة من رفاقه، هربوا من الدير الذي نفوا إليه لأن لا أحد يرغب بهم. وحتى لا يعود إلى ذلك المنفى قرر رمي نفسه من الجرف إلى بحر مظلم... إنه دانييل إيمانويل هاربر... أنا أسف، ولكن ينبغي لروح دانييل أن تستريح... يجب أن يعاقب من تسبب بموته".

طأطأت رأسها تحاول إدراك كل ما ينطق به، كل شيء يسقط دفعة واحدة فوق رأسها كالصخرة الصلبة. ظلت تحديق في يديها وجفنها يرتعشان، أنفاسها بدأت تتسارع بوتيرة منفعلة: "م ما الذي تحدث عنه؟ يستحيل، يستحيل أن يكون هو لقد مات هاري!". نظرت لتشارلز. لكن ذلك ابتسم بحسرة:

- "حينما ترتكبين ذنبًا كنت تعجزين عن قول أي شيء سو النظر في عيني من يواجبك". تكلم تشارلز بصوت حزين يوقظ أشجان الماضي: "ترجت أن تكون الحقيقة التي تصرخ أمامي كذبة، أردت أن أدير ظهري رغم مقدرتي على الاستماع لصيحاتها... لقد تشاركتم جميعًا في قتله... القدر يضرب ضربة قاسية!".

بدأ جسدها يضطرب من الانفعال، وراحت تهز رأسها في إنكار مستميت رغم محاولتها الظاهرة برباطة الجأش خرجت دموعها عن السيطرة: "لا أعرف عن ماذا تتحدث... لا أعرف!".

كرر رجائه بنبرة متراخية متعبة: "لقد أعترف ريتشارد، أخبرني... تعمد إلصاق تهمة قتل دانييل به ثم أقدم على فعله الانتحاري... لكن الأمر لن يتوقف هنا... أخبريني أين فان؟".

استمرت في اعتراضها: "لا أعرف عن ماذا تتحدث!".

في قراره هو مشفق عليها، إلا أن الحقيقة تبقى بعيدة عن الانحياز لذا لم يرد أن يسألها مرة أخرى وبقي صامتًا! دُفع باب الحجر بقوة ثم دلف سكود وخصلة سوداء من خصال شعره المقوسة تترنح على جبينه، وربطة عنقه مرخية بشكل واضح والشحوب كس وجهه، كما لاح مرهقًا: "سيد جوناثان، لقد أعترف واحد منهم!".

التفت جون بتعجب وقال: "أحقا؟".

- "نعم".

بقي تشارلز يحديق في ملامح محبوبته وعينها البائستين المتبلورتين من الدموع. حينما يكون الحب مصدرًا للألم يتجرد من لقبه.

نهض المفتش ومشى ناحية سكود ثم سأله بنبرة هامسة متشككة: "كيف أتعرف؟".
تحاشى النظر إليه وأجاب: "حققنا معه".

ضيق جون بصره وطالعه بشك وعدم ارتياح واضح، ثم تمتم أثناء مسيره: "سأرى لاحقا كيف حققت معه". ألقى تشارلز نظرة أخيرة على الماضي الذي يستحيل تغير ملامحه ويستحيل نسيان وجوده، تأمل ملامحها وكان حزين لأنه يرى الهوت في عينها الجميلتين.
التفت المتفش ناحية تشارلز ونده عليه: "تشارلز، هيا".

"أريد البقاء قليلا، ألا بأس؟".

تهمد وبعد تفكيرٍ سريع ارتأ تركه بعض الوقت فخرج بصحبة سكود ثم أمر الحارس أثناء إغلاقه للباب: "ابق يقظن بعد أن يخرج أعضاها إلى الزنزانة". ثم التفت إلى سكود وأومأ له بتحرك.
في الداخل لم يقم تشارلز بأي حركة ظل واقفاً بجوارها يراقب دموعها تنهمر. رفعت رأسها ونظرت له بتلك العينين الغارقتين بالدموع: "كن صادقاً!... هل هو هـ... هاري!".
بعد صمت وجيز هز رأسه مجيباً: "نعم. إنه دانييل هاربر... من أسس الكاردينال وحلم بذلك اليوم الذي يجعلها جماعة كبيرة".

رفعت كلتا يديها ووضعتهما على رأسها وأخذت شهقة كبيرة تعينها على اخراج نحيبٍ مريم وصوتٍ مهزوز: "لا... لا أصدق!... م ما الذي فعلناه؟... ما الذي فعلناه؟".
مضت قوات الشرطة في تجهيزاتها لبدء عملية جديدة لا يعلم من سوف يعيش فيها ومن كتب له إغلاق صفحات حياته.

وقتئذ كان إليها ومن معه قد وصلوا مسبقاً إلى مستودع صغير في شرق ياسك يتبع مصنعاً لإنتاج السجاد والذي يعود للسيد جالييو أمارند. كان الظلام قد تحالف يشحذ هممه ليطوق المدينة حينها.

عانى فان صراعاً جسيماً أثناء استخراج الرصاصة من كتفه وتخييط جرح ساقه وعلى إثر ذلك فقد وعيه. داخل غرفة في العلية لزاوية اليسرى بعد ممر له نافذتين يقود من يمينه لدرج حديدي، هناك كان يرقد على فراشه في راحة نسبية.

جلس إلياس على كرسي خشبي يفكر تفكير مفرط، وزاد توتره حينما لم يسمع شيئاً عن ريتش وفيرا.

دخلت فتاة شابة، في الثالثة والعشرين، ممشوقة الجسد وذات شعر حريري بني منفرد على طول ظهرها، ملامحها ضعيفة ولها صدغين برزان بشكل يعطي جمال لعينها المجوفتين البينتين. وترتدي زي ممرضة، ثوبٌ طويل أزرق ومريلة بيضاء. وجاء من خلفها السيد المارند، ثم جاين آخرهم.

اتجهت تلك الشابة مباشرة لفان وهي تحمل علبة اسعاف.

قالت بنبرة عملية سريعة: "سيد جاين، ساعدني، علينا تغير الضمادات له".

- "حسناً".

سحب الغطاء عن جسده، لتظهر تلك اللفائف الكثيرة حول صدره وإلى كتفه نزولاً إلى ذراعه المصابة. رفعه جاين بيسر ورفق لتقوم الشابة بفك الضمادات من خلف ظهره وتبدأ عملها.

سأل إلياس: "ألم يصلكم أي خبر عن ريتش وفيرا، سيد جالييو؟".

انكس الرجل رأسه ولاح كمن يكبت هم جليل في صدره، نظر إلى لويس الصغير حيث كان جالسا على طرف السرير بقرب فان وحينما جاءت تلك الشابة لتغيير الضماد نهض ووقف بقربهم، عينيه معلقتين على فان. بقي الفصل السيد المارند يتأمله بإشفاق شديد. اقترب من إلياس هامسا: "لنخرج للخارج ونتحدث".

لاحظ نظرات جاين كشخصي يقيم حداً بصمت. لم تعجب تلك الملامح إلياس أبداً، لكنه نهض بهدوء وخرج برفقة العم الى الممر. وفقا بقرب النافذة ثم ابتدر السيد جالييو قائلاً: "لقد سمع بعض الفتية أخباراً من الناس، الشرطة أحاطت العي بأسره وتمكنت من إمساك فيرا".

اتسعت عينيه بصدمة وجفل يحدق من خارج النافذة دون وعي: "يا إلهي فيرا! وريتش؟".

- "ريتش". غمغم العم وهو يخفض بصره متهرباً من مواجهته فأحس إلياس بالتوجس وبدأ يضطرب، ثم حينما طال صمت العم صاح بنبرة مكتومة فقادة لصير: "ماذا حصل له!؟"

نطق جالييو بتأثر بالغ: "لست واثقاً!".

- "ما الذي تعنيه؟".

- "ما علمته أن هناك شخصًا تم الإمساك به وهي فيرا. ولكن... ريتش... لم يره أحد... لم يشاهدوا الشرطة تعتقله لكتهم... لكنهم رأوا جثمان يتم حمله ولم تتأكد حيال كونه ريتش أو فرد من الجماعة".

اتسعت عينا إلياس فزعًا بل أحتاج وجهه لون الشحوب لشدة الصدمة وفغر فاهه قليلا وبدأت أنفاسه تعتمل... تكلم وهو شارد هلع: "ريتش يستحيل أن يسمح لهم باعتقال فيرا... لن يسمح بذلك أبدًا!... أنا أعرفه... ه هل تمكنوا منه... لا، لا، لا غير ممكن ري واسع الحيلة لن يتمكنوا منه بسهولة!". ترنح قليلا وهو يشد خصال شعر منهول الفزع. فوضع العم يده على كتفه ليقظه مما هو فيه: "إلياس، نحن غير متأكدين. حاليًا ليس هناك غيرك، لقد تم القبض على معظم من كانوا في البيت الكبير.."

صاح إلياس مذهول: "قبضوا عليهم!... إليوت هل قبضوا عليه أيضا؟"

- "لست واثقا فلم أسمع عنه شيئًا. الأهمالآن، من تم اعتقالهم لا شك أنهم سوف يحققون معهم وقد يجبرون على قول شيء تحت الضغط. عليك أن تكون قويًا. فان لا يجب أن يبقى هنا، سيقبضون عليه. عليك ألا تسمح بذلك إن سقط سوف يسقط اسم الكاردينال بالكامل".

هر رأسه مشتتًا وهو ينطق: "نعم، نعم! علي أن أخرجه ولا يجب أن أعلمه بما حصل لفيرا... ريتش يجب أن أعرف ما الذي حدث له" نظر عبر النافذة وقد توقف ارتعاشه وصار هادئًا على نحوٍ غامض يفكر أو ربما فقط كان شاردًا فلا شيء اتضح في ملامحه، ثم التفت للعلم وقال بعزم: "سوف أخرجه خارج ياسك حالما يسترد وعيه".

- "لا تنتظر استفاقتة، أنت تعرف فان لن يتزحج قبل أن يعلم ماذا جرى لرفيقه. لقد جهزت سيارة في الفناء الخلفي، وتحدثت مع بعض معارفي سوف يساعدونك لإخراج فان والحفاظ على حياته إنهم أناسٌ أتق بهم. لذا عليك التحرك الآن". وضع يمينه على كتفه وهو يحثه: "انطلق الآن!".

- "وماذا عن فيرا؟ ... لبي لا يمكنني تركهما".

- "سوف أغلق المخزن وأخرج كل من فيه في الوقت الراهن. أنا سوف اتكلف بإرسال أحدٍ ليحلب ماري، وفالاتين سنخرجها من السجن مهم كلف الأمر. ولكن عليك الابتعاد من هنا مع فان".

أوماً مستجيباً له.

تم حمل فان من قبل إليا بمساعدة جاين ووضعه داخل سيارة أجرة مغلقة. نزل إلياس وأغلق مصرع الباب الخشبي، ثم قبل أن يصعد. انتبه على جاين الذي يهيم بصعود من الجهة الأخرى، أوقفه قائلاً: "لا، جاين يكفي ما فعلته إلى الآن. عد إلى أسرتك".

- "ولك". أستقطع إليا حديثه ملخاً: "جاين، رجاء أنت أب! لديك مسؤولية، عليك أن ترجع لهم، لا بد أنهم قلقين عليك. فان ما كان ليرضى بتوريطك".

زم شفتيه كارهاً لتصديق على حقيقة ما يقوله، طالما طمع في فرصة لرد الدين، وحينما أتت يكون عاجز ومقيد.

ابتسم إلياس وقال: "لا عليك، حالما يسترد فان قوته سيعود زعيم الكاردينال الأحمر. سوف أحرص على سلامته. وبأي طريقة علينا إخراج فيرا".

- "سيكون كذلك. أترك مهمة البحث عن ريتش لي".

ابتسما بثقة تامة ثم أوصاه: "لا بأس. لا تنس اعطني بلوي لأجلي".

جاء صوت طفل يصيح من جهة بوابة داخلية، لفت انتباه الجميع نحوه ليروا شابا يحاول إمساك طفل يأب الانصياع له، ركل قدمه ثم هرع راكضاً نحو إلياس، تشبث بيده اليسرى ثم رفع رأسه، الخوف والغضب كانا واضحا كل منهما يطغى على الآخر. انحنى إليا على أمشاط قدميه استخلص من عينيه البنيتين عتاباً طويلاً. كلمه بصوت شبه هامس حنون: "لويس، لا تقلق سوف نفترق في الوقت الراهن وحسب..". شد الصغير على يده كأنه يبلغه باعتراضه، جاهد لإخراج صوته: "خذ... ني... معك!"

- "لا يمكنني، لوي لا تخف سوف تبقى مع العم ألمارد، أيضا ماري تنتظرك".

أصر على أسنانه وتكاد عينيه تفيضان بالدموع. تقدم العم ووضع يمينه على رأسه بحنان هامسا له: "لا تخف لويس، ليست سوى بضعة أيام وسوف نتجمع بهم جميعاً".

أمسك إلياس يده المرتعشة بقوة ثم بصوت خافت قال يشجعه: "أنت عضو في الكاردينال، لا يجب أن تبكي! الكاردينالات لا يخافون من شيء كن قويا".

ابتلع مرارته وأوماً إلتماعاً الدموع تغلف عينيه مع ذلك أظهر ملامح متماسكة.

صعد إليا ثم شغل محرك السيارة فرتجت قليلا، ثم خرجت من الباب الخلفي للمستود.

ولم تنتهي مأساة الكونتيسة آن، المحبوسة في زنزانة خرساء كئيبة، تحرق من الفجوة الدائرية ذات القضبان الأربعة، هي النافذة الوحيدة التي تسمح لها برؤية ضوء القمر اللماسي. شاردة بعينين خاملتين قد يئست من كل شيء حولها. كانت رغبتها الوحيدة هي العثور على حب حقيقي، أن تتخلص من قيود أبيها التي سجنرت رغباتها وعذب كيافها، ولاحقها حتى في امنياتها السرية، لقد كرهت كونها فتاة، كرهت أن والدها كان يراها سلعة؛ لطالما طمع في أن تنجب له زوجته أبناءً يحملون اسمه، لكنها انجبت خمسة بنات وهي أكبرهن لينته بها الحال ناقمة على كل شيء، وعندما ظنت أنها عثرت على الحب الذي ستجد فيه خلاصها، أخذت لرجل آخر، أو هكذا حسبت، ثم انقلبت حياتها إلى جحيم سببه الخوف من معرفة الحقيقة، حقيقة الليلة المظلمة والألم الذي عانت منه وما زالت إلى الآن ترتعش ذعرًا كلما تذكرت، كانت مرتعبة... بل كانت راضية أن يظل وجهه المعتدي مغمورًا بظلام، فهذا أرحم بالنسبة لها.

تطلعت حوالها ولم ترى سوى جدران سوداء موحشة متصدعة، وبرد ينهش عظامها الرقيقة. رفعت ركبتيها وضمت ساقيها المدثورين تحت ثوبها البنفسجي القاتم ثم طوقتهما بذراعيها، دفنت وجهها بين ركبتيها ومالت خصالها الشقراء الطويلة على ظهرها، تنتنحب بصوت مكبوت جريح. بدأت تفكر بالحوادث وكل ما قاله تشارلز، مؤامرة قتل الكونت، وضع مسدس في علبة الألماس، الوشم الذي على رسغ الكونت والذي بطريقة ما يشبه ذات الوشم على رسغ عشيقها.

رفعت رأسها وهي تغلغل أصابعها التي اكتست بلونٍ أحمر قاني، غلغلها بين خصال شعرها وشدت بقوة كأنها تريد إلأم نفسها عمدًا حتى تخفف ألم قلبها. في حضرت الهدوء الذي غمر المكان... استذكرت شيئًا قديمًا، وجهًا كانت تراه غالبًا حينما تذهب للحانات وتشرب، كانت عادة ما تفقد وعيها بعد كأسين أو ثلاثة... وهناك صوت رجلٍ يبدو حنونًا ورقيقًا على نحوٍ سام يتغلغل بسلاسة إلى قلبها يستمر بسؤالها عن حياتها وعائلتها، وفي كل مرة يسألها مثل تلك الأسئلة يقدم كأسًا من الخمر مع ابتسامة عذبة! ذلك الرجل لما يكن سوى عشيقها ليوناردو، قبل أن تنفجر بها حسرتها لوقعها في شركه، سمعت صوت صرير مفاتيح معدنية، ثم ظل لقدمي رجلٍ برزا أسفل الباب الحديدي، بعدها فتح الباب محدثًا ضجة من ثقله وفتح المزلاج الصديء. أطل عليها وجه الحارس الناعس والذي قال بنبرة بليدة: "تم الإفراج عنك".

وقتئذ كانت السيارة التي يقودها إلياس قد خرجت من المستودع سالكة الشارع الرئيسي، حاملاً رصدها غرلين أشار لزميله فشغل السيارة وتحركت خلفه محافظة على مسافة أما القوات التي وزعت ونظمت لمداهمة المخابئ السرية لجماعة الكاردينال الأحمر. ومن ضمنها فريق سكود. كان ومجموعة من الرجال يختبئون داخل عربة خشبية مغلقة كبيرة لنقل البضائع تقف بقرب المستودع، تم جرها بواسطة حصان من قبل ضابط متخفي بزي عامل ثم ترجل واتجه لحانة في زاوية الشارع. استمر سكود يراقب بدقة من شق الباب المفتوح بالكاد ملح ثلة، أربعة أفراد، يتحدثون ويشربون، تلوح عليهم الغفلة والثرثرة في موضوع بدا جدي من التعابير التي رسمت على وجوههم، يحملون بأيادهم مسدسات واثنان منهم يحملون بنادق. حاول إلياس تحرك السيارة بأسرع ما يمكن، خرج من الطريق الفرعي، ثم سلك شارعاً أيسر عند التقاطع. لا شيء على مدى البصر غير منازل مصطفة مغمورة بظلام وأضواء مصابيح مشعة، وهدوء مريبك.

على بعد أربعمئة متر ظهرت سيارة شرطة خرجت من الجهة اليمنى للشارع وسد عليه الطريق. توقف إلياس شاتماً في سره. في حين نزل شرطيان من السيارة وتوجها ناحيته. الأولى دار حول السيارة بينما الآخر اتجه إلى نافذة السائق وقرع عليها ليفتح إلياس مبتسماً وهو يقول: "نعم". أردف الشرطي: "إلى أين في هذه الساعة؟".

- "كما ترى أنا سائق أجرة أدور لأجل الرزق. لدي زبونٌ في الخلف". أجاب بضحكة ساخرة. وقف الشرطي المتحدث باعتدال وهو يتوجه نحو الباب الخلفي ليلقي نظرة خلال قوله: "هل لنا أن نلقي التحية عليه؟".

- "حسناً، كما ترى إنه نائم".

أمعن الشرطي التحديق ولكنه لم يستطع رؤية وجهه فقد كان ينكس رأسه وخصلاته الشقراء ناظر جوانب وجهه، بينما إلياس كان ينحني قليلاً نحو المقود ويمد ذراعه اليمنى بقصد الإمساك بمسدس قد تم إلصاقه أعلى الدواسة.

- "هل لك أن تنزل قليلاً؟" قال الشرطي وإمارات الشك واضحة في وجهه. نفذ إلياس ولم يزع بسمته عن وجهه... ما أن فتح الباب قام بتحرير زناد الأمان للمسدس بإبهام يمينه ثم خرج ووجهه طلقت مباغطة أصابت صدر الشرطي وأردته أرضاً

ما أن سمع الآخروصوت الطلقة الصارخة حتى نفخ في صفارته لتكسر جنح الظلام الساكن. هم بعدها بسحب زناد مسدسه لإطلاق النار، لكن إلياس سبقه وأطلق على رأسه، ثم هرع مسرعًا ليركب السيارة شغل المحرك وداس على البنزين لتنتقل بأقصى سرعة. خرجت سيارات الشرطة من جانب الشارع وأربعة شرطيين متخفيين ركضوا مندفعين لمنتصف الطريق قاموا بإطلاق وإبلٍ من الرصاص على السيارة في أملٍ مهزوز لإصابة زجاجها أو الإطارات، بينما ظل إلياس محافظًا على سرعته الجنونية وهو يخفض رأسه قليلا حتى لا تجد الرصاصات طريقًا إليه. شعر شرطيين أن محاولتهم لا تجدي نفعًا والسيارة تقترب بسرعة كبيرة نحوهم فتفرقوا فزعين من أمامها، لكن فور أن تجاوزهم احتكت سيارته بإحدى سيارات الشرطة بالإدق كان صدامًا جزئي سبب تحطم الإضاءة الامامية لكلتا السيارتين. لكن إليا لم يبال أبقي قدمه على دواسة البنزين. أدار زميل غيرلن السيارة بسرعة وانطلق يلحق به.

أصبح الشارع أشبه بحلبة سباق وبالكاد تمكن زميل غيرلن من اللحاق بإلياس. عندها أخرج الضابط إري غيرلن مسدسه وفتح نافذة السيارة وحاول تقنيص أحد الإطارات ولكنه لم ينجح... قبل أن يحاول الكرة مرة أخرى صدم برؤية شخص يقف في منتصف الشارع على بعد منهم، كما لو أنه عمود أسود موضوع في المكان الخطأ.

صرخ غرلين بصوة عاليًا والذعر في وجهه: "تبا! تشارلز تنحى يا مجنون!"

لم يبالي تشارلز بأن تلك المسافة تتقلص بسرعة وأن سيارة إلياس سوف تصدمه وتسحقه بقوة مميتة. ثابتٌ يحدق بعيون مترصدة، ثم رفع ذراعه اليسرى واستمر بإطلاق النار ناحية زجاج السيارة الأمامية حتى تصدعت ثم ما لبثت أن تحطمت واصابته إحدى الرصاصات التي اطلقها تشارلز بخدش في جانب عينه اليسرى ذلك سبب له انحرفت السيارة وبدأت تتمايل في طريق بسرعة مختلة، عبرت من جوار تشارلز الذي تنحى في اللحظة المناسبة وبقي يراقب خروجها عن السيطرة بل إن إلياس ارتبك، لم يستطع فتح عينه اليسرى والدماء تسيل من صدغه، داس على المكابح والسيارة في أقصى سرعتها مما سبب انفجار الإطار الأيمن فانقلبت السيارة ودارت دورتين حتى توقفت بعد أن سببت خدوشًا على الأرض وتحطم المرآة الجانبية. حالما هدأ الوضع، لم تصدر أية حركة من داخل السيارة، ذلك الحادث أصاب إلياس بضربة في رأسه بعد أن اصطدم بالمقود وشظية من زجاج النافذة اليمنى اخترق فخذه! حاول

استيعاب ما جرى بيد أنه أحس بشيء دافئ يسيل من رأسه نزول لجبينه حتى شفثيه، تضرجت ملامحه بالدم... عندما حاول تحريك جسده ألم ساقه أعاقه وسرعان ما أصبحت الرؤية ضبابية وشيئاً فشيئاً فقد وعيه. تقدم تشارلز ووقف على بعد عدة سنتمترات من السيارة، لقد تجمدت ساقيه وتعاقبت أنفاسه في لهيث مضطرب.. لشدة ذعره فقد القدرة على حمل المسدس فسقط من يده لاح كمن استيقظ من غيبوبة ما! بينما تقلب فان لجهة النافذة اليسرى وأصبح الباب الأيمن فوقه، أحس كأنما كان داخل جوف إعصار! حث جسده على احتمال الألم وحاول النهوض، استعان بالأريكة حتى يسحب نفسه قائلاً: "سحقاً! ما الذي يجري؟". أحتاج لجهد مضاعف حتى يمد يده ليمسك مقبض الباب، إضافة إلى أن قميصه الأبيض تلوث إذ انفتح جرح كتفه وأضحت أنفاسه أثقل عليه من جسده. فُتح باب السيارة فجأة لكن الوجه الذي أطل مهمم بالنسبة له، لم يكن قادرًا حتى على فتح جفنيه بشكل كامل والغثيان أعياه، لكنه أحس يقينًا بيد شخصٍ تمسك معصمه وسمع صرخة عالية: "إنه مصاب اخفضوا الأسلحة!".

الفصل الثالث والعشرون

أخرجه تشارلز من السيارة بمساعدة إري غرلين، وشرطي آخر تكفل بإخراج إلياس عن طريق النافذة الأمامية المكسورة جاء شرطي آخر وساعده لسحبه بحذر بسبب جراحه زيادة على اضطرابهم فقد كانوا قلقين من انفجار السيارة في أي لحظة. كان فان منهكاً حتى أنه عجز عن فتح عينيه، كأنما كامل جسده شل وحواسه تعمل على نحو سيء للغاية. جفل تشارلز يراقبه أمام عينيه مباشرة لا يفصلهما سوى بضع إنشات قليلة، جاثم على ركبتيه والدماء تلتخ جسده، لم تساوره أي شكوك في هذه اللحظة... الشخص الذي أمامه هو فرناند... لقد رأى الوشم على رسغه الأيمن صحيحاً أنه مختلف قليلاً عن البسطة التي كان عليها في الماضي. إلا أنه نفسه، الطائر ازداد حجماً ويبدو كاللهب. في اللحظة التي رغب فيها تشارلز أن يمسك كتفيه، جاء رجلان من الشرطة وسحبا فرناند من ذراعيه ليحملاه على النهوض، كأنه إقرار صريح من القدر... مهم كنت قريباً فلن تصل إليهم وعندئذ رفع تشارلز رأسه وقال بانفعال شديد: "ما الذي تفعلونه! إنه مصاب لا يمكنكم أخذه وهو بهذه الحالة!".

امسكه إري من كتفه ليمنعه من الاقتراب ولهدأ من روعه الفزع: "لا تقلق يا سيد غرنالد، سيتم أخذه للمشفى أولاً". حينما تأمل حالته جيداً شعر بسوء والحزن عليه... كلتا يديها تحملان دماء رفيقه ووجه شاحب مرتاع، حتى أقر متمتاً: "هذا الشاب سوف يهاري في أية لحظة!".

أنزل تشارلز بصره إلى كلتا يديه المترعشتان وأحس بالإعياء من رائحة الدم ورغب في التقيؤ. أغمض عينيه وازدرد ريقه مجاهدًا للحفاظ على ثباته وليخفي ارتجافه. سأل إري بصوت ضعيف متراخي: "هل معك منديل؟".

"آه، أظن ذلك". فتش إري في جيوبه وعثر على منديل أزرق، تناوله تشارلز منه وراح يمسح الدماء عن يديه في صمت ثقيل.

أثناء نقل فان إلى سيارة الشرطة... كان قد سمع اسم مألوفاً بما بقي له من وعي صامد يستشعره ما يحدث حوله، إذ قال في سكينه وهذوء بينه وبين نفسه: "هل خرجت روحي؟ ... أم أنني اتوهم؟ ... سمعت اسم غرنالد!".

تم مداهمة المستودع القريب من مصنع السجاد من قبل سكود وفريقه، نزلوا من العربة واحداً يلي الآخر كالخيوط حينما يسحب بخفة. رفعوا اسلحتهم ووجهها في حين غرة من أولئك الرجال. صاح سكود: "ارموا اسلحتكم حالاً!".

هم أحدهم برفع مسدسه لكن سكود أطلق على يده التي تحمل السلاح، وفور سماع صوت الطلقة خرجت بقية القوات، أغلبهم كانوا من الشرطة المتخفية تحت لباس مدنيين. اخرجوا مسدساتهم وانطلقوا مسرعين في عملية تطويقٍ شاملةٍ للمستودع.

دخل بعض الرجال من البوابة الخلفية. دُفع الباب بقوة كاسرة ثم دوى صوت كالانفجار: "المكان محاصر سلموا أنفسكم!".

وقتئذ كان جاليليو في الطابق الثاني مع المريضة والصبي. دخل فيل متهدجاً وصاح: "إنهم هنا!" - "لم أتوقع مجيئهم بهذه السرعة، اللعنة!". قال جاليليو وقد تدب فيه الاضطراب لكنه حرص على ابقاء رباطة جأشه.

في حين أصيب لويس بالذعر من أصوات الرصاص فغطى أذنيه. أمسكه جاليليو من يده ثم حادث المريضة: "سكارليت، خذي لويس واختبئي في إحدى القوارب. بسرعة!".

أخذته وخرجت من شرفة المكتب على عجل واضطراب. تمسكت سكارليت بيد الصغير أثناء نزولها من السلالم الحديدية والذي يقود نحو جسر خشبي يتصل بسلسلة المرافئ، كل مرفأ يتصل بقارب متوسط الحجم أو كبيرة. ركضت على طول الجسر متخطياً أربعة مرفائ لتصل إلى المرفأ الرابع، سلكته ثم صعدت من خلال درج متصل بظهر القارب. أمسكت بكتفي لويس بينما كان تلتفت في الأرجاء متوجسة ولا تعلم إلى أين تتجه. لمحت مجموعة صناديق كبيرة بجوار بعضها فهرعت نحوها واختبأت خلفها، جلست وابتقت لوي لجانها الأيمن ثم ضمته، ربما كانت هي بذاتها خائفة فتشبتت به، وهذا ما لاحظته لويس.

- "سكارليت!". خرج صوته الهامس المرتعب يناديها فأنزلت بصرها إليه تحاول طمأنته رغم ارتعاش صوتها: "لا تخف، سيكون كل شيء بخير".

بعد ساعات وعند أعتاب الفجر. قبض رجال الشرطة على كل من تواجد في المستودع والمشبهين وبعضهم تمكن من الفرار وكان ممن تمكن من الفرار السيد جاليليو وفيليب وقلّة

من الرجال. عاد إري مع تشارلز إلى مركز الشرطة، وأبلغ المفتش بما قام به، ثم أراه المسدس والذي كان بالأصل نفس المسدس الذي حملة ريتش في آخر لحظات حياته. تمهد المفتش مستاءً وقال: "يا إلهي! في كل مرة يزداد تهوراً! من أين أخذ هذا المسدس؟".

"من خزانة الدلائل. لا أنكر أن فعلته هذه تخطت كل التوقعات. لقد جلبته معي لكنني تركته داخل السيارة، قلت إنه من المستحسن أن تصطحبه معك إلى المنزل، حالته ليست مستقرة ويفضل ألا يبقى بمفرده... قد يفعل شيئاً بنفسه".

أوماً جون متفقاً ثم أردف: "لا بأس، أرجع المسدس إلى خزانة الدلائل".
- "حسناً".

خرج المفتش من المركز وهو يرتدي قبعته. قام أحد الشرطين بفتح باب السيارة له، دلف ليرى هالة مروعة من الكآبة تجلس بصحبة تشارلز. أخذ مكانه ثم أغلق الشرط الباب وأعطى إشارة للسائق حتى ينطلق.

تأمل جون حالته كل شيء فيه باهة يرخي جسده على الجانب الأيمن ورأسه يتكئ على الزجاج الذي عكس لون عينيه الذهبيتين الخاملتين، ظلال الإرهاق والتعاسة تعانقانه بقوة. زفر محبطاً وأرخی كتفيه ثم قال: "آه يا تشارلز! أود توبيخك ولكنني على ثقة بأنك لا تسمع شيئاً الآن".

- "متى يمكنني رؤيته؟".

- "سوف يبلغنا الطبيب عندما يسترد وعيه".

- "ماذا عن فيرا؟".

- "أعتذريا بني، لن يكون هذا سهلاً في الوقت الراهن!".

أخذ تشارلز شهيقاً ضعيفاً ثم أغلق عينيه، ليطبق صمته رهيب طول الطريق.

وصلت السيارة إلى منزل السيد غريس، ترحل الاثنان ثم قرع السيد الباب لتفتح له امرأة في عقدها الرابع وجهها حبوراً ممتلئاً وخديها متوردان تلوح متوسطة القامة ومكتنزة الجسم، تفاجأ حينما رآها السيد جونان فقال بطيف بسمة هزيلة: "آه، كلارا، عدتي!".

أومأت المرأة بلباقة وحسن تهذيب: "نعم، سيد غريس. أشكرك على الإجازة التي منحتني إياها".

خلع قبعته وسلمها إياها سائلاً: "اذن تحسنت حالة اختك الصغيرة؟".

"نعم، الحمد لله". لاحظت الانسة كلارا الحالة المريبة الصامتة التي دخل بها تشارلز، كانت تستدعي فضوله بقوة، راقبته وهو يدخل ولم يسلم معطفه، فقط سلك مساراً مستقيم إلى زاوية الجهة الغربية نحو الدرج وصعد. طرفت الانسة باستغراب: "هل السيد تشارلز على ما يرام؟".

تهمد المفتش بإحباط جلي واكتفى بأن هز رأسه ليدل على سوء حالته.

أكمل تشارلز صعود الدرج ثم سار في الممر إلى الغرفة الرابعة، حيث أن غرفته القديمة ما تزال كم هي... لقد أصرت السيدة غريس على إبقاءها مفتوحة ونظيفة ومملوءة بالدفع حتى إذا ما رغب في المبيت عندهم لا يشعر أنه جاء من مكان بعيد.

فتح الباب ودلف ثم أدار المقبض ليوصلد قفله، اتجه إلى سريريه ورفع الغطاء ثم دثر نفسه بإحكام، حتى أنه لم يخلع حذاءه... عاد مجدداً إلى الانغلاق والبكاء وحيداً كما اعتاد منذ رحيل أمه... وصديقه الأخير!

بينما دخل السيد جونانان إلى الصالون ليجد زوجته جالسة على اريكتها بقرب المدفأة بشالها البرتقالي الذي يغطي نصفها العلوي، وإلى جوارها سلة من القش تحوي خيوط بألوان زاهية، تهز كرسيا وتحيك بعيدان الخياطة مكملة زراعة كنزة سماوية اللون. أما أحفاده فكانوا يلهون في الحديقة الخارجية، رآهم من خلال زجاج الشرفة المفتوحة، وأمهم تراقبهم وتضحك؛ لأن ديانا كانت تتلقى كرات الثلج الباردة على وجهها من أخويها، وأحمر وجهها الخزي الرقيق، حين كانت تبتغي الرد عليهما بالمثل تتعرقل وتسقط على الأرض صارخة بعضب.

"حسناً يا أولاد، هذا يكفي عودوا لداخل سوف تصابون بالبرد!" نادتهم روزا ولكنهم لم يستجيبوا وتابعوا اللهو والمرح الذي يتقد بنشاطهم الطفولي.

انتهت الجدة على دخول جون فابتسمت بإشراقة مرحبة: "أوه جون، عدت مبكراً اليوم!".

جلس على اريكته الضخمة وأراح ظهره المرهق، لقد بدا متعباً بشكل ملحوظ كما رأت الجدة. خلعت نظارتها الدائرة وسألته بنبرة قلقة: "جون، لم أرك هكذا من قبل! هل أنت بخير؟".

هز رأسه ثم فتح جفنيه لترى السيدة غريس حيرة عظيمة في عيني زوجها، حيرة وإحباط لم تشهدهما من قبل وذلك زادها توجساً وقلقاً فسألته: "خيراً أحدث شيء في عمك؟".

- "المسألة لم تعد عملاً يا عزيزتي. أه! إن كل شيء يمر علينا بشكلٍ طبيعي... إلا تشارلز."
 - "يا إلهي! إنك تجعلني أنخيل أمورًا كثيرةً يا جون، ما الأمر؟ هل حدث شيءٌ لابني؟"
 - "لقد جلبته معي، إنه في غرفته الآن. تحدثِ إليه يا ريسا إنه في حاجة ماسة لأن تغدقيه بعطفك... الشاب لم يعد لديه أي رغبة في الحياة كما رأيت في عينيه. إنني أخشى عليه من المرض إن بقي على هذه الحالة".

جاء صوت روزالينا قائلة: "تحدثون عن تشارلز".

التفت والدها نحوها ليراها تدلف عن طريق الشرفة المفتوحة. أضافت أثناء مسيرها نحو المقعد: "لقد ذهبت لزيارته بالأمس لكنه لم يكن متواجداً في شقته. ليست المرة الأولى، قبل عدة أيام زرتة أيضاً ولكنه لم يكن موجود... في العادة هو لا يغادر كثير من شقته إلا إن كان شيئاً يخص العمل. حتى أن الانسة كنديل أخبرتني أنه كان يبدو غريب الأطوار في المدة الأخيرة. ما الأمر أبي؟ ألم تحلوا القضية بعد؟".

شرح لهم السيد جون كل ما حدث ورغم أن كلتاها على دراية بماضي تشارلز إلا أن المستقبل بدا لهما أشبه بحكاية خرافية مملوءة بالتراجيدية التي تقود المرء إلى الموت الأكيد.

**

في المساء وبعد الغداء مباشرة صعدت السيدة غريس إلى حجرة تشارلز وكلارا خلفها تحمل صينية عليها إناء خزفية مملوء بحساء الشعير. وقفت أمام الباب وقرعته بلطف قائلة: "بني تشارلز، افتح الباب، أخبرني جون أنك لم تأكل منذ الأمس سوف تمرض هكذا. هيا، أفتح الباب".

لم يستجب لها وظل على حاله متقوقعاً ومتلحماً بغطاء السرير. لم يثنها صمته، تهدت وعادة تقول بنبرة معاتبة إلا أنها ماكرة: "هل تريد من هذه المسنة أن تظل واقفة طول اليوم أمام الباب! أه يا تشارلز لم أعلم أنك بهذه القسوة!... لقد بدأت ساقاي تؤلماني ولكنني لن أبح مكاني حتى تفتح الباب".

استضحكت كلارا بخفة لطريقتها العفوية في الخداع. بعد برهة فتح الباب وأطل شاحباً مظلم التعابير ليقول: "أنا بخير لست جائعاً. يمكنك أن تذهبي".

تفاجأت المسنة عندما رأت الخطوط المتورمة الحمراء أسفل جفنيه فشبهت قائلة: "يا إلهي! ما الذي فعلته يا بني! أفسدت عينيك الجميلتان وتخبرني بكل جراءة أنك بخير! أفتح هذا الباب حالاً ودعني أدخل".

استسلام تشارلز تحت ضغط إلحاحها، لكنه تراجع إلى سريره وجلس عليه بهدوء. وضعت كلارا الصينية على الطاولة ثم التفتت نحو السيدة لتقول بابتسامة هادئة تليق بوجهها الممتلئ المتورد: "سوف أنصرف".

وأمرت لها السيدة وراقبتها حتى غادرت وأغلقت الباب خلفها. جلست بجواره على السرير، ثم ربتت على ظهره وذلك كان كفيلاً بهز مشاعره المتألمة لتفيض وتغرق قلبه المرهق أكثر مما هو غارق.

- "يا بني" همست برقة وما زلت تسمح على ظهره بلمسة أمومية مغمورة بالعطف: "لقد أخبرني جون بكل ما حدث. أعلم أنه من المستحيل فهم سبب حدوث ذلك... وأعلم أن تفسيره أيضاً قد يسبب ألماً مضاعفاً لك، أه! وترك الأمر لجعله يمر سوف يترك جرحاً مفتوحاً يتزف إلى الأبد... فبماذا يمكنني أن أواسيك يا صغيري!" كلما استمرت في الكلام بصوتها المسن الرزين شعر أنه سوف ينفجر باكياً أمامها... كان تشارلز دائماً يشعر أن روح أمه تحيطه من خلال السيدة ريسا غريس. غطى عينيه اللتان اغرورقتا بالدموع لخلجه، لكنه لم ينجح في منع نزولها ولم ينجح في كبح الغصة الحادة في حلقه ولا حتى ذلك الأنين الذي زلزل جسده، أخرج صوتمكبوتاً مرتجفاً ليقلز بحرقه ومرارة لسعت اوتاره لتبدل حاله من الشاب إلى الطفل:

- "لماذا حصل ذلك؟!... نسيْتُ كل شيء... لقد اعتدت فعلاً!... اعتدت على تقبل فقدانهم... إذن لماذا الآن فجأة يظهرون الواحد تلو الآخر!!... لماذا بعد كل هذا الوقت... لماذا؟ إنه مؤلّم حقاً... إنه مؤلّم!... هذا ليس شيئاً يمكنني تمريره ببساطة الآن... لما القدر يفعل هذا معي؟ ... لماذا هو دائماً يجبرني على رؤية أحبتي يغادرون! أخذ والدي ثم أخذهم جميعاً وتركتي وحيداً... لما يعيدهم إلى حياتي بهذه الطريقة المزرية مجددًا!! ما الداعي لكل هذه القسوة معي ما الذنب الذي اقترفته أنا؟" انفجر سامحاً لكل ما احتجز في قلبه من مشاعر كثيبة مسودة، كل شيء حرص على كبتة حرره مع دموعه التي غسلت خديه لعل روحه تصبح أخفى قليلاً بعد ذلك. احتضنته الجدة وقبلت رأسه ثم مسحت برأفة وإشفاق فوق رأسه الذي استند على حجرها

ليخفي ملامحه الخجلة، لقد كس الاحمرار وجهه حتى أذنيه... رغم أنه يشعر بالألم في كل ذرفة من دموعه، وفي لهيب حلقه وقلبه تعرض لضغطٍ شديد تحت وطأة كل تلك المشاعر التي تدفقت دفعة واحدة، إلا أن هناك مكاناً في روحه الجريحة قد بدأ يباشر بالالتئام.

من خلف الباب كانوا يشاهدون انهياره لقد جذبهم صوته اليأس، ديانا تتكى على كتفي أختها التوأم ليا وهي تتكى على كتف كلاوس. راقبوا تشارلز وهو بتلك الحالة المتدهورة صوت بكاءه الجريح المكتوم وشهيقه الذي يغلب على زفيره... كانوا ثلاثتهم في صدمة يراقبون من شق الباب بخلسة. غمغمت ديانا في بانزعاجٍ بالغ: "ماذا يحدث؟ خالي يبكي؟".

أردف كلاوس في حيرة: "هل تعرض لتوبيخ يا ترى؟".

بينما كانت ليا أكثرهم تأثراً، ترققت عينيه الجميلتان كقطرة مياه صافية امتلأت بالدموع واحمر وجهها لما تكبته من رغبة في البكاء.

جاء صوت خافة من وراءهم ليفزعهم: "يا أولاد ماذا تفعلون؟".

التفتوا جميعاً في نفس الوقت، ليجيب كلاوس متهدجاً: "خ حالي تشارلز يبكي أمي. هل قام أحد بتوبيخه؟".

ثم قالت ديانا بانفعال واستياء: "إذا قام أحد بذلك سوف أذهب لضربه!".

"صه، صه! اخفضوا أصواتكم! تعالوا معي، لننزل للأسفل".

نطقت ليا بحزنٍ شديد: "ولكن ماذا عن خالي إنه لا يزال يبكي! لما يبكي؟".

أجبرتهم على السير قائلة بحزم: "أمامي الآن! قبل أن يعلم انكم تنتصتون عليه... سوف يغضب بشدة. هيا!".

بعد عدة دقائق من البكاء المحموم غطى تشارلز في النوم... جفنيه لا يزالان رطبين من الدموع. نام كالطفل الصغير مرتاحاً بعد رميه لكل الاثقال التي اغرقت روحه في ظلام الوحدة والتعاسة لأمدٍ طويل، أن لها الآن أن تحلق إلى النور. رغم ذلك عاجلاً سوف ترجع لجسده، لواقعه، للمسار الذي جهزته الأقدار له حتى يواجه المصير المحتم.

خلعت السيدة ريسا حدائيه ثم دثرتة جيداً ومسحت بلطف على وجهه الشاحب، تهتدت بتعب جلي فرؤيته وهو يبكي تسبب الأذى بالنسبة لها وتستهلك عواطفها؛ فكل ما بمقدورها فعله هو

مراقبته والتربية على كتفه لعله يؤمن أن هنالك أشخاصًا يرونه جوهرًا مهم لحياتهم. قالت بأسى اشفاق:

"يا بني العزيز تشارلز، إن روحك جميلة لا تستحق كل هذا الألم... ولكن القدر أعلم بحكمته!"

بعد يومين.

داخل حجرة بالمشفى العمومي تحديدًا الطابق الثاني إلى جهة الشرق. نور الصباح مع النسيم البارد ولج من النافذة برقة ليلفح في طريقه الستائر ويحركها. يده اليمنى تم تقيدها إلى جانب قضيب السرير. فتح جفنيه بخمول وتثاقل لتظهر رماديتيه الصافيتين، كمية الضوء التي اصطدمت بعينيه قوية بمعدل فاق الظلمة التي بقي محاصرًا فيها لمدة مما دفعه لاستبدال جفنيه سريعًا وتغضن ملامحه في انزعاج. بعد دقيقة تمكن من فتح عينيه مجددًا، ثم أرد أن يجلس، لكن عند تحريكه جسده شعر بوخز بسيط في كتفه، وقدمه اليسرى تأب الاستجابة له، بيد أن الألم السابق قد خف. لقد نظفت جراحه وأعيد تعقيمها ولفت بضمادات جديدة. شهق بعمق ثم رفع يساره ووضعها على جبينه، فاطر القوى، وشاحب الوجه. نطق بصوت مبحوح:

"أين أنا؟".

أثناء ذلك في الرواق كان المفتش جوناثان يتقدم برفقة تشارلز وسكود. وقفوا أمام الباب والذي على جانبيه شرطيان. حالما لمحاه ضربا في تحية مججلة. أمر سكود: "افتح الباب". فتح الشرطي الأيمن الباب ثم تنحى. وقبل أن يذلفوا همس المفتش لتشارلز: "هل أنت واثق من قدرتك على فعل ذلك؟".

العزم على مواجهة الأمر واضح عليه لذا اكتفى بالإيماء.

دخل المفتش والقي التحية: "صباح الخير، يا زعيم!".

ضيق فان جفنيه وتطلع مليًا نحو المفتش ثم لتشارلز الذي توشح بمعطف يصل إلى ركبتيه داكن السواد وكأنه جاء لحضور مراسم تأيين. حالما تذكر فان أين رأى الاثنان أخفض رأسه على الوسادة باستسلام وقال: "تبا!"

- "وقعت أخيراً". علق سكود وقد تهللت تعابيره بالبهجة: "ليوناردو براين الاسم المستعار، فان الاسم الرمزي للزعيم، فرناند هاربر الاسم الأصلي. أه يا له من تضليل! من كان يظن أن زعيم الكاردينال الأحمر، شخصٌ مثلك!".
- أردف فان مهكماً ونظرات الاستخفاف الجالبة للحنق تملو عينيه: "سعيد لأنني لم أكن عند توقعكم، وهذا دليل على فشلكم الذريع! يا حماة راشفيرد".
- رفع سكود حاجبه الأيمن في غيظ من حديثه. قهقه المفتش بتكلف ثم علق وهو يلوح بيمينه: "أرى أنك استردت قوتك، أرجو أنها تكفي حتى تتحمل القادم، فرناند هاربر".
- "شكراً". رد فان ببرود تام ثم اشاح بوجهه عنهم. إلى الآن ظل تشارلز محافظاً على هدوءه أو بالأحرى كان شارداً يحدق في فرناند مستذكراً ذلك الصبي ذو ١٢... في ذلك الوقت كان فرناند يخشى مخالفة قواعد الدير ويرعبه أن يكون سبباً في معاناة أحد ... والآن هناك شخصٌ آخر أمامه بالكاد يتعرف عليه، شخص تسبب في قتل أرواح، وخالف الكثير من القواعد حتى وإن كانت الدوافع صادرة لأجل عملٍ إنساني.
- "سوف يتم نقلك إلى المحكمة الجنائية لإصدار قرار في شأنك... لديك الكثير من الملفات المثخنة ليتم قراءتها أيها الزعيم" استطرد المفتش ثم أطرق برأسه مفكراً، ثم عاد لرفع رأسه قائلاً: "قبل ذلك، هنالك ما أريد سماعه منك. سيد هاربر".
- أصدر ضحكة متكلفة ساخرة ليقول: "أتعرف أنا متفاجأ! تمكنتم من معرفة اسمي الحقيقي". تابع أثناء تصفيقه الواهن مهكماً: "أصفيق لكم. لقد كنت مؤمناً بأن المسألة ستأخذ على الأقل قرن كاملاً. وبمناسبة ما تريد أن تسمعه، أعذرني ما زلت أشعر بالتعب لذا وفره لوقت لاحق".
- جاء صوت تشارلز المباشر كحد السف على مسامه: "واحدٌ من رفاقك حاول تهريبك. إلياس بنجلي، إنه في غيبوبة حالياً".
- تلاشت البسمة عن وجهه أسرع من ومضة البرق وانقلبت التعابير المستهينة إلى تفاصيل مكفهرة، ثم ازدرد ريقه.

- "أما ريتشارد ستيفورات. قتل برصاص الشرطة لأنه أبى تسليم نفسه". أضاف تشارلز مرة أخرى، لتكون ردة فعل فان أكثر تأثرًا حتى أن بؤبؤ عينيه تقلصا صدمة ومع ذلك ترفع عن إظهار شيء، اصطكت اسنانه وخرجت كلمة بنبرة خافة: "أصبح حرًا!".

انكمشت حواجب سكود في تعجب من بروده: "يا لك من عديم الإحساس!". لكن تشارلز كان على علم كافي بمقدار الألم الذي يعاني منه في صمت، كشخص يكوى بالنار ولا يئن.

وحيثما أوشك الصمت أن جيد مستقرًا بينهم طرده المفتش بسؤال مباشر: "الكونت دانييل أوليفرس، دبرتم مؤامرة محكمة لقتله، أتعترف بذلك؟".

ضحك فان بتكلف ثم نظر إليه مستغربًا: "كل هذا لأجل ذلك الرجل! كم تصبح الإنسانية محرًا خارقًا يشغل كل أجهزة الأمن عندما يتعلق الأمر بمقتل رجل ثري جيبوه مملوءة بالمال! ويا للعجب كيف تنطق حينما يتعلق الأمر برجل لا يملك في جيبه قطعة نقود واحدة!".

اشتعل غضب تشارلز وبدون أن يشعر تركه يحرق صبره، تقدم نحوه باندفاع وجره من قميصه الأبيض قائلاً: "توقف عن المماطلة! لقد دبرتم مؤامرة بشعة لقتل رجل بريء! أتعترف بذلك!".

رفع فان حاجبيه مندهشًا حيال هياج هذا الشاب وغضبه الشديد، وضع يده على قبضة تشارلز وخاطبه بصوته البليد والمحافظ على الأسلوب المستفز: "المعذرة، المعذرة! ها أنت ذا مجددًا تهمني يا سيد. ألدك أي إثبات يثبت أننا دبرنا لشيء كهذا؟".

صك تشارلز على أسنانه حتى كادت تتصدع وزاد من قبض يديه على قميص فان. قال متعجبًا: "لا يمكنني تصديق ذلك! إلى أي مدى من حماقة وصلت يا فان؟".

- "ما حكايتك يا رجل؟ هل أذيت أحدًا قريبًا عليك؟".
تكلم المفتش عندما أحس أن تشارلز سيخرج عن السيطرة ويبدأ في إبراهيم ضربًا: "تشارلز أتركه!".

لم يستجب مباشرة بقي يحدق في عيون فان كأنه يبتغي اختراق عقله لينشط له ذاكرته الخاملة، ولم ينكر فان ذلك الشعور الغريب الذي بدأ يكتسح صدره، كان مزعجًا للغاية وكأنه الندم؛ فهو نسي معنى الندم وتأنيب الضمير منذ زمن، إلا أن عيني تشارلز الذهبيتين فهما شيء

ما قد حيره وجعله يقطب حاجبيه وبالمثل قابله بالتحديق إلى أن قال: "أظن أن رئيسك أمرك بترك".

ازدرد تشارلز ريقه ثم اتبعده عنه، سار خطوتان محاولاً استرداد هدوءه، أخذ نفساً عميقاً ثم تحدث: "لقد راقبتموه جيداً، كنت تعلم أن أن سوف تزوج من رجل ثري أليس كذلك، كانت فرصة سعيدة بالنسبة لك، بعدها تصبح أرملة تحض بكامل ثروة زوجها، هكذا فقط يمكن لعينيك أن تمثلتا، ثم بعد مدة يظهر سلاح الجريمة الذي استخدم لقتل الكونت بين حاجبيها... كانت الخطة تقتضي جعلها تشك بنفسها حتى تصاب بالاضطراب. ظهور إريك أوليغرس عرقل بعض الأمور عليكم... ولكنكم تكفلتم بالأمر وأردتم إرساله إلى جوار شقيقه".

رفع فان حاجبيه مندهشاً ثم علق مستحسناً: "خيالك خصب جداً!".

ابتسم تشارلز بسمه طفيفة وقال: "أكانت دوافعك، هي المال فقط؟".

نظر إليه بعينه الدخائنتان المتوشحتان برموش كثيفة بنية، واتسعت ابتسامه عريضة على وجهه القاسي: "لم اسمع في حياتي أن هنالك إنسان لا يسعى لأجل المال. أمها العبقري".

"إذن أنت تقرر على ما فعلته؟" سأل المفتش.

تهمد بانزعاج وتمتم: "ها نحن نعود لنفس السؤال! جوابي لا يعني أنني سوف أدير مؤامرة ضخمة لقتل أحد".

بعد رده هذا اشاح بوجهه وأعرض عن الحديث أكثر. اتجه المفتش نحو كرسي منضوب لطاولة مستديرة من خشب السنديان جلس عليه وأراح نفسه، وكأنه يقول نحن ساهرين معك الليلة.

وضع تشارلز يديه في جيوب معطفه واتجه إلى النافذة، في حين وقف سكود يتطلع بعينه البارد نحو فان. رأيتهم حوله بتلك الطريقة أغاظته وجعلته يدمدم غاضباً: "اللعنة!"

تهمد تشارلز ثم تكلم: "فالانتين فيليس، عملت كخادمة في قصر الكونت. كانت العين الرقيب عليه. صحيح؟". التفت إليه وتابع: "لا يمكنك أن تنكر ذلك، لقد استجوبناها... بالأحرى استجوبنا إبريل ريغان. فتحت لكم الطريق عبر السرداب في جهة السور الغربي وتأكدت من صني الجو الذي تحتاجونه، متى يغادر؟ متى يعود؟ بمن يلتقي في أي ساعة وفي أي يوم. أما أنت، فقد دخلت إلى القصر مرتدياً سترته. لا أصدق أنك ارتديت سترة شخص ميت! كان

عملك يقتضي بصنع حجة تثبت أن الكونت عاد إلى قصره، وقد نجح ذلك في الحقيقة؛ السيدة إغاردن ظنتك الكونت بسبب الشبه بينكما. كما أنك الشخص الوحيد الذي يمكنه أن يتجه إلى غرفة الكونت بكل سهولة؛ لأن الكونتيسة خدمتك في ذلك. في حين كان شريكك ريتش يتربص بالكونت وينتظر خروجه من منزل المحامي حتى يختطفه ويقتله في اللحظة المناسبة. ثم مكنته فالانتين من إدخال الجثة عن طريق السرداب".

حدق فيه فان وكان وجهه متجهماً يكبح نفسه كما يكبح الاسد زئيره الغاضب: "أنت فعلاً تسبب لي الازعاج! يمكنكم أن تغربوا عن وجهي! سأتكلم حينما يكون هنالك محامي".

مالت شفتا تشارلز لبسمة طفيفة متهكمة وأصدر صوت ضحكة خفيفة أثناء قوله:

- "كيف سوف تجلب المحامي؟ تحت التهديد يا ترى؟"

رمقه بغضب جلي وفضل كبح لسانه والصمت. زفر تشارلز وأبعد بصره عنه ثم بدأ يقبض على يساره ويفتحها كما كان يفعل قبل ذلك أثناء سرده للوقائع وشرح ملابس هذه الجريمة:

- "لنعد إلى حيث كنا. فالانتين اعترفت بأنها وضعت المسدس داخل علبة الالماس الخاصة بالكونتيسة".

لاح التأثر على طليعته... فما أن سمع ذلك حتى تبدلت تعابيره وبدون أن يشعر حرك يده المقيدة، كان يعلم أنه لن يتمكن إلا من هز سلسلة القيد لتصدر صريراً مزعج، وقد أوجعه الأمر إلا أنه لم يكتثر. أطبق على أسنانه بغلي وقال: "ما الذي فعلتموه بها حتى نطقت بذلك؟ أيها الملاعين!".

- "لا شيء. اعترفت من تلقاء نفسها حينما رأيت رفيقها يقتل أمام عينها". هز كتفيه مجيباً.

ضم سكود حاجبيه في حيرة مما قاله تشارلز، فتلك الشابة العنيدة لم تدلي بأي اعتراف يخدم تحقيقهم في هذه القضية. التفت لجهة المفتش والذي كان بدوره محتاراً ولكن لم يظهر هذا. نظر المفتش غريس لتشارلز ثم لفان، حتى لاحظ أخيراً انفعال مفضوحاً على ملامح فان، عندها فهم ما يحاول تشارلز فعله، فقال متماشياً معه: "كما سمعت، ولكن اعترافها مشبوهٌ لحدٍ ما لقد اعترفت بانها من قتل الكونت، أنى لشابة أن تفعل كل ذلك؟ تقتل رجل ثم تدخله إلى قصره دون أن يلاحظ أحد. كما أن تقرير الطب الشرعي جعلنا ندخل في تضاربات، الكونت مات قبل مدة من عودته إلى قصره، والشخص الذي رأته مدبرة القصر يشبه الكونت، لقد

دخل إلى قصره واتجه إلى غرفته. أعتقد أنك أدر بما أصاب عشيقتك بعد ذلك. سيد ليوناردو براين. لكن هنالك شيءٌ غير منطقي؛ فالسيدة إغاردن تقسم على أنها رأت الكونت ذاته وهي واثقة من ذلك كما ترى ظلها في المرآة، مهما بدت امرأة عجوزة فهي لن تخلط بين هيئة الرجل وهيئة المرأة".

تهد المفتش ثم رمق فان بتقرب لأي تصرف يبدر منه إزاء ما يقولونه، لقد طف التوتر بين ملامحه وراحت أسنانه تحتك ببعضها ليصدر زمجرة تدل على حنقه.

"عمومًا نحن لا نعلم إن كان اعترافها هذا نابغًا من رغبتها في حماية أحد، لكن نحن في حاجة لمذنب حتى يتم تقديمه لقاعة المحكمة، وما دام أن تلك الشابة تعترف وتقر على قتلها للكونت فسيأخذ القانون مجراه. أما أنت فسوف يكون لك محاكمة على ملفات عدة. فرناند هاربر". قال تشارلز.

اندفع فان قائلاً بزقٍ حاد: "هي لم تقتل أحد أيها الحقيير! لذا لا يحق لكم أن تحاكمها على أنها قاتلة!".

كانما القرش ابتلع الطعام، مما أثار حفيظة تشارلز وجعله يهز رأسه ويقترّب من سيرره نائراً ببطء: "ولكنها تعترف بانها القاتلة... هي قالت ذلك بعظمة لسانها..." استوقف قليلاً وتأمل مقدار الاهتياج الذي يفور بهدوء داخل فرناند. ابتسم ووقف باستقامة ليتابع: "إلا إن سارت الأمور كما قلتُ سابقًا... أنت دبرت لكل ذلك، ولكن المشكلة التي لم تتوقعها هو موت الكونت السريع، أنا واثقٌ أنك لم تشأ موته بتلك الطريقة، أليس كذلك؟ لقد أردت احتجازه ريثما تنهي دورك... تعذيب الكونتيسة وجعلها تظن أن زوجها من أقدم على فعل ذلك بها لتزيد مقدار كرهها له... وسيكون من السهل حينها أن تتجه الشبهات كلها نحو الزوجة التي تحقد على زوجها. كنت تعلم مسبقًا أنها لا تريده، وكنت تعلم بأمر علاقتهما الهشة، لكنك لم تشأ أن تنفصل عنه قبل أن يكتب لها أكبر حصّة من ثروته وما كان ذلك ليحدث لو أنه نفذ الشرط الذي بينكم... ولكن... الكونت وللأسف أحب أن ورغب أن تظل معه، حينها لا بد أنك شعرت بالانتصار. المشكلة البسيطة هي أن، كانت لا ترى غيرك وخوفك من أن تلج على الانفصال أقلقك. لقد كنت أسوأ من والدها حقًا! عملت على جعلها تبقى معه اقنعتها أنه من الأفضل لها البقاء معه ثم تركتها غارقة في حزنها، عندئذ لم تجد المسكينة سبيلًا غير الرضوخ للواقع

كونها صارت زوجة للكونت. لكن بعد أن تأكدت أنه كتب لها نصف ثروته، باشرت بعملك، أردت منه أن يعلم أن زوجته لا تزال برفقة عشيقها، أيقظت مشاعر الكره التي بداخل الكونتيسة وجندتها لصالحك. لكن أتعرف؟ عند منعطف واحد فشلت خطتك... لم يكن من المفترض أن يموت الكونت بتلك السرعة، حتى تصبح الجريمة كاملة كان يجب أن يموت في نفس الساعة التي أطلقت فيها تلك الرصاصة، أليس كذلك؟". ضاح تشارلز مندقاً بكل ما كبحه والآن هو يتكلم ويخرج كل ما شك به وأراد أن يتجاهله:

"راقبتكم الكونت جيد تحريتم وقت مناسباً لاختطافه، ولكنه كان اصلب من أن يختطف، ريتش من قتله وأطلق النار عليه حينما فشل بخطفه، صحيح؟ الخصلة السوداء التي كانت عالقة في زر الكم الخاص بالكونت تعود له، اشتبك مع دانييل كما يبدو وحينما ظن أنه سيفلت أطلق النار عليه... وهنا فشل أساس الخطة أليس كلامي صحيحاً، لقد أعترف ريتشارد بأنه قتله! أراد حمل هذا الذنب معه إلى القبر".

فغر فاه سكود وهو يحملق في وجه تشارلز، لقد انهر من استنتاجاته، لوهلة ظن أنه كان شريكاً معهم. ليس هو وحده حتى فرناند تطلع نحوه بدهشة شديدة!

تهد تشارلز منهكاً من ثقل الحقيقة وانخفاض منكببه ثم تابع كلامه بصوت خافت متأسى: "والآن دعني أعد على مسامعك الخطة الخبيثة التي رسمتها، لقد صنعت من الكونتيسة أكبر تغطية لك ولرفاقك... جنون عشقها ربما يكون سبب لجعلها تقتل الكونت ولكونها تعاني من اضطراب نفسي سوف تكون كبش فداء ممتاز، وهذا ما أردت ترسيخه لذا طلبت من إبريل أن تضع المسدس في علبة الألباس التي اشتراها دانييل هدية لها، المعذرة أقصد فالانتين وضعتها؛ كونها تسلت للعمل كخادمة في قصره، وهي فرد من جماعتك كم أنها من يسرت لريتشارد إدخال جثمان الكونت عن طريق السرداب الذي دلتك عليه الكونتيسة. أشعر بالأسف عليها! كانت مثل البيدق بين يديك تخدم مخططاتك الشيطانية... كيف لك أن تستغلها بهذه البشاعة وهي التي وثقة بك وسلمت روحها وقلها! أشعر بالسوء كلما تذكرت كيف كانت تدافع عنك!".

ابتسم أو كانت عبارة عن امتداد طفيف لشفثيه الزهريين لتوضح الحسرة التي تتأجج في صدره: " علمت منذ الوهلة الأولى التي رأيتك فيها أنك متورطٌ في قتل دانييل. أتريد أن تعرف لماذا؟".

على ما يبدو أن فرناند هدأ ولاح مستسلماً... رفع بصره صوب تشارلز وأجاب: "لما لا".

- "بفضل السيد إغاردن، هي تعتقد بأنها رأت الكونت، ولكنها في الحقيقة رأتك أنت، تداخل الشبه بينكما جعلها تظن أنها على حق. لا بد وأنك تتساءل لماذا كنت وأنتق من ذلك؟ كما قلت لك الشبه، ما كنت لأتخيل هذا المصير ولو عشت مئة عام... من دبر لقتل دانييل... "توقف عن الكلام وابتلع غصته قاسماً على كبح مشاعره. أخذ نفساً عميقاً وقال دفعة واحدة: "يكون شقيقه فرناند هاربر!".

انكمشت ملامح وجهه لاستنكار قاطع وقال: "ما الذي تتفوه به؟".

- "نعم، لقد أردت العثور عليك مهم كلف الأمر، حتى تسمع ذلك... بأن هذه المؤمرة دبرت لقتل شقيقك. أعلم أنك متفاجأ وغير مدركٍ لشيء... الحقيقة أن دانييل لم يكن إلا ابناً متبني من قبل عائلة أوليغرس، أنقذ بعد أن تم العثور عليه غارق في البحر. ذلك الفتى يدعى دانييل هاربر... شقيقك!... توأملك!... وأنت بكل بساطة اعتديت على زوجته واقترفت أعظم إثم في الوجود... المال أعى عينيك لكن الغاية لا تبرر الوسيلة، فان".

بدأت عينيه تتوسعان ونبضاته تتسارع شعر برجفة في يديه، والتصديق على ما سرده من قبل ذاكرته كادت تفقده عقله، لكنه رمقه بنظرة حادة وقال: "لا أعرف عن من تتحدث فأنا لا أملك أشقاء".

ثارت نائرة تشارلز لإنكاره فصاح هائجاً على وجهه:

- "إذن أنت تنكر أن لك شقيقاً يدعى دانييل هاربر عاش معك في نفس الدير... دير سانت فليرك؟".

ترك المفتش ساحة الحديث بينهما، فهو لم يكن مجرد اعتراف يتم انتزاعه من مجرم، بل كان أقرب إلى عتاب وذم قاسي يلقيه تشارلز على رأس فان... لكنه لن يغير من الواقع ولن يرجع الروح التي أزهقت.

- "أعرفك عنيداً لكن ليس اليوم. دانييل هاربر هو شقيقك التوأم هو لم يمت غرقاً... لقد كان دانييل أوليغرس الكونت الذي تعاونتم على قتله! هناك الكثير من الدلائل تثبت ذلك لذا لا تحاول الإنكار أبداً فهذا لن ينفع".
- بقي فرناند على تصميمه المتزعزع، يلوح قوياً من الخارج لكنه كان يتصدع ويتهشم من الداخل.
- "لماذا علي تصدقك؟ وما الذي تحاول إجباري على تصديقه أصلاً؟ بقدره إلهيه أخي نجي وأصبح ثرياً وأنا دبرت مؤامرة لقتله!... يا لها من قصة لا ترتق إلى مستوى القصص الخرافية حتى!"
- حدق فيه لبرهة ثم فتح زراركمه ليريه ما يمثل الرمز التعريفي للكاردينال:
- "يذكرك هذا بشيء؟".
- اتسعت عينيه بذهول حينما رأى علامة الطائر على رسغه وكان ذلك بمثابة صفعه قوية شلت تعابير الرجل وتركته بعينين مجفلتين: "محال! من أنت؟".
- أجابه: "غرينو، يا فان غرينو! والآن هل سوف تعترف؟ أم أنك ستقول... لا أعرف شخص يدعى تشارلز غرنالد أيضاً؟".
- رفع بصره إليه، فكادت عينيه تقتلعان من محلها لشدة الصدمة. أي مصير ملعون هذا مصير عجز فرناند عن استيعابه. تتم مأخوذاً ومصعوقاً وقد عجز عن كبح ارتعاشه:
- "م محال!، محال! إنه ليس أخي!".
- قال تشارلز متحسراً وقد أرخى ذراعيه منهكاً الحديث قد استهلك كل طاقته: "لدي رغبة عظيمة في أن أنكر ذلك أنا أيضاً، يا فرناند".

الفصل الرابع والعشرون

بين الانهيار والحقيقة المرة، اعترف فرناند خانغا ومرعوبًا من حجم الحقيقة لقد وقف عاجزًا أمام وشم الطائر وامام حقيقة الرجل الذي كشف جريمتهم... لم يعد هناك من مهرب حافة الجرف هي ما بقية والذكرى تأبى الانزياح. بعد تعافي جراحه تم أخذه برفقة ثلاثة من العساكر إلى المحكمة لإصدار القرار في حقه... نظرًا إلى ملفه الممتلئ حكم عليه بالإعدام شنقًا حتى الموت، والسجن مدى الحياة لصالح فالانتين فيليس لضلوعها في مؤامرة قتل الكونت، ولكونها عضو في الكاردينال. وأمام بقية من تم اعتقالهم من رجال الكارد حكم عليهم بسنوات متفاوتة على حسب ما اقترفوه من انتهاكات.

كان تشارلز حاضرًا لتفاصيل المحكمة. يقف في نهاية القاعة يراقب بحسرة في صمت، في حين ذكرياته كانت قاضيًا أقصى من ذلك الأدمي، بدأت تستعرض له كل لحظاته السعيدة التي قضاها في ذلك الدير برفقة خمسة أصدقاء الذين غمروا الجزء المظلم من روحه بالضيء. تذكر كيف كانوا يتسللون في منتصف الليل هاربين من غرفهم ليركضوا في أروقة الدير حاسبين لضحكاتهم... تلك اللحظات التي تشمل الخوف ورعشة الحماسة والجموح في مغامراتهم الصغيرة... هناك ذكرى لم يحمها تشارلز رغم مرور كل هذه السنوات أيضًا... عندما اجتمعوا جميعًا ليجلسوا على سقيفة الدير يراقبون صرح سماء أيلول المزرققة ينشق خندق عظيم في وسط السماء به الملايين من النجوم البارقة. ثم اجتاحت ذكرى مظلمة والتي حولت مسار حياته كليًا وفصلته عنهم... عند حافة الجرف والأمطار تهل بغزارة، البرق يلمع بصخب في رحم الغيوم الرمادية الهائلة كأنه زئير وحش يستتر خلفها! الوحيد الذي كان يقف عند حافة الجرف يحرق بقنوط تام مستعدًا لتقديم أي شيء مقابل التخلص من قيود الدير... كان ذلك الفتى هو دانييل هاربر أو كما رمز لنفسه، هاري. تذكر تشارلز حديثهم في ذلك اليوم المشؤوم

- "دان، هذا يكفي علينا الرجوع!" صاح ريتش وقتها والبلل يغشاه من أعلى رأسه إلى أخمص قدميه. الجميع كانوا يقفون ويراقبوه، أحس تشارلز أن دانييل يأسٌ لدرجة خطيرة... التفت للوراء ليرى خيالات أشخاص يحملون سراجًا مضيئًا لكن هيئاتهم لم تكون واضحة بسبب الريح القوية التي تذر المطر في عينيه والليل الدامس يطمس هيئاتهم، صوت الأمواج الهادرة

تضرب بقسوة حواف الجرف إلى الحد الذي جعله يشعر بزلزال أسفل قدميه. أمسك تشارلز يد دان ليسحبه قائلاً: "هيا تراجع سوف نعود!".

سحب دانييل يده بقوة وانفعل غاضباً: "مستحيل! لن أرجع إلى ذلك المكان العفن!".

- "وماذا ستفعل إذن؟". زعق في وجهه ثائراً هو الآخر ثم ظل يراقبه رأي كيف سُلبت عينيه من قبل البحر وكأنه سُجّر فقال متوجساً: "دان... لا تمهروا!".

غمغم دانييل واليأس يتغلغل إلى أعماق نقطة في روحه: "أفضل رمي نفسي في البحر عوضاً عن الرجوع إلى هناك" التفت نحوهم عازماً وأضاف: "إذا رغبتم بالعودة يمكنكم فعل ذلك... لكنني لن أرجع".

تقدم خطوة واحدة ليصبح على حافته تماماً، وقبل أن يتهور تمسك تشارلز بساعده وأغمض عينيه يترجاه بكل ما ملك من صوت لعله يستفيق من يأسه: "أتوسل إليك توقف عن هذه الحماقة!" وعندما فتح عينيه وجد فرناند يقف عن يمين شقيقه مما جعله يجفل مصدوماً: "ماذا تفعل أنت الآخر؟".

- "المسألة منهية. إن عدنا لن نرى بعضنا أبداً يا تشارلز. في كلتا الحالتين لم أكن أنتظر من الحياة شيئاً وأنا لن أترك هذا الغبي يموت وحده". قال فان بكآبة وصوت متعب بينما يحدق إلى الأسفل كشقيقه.

- "لقد اقتربوا!" صرخت ماري مرتعدةً حينما رأت بضعة رجال يظهر من وسط الظلام، حسم القرار حينما تقدم ريتش وقال رغم أن قدميه ترتجفان خوفاً: "اللعنة! لننهي هذه المسألة إن متنا يكون أرحم... على الأقل سنموت معاً!".

- "أيها الحمقى المجانين!" صاح تشارلز غاضباً وحينما رأى أن فالانتين وماري كذلك عزمنا على المضي في هذه المخاطرة شعر بالخوف من تركهم بكى يتوسلهم بصوت مبحوح: "يا أغبياء لا محال سوف نهلك! هل تظنون أن معجزة سوف تحميننا!".

أجابه دان بابتسامة جميلة بينما المطر يغسل وجهه: "لن نعرف حتى نجرب. والآن قرر تشارلز إنهم يقتربون".

اندفعت فالانتين وأمسكت يمينه لتسحبه وتحثه بابتسامة فقده معنى الخوف: "سوف أمسك بك لا تخف!".

بينما قبض دان على يده اليسرى بإحكام، وقال: "تشارلز إذا متنا سوف تتمكن من رؤية أمك!". تلك العبارة التي لفظها دانييل قبل أن يسحبه ليسقطوا جميعاً ربما هي التي شجعتة ليقوم بذلك الفعل الانتحاري... آخر شيء شعر به تشارلز كانت يد فالانتين التي أمسكته بقوة كأنها تفي بوعدها. لكنه لم يرى أمه... ولم يرى بعد ذلك أيًا من رفاقه.

حالما انتهت المحاكمة استيقظ تشارلز من أحلام اليقظة ليرى العساكر الباسرين وهم يسوقونهما إلى العربة المصفحة. طمع بنظرة من رفيقه، لكن ذلك جسد بلا روح يتم تحريكه، ما زال في صدمة أخلت بعقله وقلبه. التقت عينيه ببحر فيروزي كاد يبتلع روحه لو لم يدرك على نفسه، تلك العيون الفاتنة التي انسلت إلى أعماق قلبه منذ أن كان صبيًا، عشقه الأليم! يراقبها وهي تأخذ بعيدًا، في السابق فصلت أمواج القدر أيدهما، والآن جدارٌ بشريٌّ صلب يفصل أي أملٍ لعودة ذلك الحب النقي مجددًا، كما لو أنه كتب عليه الموت قبل أن يحيا. لن يكن الوحيد الذي حضر ليرى آخر لحظات حياة حبه. وقفت الكونتيسة أمام فرناند وعطلت سير العساكر بحالة يرثى لها، وجهها أصفر وجفونها تصرخ بالألم من حرارة الدموع. صاحت عليه بغضب ومرارة:

- "لماذا فعلت ذلك؟ ... لماذا؟... لقد أحببتك!... أكثر من أي شيء... لقد عشقتك ووهبتك أعلى ما أملك!... أيها الشقي التعس، ليو!".

من رد ليس ليونارد بل فرناند، فكان لوقع صوته الفاتر وعينيه الخاليتان من أي عواطف تجسيدٍ لحقيقة روحه الكئيبة وسقوط لقناع الزيف:

- "لكنك كنت بلهاء بما يكفي لتظن أنني قادرٌ على إعطائك ما يسمى حب... إنه ليس موجود! تذكر عائلتك وستقتنعين".

جفلت مصدومة من رده ثم أغمضت عينها وسالت دموع الحسرة على خديها لتشعلهما حمرة كالدّم، انهارت على ركبتيها وعلى مرئى من تشارلز الذي أشفق عليها وكل من حضر المحاكمة. حاولت السيدة إغاردن مواساتها وجعلها تهض، وساعدها في ذلك إريك وخطيبته أيضا. قبل ولوج فالانتين إلى العربة، توقفت قليلاً فقال لها العسكري بصوت جلف: "لما توقفت؟"

أردفت غير مكترثة لأمره: "أريد القيام بشيءٍ أخير".

التفتت للخلف ورمقت تشارلز ثم ابتسمت ونادت عليه بصوت ناعم عذب: "غرينو" ثم قامت بإخراج سلسلة القلادة. حينما رأى العسكريان أنها تدخل يديها بتلك الطريقة الغريبة وكأنها تريد إخراج شيء من تحت ثيابها تأهباً باحتراز وأمسك كلُّ منهما بسلاحه. ضحكت ساخرة وقالت: "لن أخرج زوبعة!".

قامت بخلع القلادة، تقدمت خطوتين ووضعتها على راحة يسار تشارلز قائلة: "لم أعد أستحقها".

صدم عندما رأى تلك القلادة... لقد كانت تذكاًراً خاصاً يعود لأمه وهو قد منحها لها، تأملها لفترة ثم رفع بصره لفالانتين، شعرها الأحمر ووجهها الجميل الشاب الذي صقل بقسوة الحياة، أراد النظر لها طويلاً لبسمتها الرقيقة الدافئة، إنها بسمة الطفلة التي يذكرها لا تزال حية بداخل روحها، لعينها... لكن الواقع لم يمنحه سوى دقائق، عجز فيها عن قول أي شيء، إن عينيه كفيلتين بترجمة كل ما عجز عن قوله لقد حملتا الكثير من المشاعر المحمومة.

وفي الشارع المقابل لبناية المحكمة العليا، داخل زقاق بين مبنيين متجاورين ويكادان يلوحان لناظر أنهما ملتصقين لولا الزقاق المظلم المنشق بينهما. كان يقف هناك يراقب عملية نقل السجناء إلى العربة، المريب أنه يرتدي بزة ضابط عسكري ويغطي رأسه بالقبعة الزرقاء، عينيه المفجوعتان لم تفارقا فالانتين لحظة واحدة وعندما رآها تضع السلسال بين يدي تشارلز، لاحت تعابير وجهه غامضة على نحوٍ مخيفٍ جداً! اتسع امتداد جفنيه كما لو كانت مقلتيه تنتزعان، ارتقت حواجبه مرتفعة للأعلى تكاد تلامس فروة رأسه، فاعراً يحملق وهو يضع يده اليمنى على أضلاعه.. اعتصر قبضة يمينه وهو يتمتم من بين أسنانه المصطكة بحدة: "غرينو!"

بعد أن صعدت فالانتين إلى العربة وجلست، همست بصوت رقيق: "تشارلز، ما زلت أحبك!" كأنها قصدت قول ذلك حتى تبقى نفسها محفورة في ذاكرته أمد الدهر.

عادت الكونتيسة إلى قصر زوجها، كانت تسير بين راشيل والسيدة إغاردن وهي أقرب لجسد لفظ روحه. ظلت حبيسة غرفتها تبكي ولا تعرف سبيلاً لإراحة نفسها غير البكاء. بالنسبة لإريك

الذي إستلم منصبه ليغدو الكونت أوليغرس، كان كمن نام واستفاق ليجد العالم تغير... وربما هو أيضا تغير.

دخل إلى مكتب شقيقه وقبلها كان لوالده، رائحة المعقمات الخاصة بدانييل لا تزال تجوب المكتب، وهناك العديد من النباتات تفوح بعبقٍ أخاذ مختلطة مع زهور الخزامى. الجدران تعطي طابع كالخشب المحمر، كما زينت بلوحات زيتية بدبغة ولوحة واحدة كبيرة اختصت جدران كامل خلف طاولة المكتب، تجمع الكونت جوزيف بزوجته الشابة وابنه وكذلك دانييل. ابتسم إريك حينما رآها وأحس بالحنين يجتاح صدره فقال:

"لقد كان دانييل بحق أكثر وفاءً وصدقًا مني!".

ثم مرر أصابعه على طرف الطاولة العريضة من الخشب السنديان الاصفر، لها أرجل رفيعة منحنية. جلس على المقعد المبطن بطبقة جلدية أصلية، أراح ظهره ثم تنهد وهو ينغمس بجلوسه وأغمض عينيه. لقد حصل على ما يريد في النهاية، ومع ذلك لا يبدو مرتاحًا. فتح عينيه ثم انتبه على طرف ورقة بارزة داخل غلاف جلدي لحفظ الأوراق. فتح طرف الغلاف الأزرق، ليجد ظرف، أخذه وعاد يرمي بظهره لظهر المقعد، قلب الظرف وقرأ الحروف المكتوبة بخط لاتق جميل، الحروف الكبيرة مائلة بحرفية تدل على مهارة ودقة صاحبها:

- (إلى صديق القديم، تشارلز فرانك غرنالد)

قطب حاجبيه باستغراب، ثم فتح الظرف برفق وأخرج الرسالة. بدأ بقراءتها وكلما مر على سطر وقرأ ما دونه دانييل وطمح لإرسال هذه الرسالة إلى رفيقه تفاقم الأسمى على ملامحه فالوقت لم يُمنح لهاري، وجرح قلبه المثقل بعشق لم يكتب له شغله حتى عن نفسه.

حاول تشارلز تخطي كل ما حدث لكن عقله يستمر في تعذيبه بكل تلك الذكريات المتدفقة عن رفاقه. كان مستلقي في سريره محطاً بغطاء من الصوف الثقيل وغطاء سميك من الكأبة والإحباط.

تمنى لو أنه يفقد القدرة على التذكر، عوضًا عن ذلك... فقد ظلت الذكريات تتدفق بقوة معاندة له. تلك الأوقات الجميلة في البراري خلف الدير، حينما يتم تحريرهم من مراقبة

الكبار، اللهب وركض واللعب حتى السقوط تأزم من كل تلك السعادة المحبوسة خلف قضبان الماضي!

ومضت لحظة اجتماع تشارلز بالكونت لأول مرة في عيد ميلاد الكونتيسة، مصافحتهما وحديثهما المقتضب، أشتعل الغضب في داخله لأنه عجز عن التعرف عليه وقتها وكم رغب في قتل نفسه لأنه كذب ولم يقل اسم والده فتمتم متحسراً: "كرهك... كرهك! بسبب كرهك له خسرت كل شيء أيها الأحمق!".

وقتئذٍ أنهى المفتش جون أعماله المكتبية ليختم هذا اليوم الطويل الشاق. وقف وحمل قبعته، لكن قبل أن يرتديها فتح باب مكتبه عنوة بطريقة مندفعة أجفلته ثم سمع صيحة سكود: "سيادة المفتش! لقد هرب إلياس من المشفى".

"ماذا!!"

بعد نصف ساعة. وصل المفتش مع سكود وثلاثة من رجال الشرطة إلى المشفى العمومي حيث وضع إلياس بنجلي ليتم معالجته تحت مراقبة ضابطٍ عسكري. حالما دخل إلى الطابق الثاني وجد العديد من رجال الشرطة منتشرين في القسم، قاده أحدهم إلى الغرفة وحالما دخل فجعل برؤية جثمان العسكري فوق نقالة يتم حمله من قبل ممرضين ما أثار تعجبه الشديد هو أن الرجل لم يكن يرتدي زيه الرسمي بل قميص المشفى وعلى رقبته جرحٌ غائر متعفن تقريبا وقد تخثر الدم وجف على امتداد كتفه الأيسر. تقدم خطوة تاركًا المجال لأجل خروجهم، ثم ألقى نظرة على السرير الملطخ بالدم وهناك قطع زجاجٍ محطمة متناثرة فوق الملائنة والاصفاد الحديدية فوقها بالإضافة إلى المفتاح.

تمت المفتش بعد تهيدة ارخت منكبيه: "يبدو أننا سنبدأ عملية ملاحقةٍ جديدة!".

بعد ثلاثة أيام، جاءت فلورا لزيارة تشارلز بعد أن علمت بكل ما جرى فالعناوين الأولى في الصحف تحمل خبر الجريمة وصارت كالمطر تقطر في كل مكان. تركته على الأريكة ودخلت لتعد له شيئاً يشربه فأثار الإرهاق النفسي تعتلي ملامحه، هلاله سوداء ووجه مصفر تعيس كأن البؤس يمتص طاقة روحه.

- وضعت القهوة على المنضدة وجلست لجواره. قيدها التوتر واحتارت كيف تخفف عنه.
- "أسف" قال تشارلز بنبرة ضعيفة.
- استغربت أسفه المفاجئ فقالت بارتباك: "هاه، علام؟".
- مدًا ابتسامة ذابلة وأجاب: "على ما فعلته بالشقة، أسف لأنني لم أشكرك على تنظيفها".
- أردفت بصوت حاني: "لا، لا داعي للشكر"
- صمتت لوهلة ولاح التوتر على ملامحها الطيبة، رمقته بحيرة فلم تعلم أي الطرق يمكن أن تختصر حديث الماضي الطويل. تمهدت وتطلعت إلى أصابعها فوق حجرها لتقول بصوت متقطع:
- "تلك القضية... أعني... التي كنت مهتمًا بها... أعتقد أنها أثرت عليك... إنها تخصك بشكل ما، أشعر أنها تركت أثرًا بالغًا فيك... إنها ليست كباقي القضايا".
- اوماً برأسه مصدقًا على حديثها. بينما مالت عينيه للوشم الذي على رسغه، رقت وجهها بابتسامة طفيفة قائلة: "إنه جميل!".
- أنزل بصره إلى الطائر، تأمله هنهة ثم حرر نفسًا محمومًا متأسي على هذا الوشم الملعون، كأنه أقسم أن يحمل في جعبته كل الماضي ليصبح النسيان محال:
- "كاردينال".
- "ماذا؟".
- "إنه نوع من الطيور، الكاردينال. كان دانييل مولعًا بقصة قرأها حينما كنا في الدير، عن طائرٍ أحمر فقد القدرة على الطيران، ولكنه سعى بكل ما يملك حتى يرجع ما سلب منه ليطير مجددًا... كلما كان ينهي القصة يعود لقراءتها بحماس كأنه لم يقرأها من قبل". ابتسم بحسرة وهو يتذكر، ثم أضاف قائلاً: "حضرت حفله كان أمامي... هو عرفني وأنا ظننته غريب الأطوار؟".
- استطردت فلورا بهمس رقيق حنون: "تشارلز أظن أن عليك الخروج من الشقة، هذا الوضع المكتئب سيجعلك تمرض".
- "إلى أين أذهب؟". سألتها بنبرة فاترة: "أنا واثق أن قدمي لن تقودني إلا إلى قبورهم".

- "تشارلز!" غمغمة فلورا متأثرة بحزنه، وقد ترددت هل تربت على ظهره أم تحافظ على المسافة بينهما!
- فُرع باب الشقة، فنهضت لفتح الباب، عندما فتحته وجدت أمامها شابًا طويلًا يرتدي بذلة كحلية أنيقة وقرطُ بسلسال أسود يزين أذنه اليمنى.
- "مرحبًا، أليست هذه شقة، السيد غرنالد؟".
- أومأت مجيبة: "نعم، إنها كذلك".
- ابتسم الزائر ولاح مرتبكً قليلاً: "اممم... أنا إريك، إريك أوليغرس".
- "هاه... عذراً لم أتعرف عليك". أردفت فلورا متلعثمة.
- "لا بأس. أحمل رسالة لسيد غرنالد، أود أن أقدمها له".
- "بتأكيد تفضل".
- دخل الاثنان معًا. قالت فلورا بعد ذلك: "تشارلز، لديك زائر".
- التفت تشارلز ليساره ثم أومأ بشكل كامل بقصد ترحيب به.
- "سوف أعد القهوة لك، تفضل". أشارت نحو المقعد المقابل لتشارلز مبتسمة.
- "شكرًا".
- جلس إريك، ثم تنحنح وهو يفرك يديه ببعضهما قائلاً بشيء من الخجل الذي جعله يبدو رجلاً محترم: "متأسف لأنني جئت بدون موعدٍ مسبق!".
- هز تشارلز رأسه ليؤكد له من عدم وجود أي ازعاج لمجيئته.
- "أحمل شيئاً لك" قال إريك وهو يدخل يده في جيب صدرته الكحلية. أخرج الظرف وتابع:
- "هذه الرسالة، أظن أن دانييل أراد إرسالها لك. لذا... أثرت إحصارها".
- نظر تشارلز باهتمام لها، مد يده وأخذها، ثم فتحها وقرأ الرسالة التي حملت بين طياتها حروف تحتوي مشاعر هاري.
- (إلى صديقي العزيز، غرينو. ستفاجئ ولكن هذه الرسالة مني، أنا الكونت دانييل أوليغرس. حاولت إلى الان كتابة رسالة لائقة، لكنني فشلت ما يزيد عن العشر مرات. لم أكن أتوقع أن كتابة رسالة لصديقي قديم ستكون صعبة لهذه الدرجة، أردت أن أوضح كل نقطة لك حتى لا تصدم كما صدمت أنا، لكنني عجزت عن احتواء كل شيء).

عندما رأيتك في الحفل ظننت أنني واهم وأن الاسم الذي سمعته ليس إلا شبهةً لذلك الصديق الذي اعتقدت أنه فارق الحياة منذ زمن. كما أنني عاتبٌ عليك! أعرف مقدار كرهك لوالدك... ولكن كان عليك اطلاعي على الأقل باسمك الصحيح وليس تحريفه. ما تزال طفوليًا فيما يتعلق بوالدك وكم اضحكني هذا كثيرًا. تعلم كيف تتخلص من أحقاد الماضي يا صديقي.

لقد سألت عنك، علمت الكثير عن حياتك وعن معاناتك، شعرت بالمرارة لأن ذات المدينة كانت تجمعنا، ومع ذلك لم أعرف أنك حي. عندما أنقذني الكونت جوزيف، أخبرني أنني الوحيد الذي تمكن من العثور عليه. لقد صعقت وقمها وانهرت بالكامل! كنت مصممًا على البحث، عن أخي فان وفيرا وولي وريتش... وعنك يا غرينو! لم أستطع التصديق ورغبة بالموت، لكن الدفاء الذي رأيته من الكونت جوزيف وزوجته - لا أنكر أنني لم أتقبله في البداية - أنا لم أنشأ على مثل ذلك الحنان، ولم أعرف مطلقًا ماذا تعني كلمة -أب أو أم- لكن جزءٌ مني كان يخضع ويستسلم لهذه الحياة الرغيدة التي أغدقاني بها، أعترف لقد فتنتني، لم أتخيل في حياتي كلها أنني سوف أعامل بطريقة حسنة، أو أن يجعلني أحدهم بمثابة ابنٍ له، لقد ضعفت! لا أعلم كيف جعلت من نفسي تنساق! كيف جعلتها تقتنع بكل ما قاله الناس من حولي، كانت عواطفني ولأول مرة تقودني في رغبة لنسيان الماضي المروع، أشعر بتأنيب الضمير لأنني لم أستمع لعقلي ولأنني نسيته ونسيت إخوتي، أعترف أن الرغبة لأجل البقاء في قصر فاره قد استحوذت علي بالكامل لذا...

سامحي يا رفيقي، سامحي!

عندما قرأ هذه الرسالة أرجو أن تأتي وتقابلني في نفس المكان. عند الجرف الذي قررت أقدارنا أن تنفصل فيه.

أريد أن أبحث عن إخوتي الباقين... عن الكاردينال الأحمر.

المرسل: دانيل إيمانويل هاربر. -هاري-

انقلبت عينا تشارلز لبحيرة تتلألأ بضوء الدموع الحارقة، أنزل الورقة وأغلق عينيه ليمسد جفنيه ويحاول كبح تلك الدموع العنيدة.

ارتبك إريك وراح يفرك يديه ببعضهما مجددًا، لقد تأثر هو أيضًا لنهاية روابطهم بتلك الطريقة المأساوية. تنهد وقال تعزية له: "كان... كان دانييل ذكيًا ومفعماً بالنشاط، لم يكن يقوم بفعل أي شيء يثير غضب الآخرين عليه... لذا كنت أشعر بالغيرة منه وانعته باللقيط حتى أجرحه. أعترف أنني كنت مخلوقًا فضليًا! الحياة لم تمنحه فرصة وحينما منحته، كان المستقبل قاسي. أنا أسف!".

بقبت فلورا عمدًا في المطبخ تستمع وتراقبهما. إن العينان مرآة صافية تعكس المشاعر المخبئة داخل القلب، وما كانت تعكسه عينها هو تضامنٌ وحزنٌ مرير على ما يمر به تشارلز... في جزء منها... هي كانت فعلا مغرمة به وكارهة لذلك الماضي الذي جعله مهيارًا كهذا.

خرج تشارلز من شقته في اليوم التالي، لاح كمن يزحف ليخرج من دائرة الاكتئاب. حياه السيد هيرل بابتسامة بشوشة نضرة، فرد عليه وحاول أن يكون منشرحًا فيها. اتجه إلى القصر تحديدًا إلى كنيسة ليريان حيث دفن دانييل في القسم الخاص بأل أوليغرس. ابتسم وهو يقف أمام شاهدة قبره:

"هاري، كيف حالك؟ ما الذي أقوله؟" قهقه ساخرا من نفسه ثم جلس على أمشاط قدميه وبدأ يتكلم بصوت عميق متحسر: "لا أعلم هل القدر كان ظالمًا... أم أن اختياراتنا هي التي أدت إلى هذا المصير؟ ... لم أتخيل أن يأتي يوم كهذا أبدًا... لم أتخيل سيناريو بشع كهذا السيناريو في حياتي! أن تموت هكذا بكل بساطة... أن يعاني كلُّ من ريتش وفيرا وفان... أشعر أنني سببٌ في قتلك أيضًا! لولم أكذب في ذلك الوقت، تلك الكراهية العمياء اللعينة... يا إلهي أي أحمقٍ أنا!" عجز عن متابعة الكلام بسبب تلك الشهقات المحمومة التي تنذر بغمامة دموعٍ ستهمر. أخذ نفسًا عميقًا عاقبه بزفير نفخ خديه وصحح مسار نفسه. ليعاود الحديث: "لو أن الموت بيدي... لكنك معك الان!"

صمت برهة قبل أن يكمل والمرارة تهز أوتار صوته، قام بخلع قلادة الوردة الحمراء ووضعها على راحة يمينه قائلاً:

"فيرا!" همس بصوتٍ خفيض يحمل حسرة مشفقة.

كم الحب مرهق على من لا يتحملة. استنشق بعمق ثم زفر حتى يرخي سخونة قلبه، وقد أحمر وجهه. لعق شفثيه ثم تذكر شخص بقي لفترة كظل مستتر:

"لي، لي! هي الوحيدة التي لم أعرف عنها شيء".
اجتاح صدره إخطارٌ سريع فرفع رأسه يفكر مرتابًا: "ألم تنجو ماري؟".

الغسق التهب في آفاق السماء وتشققت الغيوم الرمادية في الأنحاء كأنها تفر من شعاعه القرمزي الساطع... وقتئذ وفي مقبرة (السلام) عند نهاية حي لينهاستنغ. كانت ماري -أو كاترين- تودع زوجها، لم يكن على قبره شاهدة لاثقة، وضعت علامة الصليب من الخشب. قامت لي بالنقش على الجانب الأيمن من الصليب (الكاردينال الأحمر، حر) عينها الجميلتان تشبعتا بدموع وهي تقول:

"ريتش، لن أرتاح حتى أعرف سبب موتك! لن أرتاح حتى أعرف ما الذي أخفيته عني".

"لما مات أبي؟".

التفت ماري عند سماع ذلك الصوت الرقيق الحزين، دفنت ألمها لتنبت بسمة قوية على ملامحها الضعيفة المنمشة، مسحت على رأس ابنتها بحنان. حاربت الصغير لكبح دموعها، وأحمر خديها الممتلئان وانتفخ وجهها.

اشفقت ماري من سؤالها وترقق الدمع في عينها، احتضنتها ولم تجب بشيء.

وكان لويس يحدق بنظرات مهمة في شاهدة قبر ريتشارد ستيوارت.

تحدثت سكارليت الواقفة عن يمين الصبي: "ماري، سوف نتأخر على القطار العم جاليليو ينتظرنا. هيا علينا الذهاب".

لم تتوقف زيارة تشارلز عند قبر دانييل فقط، بل اتجه إلى المقبرة التي دفن فيها جثمان ريتشارد.

صعد أربعة درجات حجرية في المدخل الجنوبي ثم سلك الممر المرصوف ببلاط حجري والمنشق في وسط المقبرة، وغطاء من الثلج الكثيف تربع على عرش القبور وتغلغل في تربة الحديقة

الشرقية المنضمة داخل أسوار المقبرة. عند مفترق طرق، سلك الدرب الأيمن ثم درب فرعي إلى اليسار، تجاوز ستة مقابر لها شواهد من الرخام حتى وصل إلى قبر ريتش. وقف أمامه، ازدرد ريقه وهو يتأمل تراب قبره الحديث، جلس على امشاط قدميه، ثم شهق بعمق وتلاه زفير الحسرة وهو يقول بابتسامة ضئيلة:

- "آه يا ريتش! أخترت أقصر الطرق وأكثرها سهولة كالعادة". تنهد بعينين مغمضتين، عند فتحهما لمح على الجانب الأيمن من الصليب نقش (الكاردينال الأحمر، حراً!) قطب حاجبيه ثم انتفض واقفًا حالما أدرك أن هنالك شخص قام بنقشها، شخص آخر ما يزال متواجداً... ربما ماري! هذا ما بدر إلى ذهنه، تلفت حوالياً بشتات يحاول إيجادها، لكن كل ما رآه قبور صامتة وأشجار عارية دثرتبغطاءً ثلجي.

بحث سريع في أرجاء المقبرة أطلق عينيه بشتات وهو ينادي بصوت عالي:

- "لبي، لبي!... ماري، ماري!".

لكن ماري حينها كانت قد غادرت بصحبة الولدان ورفيقتها، غادرت قبل وقت وجيز من مجيئه، عن طريق المخرج الشرقي للمقبرة.

لمح تشارلز امرأتين واحدة منهما شقراء وطفلان، من خلال أغصان الشجيرات الجرداء التي تنمو فوق منحدر على طول الشرق، كان واقفًا يمسك السياج بكتلا يديه ولاح منفعلاً، إلا أنها لمحة سريعة، رآهم يسلكون شارعًا بين مبنيين من الطوب الأحمر، ثم انعطفوا يسارًا.

ترك موقعه وعاد راكضًا من ذلك الممر المرصوف ثم التف ليساره حتى ينزل من الدرجات الشرقية. لم يكن متأكدًا لكنه ركض مسرعًا، حتى وإن كان سراب سوف يختفي في نهاية الطريق أراد رؤيتها فقط... رؤية الجزء الوحيد المتبقي من ماضيه.

توقفت ماري أمام سيارة أجرة. فتحت الباب ثم حملت ابنتها لتساعدها على الصعود وبعدها لويس ليليه صعود سكارليت وماري، بينما تكفل السائق بوضع الامتعة فوق السيارة بعدها صعد وشغل المحرك لينطلق.

في تلك اللحظة حاول تشارلز الركض بأقصى سرعة ممكنة ليقطع الشارع الطويل، ثم انعطف ليساره ليري سيارة أجرة، لهث بشدة جراء ما قاساه في الركض حتى يصل، لكنه وقف يحدق بتلك السيارة وهي تبتعد

وقف باستقامة وشهق شهقة كبيرة ثم قال حائراً من بين شهقاته: "هل كانت هي؟".

بعد نصف ساعة وصلت السيارة إلى محطة ليورنيا الجنوبية. نزل الجميع وقام السائق بإنزال الحقائب ثم أغلق باب سيارته وغادر. كان القطار يستقبل ركابه وصوت الضوضاء يختلط بصوت محركات القطار والجو مكتوم برائحة دخان الفحم المتصاعد من مدخنة القطار.

وصلت ماري إلى القطار حيث على مقربة منه كان العم جاليليو واقفاً يرتدي معطفاً بني داكناً طويل وقبعة دائرية. كان حريصاً لعدم لفت الانتباه.

- "عم جاليليو!" ركضت سارا نحوه وعانقته بذراعيها. ابتسم الرجل بارتياح وأخذها ليحملها بين يديه، ثم نظر لأمرها مرحباً: "أهلا يا بنتي!".

- "اعذرنني على التأخر".

- "لا عليك".

قام العم بتوصيل الأمتعة إلى المقطورة، ثم وقفت ماري تودع صديقتها المقربة والحزن يملئ صوتهما: "سكارليت، شكراً لك... لا أعرف كيف أرد لك جميلك هذا".

- "لا تشكريني، لم أفعل شيئاً يستحق الشكر. لقد أوصاني إلياس بأن أتأكد من وصولك إلى اسغراس، لذا عندما تصلين إلى هناك راسليني. اتفقنا؟".

- "بتأكيد. اعتني بنفسك" صممت قليلاً ثم اضافت وهي تنظر للأرض وفي داخلها امتعاض تترجمه عينها: "أخبري إلياس بأنني سوف انتظره... أخبريه بأنني لن أهدأ حتى أعرف... لماذا مات ريتش؟ وكيف انهار الكاردينال الأحمر؟".

انطلق صوت صفارة ينذر بقرب تحرك القطار. أغلقت ماري باب المقصورة ثم جلست بجوار ابنتها التي وضعت رأسها على صدر أمها مكتئبة وضيء عينها العسليتان انطفئ. سألتها:

- "إلى أين سوف نذهب أمي؟".

طوقتها بذراعيها ومسحت بحنان على شعرها الأسود الداكن ثم أجابت: "إلى مكان جميل".

ثم رمقت لويس الذي يجلس بقرب العم بنظرة مشفقة متأسية ليس هي وحدها فقد ربت العم على رأسه بحنان، لقد جلس بصمت يتكى على عتبة النافذة بمرفقه الأيمن. ابتسمت بعطف

له فحاول أن يبادلها الابتسامة لكنه فشل. وضع ساعده الأخرى فوق العتبة واسند ذقنه عليهما، لينقطع عن كل ما حوله ويشرد في التحديق من النافذة.

**

عاد تشارلز إلى شقته، أغلق الباب ولاح مرهقاً شاحباً. دخل إلى غرفته، نزع معطفه ورماه أرضاً، ثم أرخ ربطة عنقه وفتح زران من قميصه، سقط على السرير وتهد كأنه يستخرج كل ما عاشه في تلك الأسابيع الماضية حتى يشعر بالراحة. أغمض عينيه وقيل أن يغفو تذكر ملامح فرناند حينما كانوا يسقوناه إلى العربة بعد المحاكمة:

- "فرناند.... هل علي زيارته؟".

قبل أن يدخل في مرحلة تغييب الوعي تمتم بدون أن يشعر "فالانتين!" ثم أغلق عينيه وغفى... حينما أوشك كل حواسه أن تتخدر، اخترق أذنيه صوت قرع الباب. فتح عينيه متكاسلاً وزفر بتعب، ثم تحامل على نفسه المتدمرة لينهض. اتجه للباب وفتحه ليجد فلورا أمامه. وقفت تلك تتأمل حاله بعينين مجفلتين، كان بحق مرهقاً ومحمر الجفون، القميص طرفه خارج بنطاله وزران من الأعلى مفتوحان يظهران عنقه، وكذلك أكمامه مفتوحة والوشم يظهر بوضوح، وخصاله الشعثاء.

- "اممم، هل جئت في وقتٍ غير مناسب؟" قالت فلورا والخجل كس وجهها.

مسد جبينه وجاهد لتلطيف ملامحه بابتسامة متفهمة:

- "لا، كلا! ... لقد كنت فقط أوشك على النوم".

بين يديها حافظة طعام تطلعت إليها أثناء قولها: "لقد طهوت هذا. كنت أعلم أنك لن تقوى على فعل شيء امممم...".

- "شكراً".

- "لا، لا بأس. صحيح لقد جاءت والدتك وشقيقتك ولكنك لم تكن موجوداً. كانت والدتك قلقة عليك".

- "فعلا يا إلهي!". زفر وهو يحك رأسه، لاحظت فلورا أن وجوب تركه الآن سيكون أفضل من الثثرة، فقالت: "سأترك هذا في المطبخ وأعادر. لا بأس؟".

اوماً وهو يفسح المجال لها.

دخلت ووضعت الحافظة في المطبخ. وعندما خرجت رآته جالسًا على الأريكة ويبدو شاردًا. ارتبكت وشبكت أصابعها التفت يمنة ويسرى، هنا وهناك كأنها تبحث عن كلمات مخبأة. أخيرًا بعد جهد وحث قالت: "أممممممم. حسنا سوف أذهب. لا تنس أن تأكل أصبحت هزيلًا في المدة الأخيرة وهذا ليس جيدًا. اتفقنا؟".

استفاق من شروده وتطلع إليها ثم جلس باستقامة ولين ملامحه بابتسامة طفيفة: "فلورا، أيمكن أن تبقي قليلا؟".

"هاه ط طبعًا". اتجهت نحوه وجلست مقابله على الأريكة. لاحت مغتبطة لأنه طلب منها البقاء.

بعد صمت قصير قال لها: "مر الأسبوع... بل أكثر بكثير... اعترف أنني كنت جبان وتهربت". اندفعت فلورا مقاطعة كلامه: "لا، لا! أعني... أنا أعلم ما تمر به وبتأكيد لن آتي لتحدث في هذا الأمر وأنت تمر بأيام عصبية". جاهدت لإخفاء احباطها وخجلها لأنه ظن أن قدمها إلى هنا كان لغرض أناني كتحدث عن رغبته بسماع جوابه.

ابتسم تشارلز متفهمًا: "أنت تعلمين أن السيد جوناثان ليس والدي... أنا لا أملك عائلة. هل تعلم والدك بأني يتيم؟".

أخفضت بصرها، لم تجبه بسرعة إذ لاحت متزعجة مما قاله ثم اتصلت عينها بخاصته يهبط الصمت لكن المشاعر تُقرأ في عينها. قالت بصوت هادئ يغلب عليه الهمس: "تشارلز، لا أظن أن أبي سوف يرفض شاب قاس ظلمة الحياة ومع ذلك ظل واقفًا على قدميه، ليس هنالك عاقل يرفض شابًا مثلك... بالنسبة لي أنا لست أبالي... لا أبالي إلا بك" لم تقوى على قولها إلا بعد أن اخفضت بصرها عنه خجلًا وحياءً.

في حين لم يخفض تشارلز بصره عنها، بدا ساكنًا بشكل مريب، ثم ما لبث أن قال محتارًا: "لا أفهم كيف لك أن تنجذب لشخص كئيب مثلي؟".

كلامه جذبها لترفع رأسها بسرعة، تأملت وجهه الذي ورغم الإرهاق كان جميلًا ولم تحب جمال ملامحه أكثر من روحه. ثم نهضت وجلست بجواره.

التفت إلى جانبها ليرى في عينها عطفًا فاض دفنًا وغرامًا. تهتدت وهمست بينما وضعت يديها على يده: "أه يا تشارلز! كيف تنظر أنت لنفسك، وكيف ننظر نحن لك!... كلما كنت بقربك أشعر أنني حرة بينما أنا بين حدودك، حينما أعلم أنني سأكون المرأة الوحيدة التي يفيض قلبك

بحمها أشعر... أنفي جوهرة مخبئة بين كيانك... ولا أريد شيئاً آخر... أقبل أن أكون سجيناً حينما أكون معك... أنت الشخص الذي أفخر أن أشبهه بالدي... تعلم ما الذي يعنيه ذلك".
تورد وجه تشارلز خجل مما قالته، لم يميز بين الواقع والخيال، لكن كل هذا كان محال قبل زمن... كيف للأقدار أن تقلب الموازين فتعطيك حتى تظن أنك في الفردوس وقبلها كما لو أن أذرع جهنم تحتضنك! ضحك بهدوء قبل أن يخفض رأسه المثقل بالهموم على كتفها، ضمته هي بين ذراعها ليرتاح قلبها أخيراً من نضال صبرٍ شاق. همس تشارلز له قائلاً: "أيمكن أن تبقى هنا الليلة؟".

- "بالتأكيد، سأبقى... سأبقى طوال الوقت بجوارك".

نام تشارلز على حجرها بينما ربتت على رأسه برفق وحنان، وطاب لها هذا اليوم أكثر من أي يومٍ آخر في حياتها.

الفصل الخامس والعشرون

لا يعلم حتى كم من الوقت مضى، كم يوماً وهو على حاله كاملت، كلما غفى كان يرى خيالات في منامه، دانييل يبتسم ويقف أعلى جذع شجرة يحته على الصعود. دانييل حينما يمشي باستقامة على حافة الجدار ويضحك غير مبالٍ بالسقوط، صوته المشبع بالمرح لم تستطع الحياة بقسوتها انتزاع رونق الجمال من عينيه اللؤلؤيتان ولا كسر أجنحته الصلبة... كان أكثر نشاطاً ودفناً من الصيف.

كلما غفى يبدأ شريط الذكريات الممتلئ يتبدل ويتحول إلى سلاسل تلتف بأشواك حادة حول رقبتة لتخنقه وتغرس الألم في قلبه. لذا أصبح يقظي ليله باكياً يذوق مرارة الندم في جوف سجنه، على السرير الصدئ، نور القمر يتسلل من فتحة النافذة الدائرية أعلى الجدار، يتسلط على بقعة واحدة في تلك الأرض الحجرية الباردة، وهو ملقئ فوق السرير كالجثة، حتى لو فتحت أبواب الزنانات جميعها في ساعة الحرية، فهو قد سجن روحه في زنزانة الندم والحسرة، ولا يمكن لأي يد بشرية مهما بلغة سلطتها أن تفتح اغفالها... قد أصدر حكمه على نفسه ورضي بذلك.

لم تعد لديه القوة لأجل البكاء حتى، كلما زاره دانييل في أحلامه سالت الدموع من حدود جفنيه بسلاسة كأنها دورة اعتيادية عليه القيام بها كل يوم حتى اصطبغت جفونه باللون أحمر داكن

"دانييل!" بحسرة وصوت مبحوح ضعيف نطق اسم شقيقه التوأم.

فتح مزلاج باب الزنزانة الحديد الصدئ ليصدر صريرا كرهياً مزعجاً أفسد عزلته، دلف مع الحارس ضوءاً يسير أنتشر في زوايا الزنزانة، ثم هتف الحارس بصوت غليظ بارد: "فرناند إيمانويل، لديك زائر!"

لم يبدئ أي ردة فعل مما جعل الحارس يزفر ساخطاً ويعيد قوله بصوت عالي: "فرناند إيمانويل، لديك زائر".

أيضاً كما هو قطعة من اللحم نزع عنها الروح ملقية فوق السرير. انتظر الحارس في مكانه مستاءً يخطط الأرض بجذائه بينما الهواء الذي يعبر عن سخطه من تباطئه في النهوض ينفذ من

أنفه مصدرًا صوت زفير مسموع كما لو كان ثور يكبح جماحه. وبعد ثلاثة دقائق من الصبر وفرناند يجبر جسده على الانصياع والهوض من السرير، وقف مترنحًا فاهتزت خصاله الشقراء الباهتة على وجهه الذي غمر بلحية طفيفة مهملة، بدا شاحبا وقد خسر وزنًا وضعف وجهه بسبب امتناعه عن الأكل!

أُخرج إلى رواق السجن وكم بغض نور المشاعل الملتهمبة بالنار، المعلقة على جدرانها الحجرية المتشققة. سار برفقة حارسين وكلتا يديه مكبلتين.

حالما وصلوا إلى حجرة المقابلات كانت متوسطة المساحة، وزعت عليها طاوالت عريضة خشبية وكراسي منضوبة إليها، كان المكان موحشًا كثيبا يبعث على الضيق، ثلاثة نوافذ يسطع من خلالها نور القمر والمصابيح معلقة على الجدران بين كل نافذة ونافذة تنير حيزًا بسيطًا من المكان.

كان هو جالسًا على طاولة في أقصى زاوية الحجرة، يضع كلتا يديه فوق الطاولة مترقبًا بصبر دخول أي شخص من ذلك المدخل المغلق ببوابة ذات قضبان حديدية كأنها قنطرة مجوفة مظلمة في قلب جبلٍ ضخيم، ومن خلفه على بعد عدة أمتار البوابة المخصص لدخول الزوار، كانت صغيرة لها قضبان حديدية مغلقة تقود إلى ممرٍ أخير يقف فيه حارسين.

بعد عدة دقائق سمع صوت صرير لسلاسل فرقع رأسه نحو البوابة، لاح التلهف بارقًا في عينيه الذهبيتين. رأى رفيقه مقيد اليدين، شعره غير مهذب قد طل قليلا وأصبح يخفي ملامحه الميتة كذلك عينيه أخمدتا بالتعاسة. قام الحارس بفتح البوابة الحديدية والآخر نزع عنه قيوده ثم ألقى أمره بصوت فاتر: "أدخل!".

فور أن حرك قدمه ملتفتًا لجهة البوابة أبصر الزائر فتجمد في مكانه وظل يحرق مجفلا به، تماما كالآخر صار الاثنان يحرقان في بعضهما وكلا الحارسان يراقبان هذا المشهد الصامت باستغراب.

استدار فان بشكل بسيط وحينما هم بأن يولي ظهره للزائر تمتم للحارس: "أرجعني إلى زنزانتى!" لكن صوت الآخر وانتفاضته المندفعة أوقفته: "انتظر فرناندا!"

لم يلتفت نحوه، شيء من المشاعر طفت على وجهه الجاف، صك على أسنانه ومقت هذه اللحظة لم يكن كارهاً لمجيئه هو فقط كان خجلًا من عار إثمه ولم يرغب في مواجهته، لازال

يتعافى من تلك الحقيقة ولكن رؤيته الآن زادت فجوت الجرح الذي بداخله، شد على قبضتي يديه بقوة وظل متصلبا يحدق بالأرض ويعرض عن النظر إليه. تهد الحارس ثم قال غير مكترث بهذا المشهد الدرامي الذي يكاد يبدأ: "لديكما ربع ساعة".

أوما الزائر متفهمًا فخرج الحارس مع زميله وأغلق البوابة.

لا صوت لمدة تزيد عن الخمس دقائق... الوضع كان فظيعةً للغاية، كل منهما يقف في مكانه بعيدًا عن الآخر وكأن هنالك حواجز عظيمة تمنعهما من الاقتراب. زفر فرناند ثم ابتلع ريقه وقرر دفن خجله وكبريائه لينظر نحوه سائلا: "ما الذي جاء بك إلى هنا؟ تشارلز".

- "أردت زيارتك. ذهبت لزيارة فالانتين ولكنها رفضت مقابلي".

أخفض تشارلز رأسه محبطًا وجاهد بما يملك حتى يتمكن من إيجاد طريقة للحديث معه. رمقه فرناند بطرف عينيه ولاحظ معاناته فابتسم وراح يتكلم بصوت متراخٍ نسبيًا أثناء توجيهه للنافذة القريبة من البوابة:

- "أرى أن الاقدار منحتك حياة جيدة، غرينو".

رفع بصره إليه ولم يعرف بماذا يجيب. رجع خطوة للوراء ثم جلس على الكرسي. بعد برهة من الزمن وبدون أن يكفر نطق قائلًا: "هل أنت بخير؟".

استضحك متعجبا أمر هذا السؤال، وهز رأسه ثم أجاب بنغمة هادئة هامسة: "لا أعرف، قتلت أخي وتسببت بموت ريتش وحكم على فيرا بالسجن لأمدٍ طويل لقد قتلها هي الأخرى" أعطى نظرة للصديق القديم وتبسم بأسى: "وحكم علي بالإعدام.. سؤالك غريبٌ يا غرينو".

شد تشارلز على يده اليسرى بيمينه وضغط عليها بقوة مستاء من نفسه لعجزه عن إيجاد الكلمات المناسبة.

حزر نفسا محمودًا ثم رفع بصره إليه سائلا: "لي، ماذا حدث معها؟ هل نجت؟".

- "أجل" رد عليه باقتضاب أثناء ازاحت بصره عنه وكأنه يتجنب الخوض في تفاصيل تخص ماري.

- "أين هي؟ أخبرني دعني أساعدها... أقصد.. إنها... لي هـ هل كانت... مشتركة معكم؟" قضم على شفته السفلى رغب في شتم نفسه على هذا السؤال، لا يعلم ما الذي يحدث له بالضبط ولكنه يريد أن يكون حذرًا في محادثته وفي نفس الوقت لا يدري كيف يتجنب تذكيره بما

اقترفوه من ذنب. شرد فرناند لمدة طويلة يحدق من النافذة، حتى قال: "لا تقلق، ماري بخير. لكن أنت ونحن لم نعد على ذات الطريق يا غرينو... لا يمكنك أن تكون قريباً من ماري الآن... إن علمت بكل ما حصل سوف تنهار".

اندفع سائلاً بحيرة: "ماذا تقصد إن كانت حية أخبرني أين هي دعني أساعدها؟". رمقه بنظرة جادة وازدجره بصوت مكبوت: "ماري لا تعرف شيئاً عن الجريمة التي قمنا بها... لذا يفضل أن تبقى بعيداً عنها حتى لا تشوه صورة ريتشارد أمامها وأمام ابنته". اتسعت جفون تشارلز دهشة حينما استوعب أن ماري وريتشارد قد تزوجا ولديهما ابنة أيضاً، ظل جافلاً فاغراً يحدق بفرناند.

تابع الآخر حديثه: "لقد هرب إلياس وكما يبدو رجال الشرطة يواجهون وقتاً عصيباً في العثور عليه لدرجة أنهم تنازلوا وجاؤوا إلي ... ظنوا بأنني سوف أفيدهم بشيء" مطى بسمه هازئة وهو يهز منكبيه ثم أضاف: "فيرا مستعدة لقطع لسانها على أن تبوح بحرفٍ واحد. استمع إلي جيداً يا تشارلز، ماري هي الوحيدة التي لم تلوث روحها.. هي الوحيدة التي تستحق حياة جيدة وما دام أن إلياس قد هرب فلا مجال للإمساك به أبداً. لا تقلق سوف يعتني بماري. أما إن ظهرت أنت لها الآن فسوف تثير تساؤلات كثيرة بالنسبة لها. أريدك أن تفهم... ريتشارد... صمت منكساً رأسه وبعد أن ابتلع مرارة الندم والمقت الشديدان اللذان يكنهما لنفسه السوداء التي حرضته لاقتراف كل تلك الأفعال. تابع في حديثه بصوت فاترٍ مرهق: "ريتشارد كان شخصاً جيداً... أنا من لوته... لذا رجاء يا تشارلز، الصورة التي تتذكرها ماري وابنتها عنه لا تشوها".

تأمل تشارلز عينيه الرماديتين ورأى رجاء خالصاً فيهما، فأخفض رأسه وظل صامتاً. سحب فرناند نفساً عميقاً أتبع بزفرة يدل على استسلامه التام، هذوؤه رغم مجريات الأمور التي تحدث من حوله كانت عجيبة لقد لاح في سكينه محيرة غير مبالي بمسألة اقتراب يوم إعدامه، أو هكذا يبدو لمن يراه. نظر لـتشارلز ثم استطرد: "حسناً، يفضل ألا ترني وجهك مرة ثانية... أوه نسيت، ليس هناك مرة ثانية!" رفع راحة يمينه وضم أصابعه الأربعة، تركباً إبهامه مرتفعاً يهزه كانت حركة متعارفة بينهم في الصغر وتلك البسمة الصادقة التي زينة وجهه الشاحب كانت جميلة تُذكر بالطفل البريء الذي كان عليه في ويومٍ ما، نطق بصوت مرح: "مع السلامة غرينو".

حرك قدميه في اتجاه البوابة مضيئاً: "سعيد لأنك حي وتحيا بشكل جيد. انس كل ما حصل وتابع حياتك كما كنت تفعل... تذكر ذلك نحن أموات في الماضي والحاضر".

لم يتزحزح من مكانه كان يجالده نفسه لإيجاد أي شيء... طريقة ما لتصحيح هذا المسار اللعين! اعتصر قبضتيه فوق فخذه بقوة حتى يتحمل مشاعر الغضب التي بداخله، ولكن مهم فكر يبقى الواقع متجمداً بأب التغيير... فجأة انتفض من الكرسي ولحق به ثم بعد تردد مزعج جدا وهو اجس ترفض ازاحت اثقالتها عن صدره، نادى اسمه: "فرناندا!"

لم يستدر وظل ساكنا في محله يحدق بعيون خاوية في الأرض، تغضن وجهه بشكل طفيف لقد أشفق عليه أكثر من إشفاقه على نفسه. بعد ثواني معدودة من الصمت التفت نحوه وقال بصوت يغلفه البرود: "تشارلز، بعد يومين سوف أشنق... لا تأتي إلى هنا مجدداً لن تتمكن من فعل شيء. هل تفهم".

- "أنا... أنا أسف!"

- "على ماذا؟"

- "لا لقد ... " لم يقوى على إكمال جملته بالأحرى هو لا يدري لماذا يعتذر، ارتجف فكوه لشدة صكه على أسنان، تضحج وجهه بحمرة قانية كان متحسراً جداً من هذا المصير... وأكثر من أي شيء كان غاضباً من نفسه فقال ولسعات الندم تحرق قلبه:

- "لا أدري... لا أدري! ليتني لم أعلم بشيء..." تقطع صوته في رغبة للبكاء.

تهمد فرناندا منهكاً من هذه المحادثة الشاقة وأخفض منكبیه، ثم قال يواسيه: "أتذكر عادتك القديمة... كنت تفضحننا عندما نفعل شيئاً خاطئاً ثم نحبس في العلية بسببك. لذا لا تقلق لست المخطئ لقد مزقت أجنحة الكاردينال بيدي... أستحق هذا! لم تفعل شيء عدى أنك أظهرت الحقيقة كما تفعل دائماً".

جمع شتاته المنكسر وصنع بسمه مجروحة على ملامحه، وما أن اشاح بصره عن رفيقه انتزعت تلك البسة وصار وجهها شاحباً بائساً، استدار وركل إحدى قضبان البوابة بقدمه مرتين أثناء قوله بلهجة ساخرة: "على الأقل سوف اتحرر من هذا العالم العفن".

صح تشارلز ممتعضاً: "لماذا أنت هكذا... سوف يتم شنقك!"

التفت نصف التفاتة نحوه وقد قطب حاجبيه في عبوس شديد لقد كان مقهورًا أكثر من أي أحد. صرخ بصوت حاد منكسر: "وهل تحسبني سعيدًا! هذا ما كتب لي... لقد قتلت أخي... استحق أن اخلد في نيران جهنم!... إذا كنت أريد شيئًا فكل ما أريده هو الغفران منه" تحشج صوته ولاح جريح الأوتار متحسرًا للغابة ويكاد يوشك على الانهيار باكيا: "أرجو أن أقابله في الفردوس ولكنني أعلم جيدًا، شيطان مثلي لا يدوس ذلك المكان! أرجو لك حظًا أوفر في هذا العالم يا تشارلز". رسم آخر بسمه مودعة على ملامحه. ثم خرج برفقة الحارسين ليتركه وحيدًا في تلك الظلمة الموحشة. هذه الزيارة المؤلمة كانت آخر زيارة قام بها تشارلز غرنالد لصديقه القديم، الذي قتل شقيقه بدون أن يعلم.

وبالنسبة للكونتيسة أن فقدت بكت حتى أغشيت أجفانها بحمرة قانية، أو يفعل المهدئات التي تحقن بها، أكثر من مرة ترجت إريك حتى يأخذها لزيارة عشيقها كان يأب تنفيذ رغبتها ليس تعاليا عليها أو لغاية أنانية في داخله بل خوفًا من أن تزداد حالتها سواء خاصة بعد أن رفض فان هو بحد ذاته أن يراها. تجلس فوق أريكة ضخمة كالعصفورة المنكسرة داخل غرفتها بقرب النافذة ذابلة تتطلع بعينين خاملتين قد هربت السعادة منهما، تبدو كما لو أنها تنتظر مجيئه عشيقها من تلك النافذة، ليكسر الأفقاص المغلقة ويحرر قلبها من عشقه المسموم.

بعد يومين أعدت منصة الإعدام في ساحة (غوست مايل) منصة كبيرة من الخشب، وحبل المشنقة يتدلى من العريضة، وحول المنصة الكثير من الجنود رابضين في حراسة يقظة لمنعي أية حالة هيجان، فحالما نشر خبر سقوط ليوناردو براين المكفى بفان، خرجت جموعٌ من الناس مستنكرين لحكم الإعدام الذي أقر عليه، فما يعرفونه عنه أنه إنسان صالح ساعد الكثيرين. وقسمٌ آخر من الناس متجمهرين بداعي الفضول السخيف يرغبون في معرفة الشخص الذي سوف يحال إلى العدم، ينظرون بعيون يقظة مترقبة والثرثرة والتكهنات السطحية تنتشر كمنار في الهشيم. بالنسبة له سماع اشاعتهم كفيلا بإيقاظ نيران الجحيم في داخله، كان يرتدي رداءً أحمر داكن ويغطي رأسه بقلنسوة الرداء الكبيرة تكاد تحجب وجهه ومعه شخصين يلبسان ذات الرداء، انسلوا بين الجمهور وحرصوا ألا يقتربوا كثير من المنصة. رأى جنديان يمسكان

ذلك الشاب الهزيل، خصلات شعره تترنج مع كل خطوة يخطوها، لم يستطع تبين ملامحه بسبب بعده عنه. أمسك طرف القلنسوة ورفعها بشكلٍ يسير حتى يرى آخر طيفٍ من نار الكاردينال يقبل على الانخمد وهو يعرض على شفته السفلى بقوة حتى سالت دمًا وقبض على راحتٍ يده، همس من بين أنفاسه الثائرة كالجسم الحارقة: "فان!".

وقف زعيم الكاردينالات في أعلى تلك المنصة لم يبيدي أية آثار للذعر على ملامحه، هادئ بطريقة تبعث رهبة يحرق في وجوه الناس، كلتا يديه صفدتا حتى ورغم أن ما بينه وبين الموت إلا بضعة ثواني كما لو أن كل من حوله يخشونه. من بين الحضور كان لاوند هوانغ. بدا مصعوقًا فور أن قرأ الخبر في الصحف، كان برفقة بعضٍ من جماعته يرتدون لباسًا أسود. تمت لاوند كالمأخوذ: "يا إلهي! فان... الخبر كان حقيقة!... ما الذي فعله هذا الأحمق حتى تتمكن الشرطة منه؟".

تقدم الجلاد صاحب الجسد العريض الضخم، ذو بطنٍ بارزة مملوءة بالشحم، دائريّ الوجه وعينيه صغيرتين زيادة على كون انفه مدبب. أمسك حبل المشنقة المتين ثم لفه حول رقبة فرناند وتأكد من عقدها بشكل جيد، وحينما هم بوضع كيس الحصير على رأسه قال له فرناند ساخرًا: "لا تقلق حتى إن خرجت روجي سأظل وسيما!".

تعجب الجلاد من جراته وقدرته على إلقاء النكات وهو في هذه المرحلة حيث يفترض أن يكون مرتعبًا من ألم الموت!... وفي الحقيقة، فإن فرناند كان خائفًا بالفعل لكن كبرائه أكثر عنادًا من أن يظهر ذلك.

تمتم الجلاد بصوته الغليظ الحاد: "أتلُ صلواتك الأخيرة!".

لم يحرك شفثيه ظل يجوب بعينيه في وجوه أولئك العامة حتى تمكن من رصد ذلك الرداء الأحمر الداكن، ضيق عينيه في محاولة لرؤية ملامح من يرتديها وعندما برز شق وجهه الأيمن من تحت القلنسوة تعرف على هويته فتمتم بصوت غير مسموع "إليا" ثم ابتسم بارتياح شديد، حرك شفثيه مطلقًا صوتا قوي أقرب إلى صيحة طائر، كانت رسالة مشفرة لم يفهمها إلى أصحاب الرداء الأحمر، كانوا متخفين أغلبهم داخل الأتفة وبعضٌ منهم تجرأ واندس بين الجمهور ليكونوا قريبين من الشعلة قبل أن تنطفئ... ذلك الصوت أشعل في داخلهم حرقه تجبرهم على تحريك سيقانهم وكان أولهم إلياس لكن من كان عن يمينه أمسك بساعده وردعه

حينما رأى أن عدد الجنود المدججين بالسلاح كبير بالمقارنة بهم وكما أنهم بدون أسلحة تارجح الكفة لصالحهم...

لكن من تجرؤوا غير مكترئين بأولئك الجنود ثاروا ممتعضين وبدأوا يصرخون وهم يزيلون القلنسوة الحمراء عن رؤوسهم

"إنه لا يستحق هذا الحكم الجائر! هذا غير عادل!... أوقفوا هذا الحكم الظالم أيها المجرمين!... ليون! ليون!"

لم تتوقف الهتافات حتى رغم الترهيب الذي أصدرته بنادق الجنود الموجهة أمام وجوه المعارضين. استاء المسؤول عن الإعدام من هذا التمرد فطقطع بلسانه ثم صعد على الدرجات وهو يحمل وثيقة تصرح بالإعدام. وقف في واجهة المنصة وفتح الوثيقة ليبدأ في قراءتها بصوتٍ جهوريّ تحت السماء ملبدة وصوت الطيور المهاجرة يعبق في رحب الغيوم:

- "اليوم الثالث والعشرين من فبراير، المذنب فرناند إيمانويل هاربر، تم إصدار قرار الحكم عليه بالموت شقناً حتى الموت من قبل المحكمة العليا، جزاءً على أفعاله الغير الخارقة للقانون، وسوف تعدد الجرائم التي اقترفها على عامة الشعب حتى يصبح عبرة لكل من تصوغ له نفسه خرق القانون. كان المذنب مسؤولاً عن حادثة التعدي وقطع يدي البارون فيكتور هوانس بالإضافة إلى سرقة مجوهرات زوجته، التعدي على ممتلكات العامة والحكومية، سرقة أودية تابعة ملكية مشفى هرينند الملكي والتجارة بها بدون الحصول على أية تصريحات، نشر أفكار معادية للمجتمع، وآخرها تدبير مؤامرة لاغتيال الكونت أوليغرس ولم تكن جريمة قتل الكونت هي الوحيدة فقد تم إزهاق أرواح عددٍ من عامة الشعب. وعليه فإن قرار المحكمة سوف ينفذ بإزال أقصى أنواع العقوبات للردع"

اختتم حديثه بنظرة جادة نحو فرناند أثناء لفه للوثيقة، وسأله بحدة: "هل تنكر هذه الجرائم؟".

رفع حاجبيه واجاب ببسمة واثقة: "لا!".

- "إذن كن نادماً وكفر عن خطاياك بالموت!"

ضحك فرناند حتى اهتز منكبيه ثم قال له بعدم اكتراث: "ومن قال لك أنني نادم. ولكن، هناك شيء واحد فقط أندم عليه بصدق، أما الباقي لست نادماً عليه ولو تركت حباً سوف أفعل أكثر من ذلك"

ورشقه المسؤول بنظرة حانقة للغاية ثم أشار للجلاد بالبدء في التنفيذ. في تلك اللحظة كان تشارلز حاضراً أو بالأحرى وصل في اللحظة الأخيرة فبعد نزح طويل مع نفسه بين الحضور أو البقاء بعيداً عن هذه اللحظة المؤلمة، قرر فعل ما تمليه عليه رغبته وتشجع.



ركض على طول الشارع حتى يصل إلى الساحة، دخل بين الجمهور وجاهد لشق طريقه بينهم حتى أنه اصطدم بإلياس دون أن يشعر، وحالما تعرف إلياس على هيئته اتسعت عيناه وكل عضلات وجهه ارتخت في شروء مريب فاغر الفاه.

وصل تشارلز إلى مقدمة الصفوف حينما وضع الجلاد يده على المقبض الخشبي، أخذ فرناند نفساً عميقاً وتطلع للسما وكان آخر مشهدٍ راها هي مجموعة من الطيور تحلق في سربٍ جميل أسر عينيه فهمس برجاءٍ خالص "دان سامحني!" سحب الجلاد المقبض لتفتح فتحت أسفل قدم فرناند، لم يكن هناك شيء تحته والحبل التف بشكل مؤلمٍ بشع حول رقبته حتى أحس

أنه تتهشم ببطء أحمر وجهه وانتفخت الأوداج الخضراء حول صدغه الأيسر، زاغ بؤبؤ عينيه حتى أوشكتنا على الاختفاء صوت غرغرته يضعف تدريجياً. في نفس اللحظة تم إيقاف تشارلز من قبل الجنود حتى لا يقترب من المنصة، لم يكن هناك حاجة لإمساكه حتى فقد تجمد بين أيديهم فجراً مجفلاً من المشهد وكلتا عينيه فتحتا على مصرعهما... لم يتمكن من تحمل ذلك فسقط على ركبتيه وأخفض رأسه، على عكس إلياس ظل يراقب بحرص لثلا ينس هذا المشهد الروح وهي تخرج ببطء من جسد فان المتشنج إلى أن هدأ وارتخ جسده خاملاً بلا أية حركة.

بعد عدة دقائق أنزلت جثته وتم تحميلها في عربة مكشوفة، تقدم تشارلز مهزوراً شاحب الوجه يحاول منع نفسه من الانهيار... لا بد فإنها المرة الثالثة التي يرى فيها شخصاً قريباً إليه يموت أمام عينيه، نظر إلى وجه فرناند المصفر وأثار الشنق كحلقة حمراء حول رقبته، شفتيه جافين يميلان للزرقة، الحياة غادرة جسده بالكامل!

- "سوف أخذ جثمانه!" تمتم تشارلز لأحد الجنود.

في نفس اللحظة حينما كان الناس ينفضون من الساحة ظل إلياس وقفاً في مكانه، ورغم إلحاح رفيقه ومطالبته بأن يتحرك حيث قال له:

- "إلياً، يجب أن نذهب قد يلاحظك أحد الجنود؟"

- "لن اتزحج جاين! سوف أخذ جثمان فان" قالها بإصرارٍ قاطع جعل جاين يذهل ويصبح بنبرة مكتومة عليه: "هل فقدت عقلك! كيف سوف تأخذ جثمانه!"

لم يجب، ظل فقط يحدق بتلك العربة، ثم مال بصره بحقدٍ عظيمٍ مرعب نحو تشارلز، فلا أحد يرى كما يرى هو، بالنسبة لإلياس، فرناند لم يكن مجرد زعيم بل رمزاً يجب تقديسه وارجاع جثمانه إلى اتباعه!

بعد أربعة أيام أنهيت عملية التحضير التامة لأجل دفن فرناند وقد تكفل تشارلز بكل شيءٍ حرفياً ولم يبالي بانتقادات الناس أو حتى الإشاعات التي طفت على سطح سمعته كونه عازف بيانو معروف فأى صلة تجمعهم بمجرم حكم عليه بالإعدام! حتى أنه راسل الكونت إريك أوليغرس وابلغه عن رغبته في دفن فرناند بجوار شقيقه، لم يعطي الكونت موافقته السريعة

خيال هذا الطلب، ولاح مترددا وهو يقرأ رسالة تشارلز؛ لم تكن أسباب اعتراضه لها أية علاقة بالسمعة إنما أحس بزعة كره اتجاه فرناند.

طوى الورقة ثم أخذ نفسا عميقا خلال نهوضه من الأريكة واتجه نحو نافذة كبيرة عن يمين مكتبه يتأمل كئيبان الغيوم الرمادية الكثيبة التي تأب الانزياح عن عرش السماء، ثم تهد بعشق متحسرا بشدة حتى قال بهمسٍ محتارٍ: "كيف أحقد على شخصٍ قتل شقيقه دون أن يعلم؟" أخفض بصره إلى موضع حذائيه وكلتا يديه داخل جيب بنطاله وهالة من الندم حامت حوله بشكل تعيس وهو يردد كلماته:

" كلما أتذكر نفسي في الماضي أمقتها أكثر وأكثر! ليتني لم أترك دانييل! لو كنت أكثر تعقلاً ربما لما حدث كل هذا!".

في صباح يوم السادس والعشرون من فبراير بدأت مراسم دفن فرناند إيماويل هاربر بجوار شقيقه التوأم، حضر المراسم كل من تشارلز غرنالد وإريك أوليغرس وزوجته، بالإضافة إلى المفتش جوناثان غريس وعائلته... اللون الأسود حيك في ملابسهم وتفاصيل الكآبة كانت متقنة جدا في هذا الجو المنقبض والسماء المغطاة بغيوم كما لو أنه رداء يغطي نور الشمس، والنسيم البارد يلفح وجههم. أثناء قرأت القس بقرب التابوت الذي وضع فيه جثمان فرناند، كان تشارلز يتأمل ملامحه المحنطة وقد ألبس بدلة سوداء، مقاس التابوت يلائمه... أحس تشارلز أن مشهد موت دانييل يكرر مرتين أمامه، ملامح فرناند شاحبة مختومة بالصمت الأبدي كما كانت ملامح شقيقه.

تمت السيدة غريس لزوجها الواقف بجوارها، وفي بحات صوتها أسي حزين: "تشارلز! اه قلبي يؤلمني عليه!".

تهد المفتش ولطخة محمرة على انفه بسبب برودة الجو وقد كان كما حال الرجال المتواجدين مدثر بمعطف أسود طويل ووشاحٍ من الصوف الثقيل. همس متعجباً: "لم يكتب لهما أن يلتقيا في الدنيا... وها هما يجتمعان الآن ليدفن الأخ بجوار أخيه، أي دنيا هذه!".

بعد عدة دقائق، انتهى القس من تلاوة الصلوات وختم بصوت عميق راج: "فلندعو الرب جميعا أن تحصل روحه على المغفرة والرحمة وتفتح له أبواب السماوات. آمين".

ردد الجميع متمنين ذلك بصدق. أغلق التابوت ثم أنزل بحذر إلى القبر من قبل عاملي الكنيسة، وتشارلز يراقب بصمت تعيس، ثم كان أول من ألقى وردة بيضاء لتسقط على تابوته وتبقى رفيقة له حتى الزوال، بعد أن فعل الجميع ذلك أيضا أخذ المجرفة وغرف من التراب ليبدأ في طمر التابوت شعور الشفقة الذي لازم إريك ازعجه بشدة لقد كره مراقبة هذه اللحظة الأخيرة وأكثر ما أزمه أنه يقف بقرب قبر دانييل أخذ نفساً عميقاً لهدأ الغصة التي في حلقه وحينما لاحظت راشيل ذلك أمسك يده لتدعمه.

ظل تشارلز مستمر في دفن يلهث حتى أن انفاسه تشكلت على هيئة دخان تفر من بين شفثيه المحمران، أوقفه المفتش جون حينما أحس بأنه شارد الذهن مستمرا في هذا الفعل رغم انهكاه وكلتا يديه متشبثتان بعصى المجرفة، كان يعرف جيدا أن تشارلز يكافح ليبقى صامدا في هذه اللحظة. ربت المفتش على كتفه وحملها عنه ليكمل عنه وظل عدة دقائق ثم قام إريك مع العاملين بإكمال الدفن.

بعد ساعة، غادر الجميع لكن تشارلز ظل جالسان أمام القبرين يحرق فيهما، عن اليمين شاهدة قبر دانييل، والثانية كانت مشابهة لها في كل تفاصيلها ما عدى شيء واحد .. نقش مزخرف فوق اسم فرناند حمل شكل طائر...

الرياح تشكل زوبعات صغيرة بأوراق الشجرة المتساقطة في أرجاء الحديقة والليل اسدل ستائره، ما زال كما هو لا يعلم هل هو حي أم ميت يتأمل في القبرين. بعد دقائق نهض أخيراً بتثاقل شديد وألقى آخر نظرة على القبرين ليغادر برأس مطأطأ برفقة حزنه.

حالما انتصف الليل ونامت العيون، خرجت جماعة مغلفين برداء محمر داكن حوال عشرة أفراد ينسلون من بين الاشجار المحيطة بالجانب الغربي من الكنيسة حيث المقابر. توقفوا على شكل دائرة حول قبر فرناند، ألقى من لاج كقائد لهذه الجماعة نظرة مريبة إلى قبر دانييل وتمتم بصوت خفيض ينطق الحروف المنقوشة على الشاهدة: "الكونت دانييل أوليغرس"

همس جاين محتاراً: "لما تم دفنه بجوار هذا الرجل؟"

- "لا أعرف."

- "إلياس، هل أنت واثق من فعل ذلك؟"

"لو لم أكن واثق لما رأيتني هنا. سنخرج التابوت... على الكاردينال أن يعود إلى جماعته!"

وكما أصبح فرناند جسدًا بلا روح، كانت هي كذلك، مرمية فوق سريرها والكأبة تغطيها، منذ فترة وهي تنطق باسم واحد_ليوناردو_ كأنها مسحورة بعشقي أسود يستنزف الحياة من كيائها رويدًا، رويدًا. ألقت دورثي نظرة مشفقة عليها قبل أن تهض وتغادر من الغرفة. أما داخل غرفة إريك. صعدت راشيل إلى السرير لتأخذ مضجعتها بجواره. لاحت شاردة وهي تقول: "كان يومًا حزينًا جدًّا!"
أومًا متفقدًا.

نظرت له وأضافت بهمس أفسد ملامحها الجميلة: "إريك، أن، إن حالتها تزداد سوءًا، الأدوية لم تعد تفيد معها. لم أعد أعرف كيف أتصرف".
تهمد إريك بينما كانت عينيه تطالعان ملف مشحن بالمستندات: "لا يمكننا فعل شيءٍ لها. الوقت كفيلاً بذلك".

أومات متفقة معه. حينما سكن القصر في ظلمة الليل وأخذ الجميع مضاجعهم.
فتحت أن كلتا عينيها، قلبها لم ينم يوما واحد ما زال يرثي ويبكي حزنًا على عشيقها، لقد رحل الآن فما لزم الحياة من بعده؟ كان تفكيرًا سوداويًا ظل يراودها حتى تمكن من تغيب منافذ الرشد إلى عقلها. قادتها قدميها لاتجاه الشرفة، فتحت بابها، وخرجت إلى ظلمة الليل الباردة، وضعت يديها المرتعشتان على حافة الشرفة ثم وقفت على الحاجز بقدمين عاريتين وأنفاس مضطربة. أغمضت عينيها وأخذت نفسًا عميقًا... ثم رمت نفسها من الشرفة وعلى وجهها ابتسامة جميلة كأنما أبواب الجنة قد فتحت لها... لتكتب أن نهاية لمعاناتها.
يمكنك أن تعتاد على الألم أو تحاربه أو تتخطاه، لا شيء يتغير إن لم تتغير من داخلك، هذه قاعدة الكون، ويبقى خيار التغيير مرهون فيمن يريد ويسعى لذلك. لكن، هنالك أرواح شاذة تصل لقاع الألم فلا ترى شيئًا سوى ظلمة معاناتها وتأبى تغير نظرتها... هؤلاء لا يرون الخلاص إلا بالموت.

عند شروق الشمس وبروز خط الغسق الأحمر نهض عمال الكنيسة ليؤدوا أعمالهم المعتادة. خرج القس مرتديّ عباةته المبعجة البيضاء، يحمل كتابه بيمينه فقد وكل نفسه بأن يقرأ على أرواح الموتى كل يوم تتنفس فيه الحياة من جديد، حالما وصل إلى المقابر انتبه على أحد القبور الذي لاح على وضعٍ غير ملائم وحين اقتراه تبين له أنه القبر الخاص بفرناند، جزع الرجل لرؤيته مكشوفًا وقد تم اخراج التابوت منه فهتف باستنكار شديد فورًا: "أي روح سوداء اقترفت هذا الفعل الشنع!".

الساعة التاسعة إلا ربع صباحًا. داخل كوخ جبلي مستترٍ بالألاف من أشجار الصنوبر يقع في برتسلي خارج حدود العاصمة. خمسة ممن يرتدون الرداء الأحمر رايضين في حراسة الكوخ. وعند ممر خشبي له نافذتين، جلس جاين على الجانب الأيمن للباب ولا يزال مدثرًا بذلك الرداء الأحمر الداكن يمد كلتا ساقيه في وهن ويرجع رأسه للحائط خلفه يغمضُ عينيه، ومعه شايبين واحدٌ يقف عند نهاية الممر يترقب حضور أحدهم، والآخر يقف عند النافذة. قلنسوة الرداء تغطي وجهه الأسمر القمحي، في عينيه خمولٌ غامضٌ فزحيتيه تشربتا بضياء الشمس تميلان للون البلوط، وقد كان المدعو إليوت. أما بين زوايا الغرفة المغلقة فقد قعد إلياس على كرسي بجوار جثمان فرناند يضع رأسه على ساعديه فوق السرير يبدو نائمًا في سلام تام بجواره. وعلى السرير الآخر جثمان ريتشارد ستوارت.

تسرب من الوقت نصف ساعة في خلالها وصل الشخص المرتقب بسيارة سوداء وقف عند مدخل الكوخ ثم ترجل ومعه ثلاثة رجال. استقبله أحد الرجال وقاده للداخل. صوت كعب حذائه الذي يرتطم بالأرضية الخشبية له وقعٌ ملفت، خطوات متقاربة لها وزنٌ ثقيل فلم يكن مشيه صحيحًا لميله إلى العرج وتأخر ساقه اليمنى عن اليسرى فقد كان يتكأ على عكازه أثناء سيره محدثًا ثقلًا مهيبًا، لون بذلته بنية مخططة، يرتدي قميصًا أسود وفوقه معطفٌ طويل يصل إلى ركبتيه بلونٍ ترابي ويسقط وشاحًا على كتفيه. حالما عبر إلى الممر المشيع بأشعة الشمس برقت خصلاته السوداء ومالت للزرقة الداكنة، بعض الخصال البيضاء اندست بين بحر السواد المسترسل على رأسه، لحية كثيفة مهذبة كما لو أنها لبدة أسد تكاد تخفي نصف وجهه مختلطة باللون الأسود والأبيض... ذو عينين مزرقتين باهتتين وهناك جرحٌ غائر يمتد من

جبينه نزولاً إلى عينيه اليسرى. وقف في نهاية الممرسأل الشاب الذي يقف أمامه بصوت فاتر لكنه من القوة والعمق ما يكفي ليسمعه كل الموجودين: "أين هو؟".

أشار الشاب نحو جاين أثناء تقدمه، ثم ما لبث أن نده عليه قائلاً: "جاين، لقد وصل هيروسك".

نهض الأخير بتكلف ولم يقوى على رفع بصره ليقابل خاصتي المدعو هيروسك. تكلم ورأسه منكس: "إنه في الداخل!".

وقف الرجل أمام الباب ثانيتين يتأمله شاردًا، أمسك مقبض الباب بيساره ليفتحه، دلف بعرج خفيف ليصدر ثلاثة أصوات صوت قدميه وصوت العكاز الخفيف. ما أن دلف ورأى ذلك المشهد المجنون، وقف مجفلاً مشدوهاً يحاول استيعاب ما يرى... دقق في ملامح ريتشارد وكان واضحًا لأي عين أنها جثة شاحبة جافة من النضارة. تقدم بصع خطوات أخرى ليضع يساره على كتف النائم ففتح ذلك عينيه مباشرة ثم نظر للشخص الواقف بقربه، جلس باستقامة وبدا يقظًا كأنه لم يكن نائمًا أو أن حواسه بقيت حارسة لأي حركة من حوله.

تأمله هيروسك لبعض الوقت مشدوها، وقف باعتدال وأعاد النظر لوجه فرناند ثم نظر لإلياس وراح يمطره بأسئلته التي توضح احتياجاته: "ما الذي حدث؟ كيف مات فرناند؟" اتبع وهو يبصر وجه ريتش وقد تقارب حاجبيه باستياء لهذا المشهد: "أخبرني أي كارثة اقترفت... ما الذي حصل؟ كيف يمكن أن يسقط فرناند وريتشارد معاً؟"

- "خائن!" متمم إلياس بتلك الكلمة وهو يحضر ملامح تشارلز في ذاكرته وغلٌ مربع يفوح من بين شفثيه حيث أضاف قائلاً: "خائن! لقد تمت خيانة الكاردينال يا ليوناردو".

- "من الخائن؟". تغضن جبينه فبرزت عدة خطوط عريضة كتجاعيد على امتداده. تطلع نحوه ثم بعد صمت قصير سأله وفي عينيه هدوءٌ مرعب: "هل سوف تنتقم لفان وريتش يا أخي إن قلت لك من هو الخائن؟".

- "سأحرقه حيًّا!".

تبسم برضى تام ثم نظر لفان مبتسمًا وقال: "جيد، ذلك الشخص خان أصدقائه يجب أن يعاني أشد الآلام قبل أن يحرق!".

أبلغت الشرطة بفقدان جثمان فرناند هاربر. وفي نفس اليوم مساءً، أبلغت الشرطة أيضا بفقدان جثمان ريتشارد ستيوارت من مقبرة السلام.

يتبع...

الفهرس

٧ الإهداء
٨ الفصل الأول
١٧ الفصل الثاني
٣٢ الفصل الثالث
٤٣ الفصل الرابع
٥٦ الفصل الخامس
٦٥ الفصل السادس
٧٠ الفصل السابع
٨٠ الفصل الثامن
٩١ الفصل التاسع
١١٨ الفصل العاشر
١٣٢ الفصل الحادي عشر
١٣٨ الفصل الثاني عشر
١٤٣ الفصل الثالث عشر
١٥٤ الفصل الرابع عشر
١٦٨ الفصل الخامس عشر
١٨٥ الفصل السادس عشر
١٩٤ الفصل السابع عشر

٢٠٢	الفصل الثامن عشر
٢١١	الفصل التاسع عشر
٢٢٣	الفصل العشرون
٢٤٦	الفصل الحادي والعشرون
٢٥٩	الفصل الثاني والعشرون
٢٧٨	الفصل الثالث والعشرون
٢٩٤	الفصل الرابع والعشرون
٣١٠	الفصل الخامس والعشرون
٣٢٦	الفهرس

حقوق النشر والتوزيع محفوظة

ببلومانيا للنشر والتوزيع

